

قصص

الأمير مرزبان على لسان الحيوان

تأليف / مرزبان بن رستم بن شروين

ترجمة / يوسف عبد الفتاح فرج

المشروع القومي للترجمة

212



المشروع القومي للترجمة

قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان

تأليف

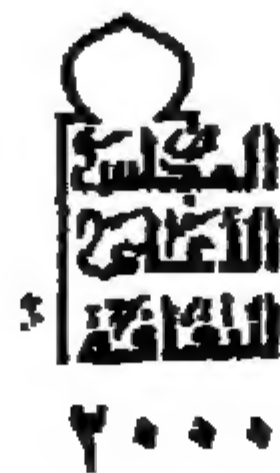
مرزبان بن رستم بن شروين

ترجمة

يوسف عبد الفتاح فرج

مراجعة وتقديم

محمد علاء الدين منصور



٢٠٠٠

هذه ترجمة عن الفارسية لكتاب :

مرزبان نامه

ل: مرزبان بن رستم بن شروين

تصدير

من كتب النصيحة والحكمة التي ألفت على هدى من الكتاب المشهور (كلية ودمنة) وعلى غرار كتاب (مرزبان نامه) من تواليف الأمير الطبري مرزبان بن رستم بن شروين من أبناء أوائل القرن الثالث الهجري غالباً وأحد ملوك طبرستان من آل باوند ، أنشأ هذا المؤلف فريدته العذراء بلغته الطبرية ، وظلت في أثمانها الطبرية وراء ستور النسيان أربعمائة عام ونيف حتى عادت على يد المنشئ البار والكاتب البليغ سعد الدين الوراويني شابه في أوائل القرن السابع الهجري . والوراويني من فضلاء العراق العجمي وينتسب إلى قرية وراوى وهي بلد صغير في جبال آذربايجان بين أردبيل وتبريز ، ويستنبط من مقدمة الكتاب وخاتمته أنه كان من خاصة الوزير أبي القاسم ربيب الدين هارون بن علي وكان وزيراً للأتابك أزيك بن محمد بن إيلدكز أحد أتابكة آذربايجان والذي وليها بين عامي (٦٠٧ و ٦٢٢) من الهجرة (١٢١٠ ، ١٢٢٥ م) . وقد سبق محمد بن غازي الملطي ، من أهل ملطية إحدى بلاد آسيا الصغرى وتقع شمالي حلب وجنوب سيواس ، صاحبنا الوراويني في نقل مرزبان نامه إلى الفارسية ، وكان الملطي وزيراً لسليمان شاه بن قلج أرسلان بن مسعود من ملوك سلاجقة الروم في أواخر القرن السادس الهجري ، وأتم ترجمته عام ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م وأسمائها (روضة العقول) بيد أن (روضة العقول) - بقول محمد بن عبد الوهاب القزويني مصحح مرزبان نامه - يختلف عن مرزبان نامه اختلافاً كبيراً في عدد أبوابه وترتيب حكاياته ومن حيث الزيادة والنقصان وهناك حكايات كثيرة في روضة العقول لم ترد في مرزبان نامه . ويبلغ روضة العقول ضعف مرزبان نامه في حجمه . مع

هذا فإن مرزبان نامه . كان ما أثره الناقلون إلى التركية والعربية ، إذ ترجم إلى التركية أولاً ، ثم نقله عنها إلى العربية شهاب الدين أحمد بن عربشاه المتوفى ٨٥٤ هـ / ١٤٥٠ م وقد طبعت هذه الترجمة العربية بالقاهرة عام ١٢٧٧ هـ / ١٨٦٠ م طبعة حجرية وصادف القزوينى إحدى نسخها محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس .

وقد ورد فى مقدمة الكتاب أن واضعه المرزبان الموسوم بالفضل والحكمة قد أنشأه مشتملاً على لطائف الحكمة وفوائد الفطنة لكى يتخذها الناس عامة دستوراً لمعاش دنياهم ومعاد أخراهم ويرجع إليه الملوك ليستأنسوا به ويستفيدوا بمطالعة ونصحه أخلاق المسائرة وحكمة المعاملة وذكرى سير الأيام وانقلاب الدهور والأعوام ، فألفه على السنة الوحوش والطيور والإنس والجن والشیاطین ، وجاء الملقى فأنس من هذا الكتاب عُرِيّاً من حلية العبارة وجواهر الألفاظ الحجازية الزواهر ودُرر غرر الأمثال والأشعار العربية ، فكسا مناكب مثالب عبارته بجلابيب مواهب خاطره ، لتزداد فى مطالعته رغبة مستفيدي الأدب ومقتبسي ألفاظ العرب من متعلمي صنعة الإنشاء والبلاغة والفصاحة ، وقد نهج الوراوينى نفس المنهج فنقل الكتاب بدون تغيير اسمه وتصرف فى عبارته رزينها بالأشعار والأمثال العربية والفارسية حتى يعد فى صورته الحاضرة من حيث سلامة العبارة وسهولة اللفظ وسلاسة البيان وبما حفل به من تشبيهات واستعارات نموذجاً عالياً للإنشاء الفارسي فى عصره قل أن يداينه فى ذلك كتاب .

وليت شعري هل كان من خط الوراوينى أن يلقي كتابه هذا همة الزميل النابه الفخيم اللفظ والجزل الجهد الدكتور يوسف عبد الفتاح

فينقله إلى العريية نقلاً أميناً ويحفظ مع هذا على عبارته جمالها ولفظه
سلاسته ، أم من خط الدكتور يوسف أن يصادف كتاب الراويين
فيه تيل سانهته ويستصفى زبدته ويستخلص خلاصته ويغدو كالنحلة
تمتص رحيق الزهور والورود لتخرجه شرباً مختلفاً ألوانه فيه شفاء
للناس ، أم أن الخط للآتين معاً أن اقترن أحدهما بالآخر فأخذ هذا
من حسن ذاك وقبس ذاك من جمال هذا واستغرق أحدهما الآخر
واسترق ، كالزجاجة والخمر حين يستوعب أحدهما ثانيهما فيتشابهان :

رق الزجاج وراقت الخمر . . . وتشابها فتشاكل الأمر ؟ !

إنما الحكم للقارئ الكريم وقد أن يذهب بعد أن يقرأ قصص
الأمير مرزبان أو مرزبان نامه - مذهبا أو أن يخالفه . . .

محمد علاء الدين منصور

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد والثناء لمن تفوح روائح ذكره مثل ثنایا الصبح على رائحة
فم الورد ؛ والشكر والتحية لمن تهب فوائح نشره مثل نسيم الصبا على
طرة الحسان المجددة ؛ وللذات الطاهرة الكريمة التي ضاق النطق عن
نطاق الإحاطة بلطائف كرمه ؛ وللقديم الذي لم يتقدم العقل خطوة
واحدة في بلاط كبرياء قدمه ؛ وللبصير الذي لا يمكن للبصر أن يدرك
بمصباح الإدراك^(١) نور جمال حقيقته في المشكاة الزجاجية ؛^(٢)
وللسميع الذي لا يمكن سماع صوت منادی عظمته في دهليز السمع
من فوق قبة منزل الوهم والخيال . وللذى نظم الزواهر العلوية مع
الجواهر السفلية في خيط ترتيب وجودها الواحد ؛ الذى ألقى بآدم -
الذى هو العالم الأصغر - من سلسلة مخلوقاته إلى مرتبة الأخرى ،^(٣)
جل جلاله وتعالى وعم نواله وتوالى .

والسلام والتحيات والصلوات التى تنزل من مهب أنفاس الرحمن
مع نفحات رياض القدس ؛ على الروضة المطهرة والتربة المعطرة لسيد
الوجود ونخبة كل ما هو موجود ، الذى تكون الرحمة من سدنة قبر
استراحته : والذى يكون الرضوان من خزنة خلوة قصر سلوته ؛

(١) إشارة إلى قوله تعالى « لا تدركه الأبصار » سورة الأنعام الآية ١٠٣

(٢) إشارة إلى قوله تعالى « الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح
المصباح فى رجاجة » النور الآية ٣٥

(٣) إشارة إلى قوله تعالى « قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر
ومتاع إلى حين . . . » سورة الأعراف الآية ٢٤

وتضيء الرحمة مشعلة النور كل ليلة ، ويشر رضوان غبار نعليه
على ذوائب الحوار على تعاقب الأيام المتتابعة والمتوالية .

سَلَامُ الصَّبِّ كُلِّ صَبَاحٍ يَوْمٍ عَلَى تِلْكَ الضَّرَائِبِ وَالشَّمَائِلِ
سَلَامٌ مُرْتَجِحٌ لِلشُّوقِ حَتَّى يَمِيلُ مِنَ الْيَمِينِ إِلَى الشَّمَائِلِ

ثم على آله وأحبابه وعترته وأصحابه من الطاهرين والطاهرات
والطيبين والطيبات أجمعين .

أما بعد ، فليس خافياً على أرباب القرائح السليمة والطبائع
المستقيمة أنه يتعذر الجمع بين صناعتى النظم والنثر ، وهكذا يكون
وجه هذا المطلب فى بردة الامتناع عند أغلب الطلاب ، ويقصر الطبع
عن إيفاء حق كليهما .

وإن سرَّ منه جانبٌ ساءَ جانبٌ

وأنا العبد سعد الراوينى منذ بادئ الأمر أى من أوائل غرة
الشباب حتى يومنا هذا أى أيام الكهولة ، كنت آتى بالعقود المنظومات
فى عقد اعتبار الفحول الأفاضل ، وكنت أصنع النقود المشورات التى
هى سكة قبول الملوك والأكابر حتى ارتقيت - قدر وسعى - بهاتين
الكريمتين فى حجر الترشيح والتربية بحيث كانت تتحرك بواعث الرغبة
لدى الراغبين والخطباء لطلبهما ، وبعد أن اطلعت على كلام أهل
العصر والسابقين القريبى العهد بهم ، وعرفت غور المحاسن والمقابح
كلها بمسبار الاستقصاء ، وأبعدت الخبيثات عن الطيبات ، وميزت
الأبكار من الشيات ، وأحطت علماً بالركيك والرقيق والجليل والدقيق ،

ووجدت بعضاً منها كتب أسماء وحكايات ؛ مزينة بالسياقات المهدبة ،
والعبارات المستعذبة ، امتزجت فيها الألفاظ العربية بالفارسية بحسن
تركيب وترصيف مثل (كتاب) كليلة^(١) الذى هو اكليل فوق مفاخر
البراعة ، والمرصع بغرر الآلىء والدرر المتلألأة ؛ وكتاب « سندباد نامه »^(٢)
التي تحرك رياح قبوله النامية الرغبات فى الطبائع وتحرض على قراءته ،
فاستحسنته طائفة من القراء ؛ ولكنه عندى لا طائل تحته ، وكتاب
« مقامات حميدى »^(٣) التي كانت حماسة طبعها تنشد السجع ،
ويمتزج فى أقداحها المدح بالقدح ، والتي جعلت كل القراء يتناقلونها

(١) يقصد كتاب « كليلة ودمنة » الذى ألفه بيدبا الفيلسوف الهندى وترجمه فى صدر
الدولة العباسية عبد الله المقفع ، وقد سبق الحديث عنه فى الدراسة .

(٢) سندباد نامه من القصص الهندية القديمة التي كتبت باللغة البهلوية ، وقد عده
المسعودى وابن الرزيم من أسماء وأحاديث الهند ، وهو من بين الكتب الهندية التي ترجمت
إلى العربية .

ترجمة إلى الفارسية الإسلامية بأمر الأمير نوح بن منصور السامانى الخواجة العميد
أبو الفوارس فناوروى ، وقد هُذِّبَ مرتين ، واحدة منهما تمت على يد شمس الدين محمد بن
على بن محمد الدقاقى المروزي الشاعر فى أواخر القرن السادس الهجرى ، والثانية على يد
الظهيرى السمرقندى .

انظر ط . زهراى ناتل خانلرى ، فرهنك أدبيات فارس درى ص (٢٧٨ ، ٢٧٩)
انتشارات بنياد فرهنك إيران وقد ترجمت نسخة الظهيرى السمرقندى الدكتور أمين عبد المجيد
بدوى بعنوان « سندباد الحكيم » وقد طبعت فى مصر بالاشتراك مع مؤسسة الثقافة الإيرانية ،
ونشرته مكتبة النهضة المصرية .

(٣) من كتب التثر الفارسي المشهورة فى القرن السادس الهجرى ، وهى من تأليف
القاضى حميد الدين عمر بن محمود البلخى ، الذى أنشأها تقليداً لمقامات الحريري .

انظر د . زهراى خانلرى ، فرهنك أدبيات ص ٤٧٤

مسجعة ؛ ومن قبيل الرسائل مجموعة من مكاتبات منتجب بديعى^(١) الذائخة ببدايع وروائع الكلمات والنكات ، والتي تمتاز فيها اللطافة بالمتانة ، والجزالة بالسلاسة ، وسماها « عتبة الكتبة » ولقد قبل الكتاب المحققون تلك العتبة ، ولم يصلوا إلى مراقى غاياته ، وسماه جماعة منهم « خود غنيه » ، لأن المغنى هو الأسلوب (وسمى بذلك) لطلبه غوانى أفكار الكاتب ؛ و « فرائد القلائد »^(٢) لرشيد الدين الوطواط التي تتزين بها أذن وجيد الآفاق ، وتمتلىء خواطر ذوى الألباب ملء الإهاب من فضلات فضلها .

و « ذرة الشارق » لزين الدين بن سيدى الزنجانى^(٣) المشهور كالشمس السائرة فى الشرق والغرب ، والذي يفخر بحمل مكاتباته

(١) هو التابك منتجب الدين بديع الأب الجوينى ، وهو خال للسجد الأعلى لعطا ملك الجوينى مؤلف تاريخ جهانكشاي ، وقد تولى رئاسة دار الإنشاء للسلطان سبخر ، وكان من مشاهير المترسلين ومن أفاضل المنشئين ، وله عدة تصنيفات فى الترسل وصناعة الكتابة ، وقد كتب هذه الرسائل بأمر الوزير نظام الملك الطوسى .

انظر : منتجب الدين بديع أنابك الجوينى ، عتبة الكتبة ، بتصحح واهتمام علامه فقيد محمد قزوينى وعباس إقبال ص ١ - ٥

(٢) اسم الكتاب هو « جواهر القلائد وزواهر الفرائد » ويشتمل على مائة كلمة من كلمات رشيد الدين باسم « طغرل قلج اسفها سالريك أبى شجاع محمد بن الحسن بن عبد الرحمن عماد أمير المؤمنين .

أما رشيد الدين الوطواط فهو الأمير الإمام رشيد الدين سعد الملك محمد بن عبد الجليل العمرى الكاتب المعروف بـ « خواجه رشيد الدين الوطواط » وهو من أحفاد عبد الله بن عمر ابن الخطاب .

انظر : رشيد الدين الوطواط ، حقائق السحر فى دقائق الشعر ص ٣ ، ٦٤

(٣) هو زين الدين المظفر بن سيدى الزنجانى ، عمل فى بلاط السلطان ملكشاه بن محمود ، ورسائله وأشعاره مشهورة ، وله قصائد فى مدح الخليفة المسترشد والمقتفى والمستنجد رحمهم الله ، انظر محمد روشن ، مرزبان نامه ج ٢ ص ٥٥٨

منارق عظماء الدين والدولة ، مثلما قال الصدر سعيد جمال الدين خجندی - سقى الله عهده فى جواب رسالته العربية إن قاضى القضاة أفضل الدين أحمد بن عبد اللطيف التبريزى^(١) وهو البحر الغزير أدباً والخبر التحرير كلاماً ومذهباً فضلاً عن سائر العلوم ، أرسله إلى « مرند »^(٢) للخدمة ، وكان يعرض بذكره^(٣) أثناء إيداء عذره ، وبورود نتائج فكره^(٤) وقد ضمنها ثلاثة آلاف دينار ليظهر الافتخار به - فى الوقت الذى كان قد أرسل إلى خدمة صدر سعيد الدين خجندی - وكان يكتب ولو كنت بأصفهان لسهل على الأمر وهان ، وإذا كنت أحذو حذو الصدر السعيد صدر الدين بواه الله أعلى الجنان حين صاغ صدر رنجان لأسماع دهره الشنوف فنثر عليه الألوف ، أو كنت الوزير أنوشروان لما نظم قاضى أرجان فى مدحه الدر والمرجان لكنى مسافر نهب عن كل شيء حتى العصا ؛

ولو أن ما بى بالحصى قلق الحصى^(٥)

(١) مرند : اسم مدينة بين تبريز ونهرارس . انظر ط . شتا المعجم الفارسى مج ٣ ص ٢٧٤٠

(٢) يقصد ذكر زين الدين .

(٣) الضمير يعود على قاضى القضاة .

(٤) الضمير يعود على زين العابدين .

(٥) الشطر الأول من بيت لابن الدميثة يقول فيه :

ولو أن ما بى بالحصى قلق الحصى * وبالريح لم يسمع لهن هبوب

سبق تخريج هذا البيت فى الدراسة .

ورسالات بهاء الدين البغدادي^(١) - كاتب خوارزم - المعروفة برسالات بهائي ، ولو ثمن رسالات بهائي بثمان ، فكل جوهر ثمين من الممكن أن يبدو رخيصاً وبلا قيمة أمام حصيات يجدونها في مجارى أنهار بيانها ؛ وترجمة اليميني^(٢) التي لو أقسموا بالآيمان المغلظة أن مترجمها صاحب ثروة لفظية لم يكن - ذلك - حشاً ، وبرغم أنه صار نادماً كالفردوس من خسران صفقته بسبب تركه للمقالة وتملصه من تخلص الكتاب ، ولأنه نشر البذرة في أرض مالحة ، وذرغ غصناً في أرض قاحلة ؛ فلم يجد ثماراً وقال :

يَمِينِي أَجْرَمْتُ شُلْتُ يَمِينِي فَقَدْ ضَيَّعْتُ تَرْجَمَةَ الْيَمِينِي
وكان يقرأ على تلك الصحيفة المليئة باللطائف : أما الزمان لاشلُ
بنائه ولا كل لِسَانُهُ ؛ ونوع آخر مثل « نفثه المصدور »^(٣) من تأليف
الوزير المرحوم شرف الدين أنوشروان خالد الذي خلّد ذكره بسبب
ذلك الكتاب ، والحق أنه بسبب قلب الزمان الذي كان قد مر
بالمصدور^(٤) والأحرار في العهود السابقة واللاحقة وحكاية تلك النكاية

(١) هو بهاء الدين مؤيد البغدادي كاتب علاء الدين تكش خوارزم شاه ، وقد سُمي هذه الرسائل بنفسه باسم « التسوسل إلى الترسل » ولا نعرف مراد سعد الدين من الورداني من « رسالات بهائي » أهى هذا الكتاب أم أثر آخر لبهاء الدين ؟

انظر محمد روشن ، مريان نامه ، ج ٢ ص ٥٦٠

(٢) صاحب ترجمة اليميني هو أبو الشرف ناصح بن ظفر بن سعد المنشي الجرفادقاني معاصر السلطان طغرل آخر ملوك سلاجقة العراق ، وقد ترجم تاريخ العتيبي من العربية إلى الفارسية ، وسماه تاريخ اليميني بأمر الوزير أبو القاسم علي بن حسن وكانت بداية ترجمة الكتاب سنة ٦٠٣ هـ انظر ، ملك الشعراء بهاء ، سيك شناسي ج ٢ ص ٣٨٦

(٣) ذكر حاجي خليفة في كشف الظنون ، ثلاثة كتب باسم « نفثة المصدور » .

(٤) المصدور جمع صدر وهو لقب من ألقاب العظماء انظر د. شتا . المعجم الفارسي

الكبير ، مج ٢ ص ١٨١١

التي حدثت للملوك ذوى التيجان والسلطين المتمردين من غدر هذا الغاش الغدار ، والتي لم تبق شيئاً على سبيل الاختصار ، والإيجاز فى إيراد ذلك الكلام ، أنه يبدو من باب الإعجاز ، وذيل « نفثة المصدور » هذا الذى ألفه نجم الدين أبو الرضا القمى يشير فيها بإشارة لطيفة - من منقطع عهدهم حتى نهاية عمره - إلى كل ما كان قد سمعه وشاهده من تقلب أحوال أهل الزمان ، الأفاضل والأمثال والوزراء والأمراء والملوك والصدور ، ويذكر نبذاً عن رذائلهم وفضائلهم ؛ وقال فى نفسه عن ذلك الذيل « لو أذيل ذلك الذيل بشرح خصائصه فإنه يستمر على امتداد الأيام ، ذيل ملئ بيوافقت النكت ودرر الأمثال ، الذيل الذى عسلت أطرافه بماء العبارات العذبة ، ولم يلوث غبار التكلف والتعسف محيطه ، وطرائق أخرى مختلفة ومتباينة كانت لأكابر الفضلاء والبلغاء ؛ لو اخترت من كل واحد نموذجاً لطال الأمر .

أما الطريقة التى امتلكها الخواجة الفاضل ظهير الدين الكرجى ؛ التى لو أراد كتاب العجم النسيج على منوالها لما استطاعوا « ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »^(١)

ونوع آخر ولو أنه خرج من عادة الكتاب فإنه يشبه نقشات سحر الكلام^(٢) ومجاذبات أقلام الأمير خاقانى ؛ الذى كان الخاقان الأكبر على خيل فصحاء أهل زمانه ، وكان فى ذلك الميدان ثلاثة أطفال يمسون بينانهم قطعة من الغاب ويركبونها فخطف منهم جميعاً

(١) سورة الإسراء الآية ٨٨

(٢) إشارة إلى منشآت أفضل الدين بدلى بن على الخاقانى شاعر القرن السادس الهجرى المشهور .

قصب سبق البراعة ، وشق غبار خطو حصانه الأصغر أو هام السابقين إلى حلبة الدعوى ، ولقد كنت محظوظاً بالإطلاع على الرسائل الأخرى والرقاع والفصول من شتى الأنواع ، وبعد الوقوف على حقائقها ، صعدت إلى دقائق مبدعاتها ، واستنشقت من نسيم كل واحدة بمشام الرغبة ، وجلست كالنحلة على كل زهرة من أزهار أفنان العبارة وحملت في خلية خاطر كل ما هو من خلاصة اللطافة ومُصَاصَةُ الحلاوة ، حتى امتزجت مفردات أجزائها المركبة امتزاج العسل الذى يستحيل تمييز الكل من الجزء فيه .

رَقَّ الزُّجَاجُ وَرَاقَتْ الخَمَرُ فَتَشَابَهَا فَتَشَاكَلَ الأمرُ

وعندما مارست هذا الفن زمناً ، أردت أن أترك عائدة لعمري من هذه الفائدة ؛ وأبداع كتاباً يزين الكلام فيه ، فثارت في نواهض هذه العزيمة لمدة طويلة حتى استقرت النوارع الداخلية فيّ على ذلك ؛ وعثرت على عرائس فكر مخترعات السابقين المخدرة المعطلة من زينة العبارة حتى أنسج بيدي كسوة مزينة لها ؛ اضع فيها قريحتي وأحيك - له - لباساً من صنعة وصياغة خاطري ، واجتهدت كثيراً في البحث والاستقراء حتى لاحت طلائع فجر السعادة ذات يوم ، قد نبه الإلهام جانب إرادتي من وراء ستر الغيب بينائه فقلت :

أيها الحبيب لقد قلت أين قلبك فانظر إلى خصلات الشعر
ولا تنظر بعيداً

ذلك هو كتاب « مرزبان نامه » الذى وضع على لسان الحيوانات

الخرساء ولم يؤلف كتاباً عند العجم - مثله - مشحون بغرائب
الحكمة ، محشو برغائب العظة والنصيحة عدا كتاب « كلیلة ودمنة » ؛
وقد وضع هذا الكتاب فى تسعة أبواب ، كل باب مشتمل على عدة
حكايات كتبت باللهجة الطبرية ، والفارسية القديمة ، وقد نُثر ذلك
العالم من المعنى فى لغة هابطة سوقية أمام أعين الحقراء ،

كَالدَّرِّ فِي صَدْفٍ وَالْخَمْرِ فِي خَزَفٍ .: وَالنُّورِ فِي ظُلْمٍ وَالْحُورِ فِي سَمَلٍ

فقلت لنفسى تخيل هذه العروس الجميلة التى بقيت خلف ستر
الخممول ، ولم تسافر مثل الجوارى المنشآت الأخرى ^(١) فى البحر
والبر ، ولم تحظ بشهرة لائقة ، ولهذا السبب - أيضاً - لم تظهر
زيتها ، ولذلك لم تتحرك دواعى الرغبة من داخل القراء لتحصيل
ذلك المتداعى ، فإن كانت لديك الرغبة - وليست شهوة عنين -
فاشتغل بافتضاض هذه البكارة ولا تضع أى عذر أمام خاطرك .

فأعمل فإن الفكرة ليست أعجب من هذا ، وإلا ضاعت من خاطرك ^(٢)

فصار صدرى منشراحاً لشرح هذا الكلام .

وَقُلْتُ لِنَفْسِي جَدِّي الْآنَ وَاجْتَهْدِي * وَسَاعِدِينِي فَهَذَا مَا تَمَنِّيْتُ

(١) إشارة إلى قوله تعالى « وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام » الرحمن / ٢٤ .

(٢) هذه ترجمة بيت لظهر فاريابى ، من قطعة مطالعها :

بناء أهل هنر يیشوای روى زمین * تراست چرخ نکوخواه وبخت نیک اندیس

لكنه أبدل مكان « شكرف ترن » « صوابتر » .

ديوان ظهر فاريابى ، به كوشش كفى یتش ص ٣٢٥ .

وقرنت بين الزمن وبلوغ الهدف ، ولم استرح حتى أتيت بيت كثر
الثروة إلى يدى ، وقلبت زواياه وجوانبه ، وتفحصت خبايا أسرارهِ بنظر
الاستبطار ، وففكت طلاسم تركيبهِ عن بعضها البعض وصنعت ملخصاً
من ذلك كله ، وألقيت الباقي كفضلات أقذاح رددن على الساقى ،
ومضيت على صيغة الأصل نفسها ، عندئذ عدت أمام هذا الهدف
أو المراد « متشمرأ عن شاق النية سافراً عن وجه الأمنية ، وقد أوردت
هذا الغرض فى معرض المقدمة بهدف صد كل سهام الاعتراض عن
ناصيتى ، وما كل من نشر أجنحته بلغ الإحاطة ولا كل من نثر كتانته قرطس .

والخلاصة : أننى عندما عاودت التفكير فى بداية العمل ونهايته ،
لاحت - فى التو - سلالة آخر العمل فى مشيئة أول الفكر ،
ورصدت طالع الوقت فرأيت عين سعادة العطاء من مشترى السماء
جلالاً وفضلاً ؛ أعنى الخواجة سيد العالم ، الصاحب الأعظم ، نظام
العالم ، ملك وزراء العصر وأجلهم كمالاً وأفضلهم إفضالاً ربيب
الدنيا والدين معين الإسلام والمسلمين ، أعلى الله شأنه وأظهر عليه
إحسانه ، فاتصلت به ، وعلمت أن تأثير نظره يصل إلى أى مكان ؛
فيغير منظور أهل الدنيا ، ويعد ذلك وضعت صحيفة الأصل ؛ وأخذت
أنقل عباراتها ، واطلقت مشاطة الفكر الماهرة فى تزيين الحسان الحلوة
الشمائل ، ويعلم الله عالم السر والعلانية أننى لم أخف فى نفسى أى
فكرة لصاحب هذا الكلام ، ورأيت العرى خيراً من الثوب المعار ،
وأخرجت كل الدر الذى وضعته فى جيب الفكر والكلام من درج
مفكرتى ، كما استخرجت كل المرجان الذى نثرته فى كم رداء العقل
من حافظتى .

لَمْ يَكُنْ أَمَامِي دَفْتَرٌ أَوْ دَوَاوِينَ مِثْلَ عَيْسَى لَا عَقَائِيرَ وَلَا هَاوَنَ^(١)

وعندما وضع « كل ذلك » على قد هذه العذراء صار مثل الحرير المزين ، ثم طرّزتها باسم الملك وألقابه المباركة ، فأفانيت ديباجة شبابي في ذكر بعض من مفاخر ذاته ومعالي صفاته ، وذكرت في نهاية كل باب ملخصاً آخر بدعاء وثناء على زاهره ، أطاب الله نشره وأبقى على الدهر ذكره .

ولو أن عين البصيرة تتفحص ملياً اليوم في جميع أنحاء وأرجاء الدنيا لا سيما عرصة العراقيين ؛ فإنها يمكن أن تجد من أكارم العالم وأكابر الأمم وأفاضل ملوك العرب والعجم « من هو » درة عقد عظيم وفريد عهد العظمة ؛ لأن الفضل معهم زينة كرم وافر وأثر من آثار معالم العلم ، فلو أشاروا اليوم فلن يقبل سوى كرسى السيادة ووسادة العظمة ، ولا يجوز أن يبيعوا مثل هذه البضاعة إلا في يوم سوق دولته ، ولا يجوز لمثل هذه التحفة أن توضع إلا على بساط جلاله ، نعم هذا لهذا ، وأما قدم عبوديتي له فكان باعشاً ثانياً على تقديم خدمتي هذه ، ويسبب ذلك المقام رفعوا اسمي من ديوان إنشاء الفطرة إلى « ديوان » قلم التكليف ، وضربوا الرقم العقلي الذي هو مظنة التمييز على ناصية حالي ، حتى هذا الزمان الذي وصلت فيه

(١) هذا البيت من قصيدة لخاقاني الشرواني بعنوان « در شکایت و عزلت و تخلص به

مدح بیغمبر اکرم » خاقانی شروانی به کوشش دکتر ضیاء الدین سجادی ص ۳۱۷

إلى هذه المرتبة من مراتب السن ؛ لأننى لم أرب إلا فى كنف جناب صاحب المجد والمكارم فأوصلت طفل البلاغة إلى حد البلوغ فى حضانة تربية هذا البلاط الملكى ، ولا يمكن أن يكون وراء هذا إجحاف ؛ لأنه يجب إتحاف كتابى - أنا العبد - بمثل هذه العظمة ، لأن كل رقعة من نتائج طبعة هى كتاب فى حساب كتاب العالم ، وكل رسالة من منسوجات قلمه هى أنموذج للنقاشين فى تحرير وتحرير الرسائل .

إِنْ قَالَ فَالْدُرُّ الثَّمِينُ مَنْظَمٌ .: أَوْ خَطٌّ فَالْوَشْيُ الْبَدِيعُ مَنْمَمٌ
يَا مَنْ يُرَى فِي مِرَاةِ الرُّوحِ دَائِمًا تَسْعَةُ أَوْجُهُ لِكَمَالِ الْحَدِيثِ

انظر فى أحد دفاتر إنشائه انظر إلى جمال الخط وجمال الكلام وهكذا كل من يعلم طرف من هذه التحف لأنها تكون واسطة تقريب إلى حضرته مثلما قال القائل :

أَهْدِي كَمْسُتَبْضِعَ إِلَى هَجَرٍ أَوْ حَامِلٍ أَبْرَادٍ إِلَى الْيَمَنِ

فى أثناء القصيدة التى وشحتها بالثناء العطر ، يأتى بيت فى هذا السياق :
إن الجواهر التى تتناثر من مداد قلمه تحملها اليد إلى يده لتزين جيد الحوار .

ولو تعاد قراءة صحائف اللطائف التى نقشت بقلم عالم غرائب الغيب ، والمحفوظة المكنونة فى خزائن ملوك الدنيا فيجب فيما يبدو أن يسمع لسان الحال بسمع الإنصاف وهو يقول :

يَا مَنْ يُطِيلُ كَلَامًا فِي مَدَائِحِهِ أَمْسَكَ فَحَصْرُ تَجُومِ اللَّيْلِ مِنْ حَصْرِ
تَنْفَسِ الدَّهْرِ مِنْ ذِكْرَاهِ عَنْ أَرْجِ تَنْفَسِ الرُّوضَةِ الْغَنَاءِ فِي السَّحْرِ

والخلاصة : من البداية إلى النهاية أننى فكرت فى فكرة هذا الاختراع وهممت باقتراع هذه البكرة التى جاءت من وحي الغيب وعثرت على كل ثراء للمعنى وزينة لرباط الفضل ووجدتهما مرغبين ومحرضين على إتمام ذلك ورأيت من الواجب التخلّى عن عرض لائحة « حميت مما أشويت » ، وزاد حرصى على التعرض لنفحة التوفيق التى جادت من مهب الكرامة الإلهية ، وفى تلك الأثناء التى حدثت فيها ثورات فى العراق بسبب اللحن غير المناسب الذى خرج من خلف ستار فلك السفلة ، فأشركونى مع الجيوش وإن كنت على منقلب من الأحوال ومضطرب من الأحوال ، إلا أننى كنت أدافع أيام الفشل بمجالسة ومناقشة أهل تلك البقعة التى تعتبر ملك لأقاليم السبعة رغبة فى ترتيب أحوالى ، وشغلت نفس باجتماع الفوائد فى المدرسة النظامية ^(١) من أنفس هؤلاء الذين كان بعضهم من المحدثين فى عالم المعنى ، والبعض الآخر هم بقية السلف الأفاضل ، وكنت أسكن سورة الخمار الشديدة بكأس مجالستهم ، وكنت أعرض على أسماع هذه الطائفة جزءاً أو جزأين من هذه الأجزاء ^(٢) فإننى لو أعبر عن الاستحلاء الذى حصل لمذاقهم جميعاً من قراءتها جميعاً والاستطراف

(١) هى المدرسة التى بناها الوزير السلجوقى نظام الملك الطوسى فى أصفهان ، وجعل رئاسة التدريس فيها فى أسرة الخجنديين .

(٢) يقصد أجزاء الكتاب .

الذى أبدوه على هذا النمط فإننى قد أبدى تكلفاً فى صورة التصلف دون حاجة أو داع . وكان أحد هذه الطائفة الذى كان واسطة عقدهم - يمتاز بين أهل هذه الصناعة بلطف الطبع وسلامية الذوق ودقة النظر وكمال البراعة ؛ لم يكن ليسبغ مطلقاً من الاطلاع على مسوداتها ، وإذا وجد لفظاً مستهجنًا يردده على لسانه ويقول : « حق له أن يكتب بسواد القلب على بياض العين » وفى أحد الأيام نفث - مجدداً - الريح فى نيران رغبتى فأشعل خاطرى بإنشاء هذا البيت الجميل حيث قرأ على .

إِذَا سَنَحَ السُّرُورُ فَأَيُّ عُنْزٍ لِّدَى الرَّأْيِ الْمُسْدَدِ فِي التَّوَانِي

ومع أن عوارض الزمان ، وتوارد اختلاف أدواره ، كانت تبقيتنى قلقاً بين الطى والنشر ، فإننى ما من وقت وجدت فيه فسحة لو للحظة يقظة حالة من عين مثقلة بنوم الدهول ، خلسة من الزمان وفرصة من الحدثان وأخليت حجرة القلب الخربة من تواتر الأحداث المتوالية إلا وأقدمت مدة بقدر الإمكان ، على تحرير فصل من الفصول ، ولو لم يحدث لهذا العجول المتمهل وهذا الملول المشوق ما وقع فيه من مباحدة ومساعدة ، ولو لم يكن قد وقع لدواعى الهمم ومساعى القلم ما وقع من التراخى لأمكن الفراغ منه (الكتاب) فى أقل وقت ، ولو وصل الفكر من منزل القوة بعيد الأمد إلى حد الفعل ، والآن أما وقد تم جانب من أواخر الكتاب الذى لم يكن ناضجاً وقد بقيت عقدة انتكاس الأيام وانتظم عقد مبانيه ، فإن هذا العبد الذى يلهج بالشثناء يتوقع ومجال أمله يتوسع فى أن يبيع الكتاب

فى عرض الأقاليم فى وقت قريب بحيث تنثر سرعة سير غبار الغيرة على مجموعة كواكب الصبا والدبور بما يتمتع به ملك العالم ضاعف الله معاليه وأضعف معاديه من حيث يشتمل العالم كله ، ويجعل نار الحسد تضطرم فى مجمرة الشمال والقبول ويبقى اسمه العظيم مخلداً ومؤرخاً على صفحة الزمان فى دياجة « مروبان نامة » وتستثير عينه أهل الزمان بما فيه من سواد وبياض ، ولا تستحيل جدته خلقاً لفعل اختلاف الحديد والفرقدين ، وأن يحال بين من لم يشرب من كأس الإنصاف الصافى ؛ ومن لم يتش من هذا الشراب المختلف الألوان ؛ وبين أن يذوق شيئاً منه ، إذ من الممكن أن يخلف مذاق حاله إدراكاً عكسياً عنده ،

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمُ مَرِيضٍ يَجِدُ مُرَّابَهُ الْمَاءَ الزُّلَالَا

وأرجو الله تعالى ألا يطالعها إلا المبرؤن عن أدناس خيالات الخلد ، ولا يمسها إلا المطهرون عن أنجاس وساوس السخط والحسد ، ويشرف الله تعالى أفواه أهل الدنيا بأطياب ذكر مناقب ومآثر ملك وسيد الدنيا صاحب أعظم مطيب ومشرف ؛ وليشوق ويزين أسماع وآذان الدنيا بجواهر محامده ومفاخره ، فمحاسن آثار كرمه باقية حتى قيام الساعة ، وأقدم هممه تترقى فى مراقى العلو ساعة بعد ساعة بمحمد وآله .

فهرست الأبواب

- الباب الأول : فى تعريف الكتاب وذكر مؤلفه وأسباب التأليف .
- الباب الثانى : فى أمر الملك الموفق والوصايا التى وصى بها بنيه عند موته .
- الباب الثالث : فى أمر الملك أردشير والعالم مهران به .
- الباب الرابع : فى أمر الشيطان مشقق الخوافر وعالم الدين .
- الباب الخامس : فى أمر دادمه وداستان .
- الباب السادس : فى أمر زيرك وزروى .
- الباب السابع : فى أمر الأسد وملك الفيلة .
- الباب الثامن : فى أمر الجمل والأسد الناسك .
- الباب التاسع : فى أمر العقاب وآزاد جهره وايرا .

الباب الأول

ففي تعريف الكتاب

وذكر المؤلف

وبيان أسباب تأليف

مرزبان نامه

هكذا يجب أن يعرف أن هذا الكتاب « مرزبان نامه » منسوب إلى مؤلفه مرزبان ابن شروين ، وشروين أحد أبناء كيوس أخى الملك العادل أنو شروان ، وكان « شروين » ملكاً على طبرستان ، وكان له خمسة أبناء ؛ يتمتعون جميعاً برجاجة العقل ورزانة الرأى وأهلية الملك ، لديهم الاستعداد للسلطة ، وعندما تُوفى شروين ، بايعوا الابن الأكبر بالملك ، وتمنطق إخوته الآخرون بمنطق الانقياد له ، وبعد فترة ظهرت دواعى الحسد بينهم وصار كل واحد منهم طالباً للسلطة ، أما مرزبان فبحكم أنه كان متميزاً عن جميع إخوته بفضيلة الفضل فقد عزف عن حكام الدنيا ، وقصر همته على كسب السعادة الباقية ، فاعتقد أنه - بما يدور فى خلد الملك أنه - أيضاً - يخوض فى مشروع مخالفة الأخوة ، فلم يرغب أن يعلق غبار هذه التهمة فى ثوب معاملته ، فنظر فى مرآة رأيه ، فرأى وجه الصواب هو أن يلوى عنان الحركة صوب هدف معين ، وأن يخرج عن دائرة مملكته إلى ركن ، وهناك بنى مسكناً حتى لا يتعكر مورد الصفاء بينه وبين أخوته ، وحتى لا تصير معاهد الألفة واهية ولا يجد الوهن طريقاً إلى قواعد الأخوة ، وعندما وقف جمع من أكابر الدولة وأشرافها على هذه الحال التمسوا منه : أن - عندما يتحقق رحيلك من هذا المكان - أُلّف لنا كتاباً مشتملاً على لطائف الحكمة وفوائد الفطنة نجله دستوراً لحالنا فى معاش الدنيا ومعاد الآخرة ، فيمكن التوصل بقراءته والعمل به إلى السعادتين والفور والنجاة فى الدارين ؛ وتبقى على صفحة الأيام آثار

فضائل ذاتك ومحاسن صفاتك بواسطته ؛ ووصل إلى سمع الملك بعض رواجر الوعط وكلمات النصيحة ، التي تذكره بطبع الأيام السيء ، فأصغى إلى هذا الكلام ، وأوقف إمضاء عزمته الناتجة عن تقديم ملتماستهم على إذن وأمر الملك ، ونهض عن موقف التردد وذهب إلى بلاط الملك وقدم تقريراً إلى الملك بذلك الذي يضمه في قلبه من الذهاب إلى مكان آخر وتأليف كتاب يتضمن فصلاً في النصيحة ، على سبيل الاستئذان .

فتوقف الملك عن الجواب كالتردد ، وعندما غاب الأمير ، وحضر الوزير فقال له على سبيل الاستشارة : ماذا ترى في سماحنا بهذه المعانى التى قصر أخونا همته ورغبته عليها ؟

فقال الوزير : إن السماح له بالانتقال من هذا المكان إلى مكان آخر ، هو نتيجة رأى صحيح وقضية فكر صائب ، لأنه ربما نقص - بذلك - عدد من أعداد الملوك وخرجت شوكة من قدم الدولة ، واعلم أن مراده من وراء تأليف ذلك الكتاب هو أن يظهر سيرة مملكتك قبيحة تحت ستار التعريض ، ويصبح ذلك سماً فى أفواه الخلق فى سائر آفاق الدنيا وذلك لأنه يريد أن ينصحك فيضع مرتبته فى العلم والرأى بجوار مرتبتك ، وأما المنع فيجعله يأخذ القرار فى نفسه ، ويصبح عارياً من حلية المال التى كان يديها ، ويطل فكره ، لكن الرأى هو أن يأمر الملك بأن يقول - الأمير - ذلك الكلام فى حضورى ، حتى أظهر للملك فضول طبع الأمير ونقصانه وفضيحته فى فصول تلك النصيحة ، واكتشف اللثام والغطاء عن وجه عمله ، حتى يعلم الملك أين موقعه (الأمير) بين العلماء ، وأين موقعه فى الفضل الذى يجعل له زهوه وتكبره فى هذه الدنيا .

طِبَاعُكَ فَالزَمَهَا وَخَلَّ التَّكْلُفَا .: فَإِنَّ الَّذِي غَطَيْتُهُ قَدْ تَكْشَفَا

حوار الأمير مع الوزير

وفى اليوم التالى الذى خرجت فيه الشمس^(١) الاعلام الخفاقة على سقف السماء الرابعة وأخذت النجوم الثوابت مواضعها من هذا البساط الأزرق ثانية ، جلس الملك فى قصر الخلوة ، وأمر بأن يأتى إلى حضرته مع الأمير والوزير جمع من كفاة السلطنة ودهاتها ، كل واحد من هؤلاء حكيم زمانه ، وأقاموا مؤتمراً كما طلب الوزير ، وقال الملك للأمير مرزبان : يا أخى إن كل ما تقوله هو خلاصة الفكر الطيب ونقاء الحفاوة والرحمة ، وإلا لا يمكن تصويره من فرط المماحضة والمخالصة ، والآن تملئ دواعى المصلحة كل شيء ، لأنه يجب أن تتم أوعية الضمير ، فالكلام المحكى ودر الحكمة المنظوم أولى من كل شيء .

فبدأ الأمير الكلام ، وأوصل بحديثه الأكثر لباقة من السنة الفصحاء ؛ وبعبارة أكثر جاذبية من خلق الكرام ، حق الثناء والدعاء للملك وبلاطه ومجلسه .

بِكَلَامٍ لَوْ أَنَّ لِلدَّهْرِ سَمْعًا قَالَ مَنْ حُسْنُهُ إِلَى الْإِصْغَاءِ

وقال : الآن وقد أتحت لى الحديث ، أحسن الإصغاء إلى ، لأن لوائح النصح لا تتلاءم مع الطبيعة الإنسانية قال تعالى : « لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين »^(٢)

(١) الترجمة الحرفية ملك النجوم السيارة وهى كناية عن الشمس .

(٢) الأعراف / ٧٧ .

وإن لم تَعْلُ برعومة القول ورق اللطف ، حينما لا تتربى فى
صدق الإصغاء فلن يرجى من ذلك نفعٌ .

شعر عربى

إذا لمْ يَعنْ قَوْلُ النصيحِ قَبُولُ^(١) فَإِنْ تَعَارِيضَ الْكَلَامِ فُضُولُ^(٢)

إعلم أيها الملك أن أظهر جوهر انتقل من عالم الوحدة إلى
مركبات العناصر ، هو العقل ؛ وأن أعظم نتيجة من نتائج العقل ،
هى الخلق الحسن وقد أعطى أشرف الموجودات شرف الاختصاص بهذا
الخطاب ، ومن أعظم ما يتلى فى ذلك قوله تعالى « وإنك لعلى خلق
عظيم » ،^(٢) لأنه يمكن التوسل بفضيلة الخلق الحسن إلى السعادة
الأبدية ، والملوك هو أحوج الناس إلى الخلق الحسن والجوهر النقى
الطاهر ؛ لأن الملك إذا ما كان حسن الخلق ؛ فإنه لا يسلك سوى
طريق العدل والصواب الذى هو من مقتضياته ، ولا ينتهج إلا السنة
المحبوبة والشريعة المرغوبة ، وعندما يكون انتهاج سيرته على هذا
المنهاج ، فإن أتباعه ورعاياه جميعاً فى كل أنحاء المملكة يهناون فى

(١) البيت من قصيدة لمؤيد الدين الطغرائى فى مدح مؤيد الملك بن نظام الملك

انظر ديوان الطغرائى ص ١٨

(٢) سورة القلم / ٤

كنف الأمن والسلامة ، وتتخلق كافة الخلق بأخلاقه ، ويحافظون فيما بينهم - طوعاً أو كرها ، خوفاً أو طمعاً - على عادة الإنصاف وأسلوب الحق ، وتتبدل صفتا الاختلاف والتنافى - وهما من الطباع التى تتطبع عليها البشر - إلى الاتفاق والتصافى .

واعلم - أيها الملك - أن من أقبح عادات أولئك الملوك التى ليس هناك أقبح منها هى :

الأولى : هى الوضاعة أو الحقارة ، لأن الرجل الوضيع الحقير لا يتوصل - بحق - إلى عمل أى شىء حسن ، ولا يستطيع أن يصل بنفسه إلى الزعامة بين الخلق .

أَتَرْجُو أَنْ تَسُودَ وَلَسْتَ تُغْنِي وَكَيْفَ يَسُودُ ذُو الدَّعَةِ الْبَخِيلُ^(١)

الثانية : الإسراف فى إنفاق المال لأن الملك حارس لأموال الرعية . ويجب أن يكون تصرفه فى ماله بحساب فضلاً عن أموال الآخرين بخاصة .

ويصقل جمال هذا الكلام نص من منبع الصدق ؛ يستلفت حسنه الأنظار وهو قوله تعالى « ... ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين »^(٢)

(١) هذا البيت لحبيب بن عبد الله الهزلى الأعلم وقد جاء قبل هذا البيت قوله :

وإن سيادة الأتوام فاعلم لها صعداء مطلعها طويل انظر : الجاحظ ، البيان والتبيين جـ ١ ص ٢٧٥

(٢) سورة الأنعام / ١٤١ وقد وردت خطأ فى المتن الفارسي (... إن الله لا يحب

المسرفين) .

وحديث النبي ﷺ « لا خير في السرف » مشهور بدرجة لا يحتاج معها إلى التكرار والتذكار ، ولا يجوز للملك أن يصدر أمراً دون تأمل وتثبت لأن مضاء أمره بمثابة نارلة القضاء التي تهبط من السماء إلى الأرض لا يمكن التفكير في دفعة بأية وسيلة^(١) وأمر الملك الذي يتم بدون مقدمات تدبير يشبه سهم القدر الذي يخرج من قبضة المشيئة لا يمكن دفعه بأي درع واق ، وتظل عاقبة الأمر في ذمة جريمة العقل ويقول بلسان الندم « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء »^(٢) ولا يجب على الملك أن يتأبى على النصيحة أو ينفر من الناصحين ، حتى لا يكون مثل المريض الذي يرفض تناول الشراب المرّ - أثناء انحراف المزاج عن نقطة الاعتدال - من يد الطبيب الحاذق حتى يعتدل مذاق حاله في النهاية ، ومن ثمّ يعود شراب الصحة ، وينبغي أن يكون للملك فضاء لعرضة الهمة يتسع لقضاء جملة حوائج الملك وقت الاضطراب والاختيار ، حتى إذا ما حدث أمر وظهور الحاجة ، فإنه يجب عليه أن ينفق مالاً وافراً من أجل الإصلاح الكلى ، ولا يضع يد المنع أمام خاطره ، وإننى عندما طالعت صحيفة أحوالكم ، وجدت قاعدة ملككم مختلة ، ورأيت قضية العدل

(١) إشارة إلى قوله تعالى « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له وما لهم من دونه من وال »

الرعد / ١١

(٢) سورة الاعراف / ١٨٨

مهملة ، ومن ثم ففتح حاشيتك أيديهم فى إشاعه الجور وإضاعة مال
الرعية ، وتجاوزت أقدامهم الحد المقدور لهم .

فكسدت سوق العقلاء ، وانقلب حال الجميع فصار العبيد
سادة ، وصار السادة عبيداً ، فقلت لنفسى :

إن من أقبح المقايح فى عهد الملك أن يكون الذئب على العرش
ويوسف فى البئر .

إذا فسد القلب فسد الجسد وظلم الجيش يكون من جور الملك^(١)

وهذه الشيمة بعيدة كل البعد عن النسق الذى أرساه أسلافك ،

كما أنه لا يليق بأصلك الطاهر ومحتدك الشريف ومنبتك الكريم مطلقاً ،

وإنَّ الظُّلَمَ مِنْ كُلِّ قَبِيحٍ وَأَفْبَحُ مَا يَكُونُ مِنَ النَّبِيهِ

وقد كنت حتى اليوم صامتاً ، لأنهم قالوا « لا تتحدث مع

الملوك فيما لم يسألوك فيه ، ولا تفعل ما لا يأمرونك به » .

أمّا اليوم فقد وجدت إذن الملك فى ذلك جملة ؛ ومن ثم فإننى

سوف أتحدث بما أعرف ؛ وهذا غيض من فيض ، ومن الوفاء بحقك

(١) البيتان لسنائى الغزنوى ، الأول جاء تحت عنوان « در عدالت وستم ناكسرذن »

والثانى تحت عنوان « اندر دل ورجان ودرجات آن » - إلا أن رواية البيت الثانى مختلفة حيث
جاءت كلمة « ضعف » بدلا من « جور » التى فى مرزبان نامه .

وهو يشير إلى الحديث النبوى الشريف « إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد

كله وإذا فسدت فسد الجسد كله إلا وهى القلب » رواه الإمام أحمد . مسند الإمام أحمد جزء

ص ٢٧٠ ط القاهرة ١٩٤٦

- أعنى الأخوة - الذى يفوق كل الحقوق ، أظهر بعض التحرر فى كلامى لأنهم قالوا : إن حبل الأخوة لا يمكن السيف أن يقطعه ، وعلاقة الأخوة هى تلك العلاقة التى لا يمكن أن يوجد لها بديل على مر الزمان ، وقد قالت مثل ذلك امرأة تدعى « هنبوى » فقال الملك كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية هنبوى مع الضحاك^(١)

قال الأمير سمعت أن فى عهد الضحاك الذى كان قد صعدت على كتفيه حيتان ، وكانو يقبضون كل يوم جديد على شاب ، ويصنعون من مخه طعاماً لهاتين الحيتين .

وكان هناك امرأة تدعى « هنبوى » ذات يوم جاءت قرعة الحظ السيء على ابنها وأخيها وزوجها .

فقبضوا على الثلاثة جميعاً حتى ينقذوا ذلك الظلم المعقود عليهم ، فذهبت المرأة إلى بلاط الضحاك ، ناثرة تراب التظلم على رأسها ،

(١) أحد ملوك « شاهنامه » الفردوس ، وقد اختلفت الروايات فى نسبه ؛ فمنها ما يجعله فارسياً ، ومنها ما يجعله عربياً .

يقول أبو تمام : ما نال قد نال فرعون ولا * هامان فى الدنيا ولا قارون

بل كان كالضحاك فى سطواته * بالعالمين وأنت أفريدون

وعما يقال أن الضحاك تمثال العداوة بين البرانيين والآشوريين ثم الكلوانيين

ومن المؤرخين من يقول أن غرود هو الضحاك د. عبد الوهاب عزام ، حواشيه على

ترجمه الشاهنامه ج ١ ص ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ الحاشية ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ؛ سنة ١٩٩٣ م

وكانت تفوح بآلم (قائلة) إن العادة كانت أن يخرج كل يوم رجلٌ من أحد المنازل ، فلماذا خرج ثلاثة رجال من منزلي ؟ فوصل صراخها إلى إيوان الضحك ، فسمعه ثم سأل عن تلك الحال ، فرووا له تلك الواقعة كما كانت ، فأمر أن يخيروها واحداً تريده من هؤلاء الثلاثة ، فيعفونه ، ويرجعونه إليها .

فأخذوا « هنبوى » إلى باب سجن القصر ، فوقعت عينها أولاً على زوجها ، فتحرك حبُّ المؤالفة والموافقة ، واختلجت مشاعر شفقة الزواج في ضميرها ، فأرادت أن تختاره ، ثم وقع نظرها ثانية على الابن . وكان قريباً منها (أى الزوجة) فَهَمَّتْ بأن تضع يدها على ولدها ، وتطرح فخلب عقاب الآفة عن فلذة كبدها ، وتخرجه بالسلاقة لكنها فجأة رأت الأخ أسيراً في نفس القيد ، فألقت بنفسها على الأرض والشعور بالحسرة باد عليها ففكرت في نفسها قائلة : هكذا سقطت في ورطة الحيرة ، ولا أعرف أيهم أختار ؟ من أجل نور العين وراحة القلب ورفاهية العيش ، ولا أدري ماذا يقرر قلبي المضطرب ؟ ولكن ماذا أفعل لأن قطع عروة الأخوة لا يعطى القلب لها أى رخصة .

كيف ينضل من يستعاض عنه على من لا بديل له ؟

إنى امرأة شابة ، وأستطيع أن أتزوج زوجاً آخر ، ويمكن أن يأتى منه الولد الذى أطفأ بماء وصاله نار فراق ذاك تدريجياً ، وأداوى سم

فوات هذا بترياق بقاءه ، لكنه ليس من الممكن أن يتأتى لى آخ آخر من
الأم والأب اللذين رحلا لألقى عليه كل هذا الحب ، وأمسك عن
الابن والزوجة عاجزة غير مظفرة ، وأخذت بيد أخيها وخرجت به من
السجن ، فوصلت هذه الحكاية إلى سمع الضحاك ، فأمر أن يهبوا
« هنبوى » الابن والزوج أيضاً .

وقد قلت هذه الحكاية ، حتى يعلم الملك أنه لا يوجد من
يعوضنى عن ذاته المباركة على مرّ الزمان ، ولن أسعد بغرض آخر
سوى بقاء عمره ، وأعتقد أن من وبال هذا الخرق الذى يشرع فى
خرق سنن الآباء والذى يوصل حبل النسل - عياداً بالله - إلى
الانتقاض الذى ينهى عهد الدولة إلى الانقراض ، كما قال ع - رٌ مَنْ
قائل - « فقطع دابر القوم الذين ظلموا » ^(١)

قال الملك : تصور صحيح ، وسوف أقرأ هذه الدعوى من لوح
عقيدتك ، وأعلم أن ذلك الذى تظهره ليس رياء ، ولكننى أريد أن
تسمع عن طريق المحاولة - وليس المجادلة - رأى الوزير فى هذه
الأبواب ، ويدور بينكما حوار مشبع مستوفى عن طريق السؤال
والجواب ، حتى يذهب الزيد ^(٢) عن فكرتك بالتمحيص ، وأقف
على ذلك .

(١) الأنعام / ٤٥ .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى « فأما الزيد فيذهب جفاء » الرعد / ١٣ .

قال الأمير : لا ضير لأن الوزير إذا كان يريد - بما أوتى من فصاحة اللسان وحصافة الرأي ودهاء الطبع وذكاء الذهن - أن يزيّف كل حقيقة ، ويجعل كل إيجابى سلبياً ، وكل طردى عكسياً ؛ لكن الشفاعة لا تمشى باللجاج ولا النصيحة بالاحتجاج ، وإننى وضعت قدمى على هذا الطريق قدر وسعى ، وأمطت حجاب الاختفاء عن وجه حقيقة الأمر ، فإذا ما رغبت أن تضع قولى موضع القبول « قد تبين الرشيد من الغي »^(١) وإن لم ترد فعلى حسب ذلك الأمر « لا إكراه فى الدين »^(٢)

خطاب الوزير إلى الأمير

بدأ الوزير الكلام فى لباسه الملاينة والمخادعة وقال : أيها الأمير العالم ، الخبير عميق الفكر ، بعيد النظر الحكيم ، المثقف : إن كل ما تقوله ، تقوله من أجل إحكام عقدة الدولة ونظام عقد المملكة ، وهذه النصائح تفضى إلى منّح التأييد الإلهى وتخليد آثار المملكة ، ولكننا نعلم أن حفظ وحراسة هذا الملك يمكن أن نقوم به بمثل هذه السياسة ، وسلوك هذه الطريقة مطابق لشريعة العقل لأن عدم الأمر بمعاقبة المجرم يشبه معاقبة

البرئ ، ^(١) وما أثر من كلام أردشير بن بابك ^(٢) ، ومعقولات حكمته : أن كثرة سفك الدماء تمنع من كثرة سفك الدماء ، وتصح الأجسام بكثرة العلل .

لَعَلَّ عُثْبُكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ وَرَبِّمَا صَحَّتِ الْأَجْسَامُ بِالْعِلَلِ ^(٣)

وانظر فقد جاء هذا المعنى موافقاً للكلام المجيد ، قال الله تعالى : « ولکم فی القصاص حیاة » ^(٤) ، وينبغي معرفة أن مزاج أهل هذا الزمان فاسدٌ ، حيث صرفوا نظرهم عن طاعة السلطان ، وجعلوه مقصوراً على خداع الشيطان ، وقد باض شيطان الفكره المحالة والرغبة في الاستقلال بيضة جنون الهوس في رأس كل واحدٍ منهم ، وأفرخ

(١) هذا المضمون موجود في الشعر الفارسي والشعر العربي

يقول سعدى الشيرازى ما ترجمته :

إن الإحسان إلى المسيئين كالإساءة إلى المحسنين انظر : محمد روش K ، تعليقاته على مرزبان نامه ج ٢ ص ٥٧٥

ويقول المتنبي : ووضع الندى في موضع السيف بالعلل * مصر لوضع السيف في موضع الندى

المتنبي ، الديوان ، ط ص ١٩١

(٢) هو أردشير بن ساسان ، وبابك جده لأمه ، حكم إيران من سنة ٢٢٦ إلى سنة ٢٤١ م ، وقد وصلت قصته في شاهنامه الفردوس إلى ٦٦٠ بيتاً انظر : د . عبد الوهاب عزام . حواشيه على تراجمة الشاهنامه للبندارى ص ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١

(٣) هذا البيت للمتنبي من قصيدة يستهلها بقوله :

أجاب دمعى وما الداعى سوى طيب * دعا قلباه قبل الركب والإبل المتنبي ، الديوان ، ج ٢ ص ٧٢

(٤) البقرة / ١٧٩

فراخ الطمع فيه ، وقد ثبت هذا التصور فى عقولهم وهو أن العظمة والحكم تأتى بلا معاناة وبمجرد الطلب والإجتهاد ، وأن الإضطراب والخفقان يمكن أن يوصلا يد الإدراك إلى طرف ذيل الدولة وهيئات « يعدمهم ويمنيهم وما يعدمهم الشيطان إلا غرورا »^(١) ، ولا يعلمون أن الملوك مختارون من قبل الله ، محاطون بعنايته ، لأنه قسم المواهب الأزلية ، وأمضى ولاية القدرة الإلهية^(٢) ،

وفى البداية ألقى طائر الهما^(٣) بظله على الرسل ، ثم على الملوك ، ثم على العلماء ، والناس يظنون أن ولاية خداع التفكير من العلم ، ويعدون الكذب والنفاق مع الملك من بعد النظر ، لكنهم عندما يسيرون فى هذا الطريق ، فإنه يتحتم علينا الإجتهد اللائق فى ضبط أمور السياسة ، وجذب قوس المصلحة لحصهم على تمام الخضوع ، وعندما يسير صلاح مفسد الملك على هذا النحو يرجع الملك إلى الإستقرار الأصيل .

(١) النساء / ١١٩

(٢) يعلق العلامة القزوينى على هذه العبارة قائلاً : إن المقصود من هذه العبارة غير معلوم ، وجميع النسخ مبهمه ومضريه ، وهى مطابق للمتن انظر ، واشى القزوينى على مرزبان نامه ط ليدن ص ١٩

(٣) هو طائر خرافى لكل من يظله يصير ملكاً د . شتا ، المعجم الفارسى الكبير جـ ٣

ص ٣١٩٩

لأن المرآة تعكس كل اختزال قد رتبوه ، وكل انخلال قد ركبوه ،
كقرطاس يُنقش بنقشٍ خسيس فيؤدى حذفه إلى خرقه أو فساده .

خطاب الأمير إلى الوزير

قال الأمير : إن الملك مثل الشمس المشرقة ، والرعية مثل السراج
الوهاج ، فإذا ما أشرقت الشمس على صفحة السيف ، فأى نور يبقى
للسراج ؟

وأمام الأنوار الذاتية يتقهقر النور المستعار ، وهكذا عندما يظهر
الملك سجاجة خلقه ، ويبدى اهتمامه برعيته ، فإن تخلقهم بعبادته
أمر محقق ، وعموماً فالخلل صفة خاصة بطباع العوام ، وقد قالوا :
إن الزمان ينظر فى قلب الملك حتى يرى نفسه وكيف يكون ؟ فيميل
إلى كل ذلك الذى يميل إليه الملك (وقد قيل) إذا تغير السلطان تغير
الزمان ، وقد قالوا : إن الله تعالى لا يسلب هبة أعطاها لقوم مالم
يزل عنهم اهتمام ملكهم ، مثلما وقع لـ « خرئماه » مع بهرام كور. ^(١)

(١) بهرام كورا هو بهرام الخامس تربي فى الحيرة بين العرب وولى (٤٢٠ - ٤٣٨) م ،
وقد أطلت الأساطير حكمه وسيرته ، كما فى الشاهنامه ، إذ كان ملكاً شجاعاً محبباً إلى رعيته
فاخترعوا له قصصاً تبين مكانته فى نفوسهم ، ساس رعيته عادلاً لا يحابى ، ولم يمنعه حب
اللهو والصيد أن يؤدى ما عليه ، ومات عن فارس وهو فى أوج عظمتها ، ولذلك فإن قصته
فى الشاهنامه بلغت عشرين وتسعمائة بيت ، وقد سعى كذلك لغرامه بصيد حُر الوحش
« كور معناها حمار وحشى »

الفتح بن على البندارى الترجمة للشاهنامه جـ ٢ ص ٨٠ ، د . شتا المعجم الفارسى
الكبير جـ ١ ص ٤٢٢ .

فسأله الملك كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية خره نماء مع بهرام كور

قال الأمير سمعت أن بهرام كور خرج ذات يوم للصيد ، فهطل المطر في مكان الصيد ، وأصبحت الظلمة أكثر سواداً من ليل انتظار المشتاقين إلى وصال جمال الحبيب ، وكان المطر أغزر من هطول دموع عين العشاق على فراق المعشوق ، ولمع البرق بين السحاب ، وارتفع دخان الضباب سريعاً منبعثاً من مهب المهابة الإلهية وغابت أشعة الشمس ، وتغطت فتحة الهواء بغطاء الظلام ، واسودت الدنيا كلها (١)

فالشَّمْسُ طَالِعَةٌ فِي حُكْمِ غَارِيَةٍ وَالرَّأْدُ فِي مُسْتَثَارِ النَّعْجِ كَا الطُّفْلِ

وتفرق حشم الملك كل واحد عن الآخر ، بسبب هذا الظلام الدامس ، وقصد الملك ضيعة من ضياع تلك النواحي ، وكان هنالك دهقان من أغنى الدهاقين يدعى « خره نماء » كثير الثروة والمال من الناطق والصامت والخيول والمواشي ، كأنه امتلأ واديه من ثاغية الصباح وراغية الروح .

فدلف الملك بيت هذا الدهقان متكرراً ، ولم يعرف الدهقان المسكين من هذا الضيف ؟ ! وبالتالي فإنه لم يقدم القرى اللائق لكرم الملوك ،

(١) الترجمة الحرفية أظلمت الحجرة ذات الجهات الست . وهي كناية عن الدنيا .

ولم يقم بالخدمة التي تجب للملوك، وبهرام كور وإن لم يظهر أى شيء إلا أنه تغير فى باطنه فتحرك لذلك خاطره بدون التفات وفى المساء وعندما وصل الراعى من الصحراء ، أخبر « خرّه نماء » بأن لبن الشياه قد نقص اليوم عن الذى اعتادت عليه ، وكان للدهقان « خرّه نماء » فتاة جميلة الطبع ، نقية السريرة تحاكي نظافة الطبق ولطافة الشراب ، ينبىء جمال صورتها عن كمال المضمون ؛ فقالت له : من الممكن أن تكون نية ملكنا قد ساءت تجاه الرعية - اليوم - وانقطع حسن نظره واهتمامه عنا ، الأمر الذى يتسبب فى قطع لبن الشياه ، (لأنه) إذا هم الوالى بالجور على الرعايا أدخل الله النقص فى أموالهم حتى الضروع والزروع ، والأمر الأقرب إلى الصواب هو أن نبعد عن هذا المكان ونبحث عن مقام آخر .

قال الأب : أصبت ؛ يجب علينا أن نرحل عن هذا المكان وأن نطلب مكاناً آخر ، فقالت الفتاة : إذا ما رغبت فى مثل هذا ، فإن لك فى البيت القدر الكبير عند نقله من هنا إلى مكان آخر ، ومن ثم فالأولى أن تنفق شيئاً من ذلك فى سبيل هذا الضيف ، فاستجاب الدهقان لذلك ، وأمر فصنعوا ، بتكلف مائدة طعام ، ووضعوها أمام « بهراكم كور » ، وقدموا بعد الطعام شراباً تتخيل أن لونه الوردى لون حدود حسان ، ثم قدموا تقرأ تقول إن حلاوته حلاوة قبلة الحسان ، فعلوا ذلك بهذا الترتيب ، على هذا الأسلوب خدم الدهقان « بهرام كور » ثم شرب الدهقان كأس خمر وأعطاه كأساً ، وأمضى الوقت فى العطاء والأخذ وقال : لكل كأسٍ حاس ، لنكن قرب الحظ هذه الليلة ،

هذه الليلة حبلى فماذا تلد؟^(١)

وبعدما شرب كأسين أو ثلاثة ، أزال تأثير الشراب جلاباب الحياء
عن سر مطربة الطبيعة ، واقترب من إخراج سر خاطره من تحت الستر
مثل العشاق ،

مَضَى بِهَا مَا مَضَى مِنْ عَقْلِ شَارِبِهَا وَفِي الزُّجَاغَةِ شَاقٌّ يَطْلُبُ الْبَاقِي

وفي أثناء المناولات وتضاعيف تلك الحالات ، قال بهرام كور
للدهقان : إذا كان لديك جارية جميلة الوجه نتمتع بمشاهدتها فقط ،
وتخلص النفس من وحشة الغربة بمؤانستها ، وهذا ليس غريباً عن
لطفك ، فنهض الدهقان ، ودلف إلى حجرة حرمة ، فعلم أن لديه
فتاة أكثر تحلياً من الجارية بوقاية النفس وصيانتها ، فلو قامت بهذه
الخدمة فلن يصيبها ضرر ، ولن توصم عين وجه عصمتها مطلقاً .

وَمُقَرَّطَقْ نَفْثَاتُ سَحَرٍ لِحَاظِهِ أَعْيَيْنَ كُلَّ مُعْزَمٍ وَطَبِيبِ
أَخْلَاقِهِ يُطْمَعَنَّ فِيهِ وَصَوْنُهُ يُغْنِيهِ عَنْ مُسْتَحْفَظٍ وَرَقِيبِ

(١) هذا المثل شائع في الأديين العربي والفارسي ، فقد ورد عند فخر الدين أسعد
الجرجاني ، وفرخي ، حافظ الشيرازي ونقله أبو الفضل السكزي المروزي إلى العربية حين قال :
أفضل ما في الليل شيء وجد الليل حبلى ليس تُدرى ماتلد ؟

انظر : محمد دروش ، حواشيه على مرزبان نامه جـ ٢ ص ٥٧٦ ، ٥٧٧

ومن ثم أمر ابنته قائلاً : يجب عليك أن تجلس ساعة أمام هذا الضيف حتى تهدأ وتستقر رغبته بنظرة من لقائك ، فانقادت الفتاة للأمر وذهبت إلى الملك مثلما أنشقت الشمس على إيوان جمشيد^(١) أو ، كأنما وقع نظر بهرام على كوكب الزهرة ، فرضيت نفس الملك بتنزه النظر في ذلك المنظر الروحاني ، واستراح من عناء الدهر بلطائف مشافهتها ، وترنم لسان حاله قائلاً ومنشداً :

أنت في متناول يدي لكنها لا تستطيع الظفر بك واحسرتاه لأنه
يجب على الظمان أن يموت في الماء^(٢)

فتزل الملك إلى أعتاب القلب بالياقوت الأحمر الوردى - لأن الدهقان لا يمكن أن يخرجها إلا بعد أن يأخذ الياقوت بالجاروف -^(٣) كما طلا عين الشمس بهذا الياقوت أيضاً ، وأخفى علامات عشق تلك الزهرة ، فربما يلتفت خاطره إليها ، قائلاً إنني عندما أذهب إلى منزله ، سوف يدخل هذه الفتاة في حباتلي ،^(٤) وأكرم والدها مقابل هذه الخدمة .

(١) اسم ملك إيراني من العصر الأسطوري د . شتا ، المعجم الفارسي الكبير ج ١ ص ٨٤٦

(٢) لعل الشاعر الفارسي قد أخذ هذا المعنى من الشاعر العربي الجاهلي حيث يقول :

وأشد ما لقيت من ألم الجوى * قرب الجيب وما إليه وصول

كالعيس في البندا يقتلها الظما * والماء فوق ظهورها محمول .

(٣) علق الأستاذ القزويني على هذه العبارة قائلاً : والمقصود من هذه الجملة على وجه

يرضاه الطبع غير معلوم القزويني ، مربيان نامه ط ليدن حاشية رقم (١) ص ٢٢

(٤) كناية عن عزمه على الزواج منها .

ومع الفجر طُلّيت شامة الليل السوداء بلبن شعاع النهار ، وعاد الراعى من الصحراء ، وحكى عن كثرة لبن الشياه ، فوضع السامعون إصبع الحيرة على أسنانهم ، فقال الأب وابته : لعل كوكب السعد قد وجه عاطف الملك نحونا ، وعكس قضية سوء العناية وإلا فما موجب نقصان لبن الشياه أمس من عادته ثم عودته اليوم ، كانا يقولان هذا دون أن يعلما أن سبب زيادة اللبن وسبب نقصانه فى بيتهم ! ، ويأى صداق سوف تُمهر به عذبة الشفه إلى مخدع الملك !

لا يَسْرَحُ الدَّهْرُ تَأْتِينَا عَجَائِبُهُ مِنْ رَائِحِ غَيْرِ مُغْتَادٍ وَمُبْتَكِرِ
وعندما عاد بهرام كور إلى مقر حكمه ، أمر فكتبوا مرسوماً بإضافة عدة قرى إلى هذه القرية باسم هذا الدقهان مكافأة له على تلك الضيافة ، ثم أحضروا ابته للملك بالإكرام والإجلال فى لباس التمكين وجلال التزيين بعد عقد الزواج .

وقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم أن الزمان يتبع نية الملك بهذه الكيفية ، وأن الملك الذى لا يتعامل مع الرغبة بطبع فيه قلة الأذى وحسن الفعال ، وذلاقة اللسان وبشاشة الوجه ، تفرق به السبل ، ويتناوب عليه الخوف والرعب ، وانظر إلى المصطفى - ﷺ - الذى كان فى أكمل الكمالات وأفضّ الحال كيف خوطب بهذا الخطاب « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك »^(١) وحينما يوسم أحد الناس بالذنب لا يأمر (الملك) بتعميم العقوبة ، قال تعالى

(١) آل عمران / ١٥٩

(٢) الاسراء / ١٥ .

« ولا تزر وازرة وزر أخرى » ^(٢) لأن حال الرعية سوف ينتهى حيثئذ إلى التواكل وينجذب كلية إلى الاستئصال لأنهم يأخذون قرية بذنب بيت ، مدينة بذنب قرية ، وإقليماً بذنب مدينة ، ولو كان الملوك والسلاطين السابقون بسيرور على هذا النسق لانقرط عقد أمور المملكة ، ولم تصل الدنيا من المتقدمين إلى المتأخرين عامرة ، ويجب على الملك أن يراعى شروط العدل ، وأن يولى على أركان الملك وزيراً يغلب الرفق والمداواة على أخلاقه ، حتى لا يجعل نفسه أسيرة الطمع منمورة بالهوى يفكر دائماً فى العواقب ، ويجب أن يعلم أنه لا غنى للملك عن مثل هؤلاء الحكماء ؛ لأن الملك - مثلاً - بمثابة الرأس ، وهم بمثابة الجسد ، وبرر أن الرأس أشرف عضو فى الأعضاء ، إلا أنها أحوج عضو للأعضاء ، لأنها إن لم تجد - فى كل وقت - آلة منفذة من الأعضاء فلن يتحقق أى غرض لها أبداً ؛ وما لم تحرك القدم ركاب الحركة ؛ لا يمكن للرأس الذهاب إلى أى مقصد وطالما أن اليد لا تملك عنان الإرادة ، فإن الرأس لا تستطيع أن تسعى لتناول أى غرض ، ومثلما يشترط سلامة الجوارح وصحتها لتحقيق أغراض الرأس ، وقد خصص لكل جارحة عمل من بداية الخليفة ، فكنلك الملك يلزم له خبراء مختارون صحيحو الرأى ، صادقون ، معطلون للثواب ، محبوبون للشاء ، بعيدو النظر مقدرون للعواقب ، مقيمون للعدل ، متلطفون بالرعية ، يستقر كل واحد منهم على جادة الإنصاف راسخ القدم ، ويشغل كل واحد نطاق عمله ، لكل واحد منهم مقام معلوم ومقياس محدود لكى لا يمد قدمه أكثر من لحافه ^(١) ولا يضطرب نظام أسباب الملك بسهولة .

(١) يشير إلى المثل العامى « على قد لحافك مد رجلك » .

والملك الكريم العراق اللطيف الأخلاق الذى لا يكون خدمه وحشمه على هذا النحو يشبه العسل المصفى الذى لا يمكن الوصول إليه خشية لسع النحل من حوله .

رُضَايُهُ الشَّهْدُ لَكِنْ عَزَّ مَوْرِدُهُ وَخَدُّهُ الْوَرْدُ لَكِنْ جَلَّ مَجْنَاهُ

وعلى كل حال ، ينبغي على الملك المحافظة على سبيل رشاد الآباء وسنن اعتيادهم وكل من يمتنع عن ذلك يصيبه ما أصاب الذئب من الغنى صديق الراعى فسأل الملك ، كيف كان ذلك ؟

حكاية الذئب والمغنى صديق الراعى

قال الأمير سمعت أن ذئباً استوطن غابة فى وقت من الأوقات ، وذات يوم كان يدور فى أطراف ونواحي مكان الصيد الذى كان فيه رزقه ، وكان يبحث عن الصيد فى كل ناحية بكل الوسائل ، حتى يتسنى له أن يوقع صيداً فى شراكه ؛ فلم يتيسر له هذا ، وفى ذلك اليوم كان هناك راعٍ يرعى قطيعه بالقرب من موطن فرآه الذئب من بعيد ، ومثلما تأخذ الخروف الغصة من الذئب ؛ كانت قد أخذت الذئب من رعاية الراعى للقطيع ، ولم يتعد نصيبه سوى غبار فى عينه ، وكان يعض أسنان العجز قائلاً :

أَرَى مَاءً وَبَى عَطَشٌ شَدِيدٌ وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوَرْدِ^(١)

(١) أورد ابن القيم هذا البيت مع بيت آخر ونسبهما إلى عبد الله بن المبارك ، وهذان البيتان هما :

أرى ماءً وبى عطش شديد * ولكن لا سبيل إلى الورود

تهجر الصاديات الماء لما * رأت أن السلامة فى الصدود

ابن القيم ، روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص ٣٦٣ دار التراث القاهرة .

شعر فارسي

ليس ثمة ما هو أندر من هذا على الإطلاق فأنا ظمآن وأمامي الماء
الزلال جاي

وحيثما كان يسوق الراعي القطيع من الصحراء إلى البيت ليلاً ،
تخلف جدي ، فوقع بصر الذئب عليه ، فظن ربط غزالة روض
الفلك على سراج جواد مقصوده ، ثم هياً قيداً لاصطيادها ، وعندما
وجد الجدي نفسه أسيراً في أنياب النواذب علم أن وجه الخلاص
لا يمكن أن يتأتى إلا بلطف الاحتيال ، وفي الحال استقبل الذئب بقدم
التجاسر ، وتقدم إليه مكرها لابطلاً ، وقال له إن الراعي قد أرسلني
إليك ، ويقول لك : إنه لم يصلنا اليوم أى أذى منك ، ولم تمارس
عادة خطف الذئاب مع قطيعنا ، وهذه ثمرة تلك السيرة الحسنة وحسن
التصرف ، والحياة التي لديك نحونا ، وهى أنه وضعني أمام عين
مرادك كحلم على وصم مهياً ومهنأ ، وأمرني أن أغنى ، وأبدأ بالغناء
العذب حتى يحدث لك نشوة وسعادة ذلك الغناء أثناء التهامك لى بما
يلائم ذوقك ويكون الأفضل لطبعك فدخل الذئب فى جوال غموض
الجدي ، وصار عيياً كحيوان الضبع ، وأمره أن يفعل ، فرفع الجدي
عقيرته بالغناء بصدر مكلوم تحت تأثير ما حدث له حتى وصل
صدى ذلك من الجبل إلى أذن الراعي ، فرفع (الراعي) مطرقة
صلبة ، حينئذ ركض الذئب مسرعاً كالريح ، واضطربت النار فى
ساحة أمنيته وفر من هناك حيث انزوى فى زاوية ثم وضع الرأس على
ركبة التفكير خائباً خاسراً قائلاً : كيف وقعت فى أمثال الجهلاء
ولإهمال المخرفين ؟

إن الناي والعود الذي يملكهما القط لا يصلحان أبداً لرقص الفأر^(١)

لماذا أتحى للجدي فرصة كي يهزل بي ويحتال بمثل هذه الوقاحة والتزوير ؛ وأن يتزعزع - عنوة - عنان الرغبة والنهمة من يدي ، ويحبس شيطان عزيمتي في قمقم^(٢) . ومتى كان والدي يجد الطعام هكذا ، أو يصل إليه بهذه الكيفية ، وأنى له بهؤلاء المطربين حسنى الصوت والمغنيين المتغزلين الذين يعزفون أمامه أعذب الألحان ، وينشدون الغزل الملكي على مائدته ؟

وَعَاجِزُ الرَّأْيِ مِضْيَاعٌ لِفُرْصَتِهِ حَتَّى إِذَا فَاتَ أَمْرٌ عَاتَبَ الْقَدَرَا

وقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم أن العدول عن عادة الأسلاف صفة ذميمة ، وهى سياسة لذوى الملك الموروثة ، وليست لذوى الملك المكتسب ، لأن الملك المكتسب يكتسب بقوة الساعد ، وينبع ماء شجرته من نبع السيف ، مما يجعل موارد ومصادر هذا الأمر معروفة ، ومقتضيات حاله ومآله معلومة ، بل ربما يكون ذلك إغلاق وفتح ، وأخذ وعطاء ورفع ووضع وراتق وفائق للأمر ، فالذى يصل إلى الملك بلا معاناة طلب ولا مقاساة تعب من حيث لا يكتسب ولا يحتسب ، ثم يلغى بصنيع الآخرين وأدائهم المهياً فى ذيل مراده ، ويضع مفاتيح أمور الدولة فجأة فى كم ثوب تدييره ، ويتخطى رسوم وحدود الأسلاف ، ويبعد عن جاده طريقهم بخطوة ، فإن الخلل يجد له طريقاً فى أساس ملكه ودولته ، ولا بد أن يلزم كثرة الخراب فى أساس مملكته بسبب قلة مبالاته فى ذلك التغافل والتوانى .

(١) هذا البيت لسنائى الغزنونى انظر : سنائى الغزنوى ، الحديقة ص ٣٨١

(٢) هذا المضمون ورد أيضاً فى كليلة ودمته انظر كليلة ودمته ، ط ١ ستاد مينوى ، ص ٦٥

وَمَا لِعُضَادَاتِ الْعُرُوشِ بَقِيَّةٌ إِذَا اسْتُلَّ مِنْ تَحْتِ الْعُرُوشِ الدَّعَائِمَ

خطاب الوزير إلى الأمير

أصاب حجر العجب أسنان الوزير من هذا الكلام ، واستحالت نيران غضبه إلى لهب من الغيظ فأطال لسان انتقامه وقال : لقد جمع الأمير أمثال تلك الحكايات المزورة والمزيفة من أجل إخجال حالي وتقرير مقالته ، فيجب أن نعلم أن أعداء الملك صنفان : أحدهما ضعيف خفي ، والثاني قوى واضح ، والضعيف الذي ليس له قوة المقاومة أو قبضة الملائكة يظهر نفسه أمام الناس في لباس التدين وقلة الأذى والمحافظة وحسن الفعال ، حتى يجعل حرارة حب الملك في قلوب الرعية باردة ، ويشعل حرارة غرضه ، ومن ثم فعلى الملك أن يعلم أن خلل وجود هذه الطائفة غير مرتبط ببقاء ملكه ، فليظهر ذيل عصره من شرٍ صحبة مثل هؤلاء الأشرار .

خطاب الأمير إلى الوزير

إن من يبدى تدينه ويبحث عن ترويج سوقه ، فهو يفعل ذلك إما لأن أسباب معيشتة غير كافية وليس له أى ذكر فى الواجهة بين وجوه الناس وأعيانهم ، ومن ثم جعل التشيع والتصنع^(١) شراكاً لمراده ، وإما أنه يرى الجريمة على صحيفة أعماله ، ويعلم أنه أحدث جرحاً غار على صفحة وجهه ، ولا يستطيع أن يمحو ذلك إلا بعلامات

(١) بمعنى التظاهر والتفاق ومنه الحديث الشريف « المتشيع بما ليس فيه كلابس ثوبى زور »

التدين والتنسك ، وإما من خوف عدو لا يستطيع دفع سلاح طعنه إلا بإظهار الصلاح ، وبحمد الله فإن طهارة ذيلى ونقاء جيبي من هذه المعانى ثابتة ومقررة ، كما أن عرضى مستغن عن معارض وملابس التلبس .

ولكننى عندما أتأمل فى بداية هذا العالم ونهايته ، وأفكر فى الرجوع إلى رب العالمين فإننى أعتبر أن إزالة الملك للحرص والطمع المتوغلين فى جذور العقل ورأس قضاء الشهرة التى تطل من فضول الحاجة أولى عسى ألا يكون من جملة منكسى الرأس الأذلاء فى يوم الحساب « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم »^(١)

وأنا لا أقصد من هذه الفصول سوى تثبيت أصول الملك الذى مابنى أساسه إلا على رفاهية الرعية ، والملك عالم بأن ذلك يمهّد لقاعدة الخوف والرجاء بالنسبة للرعية ، حتى تترك المذنب فى خوف دائم ، فيملك زمام أمره ، ويراقب مواطن سخط الملك ، وتجعل الخير دائم الأمل فى مجازاة الخير فيسلك طريق الخدمة القويم ويصدق فى حبه ، ويعلم نجاح مساعيه فى تقديم مراضى الملك .

وينبغى على راعى الخلق أن يصقل المنشار حتى يقسم الأمر بينه وبين الرعية قسمة صحيحة ، حتى إذا ما قطع عنهم منفعة ماله فتح لهم منه طريق الملاينة والمساهلة ، والذى يعلم أن هذا المعنى صحيح هو من قال :
إن الراعى الذى يسرق للمال من الرعية يقطع الجمل من الأساس ويجصص السقف^(٢)

وعندما تكون أساس معيشة الملك من الرعية فهو كالبحر الذى يطلب الماء من الجدول

(١) الشعراء / ٨٨

(٢) هذان البيتان لسنائى الغزنوى ، انظر سنائى الغزنوى ، الحديقة ص ٥٧٣ ، ص ٥٧٤

فخراب الملك وعمارة خزينة الملك لا يكون إلا عن طريق الظالمين ولكن عندما لا يتمرس الوزير على مراسم العدالة على هذا النحو فإنه لا ينتج عنه سوى انفصام عروة الملك وانهيار عرى الدولة والملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم .

خطاب الوزير مع الأمير

عندما رأى الوزير فيضاً من فتح باب البيان ، وسمع فصل الخطاب من كلامه علم أن ميزان امتحان « يكرم الرجل أو يهان » سوف يتجه مؤشر رجحانه نحو الأمير ، وسوف تشعل من نار العذاب في داخله على لسان العفة ، وقال : إن المغالبة أوصلت الأمير إلى المبالغة في الحديث ، وانتهت مكاشحته إلى مكافحة ، ويعتقد أن سبب الإغماض على عشرات هذيانه مهارة فنه وغزارة علمه ، لكن عظمة حشمة الملك وتجنب مواضع سوء الأدب يضعان خاتم الصمت على لسانى ، ولقد قالوا : إن قوة الحال لا تكون فى الجرأة وحسن الوجه لها معنى الملحة ، والشجاعة ليست فى منازلة الخصم ، والثراء ليس فى إبداء الجود ، والعلم ليس فى جهل مقام التحرز ، وصاحب النسب الذى لا يتزين بحسب الثقافة لا يجد نفعاً على الإطلاق .

فَأَخْلَاقُهُم بِالْمُخْزِيَّاتِ رَهَائِنُ وَأَعْرَاضُهُم لِّلْمُرْدِيَّاتِ حَصَائِدُ
تَقْهَقْرُ عَنْ نَيْلِ الْمَعَالِي خُطَاهُمْ فَسِيَانٌ سَاعٍ لِّلْمَعَالِي وَقَاعِدُ^(١)

(١) هذان البيتان من قصيدة للطغرائى مطلعها :

فؤاد على كثر الحوادث مارد * وعزم على جور النواذب قاصد الطغرائى ، الديوان ص ٤٦ ، ص ٤٩

خطاب الأمير مع الوزير

قال الأمير : إن الوزير إزاء استماع هذا الكلام الذى عليه إجماع الأمم واتفاق عقلاء العالم ، يشبه الحصان الحرون الذى يظهر أنه غير حرون حتى لا يضرب سوطاً فى هذه الخصومة ، ويشبه الطفل الذى يجلس القرفصاء خوفاً من سوط المعلم ، وعندما يخرج يمزق عقلا العقل ، ويعود مرة أخرى إلى طباع الطفولة ، ويشبه الحمار الأعرج الذى يأكل العلف الكثير فى الراحة ، ويستريح على المربط بلا عمل ، فيبدو معافاً سليماً ، وعندما يشعر بتعب قليل من حملة لحمل الأسفار فإنه يظهر عيب العرج .

وحتى الوقت الذى لم يكن قد كشف القناع فيه عن أحواله ، كان يظهر كل الثبات والرزانة ، وعندما تزول القدم عن حد الحياء سوف يظهر مزاج التساوى الذى وجد على ذلك التربى ، وعندما نفلق طريق التسامح والتصالح سوف نتحدث حديثاً أكثر وضوحاً ، ووزراء الملك الذين لا شرف لهم ذاتاً وصفاتاً بعيداً عن خدمة الملك ؛ يجلسون يوم عزلهم مثل تلك المرأة المتجملة المكتحلة التى يظهر قبح وجهها عندما يزيلون عنها الزينة المستعارة ؛ ويشبهون ذلك الجدار الذى يحير العين بانعكاس تصاويره ، فإذا ما غسلته بقليل من الماء فإنك لا ترى منه سوى الطين الأسود ، وقد قالوا لا تمدحن خسيساً بمرتبة نالها من غير استحقاق فإنها تحطه عما كان عليه ولكن بعد أن كثرت ذنوبه وظهروا عيوبه وصار مواليه مُعَادِيًا ومادحه هاجياً ، والملك الذى يربط رباط التعامى على عين بصريته عن مقابح أحوال

وزرائه ومخازى أعمالهم ، ويريد أن يتعامل بالتمحل والتعلل فإنه يشبه ابن آوى راكب الحمار الذى قتل بالجهل ، فقال الملك كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية ابن آوى راكب الحمار

قال الأمير : سمعت أن ابن آوى اتخذ بيتاً بجوار حديقة ، وكان يدلف إلى الحديقة كل يوم من فتحة جدار فيها ، وكثيراً ما كان يأكل ويتلف من العنب وكل أنواع الفاكهة حتى ضجر منه البستاني ، وذات يوم أخذت ابن آوى سنة من النوم ، فأغلق البستاني فتحة الجدار التى كان قد اتخذها منفذاً ، وألقى بابن آوى فى شراك البلاء ، وأفقده الوعى من جراح عصاه ، فتظاهر ابن آوى بالموت ، ومن ثم حمله البستاني وألقاه خارج الحديقة ، وأنشد قول الشاعر :

إِنَّ ابْنَ آوَى لَشَدِيدُ الْمُقْتَنَصِ وَهُوَ إِذَا مَا صِيدَ رِيحٌ فِي قَفْصِ

فلما تماسكت أجزاؤه مرة أخرى بعد تلك الصدمة ، وترك جوار الحديقة خوفاً من جور البستاني ، وكان يسير وهو يعرج ويحجل ، ومضى إلى ذئب كانت له معرفة به ، فوصل عنده ، فما إن رآه الذئب حتى سأله عن سبب هذه العلة والضعف ، ولماذا هذا النشيج فقال ابن آوى :

جَنَّا حَىٰ إِنْ رُمْتُ النُّهُوضَ مَهِيضٌ وَحَبَّةٌ قَلْبِي لِلْهَمُومِ مَغِيضٌ
فَلَوْ أَنَّ مَائِي بِالْحَدِيدِ أَذَابَهُ وَبِالصَّخْرِ عَادَ الصَّخْرِ وَهُوَ رَضِيضٌ

ثم قص هذا الضائع ما حدث له من أحوال لا طاقه لسمع الأصدقاء بها ، بل إننى لو أقرأ ما حدث لى على قلوب الأعداء القاسية الذابت مثل الشمع واحترقت لأجلى ، ومع ذلك كله فلم يعد شىء مما قد حدث لى يعادل شوق رؤياك ، لأن لحظات العمر فى ظل مشاهدتك تذهب ما على قلبى من منغصات ، ومن ثم فإن هاتف الاشتياق جاء لى بعد تحمل آلام الفراق ، فقال الذئب :

إِنَّ الْحَبِيبَ إِذَا لَمْ يُسْتَرَزَّرْ زَارًا^(١)

أى شىء أفضل للصديق من رؤية الصديق ؟

جئت سعيداً ، وأتيت بالسعادة معك ؛ وأى هدية سماوية وأى وارد روحانى فى مقابلة هذه السعادة وموازنة هذه الخيرات ، لأنك أبديت المفاجأة الجميلة المباركة وأزلت تجاعيد الحزن عن جبين مرادنا .

أَحْيَاكُمْ اللَّهُ وَحَبَّأَكُمْ وَلَا عَدَا الْوَابِلُ مُفْنَاكُمْ
فَمَا رَأَيْنَا بَعْدَكُمْ مَنَظَرًا مَسْتَحْسَنًا إِلَّا ذَكَرْنَاكُمْ

وهكذا كان يلاطفه بأنواع الملاطفات ، وظهر بين الجانبين التعاطف الذى ينبعث من تعارف الأرواح فى عالم الأشباح ، قال الذئب : لقد كنت صائماً عن الصيد منذ ثلاثة أيام ، واليوم بما أنك وصلت وأنت ضيف عزيز ، ولا يوجد لدى ما أقدمه لك ، فلا بد أن

(١) هذا المصراع للشاعر العباسى ابن الأحنف ونظام البيت :

نزوركهم لا تكافيكم بجفوتكم * إن الحبيب إذا لم يسترزَّر زار

العباس بن الأحنف ، الديوان ، ص ٧٣

أخرج إلى الصحراء كي أصيد صيداً في قيد المراد « وشبع الفتى لؤم إذا جاء ضيفه » ، فقال ابن آوى : لى معرفة بحمار الخداع فى مخالب قهرك عسى أن يكون طعاماً لنا لعدة أيام ، فقال الذئب لو تكفلت بهذا دون تكلف ، فبسم الله .

انطلق ابن آوى من هناك ، ثم وصل إلى قرية ، فرأى حماراً واقفاً على باب طاحونة ، أنزل من فوق ظهره حمل ثقيل ، قد تحطمت قوائمه من ثقل الأحمال ، فدنا منه ، وسأله عن متاعب دنياه ، ثم قال له : أيها الأخ حتام تظل مسخراً لابن آدم ، وتظل روحك مسحوقة فى هذا العذاب ؟ فقال الحمار ك لا أعلم لى حيلة إزاء هذه المحنة ، قال ابن آوى : إن لى وطناً بمرعى فى هذه النواحي تنكس صورة خضرتها على قبة الفلك الخضراء ، فهو متنزه أحلى من العيش فى السعادة ، وصحراء أزهى من قوس قزح فهو مثل دوحة جنة طوبى وأشد خضرة من حلة الحوراء .

تأزر فيه النبت حتى تخايلت رباه وحتى ما ترى الشاء نوما

وهذا المكان خالى الأطراف من آفة الحيوانات المفترسة والشراك ، وفارغ الاكتاف من الفساد وتزاحم السباع والسوائم ، فلو توافق ؛ نذهب إلى هناك ونعيش سوياً تجمعنا المصاحبة والمصادقة على رعادة العيش ولذاذة العمر ، فوقع هذا الكلام على مذاق الوفاق من الحمار ، وشايع ابن آوى وتابعه فى الطريق .

فقال له ابن آوى : لقد ابتعدنا عن طريق ، فياليتك تحملنى على ظهرك ساعة حتى أستريح ونصل سوياً إلى هدفنا على نحو أسرع ،

فانقاد الحمار لرأيه ، فقفز ابن آوى على ظهره ومضى حتى اقتربا من تلك الأجمة ، فنظر الحمار من بعيد ، فرأى ذئباً ، فقال :

تَأْتِي الْخُطُوبُ وَأَنْتَ عَنْهَا نَائِمٌ

أيها النفس الحريصة أتقبلين على الموت بقدميك ، تتعلقين فى شرك الهلاك بيديك ؟

إذا فكر القلب فى الخلاص من التفكير فيك فإن العقل يسرع إلى قمة التفكير فيك فمن يلوى العنان ويصل إلى هناك يسحقنى ويسحقك بألف غم .

لقد وضع تسويل وتخيل ابن آوى القيد والعقال على يد وقدم عقلى ؛ وقذف بى فى ورطة الخطر ووصل الاختلاب ، فلأبحث عن حيلة لى ، فوقف فى مكانه وقال : يا ابن آوى ها هى آثار وأنوار تلك الأجمة أراها من بعيد ، وتنبعث رائحة أزهارها ورياحينها إلى مشامى ، ولو كنت أعلم أن لك مأمناً وموطناً على هذه الدرجة من النضارة والطراوة لأقبلت عليه دفعة واحدة ، لكننى سوف أعود اليوم ، وغداً أستكمل بقية المهمات ، ثم أقصد هذا المكان على اليمن والبركة ، فقال ابن آوى : ياللعجب من شخص يضيع نقد الوقت بنسبة التوهم ، فقال الحمار : أصبت ، لكننى ورثت عن أبى وصية مليئة بالفوائد زهى معى دائماً ، وأضعها باستمرار تحت وسادتى ليلاً ، وبدونها أرى أحلاماً سيئة وخيالات فاسدة ؛ أحملها وأتى بها بنفسى ، ففكر ابن آوى أنه إذا ما ذهب وحده فلن يرجع ، ولا يمكن دفعه وتحريضه على المجيء ، لكن ينبغى مجاراته وموافقته فى ذلك الذى يقوله ، وأنا بدورى أعود معه ، فألوى عنان عزيمته إلى

الطريق ، ثم قال : أحسنت ، إن الحديث على نصيحة الوالد ووصيته دليل الكفاية ، فإذا كنت تذكر من تلك النصائح شيئاً ، فلا تحجب عنى فائدة استماعها وإبلاغها ، فقال الحمار : إنها عبارة عن أربع نصائح : الأولى لا تفارق هذه الوصية مطلقاً ، والثلاث الأخرى لا أتذكرهن الآن لوجود خلل فى ذاكرتى ، وعندما نصل إلى هناك أقرأ عليك الوصية ، فقال ابن آوى : نرجع الآن وغداً نعود إلى هذا المقر ، فتوجه الحمار إلى الطريق ، ولوى العنان بسرعة مثل الناقة السريعة ، فقد كان يسير مثل الطائر ممزق الشباك حتى وصل إلى باب الطاحون ، فقال الحمار : حضرتنى الثلاث نصائح الأخرى ، أتريد أن تسمع ؟ فقال ابن آوى : تفضل فقال النصيحة الثانية هى : عندما تعرض لك نائبة فاخش ما هو أسوأ منها ، الثالثة هى : لا تفضل الصديق الجاهل على العدو العاقل ، أما الرابعة فهى : كن على حذر من مجاورة الذئب ومصادقة ابن آوى كليهما .

عندما سمع ابن آوى هذا الكلام ، علم أن هذا ليس مقام توقف وقفز من فوق ظهر الحمار وولى هارباً ، فانطلقت كلاب الطاحون خلفه ، وأرقوا دم المسكين .

وقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم أن القلب لا يخلو من الأضرار والإخلال بتماديه فى الفكر الباطل والتسويق والانحراف عن سبيل الرشd وإصراره على ذلك ، ولا يجوز للملك أن يطلق يد التصرف والتمكن الكامل للوزير فى أعمال الملك أو يأمن له بعهدة الأمانات مرة واحدة ، لأنه بذلك يكون قد شارك فى الملك حتماً فتتولد الآفات والفتن الكبرى .

وعندما كشف الأمير كنانة الخاطر عن مكنون السر ومكتوم القلب وأطلق كل سهم كان يحتفظ به في جعبة الضمير ، وكشف عن سوء جعبة الضمير ، وكشف عن سوء عيب الوزير ، أدرك الملك بالمعية ثاقبة ورؤية صائبة أن كل شيء قاله الأمير كان صدقاً وطلب له طريق النجاة والنجاح ، وصار إظهار نقصان الوزير وقصوره نعمة محققة في الوفاء بحق شكره ، وقال « الآن حصَّصَ الحقُّ ^(١) وعسَّس الباطل ، ثم أمر بأن يعزلوا الوزير من الوزارة ويلقوه تحت الأقدام ذليل الروح حقيراً ، ويضعوه في سجن المجرمين الذين يهملون حقوق منعمهم ، وغمر أخاه بلطائف الإكرام والتوقير والاحترام وقال : بما أنك وضعت اليوم مائة ألف من درٍّ ومرجان المعنى - بلا ثمن على سبيل الهداية - في جيبنا وطرف ثوبنا ، وبسطت علم العدل والمعرفة ، وميزت عيار إخلاصك عن مغشوش الخصم ومغلولة ، فإننى أريد الآن أن تدير قرعة الاختيار على رقعة ممالك الأب واجعل البقعة التى تعلم أنها أكثر إعماراً ، وأكثر شهرة بلطف الماء والهواء وطناً لك ، واتخذها مستقراً ، حتى تؤلف الكتاب الذى تريد تأليفه ؛ وتخرج ما فى التفكير من طى الإمكان إلى حيز الوجود ، حتى يصبح عليل الحكمة شفاءً ، ويصير غليل العلم قانوناً ^(٢) وإننى من وقت إلى

(١) يوسف / ٥١

(٢) يشير الكاتب إلى كتابين لأبى على بن سينا ، الأول الشفاء فى الفلسفة والآخر القانون فى الطب ، الأول فى الحكمة الالهية وهى الفلسفة والثانى فى الحكمة الطبيعية وهى الطب .

د . مهدي محقق : يست كفتار در مباحث أدبي وتاريخي وفلسفي وكلامى وتاريخ علوم دار سلام ، طهران ١٣٦٩ ص ٣٣

آخر ، إذا ما أتيتحت لى الفرصة ، سوف أستأنس بمطالعتة وأستفيد به ، وأستكمل سياسة المملكة من ذلك ، فأجعل ميزان الملك على حال الاعتدال ؛ ويصير فى حفظه صحة وحزم فكرى قانوناً للأمر ، ويصبح نموذجاً لإخلاص العالمين ، فلا تتوقف أبداً ، ولا تقف عند أى مقدمة ، ولا تترك جلد الفكرة خاماً ، لأنك « إذا كويت فأنضج » .^(١)

فأسرع الأمير يحكم الأمر إلى بيت خلوة حضور القلب ، وأخرج (المرزبان) هذه الخريدة العذراء التى - بعد أربعمئة عام ونيف ، كانت فيها وراء ستار الخمول ، وقد أثر فيها ذبول عدم الذكر تأثيراً فاحشاً - تعود شابة فى أيام دولة مولاي سيد العالم وتأخذ من حلية قبول حضرته جمالاً ناضراً وتكتسب طراوة جديدة فليجعل الله تعالى هذا البلاط العالى الذى هو منشأ المكارم والمعالي ، متوفراً على إشادة معالم العلم وإحياء رmqه ، وإعادة دوارس المعرفة وإبداء رونقها ، ووفر الله له حظوظ السعادة ، ورزقه الظفر على أعداء الدين والدولة بمحمد وآله

(١) مثل يضرب فى الحث على إحكام الأمر وقد ورد فى مجمع الأمثال هكذا « إذا كويت فأنضج ، وإذا مضغت فأدقق » .

الباب الثاني

قصة الملك

الموفق والوصايا

التي وصى بها بنيه

عند موته

قصة الملك الموفق والوصايا التي وصى بها بنيه عند موته

قال الأمير : يحكى أن ملكاً من ملوك السلف كان له ستة أبناء ، وكانوا جميعاً مذكورين وموصوفين بسماحة الطبع وسجاجة الخلق وبناهة القدر ونزاهة العرض ، فأما الابن الأكبر فقد كان داهية القوم وواسطة عقدهم ، وكانت الأسرار الإلهية تشرق فوق جبينه ، وكان نور النظر الإلهي يلقي بظلاله على الآفاق من خلال منظره ، وكان طرف إصبع إيماء العلى يشير إليه قائلاً :

هَذَا ابْنُ خَيْرِ مُلُوكِ الْأَرْضِ قَاطِبَةٌ فَإِنْ حَسِبْتَ مَقَالِي مُوهِمَا فَسَلِ

وعندما أشرف الملك على الموت وطوى فراش عمره هذان الخادمان الزنجى والروسى اللذان كان يضربان ستارة كبريائه على العرش ، وجاء الوقت الذى يرحل فيه عن الدنيا ، ويترك التبعة للآخرين ، دعا الأبناء وأجلسهم وقال : اعلموا أننى حصلت على نصيبى من الدنيا ، ونلت ما قسم لى منذ الأزل ، ورأيت تقلبات الأيام وذقت خلوها ومرها ، وجعلت - دائماً - نصب عيني قوله تعالى « وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا » .^(١)

وسعيت بقدر طاقتى فى زرع الحسنات ليوم الحصاد ، واليوم أفل نجم بقائى ، ووصل يوم العمر إلى نهايته ، وتحديد لى الطريق الذى لامفر من قطعه ، بالرغم من أنهم قالوا :
حينما يقطعون الطريق إلى نهاية شوط فيه فإن أرواحهم تقبض فى أول منازل

لكن هذا الذهاب يبدو سهلاً جداً على ، لأننى أترك للذكرى
أبناء جديرين بالاحترام ، فضلاء ، مثقفين ، علماء ، ذوي طموح
مثلكم ، والآن أريد منكم أن تهتموا بوصاياى فى قضايا أمور الدنيا ؛
وتعلموا أن أجمل ورثة تفتتح فى بستان الأخلاق ، وتعطر مشامّ العقل
بعبيرها هى الشكر والحمد ، فالشكر مجلبة لمزيد من النعم ، ومُزيد
لهبات الله تعالى شأنه ، فأشيعوا هذه الصفات فيما بينكم لأن الله
تعالى يقول فى جزاء أعمال العباد « إن تقرضوا الله قرضاً حسناً
يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حلیم »^(١)

أشكر من أجل الزيادة (أشكر) عالم الغيب والشهادة^(٢) والتعبير
عن شكر النعمة يتم بلا مداد أو قلم أو فرجار .

ولقد قالوا : كن شاكرًا : حتى تستحق الخير فمن شكر القليل
استحق الجزيل ، واعط الحق حتى من نفسك حتى لا يحاسبك الله ؛
ولا ترض من نفسك عن كل شيء تفعله حتى لا يتخذك الناس عدواً
لأن من رضى عن نفسه كثر الساخطون عليه ، ولا تحسبن الإسراف
والتبذير جوداً وسخاءً قال تعالى « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين »^(٣)
(ولا تظن) أن البخل والإمساك من السيادة واعتدل بين هاتين
الصفتين : ولو أنهم قالوا :

(١) التغابن / ١٧

(٢) البيت الأول لسناتى الغزنوى ، الحليقة ص ٩٩

والبيت فيه إشارة إلى قوله تعالى « لئن شكرتم لأزيدنكم » إبراهيم / ١٤

(٣) الإسراء / ٢٧ .

فَلَا الْجُودُ يُقْنِي الْمَالَ وَالْجَدُّ مُقْبِلٌ وَلَا الْبَخْلُ يُقْنِي الْمَالَ وَالْجَدُّ مُدْبِرٌ

لأن الله تعالى قد ترك أمر الإنفاق لك ، وأعطاك أيضاً ميزان تسوية هذين الأمرين فقال تعالى « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط »^(١) ولا تطلق اسم الجحود على الصبر .

وَحَلَمُ الْفَتَى فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ جَهْلٌ

ولا تقنع بالضعف والسذاجة لأنهم ربطوا عالم الحدوث بفكرة الجبر والقدرة^(٢) لكنك مالم تبد جهداً في الأمور المنغلقة والمفتوحة فلن يتحقق لك أى أمر .

در حول نهر جيحون لأنه لا يمكن صيد سمك من الإناء

فبالرغم من أن الإنسان قيم على الزمان إلا أن الشيطان الناضج خير من الإنسان الساذج^(٣)

ووازن بين القول والعمل ، ولا تسود وجه حالك بوصمة الخلاف وسمة الكذب ، واعلم أن الكذب مظنة الكفر وضميمة الضلال ، حيث قال عز من قائل « إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله »^(٤) وتيقن بأن العيب الذى يثبت بسبب قول الكذب مرة واحدة لا يمحى

(١) الاسراء / ٢٩

(٢) إشارة إلى قضية الجبر والاختيار ، غير أنه عبر عن « الاختيار » ب « القدر » انظر :

د . مهدي محقق : بيست كفتار ، ص ١٨

(٣) البيتان لسنانى الغزنوى انظر الحديقة ص ٣٨٢ ، ص ٧٣٠

(٤) النحل / ١٠٥

بألف مرة من الصدق ، ومن نُسب إلى الكذب لا يصدقونه وإن قال الصدق .

فمن عرف بالكذب لم يجز صدقه^(١) واسلك طريق الإحسان مع الصديق والعدو حتى تُزِيد من الصداقة وتنقص من العداوة .

جامل عدوك ما استطعت فإنه بالرفق يطمع في صلاح الفاسده^(٢)

ويا أبنائي لاتصادقوا الأشرار بأي حال ، حتى لا يصيبكم ما أصاب الفلاح من الثعبان ، فقال الأمير الأكبر الذي كان دُرّة تاج الملكِ وقرّة عين الملكِ : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الفلاح مع الثعبان

قال الملك : رعموا أن فلاحاً تصادق مع ثعبان قاطنٍ في سفح جبل ، ولعله كان يعلم أن أبناء الزمان جميعاً قد اتخذوا صفة اللونين في لباس تلوين النفاق ، فهم يشبهون ثعبان السمك في النقصان ، وعندما وجد (الفلاح) طبيعة الثعبان على وتيرة وسيرة واحدة فإذا ما طلب ماهيته لم ينسبه إلى حقيقة أخرى غير الثعبانية لذلك نفّض ذيل التعلق من الأصحاب الناقصين ، وتعلق بثيل صحبته لهذا الاعتبار .

(١) هذا المثل ورد في مجمع الأمثال هكذا : من عرف بالصدق جارَ كذبه ، ومن عُرِف بالكذب لم يجز صدقه . الميداني ، مجمع الأمثال ج ٣ ص ٣٢٥

(٢) هذا البيت للطغرائي الأصفهاني انظر : الطغرائي ، الديوان ص ٦٥

والخلاصة : أن الفلاح كلما وصل إلى هناك كان الثعبان يخرج من الجحر ويزحف على الأرض غير هباب ، ويلتقط فتات طعامه من على الأرض ، وذات يوم ذهب الفلاح حسب عادته ، فرأى الثعبان قد التف على نفسه فجعل الرأس على الذنب من فرط برودة الهواء ، وسقط ضعيفاً عاجزاً فاقد الوعي ، فتحركت داخل الفلاح سوابق الصداقة وبواعث العهد الطيب ؛ فأخذ الثعبان ووضعته في زنبيل وعلقه في عنق الحمار حتى يدفأ من تنفس الحمار وتعود حالته إلى طبيعتها ، وربط الحمار في ذلك المكان وذهب ليحتطب . وحينما مضت ساعة وأثر الدفء في الثعبان ، وعاد إلى طبيعته ، استرد خبث الجبلة وشر الطبيعة ولدغ الحمار بالسم الزعاف في شفته فلقى الحمار حتفه واختفى الثعبان في الجحر ، حرام على النفس الخبيثة أن تخرج من الدنيا حتى تسىء إلى من أحسن إليها ، وقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم أن كل من صادق الأشرار ، صار الشر صديقه لا محالة .

لهم أر الخسيس سلامة فلو رأيتـه بلغه منى السلام

فيا أيها الأبناء ، يجب أن تتحدوا في أيام النعمة على سبيل المواساة ، حتى إذا أتت المحنة صار كل واحد قسيماً للآخر في المعاناة ، والوحدة واجبة لدفع الشدائد والمكائد لأنهم قالوا : إن الدليل الذي ليس له عضد ، بمعنى أن (الإنسان) يحتاج إلى أعوان الصديق وإخوان الصفاء الذين (يُعتبر) وجودهم من ذخائر الأيام وعواصم جرح الآفة ؛ وانظر ماذا يحدث لجسم الفيل وهيكل الجاموسة عندما تتحد عدة لدغات الذباب متآذر ومتعاون ؟

كُونُوا جَمِيعًا يَا بَنِيَّ إِذَا اعْتَرَىٰ خَطْبٌ وَلَا تَتَفَرَّقُوا أَحَادًا
تَأْتِي الْقَدَاحُ إِذَا جُمِعَ تَكْسَرُ وَإِذَا افْتَرَقْنَ تَكْسَرُ أَفْرَادًا (١)

واعتمدوا على الأصدقاء القدماء الذين اختبرت خصالهم في
طيب الأحوال وسيئها ، ولا تصطفوا الأجانب لأنهم قالوا : إن
الشیطان المجرب خير من الإنسان الغفل ، « خير الأشياء جديدها
وخير الإخوان قديمها ، واجعلوا سعادة الآخرة أساساً للدنيا ،
واكتسبوا السعادة الباقية في هذه الدنيا الفانية ، واعملوا اليوم عمل غدٍ
مثلما فعل غلام التاجر ، قال الأمير كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية غلام التاجر

قال الملك : رعموا أن تاجراً كان له غلام عارف ، حاد الذكاء
موفق ، وكان يؤدي كثيراً من حقوق العبودية لسيده فكتب على
صحائف الأيام مقامات مشكورة وخدمات مقبولة مبرورة ، وذات يوم
قال السيد للغلام : أيها الغلام : إن سافرت سفر البحر هذه المرة
ورجعت حررتك من عبوديتك لى ، ثم أعطيك رأس مال وافراً حتى
تجعل من كفافه زينة عفافك ، فتسند ظهرك لحائط رائحة البال طيلة
حياتك ، سمع الغلام هذا الإقرار من السيد فأقبل على العمل بوجه
التقبل والتكفل ، ووضع متاعه في سفينة واستقر فيها ، وشق طريقه
في البحر يومين أو ثلاثة ، وفجأة هبت ريح معاكسة من كل ناحية ،

(١) هذان البيتان من مقطوعة للطغرائي الأصفهاني الغرائي ، الديوان ، ص ٧١

فقلبت السفينة ، وتحطمت رجاجة أمله ، وغرقت السفينة بكل ما عليها ، فعثر على سلحفاة بحرية ، فتعلق بها ، وألقى بنفسه على ظهرها حتى وصل إلى الجزيرة التى يكثُر بها النخيل ، ومضى عليه هناك عدة أيام كان يقتات من ذلك الطعام المتاح له ، وقد نصب عينه مترقباً طريق الغيب ، ومتأبلاً : كيف أن لطف الله - عز وجل - أخرجنى من غمرة البلاء تلك ، ولم يتركنى فى ورطة الهلاك هذه « لُطف الله غاد ورائح » وفى نهاية الأمر لبس حذاءه وانطلق فى الطريق ، وظل يسير عدة ليال حتى جاء الوقت الذى وصل فيه إلى أطراف مدينة ، فلاح أناس أجبل من صورة الفردوس البيضاء ، وأجمل من السواد على بياض الدين ، فقد خرج عالم من رجال ونساء تلك المدينة ، وألقت زلزلة المواقب فى الأرض وحمومة الفرسان بأسباب اللهو والسعادة ومختلف أنواع التجميل والتبرج ، وملاً صوت الناي النحاسى وأصداء الطبول دماغ الطنين ، وحملت الراية على عيوق^(١) حتى وصلت إلى منزل الشمس ، فقال الغلام : ماذا تريدون ؟ قالوا : نريد أن نقيم على عرش المملكة السلطان الذى أقطع هذه المدينة من ديوان قدم البركة ، وسوف يصل هذه الساعة من بلاط سلطنة الأزل حصان العزم الذى يطير حول جهات الدنيا الأربع ، ويهبط فى هذه اللحظة من منازل بادية الغيب ويضرب خيمة فى عالم الظهور والحقيقة ، وهذا الذى تراه كله ، هو شعار مملكته وآثار سلطنته ، والغلام فى هذه الأمور المثيرة للدهشة كان مثل الغارق فى النوم الذى يستيقظ فيفرك عين الحيرة بيديه ويقول :

(١) عيوق : اسم نجم فى طرف اللجرة حسن عميد ، فرهتك عميد .

هذا الذى أراه فى يقظة يارب أو فى منام ؟ أن أرى نفسى فى مثل
هذه النعمة بعد طول عذاب .

ثم قدم عليه بعض هؤلاء ذوا المرتبة العالية والمنزلة الرفيعة وأدوا
فروض الطاعة أمامه ، وقبلوا يده كالعبيد ، قدموا له من تلك الخيول
السوداء السريعة التى كانت تقطع عرصه الخافقين فى بضع خطوات ،
واختاروا له من خيول السباق البيضاء السريعة التى تسبق الوهم
فى ميدان الضمير فرساً تقولُ إنها ترعى فى مرعى جدول الفردوس
أو تربت فى أطراف حديقة القدس مع البراق ، لها مقبض سرع
مرصع وسرج مغرق بتعاويز معنبرة ، يشبه نسيم النسرين الطيب
الرائحة ، ومزين بقلائد الذهب مثل منطقة بروين المكوكبة ملجمة
بليجام جميل تنطلق فى جولاتها كالريح ،

استدارة الكفل تشبه كرة الصولجان على جسد يشبه زحل وجبين
كأنه الزهرة

فوضع الغلام قدمه فى الركاب ماسكاً عنان الإقبال ، واندفع به
حتى وصل إلى القصر الذى يعجز القلم عن وصف تماثيله وتصاويره .
الذى إن وصل مانى^(١) إلى معرضه لعرض على بنان قلمه غيظاً ،
وانسابت الدموع المعصفرة على وجهه الشاحب ، وكان بستان قصره
نموذجاً من رياض النعيم ، وجدول غديره من حياض الكوثر والتسليم
« كأنه انتقل من جنة إلى أخرى » ، فأنزلوه هناك ونشروا عليه من

(١) مانى يعرف بـ « مانى » الزنديق ظهر بإيران سنة ٢٤٢ م وادعى النبوة وتبعه خلق
كثير وهم الذين يسمون المانوية د . حامد عبد القادر ، قصة الأدب الفارسي ج١ ص ٥٤ ط
مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٥١

لكن يبدو أن مانى المقصود هنا هو النقاش الصينى الشهير .

الدنانير والدراهم الذى يفيض عن كم الزمان وذيله ؛ وأشعلوا عدداً من عيدان البخور والعنبر التى تجاورت رائحتها طبقات الفلك السبعة وأقاموا له كل ما كان من عادة الاحترام والإعظام ، وقالوا جميعاً بلسان واحد :

قَدِمْتَ قُدُومَ الْبَدْرِ بَيْتَ سَعُودِهِ وَأَمْرُكَ عَالٍ صَاعِدٌ كَصَعُودِهِ

أيها الملك أنت سلطان ونحن جميعاً عبيد ، أنت تأمر ونحن جميعاً نطيع ، فليكن لك التاج والعرش ، ولتكن موفقاً فى العمر والخط ، فَمَرَّ بِكُلِّ مَا تَرَى ، فنكر الغلام فى نفسه قائلاً : كيف يأتى آلاف من الأحرار ويعطون أنفسهم لـ لـلام ، ويضعون حلقة الطاعة فى أذنه ، يجب على أن أفتح عين القلب ، وأتأمل ملياً فى وجه هذا الأمر ، حتى أرى كيف حدث مثل هذا الاتفاق السماوى ، وإلى أى مدى ولد الليل الحبلى بالحوادث دائماً مثل هذه النعمة ؟ ثم ذهب إلى سرير السلوى وعرش السلطنة .

فجلس وفى رأسه ألف فكرة مختلفة وآلاف أحلام لكيقباد فى عقله

ونصب كل واحد على عمل وألقه بطاعته ، وشغل هو بترتيب الخيل والخدم والجيش والحشم ، ثم اختار لنفسه واحداً من المقربين كان يلمح على وجهه آثار حسن الحفاظ وأمارات السيرة الحميدة ، وكان يشاهد مخايل الرشيد فى شمائله ، وجعل منصبه أعلى من نظرائه وأبناء جنسه فصار محسوداً ومغبوطاً منهم .

وذات يوم دعاه وأجلسه فى مقابله ، وأخلى المكان من الأغيار وقال له : الآن علمت بـرسوخ قدمك على طريق الصدق والإخلاص

وعرفت شمول شفقتك على أحوالى ، وزاد اعتمادى واعتضادى فى حفظ منازم الحال وضبط مصالح المآل على قولك وفعلك ، إنى أريد أن تخبرنى بحقيقة الأمر حتى أعلم ما هى صورة الحال ؟ ولماذا أعطى أهل هذه الولاية زمام قيادهم لإمرتى دون أدنى واسطة لوسيلة أو رابطة للذريعة ؟ وكيف أطلقوا يد استيلائى وسيطرتى على مملكة لا يمكن فتح طرف منها بالسيف البتار والسنان المتوهج والجيش الجرار ؟ وما موجب هذا الاختيار والإيثار ؟ فقال الرجل : سقطت على الخير أيها الملك ، أعلم أن كل عام فى هذا الوقت يظهر من هذا الجانب الذى جئت منه واحد وبنفس هذه الصفة فيأتون به ويجلسونه على عرش هذه الدولة ، وعندما تمضى سنة على سلطنته يضعون قيد الإكراه فى عنقه ، وشاء أم أبى يحملونه إلى طرف هذه المدينة ، وهناك بحر هائل يفصل بين المدينة وبين الصحراء ، ويلقون به فى هذه الصحراء ، فيهم على وجهه ، ويضرب الرأس والقدم فى قلق واضطراب .

خَلَعُوا عَلَيْهِ وَزِينُوهُ وَمَرَّ فِي عِزٍّ وَمَنْعَةٍ
وَكَذَلِكَ يُفْعَلُ بِالْجَزُورِ رَلِّحْ رِهَا فِي كُلِّ جُمُعَةٍ

فأطرق الغلام رأسه برهة يفكر .

ضاع التدبير وأخطأ الظن

وفى محاولة البحث عن الحيلة ، كان يرسل خاطره الجوال فى كل ناحية ، وكان يسرع العدو تحري جهة قبله الصواب فى جميع

النواحي التي أمامي عين البصيرة ؛ وكان يطلب وسيلة لإدراك مخرج للأمر في كل ناحية ، حتى استعاد طرف حبل التدبير الذي كان قد فقده الآخرون ، فرفع رأسه وقال : أيها الخادم ، يا من يحل رأيه بمهمات الأمور ، لقد أمسكتُ بزمام الأمر لكن بفضل مساعدتك ، فلو توفى رسم الخدمة يتم الأمر ، فتأهب الخادم لتنفيذ ذلك الأمر ، قال الغلام : أصغ إلي ولا تهمل أو تؤخر ما أمرك به ، ويقدر تحمل مشاق ذلك ، سوف تصل إلى مذاقك الحلاوة التي تطلبها في نهاية الأمر ، فاجعل عين القلب ساهرة ، حتى يتكشف وجه المقصود عن حجاب التعذر بسهولة .

عَسَى اللّٰهُ يَقْضِي مَا نَهْمُ بِنَيْلِهِ فيختم بالحُسْنَى وَيُفْتَحَ بَابًا
واعلم أنه لا يمكن الخروج من عظام الأمور إلا بالألم ومثابرة
الذل والمكابرة مع دوران الأيام ،

عندما يرغب النمر في الصيد فإنه يجعل قامته نحيلة .

ويحكى أمام العالم لسان شدة البرودة قصة راحة الربيع ،

والآن يجب وضع سفن كثيرة عند شاطئ هذا البحر ، وإحضار عدد من الأساتذة الحاذقين والصناع المهرة والمهندسين الأذكياء ، من سكان هذه المدينة أو المدن الأخرى ، وإرسالهم إلى هذه الصحراء عن طريق البحر ، حتى يظهروا هناك عمارة وبينوا مدينة ، حتى إذا حان وقت الرحلة من هنا ، نرحل إلى هناك ونقيم ، ونصل في هذا المكان العزيز إلى عيش رغيد وحظ وافر ، ويختارون من تلك العرصة أرضاً طاهرة ومنبتاً جوهرياً تستأهل العيش فيها ؛ ثم يذهب إلى هناك الجماعة التي تعلم صناعة الحراثة والفلاحة ، وتتقن رسوم الزرع

والغرس ، ويضعون فى السفن كل ما يلزم أصحاب الحرف من آلات وأدوات وأسباب ، ويوماً فيوماً وساعة فساعة ، يوصلون إلى هناك كل ما يلزم الحاجة ، وكل ما تتوقف عليه الأمور على التواتر ، ومهما صرف فى مصارف المهمات من أموال ، يأخذونها من الخزانة ، ويضعون أمام خاطرهم « لأسرف فى الخير » ، وليقرأوا على زمانهم « وحبذا مكروه أدى إلى محبوب ومرحباً بأذى أسفر عن مطلوب » ، فتقدم الخادم بقدم القبول صادق العزيمة نافذ الصريمة مستعداً ، وحمل طوائف الصناع والحرفيين ، على اختلاف الطبقات فى السفن ، وذهب إلى هناك ؛ وأمر الأساتذة أن يبنوا مقاماً مخصوصاً ، وقيموا بعد ذلك سوراً للمدينة ثم يشيدوا أبنية مرتفعة وقصوراً عالية ويزينوها بالمناظر الخلابة فيجعلوا لها سقفاً مزخرفاً وطاقاً مقوساً ، ويجعلوا جدرانها الملونة والمتداخلة كمرآة السماء ملونة باللون الأحمر والأصفر ، ويحضرون لها الغرس الفيروزية واللاجوردية ، أما فى الساحة التى كانت مهبّ النسيم المنعش فقد بنوا قصراً خاصاً بالملك ، فكان مضيئاً مثل قرص الشمس ، ورفعوا قبته إلى عنان السماء ، وجعلوا شرفات إيوانه مساوية لمطامع المشتري وزحل ، وقرأوا عليه :

دار على العزِّ والتأييد مَبْنَاهَا وللمكارم والعلياء مَسْغْنَاهَا
لما بنى النَّاسُ فى دُنْيَاكَ دُورَهُمْ بَنَيْتَ فى دَارِكَ الْغُرَاءَ دُنْيَاهَا

وصلت إلى المكان الذى لا يراه المحيطون بك ، ولو ارتفع الفكر صوب
الفلك أعواماً

وفى اليوم الذى يرفع الدهر فيه بناءك ، تعزف الزُّهرة فيه أنغاماً
وتتفاءل به الشمس ، ثم أشار فجعلوا فى كل مكان من أطراف المدينة

مزرعة وضيعة ، وبذروا كثيراً من البذور فى الأرض ، وزرعوا كثيراً من أنواع الحبوب فيها ، وأنشأوا حديقة فى حديقة وبستاناً فى بستان ، وأجروا الأنهار العذبة لآلية الماء التى تقول إنها تفجرت من قدم الخضر أو إنها تقاطرت من إصبع معجزة موسى متدفق فى مجاريها ومساريها ، وشذبوا الحدائق والمراعى ، وزينوا الأنهار بالأشجار ، وغرسوا أغصان الصنوبر وفسيل السرور والعرعر على أطراف كل جدول ، وأتموا البقعة التى هى الربع المسكون من الأقاليم السبعة والذى يشبه الربع بالنسبة للفصول الأربعة فى لطف المزاج واعتدال الطبع ، كما حملوا إلى تلك المدينة العديد من المفارش والمطابخ والآلات والامتنعة والمطعوم والمشروب والمنكوح والمركوب ، التى لم توصل الأيام يد التباهى إلى إمدادها وإعدادها ، وقد صار كل هذا مهياً ومرتباً وفق المصلحة وعلى مقتضى الرغبة ، وجاء آخر يوم فى السنة ، وأتى وقت زوال شمس الملك ، فاجتمع أهل المدينة فى بلاط الملك ، حتى يبعده عن عرش السلطنة مثل الآخرين طبقاً للقاعدة السالفة ، وعندما سمع خطاب ذلك الإلزام والإرهاق ، لكنه - وإن كان قد اغتم قبل وقوع الواقعة ، ورأى قبل التحرك مكان النجاة - استطاع انتزاع وتد مؤالفة ومؤانسة هذا العام الذى كانوا قد غرسوه فى ذيل ذلك الموطن بصعوبة .

أَقْمَنَّا كَارِهِينَ بِهَا فَلَمَّا أَلِفْنَاها خَرَجْنَا مُكْرِهِينَ

وفى النهاية حملوا الغلام وأجلسوه فى سفينة ، وأوصلوه إلى شاطئ الوادى عن طريق البحر ، وأقبل فى الحال جميع العبيد الذين

كانوا يتطلعون بأبصارهم إلى طريق قدوم الملك ، مستعدين لاستقبال ذلك الإقبال ومرتقين له ، وأدوا رسم الخدمة والعبودية ، ونزل الملك بذلك الميدان المريح ، ووصل من خلال متزهات تلك المواضع والمراتع إلى مستقر السعادة ، حيث كان عين الأمل مضيئة ؛ وهواء المراد صافياً ؛ ولباس الأمانى مجدداً ؛ وبساط الدولة ونصرها ممهداً ؛ وكان لابد أن يفعل ^(١) مثل هذا .

مَنْ كَانَ يَأْمَلُ عِنْدَ اللَّهِ مَنَزَلَةً تُتِيْلُهُ قُرْبَ الْأَبْرَارِ وَالزُّلْفَا
أَوْ كَانَ يَطْلُبُ دِينًا يَسْتَقِيمُ بِهِ وَلَا تَرَى عَوْجًا فِيهِ وَلَا جَفَا

والآن استمعوا أيها الأبناء وركزوا الخاطر على تفهم رمز هذه الحكاية واعلموا أن ذلك الغلام الذى جلس فى السفينة ، هو ذلك الجنين الذى يصير من مبدأ تكوين النطفة إلى تلوين الحالات ، تسعة أشهر فى أطوار الخلقة ، مثلما يخبر القرآن الكريم « ثم خلقنا النطفة علقه فخلقنا العلقه مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً » ^(٢) إلى أن يصل مرتبة تمام الصورة وقبول النفس الناطقة ، ويصبح - بكمال الحال - مستعداً لخلعة الخلق الآخر . « ثم أنشأناه خلقاً آخر » ^(٣) يعنى حلول الروح داخل القالب الجسمانى ؛ وتحطم تلك السفينة ، والوصول إلى الجزيرة ثم إلى شاطئ المدين ، ومجيئ الناس الكثيرة لاستقباله ، إشارة إلى تلك المشيمة التى هى مستقر الطفل أثناء وقت الحمل ، والتى لابد أن تتمزق وتتقطع أجزاؤها عن بعضها حتى يرحل

(١) فاعل هذا الفعل هو من الموصولة فى البيت العربى .

(٢ ، ٣) سورة المؤمنون / ١٤

المولود لحدود الخلق وعندما يصل إلى بوابة الحدوث ، يقوم على تربيته في تلك الحال عدة أشخاص ثم الأب والأم والداية والمربية والحاضنة والمرضعة . . . وهلم جرا ، حتى يصل في التربية إلى ذلك المقام الذي يربى فيه في كنف رعايتهم وحجر حمايتهم وحفظهم . ويترقى من مرحلة الجبر والاضطرار إلى منزلة الفعل والاختيار . (١) فلو كان الحظ الأبدى قائده والتوفيق الأزلى رائده ، مثلما كان مع الغلام ، فلا بد أن يعتقد أن رحيلى عن الدنيا يوماً ما أمر لازم ، ويكون المكان الآخر هو الموئل والمآب ، ثم يوسع سعيه بكل ما فى الإمكان ، ولا يدخر جهداً عن بناء ذلك المنزل وإعداد الأسباب التى تلزم للدار الباقية ،

ولحظة فلهظة يرسل ذخائر السعادة الخالدة من قبل حتى إذا ما جاء اليوم الذى ينتهى به عمره ، ويلقون به من هذه الدنيا عارياً ، ويحملونه إلى تلك الدار ، التى هى عبرة عن الدار الآخرة ، فيرى منزلاً مشيداً وفق رغبته ، قال تعالى : « وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً » (٢) ولو ظل - والعياذ بالله - فى ثمالة شراب الغرور بسبب خداع سراب الشيطان الغرور فيهبط إلى إيوان وطاق يشبه ستارة قوس قزح الملونة مؤقتاً ، ويخدع بخيمة مقطعة الأطناب تشبه مظلة السحاب المليئة بالنقوش المقطعة الأطناب ، ومن ثم فدائماً ما تقصر همته على تطلب الحال ، ويتخلف عن الاستعداد والتأهب لأمر المآل ، ولذلك فإنه عندما يصل إلى هناك ، لا يجد سوى هاوية الهوان الدائم مكاناً له ،

(١) إشارة إلى قضية الجبر والاختيار ، وهى إحدى قضايا علم الكلام المهمة .

(٢) سورة الإنسان ، آية (٢٠) .

ويظل أبد الأبدين ودهر الداهرين أسير سعى اليد والقدم ، قال تعالى :
« أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا
مهتدين » .^(١) قال الأمير بهذه الكلمات القصيدة الناصحة التي تشبه
أنفاس كلمة الله المسيح^(٢) صارت قلوبنا - التي كانت قد ماتت من
قبل - حبة غضة ، وتقاطرت - بها - ماء حياة حكمة في حلوقنا مثل
الخضر ، لكنني لن أعتمد على إختوتى - وإن كانوا علماء أذكىاء -
لأننى « أخشى سيل تلعتى »^(٣) لأنهم سوف يهبطون إلى جسد
الكثر - من بعدك - دون تحمل أى مشقة للسير وذلك بمساعدة الحظ ،
وسوف يصلون فجأة إلى العيش الهنىء والنعمة السنية ، وأخاف أن
يصبح عالم محبتهم سبباً فى عداوتنا . ولو اختفت اليوم هذه المعانى
فى مكان نفس كل واحد ، فإن غداً تلد أم الملك العقيم فتناً غير متوقعة ،

وَالظُّلْمُ مِنْ شَيْمِ النَّفُوسِ فَإِنْ تَجِدَ * ذَا عِفَّةٍ فَلِعَلَّه لَا يَظْلِمُ^(٤)

والملك الآن فى يده زمام التصرف ، فينبغى ألا يتركنى فى يد
تصاريف الأيام ، بل يظهر المقام فى تولية الملك ويسوى بيتنا ، ويظهر

(١) البقرة / ١٦

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : « يا مريم إن الله يشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى :

ابن مريم » آل عمران / ٤٥

(٣) التلعة : مسيل الماء من السند إلى بطن الوادى ، ومعنى المثل : أنى أخاف شر أقاربى

وبنى عمى ، ويضرب هذا المثل فى شكوى الأقرباء ، الميلائى ، مجمع الأمثال ج ١ ص ٥٥

(٤) البيت للمتنبى فى قصيدة يمدح بها أبا العشائر ويهجو إسحق بن كيغلغ . المتنبى ،

الديوان ، ج ٢ ص ٣٨٣

المحجة التى هى حجة فارقة علينا جميعاً ؛ حتى يثبت أقدامنا على مسالكها ، ولقد قال العلماء : من يستطع رفع الصريع ولم يرفعه ، يصبه ما أصاب الفأر من « العقاب » الذى كان الغزال محتاجاً إليه ، فقال الملك : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الغزال والفأر والعقاب

سمعت أن صياداً خرج للصيد ذات وقت ، ونصب الشراك ، فوقع غزال فيها ، وأخذ المسكين يتفرض ويتلوى حول نفسه ، ويتلفت فى كل ناحية ، حتى وقعت عينه على فأر كان قد خرج من الجحر فشاهد حاله ؛ فصاح الغزال على الفأر قائلاً : لو لم يذهب ما بيتنا من سابقة الصحبة ورابطة الألفة ، فلن أتوجه بأى حق من حقوقى عليك التى من شأنها أن تلزمك بالوقوف بجانبى وتدارك حالى ، ولكننى أرى أن آثار حسن سيرتك الباطنة من طبع حسن ، ونضارة وجه ظاهر عليك .

فَجَعَلْتُ عُنْوَانَ السَّمَاحِ طَلَاقَةً وَكَذّاً لِكُلِّ صَحِيفَةٍ عُنْوَانٌ^(١)

فأتوقع منك أن تساعدنى على سقطة صدمة النوائب ، وتحل عقدة هذه المحنة عن قدمى بأسنانك ، حتى إذا ما تم خلاصى بسبب أسنانك فساكون طوع أمرك طيلة حياتى ، وأطوق عنقى بطوق طاعتك ، وأرسم وشم الرق على ناصية حالى ؛ ويصير لك ذخيرة عظيمة من الشهرة وارتفاع الشأن ، وتثبت على صحيفة الحسنات .

(١) البيت لمؤيد الدين الطغرثى فى مدح مجد الملك أسعد بن محمد الطغرثى ،

الديوان ، ص ٤١

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعدَمُ جَوَازِيهَ لَا يَنهَبُ العُرفُ بَيْنَ الله والنَّاسِ^(١)

فقال الفأر الذي كان له دناءه وخيمة وخلق لثيم : ليس من الحكمة عَرَضَ الرأس غير المعتلة على الطيب^(٢) وأنا أعلم حقارة نفسي ؛ وأعرف جسارة الصياد . فلو اطلع على عملى فسوف يخرب بيتى وأصبح من زمرة أولئك الجهال الذين قال الله تعالى فى حقهم « يخرّبون بيوتهم بأيديهم »^(٣) ، وإننى لأتذكر دائما وصية أبى : « لا تكن أجهل من فراشة »^(٤)

لا تعمل العمل الذى ليس من عملك ولا تسلك طريقا غير طريقك .

ثم أشاح بوجهه عن الغزال ، وتركه (هكذا) مقيداً مسلسلاً فى قيد البلاء ، وعندما خطا خطوتين أو ثلاثة ، وأراد أن يزحف نحو جحره ، هبط عقاب من مسكن (له) بالجبل ، والتقطه بمخلبه ، ثم جاء الصياد فوجد الغزال الذى لا يمكن وصف تشبيب عشق جمال لحظاته ودلال خطراته بألف قصيدة غزل ونسيب^(٥) مقيداً فى شراكه ،

(١) البيت من قصيدة مشهورة لجرول بن أوس العبسى الشهير بالخطيئة ، فى هجائه للزريقان بن بلر وملحه لبغض بن عامر بن شماس ، ديوان الخطيئة ، ط الشقيطى ص ٥٥ . د . ت

(٢) الترجمة الحرفية : ليس من الحكمة حمل الرأس غير المحطمة إلى الدواء .

(٣) الحشر / ٢

(٤) « أجهل من فراشة لأنها تطلب النار فتلقى نفسها فيها » الميدانى . مجمع الأمثال

ج ١ ص ٣٣٥ ط عيسى ١ حلى سنة ١٩٧٨

(٥) التشبيب والنسب من أنواع الغزل الذى هو أحد أغراض الشعر ، وفيه يذكر الشاعر

للمحبيب وأحواله ، ومن شعراء الغزل فى العربية كثير عزة ، ومجنون ليلى ، وجميل بثينة . إلخ .

أحياناً يُرى في عينيه خيال غمزة الحسان وأحياناً أخرى يُعقد على عنقه
الأسر زينة حسن الحسان .

فكر الصياد في نفسه قائلاً : إن التراب جنس هذا الحيوان أفضل
من دم ألف سافل من بنى الإنسان ، وأنا أطمع في مسك بطنه .^(١)
دون أن أريق دمه ، ثم حمل الغزال على كتفه ، وقصد السوق فقابل
رجلاً صالحاً في الطريق ، وقعت عينه على ذلك الغزال جميل
العين ، طويل الجيد ففكر قائلاً : إن ترك مثل هذا الجيد في قيد
البلاء ، وعدم حفظ مثل تلك العين من عين جرح الآفة يبدو بعيداً
عن مذهب المروءة ، وإن كان ذلك مما أحلتها الشريعة .

فأى طبيعة سليمة وأى سجية كريمة ترغب في إراقة دم حيوان ؟
وبخاصة إذا لم يكن يستطيع التعدي بشر أو بضرر ، واشترى الغزال
من الصياد بدينار ، ثم حرره ، ونجّاه من الهلاك ، وقال : إن من
ينجى البريء من القتل لا يقتل بريئاً .

وقد قلت هذه الحكاية حتى يدرك الملك أمرى قبل فوات
الفرصة ، ويسند أمر مصالح أحوالى - من بعده - إلى صديق
مجرب ، حتى تظل منضبطة ، وحتى لا يقطع ما بيننا - نحن الأخوة -
من حبال الموالاة والمحبة وروابط المؤاخاة الملائمة في حروب المنازعات .

قال الملك : لى من الملوك الأقوياء العظماء والسلاطين المتوجين
كثير ، الذين لا يبيحون إلتقصير في إنعاش حالك وارتياشه عند

(١) الترجمة الحرفية : الترب الذى فى البطن .

مضايق الحاجة ومصارع الآفة ، ولا يمنعون مدد الإعانة والإغاثة في وقت الشدة ، غير أن لى صديقاً في خراسان ، ساح في الدنيا ورأى الناس ، مجرباً للأمور ، محمود الأخلاق ، محبوب الخصال وفيأ رحيماً ، موصوفاً بأصناف العلوم ، موسوماً بأوصاف الفضائل .

فلو رغبت ، أوصلتك به ، وأوكلت أمرك إلى كفايته في مهمات الحوادث وملهمات العوارض .

قال الأمير : إن أقسام الصداقة متشعبة ، والأصدقاء متباينون ، فالبعض منهم طامع فيك حتى توصله إلى هدفه ، فإن لم توصله ، أعرض عن تلك الصداقة ، أو ربما يوصلها إلى العداوة مثلما حدث من ذلك الطامع مع « نوخره » فقال الملك : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الرجل الطامع مع نوخره

قال الأمير : سمعت أن ملكاً فاضلاً ، محباً للعلم ، لبقاً كان في بلاد الشام ، وكان له - من بين ندماء حضرته - نديم يدعى نوخره ، وكما هي عادة الزمان ، فبالرغم من أنه كان متأخراً عن الجميع أهلية ؛ إلا أنه تقدم على الجميع برتبة القبول .

و ذات يوم سعى لخدمته شخص باش الوجه ، جميل المحيا ، ظريف ، مرح ، عذب الحديث ، ذرب اللسان ، لطيف المعاشرة ، جدير بمجالسة الملوك ، وقد جاء برغبة صادقة وشوق غالب من إقليم بعيد على شهرة محاسن ومكارم الملك ، حتى يجد مكاناً في ظل هذه الدولة ، ويبقى محروساً مصوناً في جوار مأمون من آفة الحوادث .

أريدُ مكاناً منْ كَرِيمِ يَصُونُنِي وَالْأَفْلَى رِزْقُ كُلِّ مَكَانٍ

ونزل على « نوحه » وأظهر تمام الصدق في مصاحبته ، وعاش سنة أو سنتين من عمره عيشة آمنة ، وأمضى الوقت في ملازمته ومصاحبته ، وكان دائما ما يصرح في معاريف حديثه قائلاً : إن مقصودي من هذه الصداقة هو التوصل ، لأتني أبحث بواسطتك عن مكان في بلاط الملك ، والتوصل هو طريق إدراكي هذا الغرض ، فربما أنال شرف خدمته بواسطة اهتمامك ، وأنضم إلى زمرة الحاشية والخدم .

وكان « نوحه » يسمع ، ويظهر التغافل ، وعندما مرَّ عام ولم يفد ذلك السعى ؛ يأس الرجل الطامع منه ، وتركه ، فأضرم النيران في حط المنة ، وأطلق لسان الهجاء^(١) والوقاحة قائلاً :

دَعَوْتُ نَدَاكَ مِنْ ظَمَأٍ إِلَيْهِ فَعَنَّنِي بِقَيْعَتِكَ السَّرَابُ
سَرَابٌ لَاحَ يُلَمَّحُ فِي سِبَاخٍ وَلَا مَاءَ لَلِيهِ وَلَا شَرَابُ

لقد أصبح شمساً لظلك فيا صديقي : لا تجعلني يائساً هكذا
ثم كتب للملك القصة كلها من رأس غصة عينه (يقول فيها) :
إن هذا « النوحه » - حاشا للسامعين - معلول بعلّة من العلل

(١) نجد هذا المعنى عند الشيخ سعدى الشيرازي في حكاية « الملك والأسير » وقد استشهد فيها على هذا المعنى بقول الحكماء : كل من يغسل يده من الحياة يقول كل ما في قلبه . وكذلك قوله : إذا يئس الإنسان طال لسانه * كسفور مغلوب يصول على الكلب
السعدى الشيرازي : كلستان ؛ ترجم د . أمين عبد المجيد بدوى ص ٥٧ ط المركز
للصحافة سنة ١٩٨٣

المشهوره التى يأمر أطباء هذا الزمان (بسببها) بعزله ، وتجنب مجالسته ومؤاكلته .^(١)

وعندما قرأ الملك القصّة أمر بالآ يدخلوا « نوحرة » على حضرته مرة أخرى ، وأن يبعدوا عار حضوره عن القصر ، ومن ثم عندما جاء « نوحرة » إلى باب القصر وضعوا يد المنع على صدره فرع وربط حجر الصبر على قلبه لمدة عام ، يعانى فيها الحرمان من سعادة التقرب وهجران بلاط الخدمة ، وكان يختبر نقد عناية الملك على حجر الثبات حتى يفهم السبب الأصلى الموجب لإبعاده ، وكيف أحكموا رسم خريطة الوشاية فى حقه .

وفى النهاية عندما اطلع على حقيقة الأمر ، أحضر جمعاً من ثقات وأثبات الملك ، وأمناء وجلساء السلطانية الذين كانوا محل اعتماد الملك ، ونزع ملابسه أمامهم ، وأظهر لهم كل أعضائه فلم يروا علامة نقصان فى أى مكان على الإطلاق .

فنقلوا حكاية الحال إلى الملك ، وأطلعوه على المكيدة التى كان العدو قد دبرها فى حق « نوحرة » حتى رفع الخيال الذى كان قد وضعه أمام خاطره ، وصار الغرض الذى تولدت مادة هذا الفساد من أجله معلوماً . غير أن الملك قال : لقد صدقوا عندما قالوا : « عندما تضرب الطين على الجدار ، يبقى أثره محالة حتى لو سقط » ، وإننى عندما أشاهد « نوحرة » أتذكر فيه هذه التهمة ، وتظهر النبوة والنفرة

(١) إشارة إلى الامراض المعدية التى يأمر فيها الأطباء بعزل المريض ، حتى لا يتشر

المرض ، وهذه الإشارة خاصة بعلم الطب . انظر : د مهدي محقق ، السابق ص ١٨

منه فى طبعى . فىجب محو تلك الكراهية بتمام التمحل « وإذا احتاج الزُّقُّ إلى الفَلَكِ فقد هلك » ^(١) ثم أمر أن يرسلوه إلى منطقة نائية ،

وَمَا بِكَثِيرٍ أَلْفُ خِلٍّ وَصَاحِبٍ وَإِنَّ عَدُوًّا وَاحِدًا لَكَثِيرٌ

وقد قلت هذه الحكاية حتى يعلم الملك أن صداقته لو كانت من هذا القبيل فلا حاجة لنا إليها ، قال الملك : إن صديقى صاف من شوائب الأغراض والأطماع ، وهو فى طريق الإخلاص مثلما قال الشاعر :

الذى إنْ حَضَرَتْ سِرْكُ فى الحى وَإِنْ غِيبَتْ كَانَ أَثْنَا وَعَيْنَا

قال الأمير : هناك نوع آخر من الصداقات بين الأقارب والعشائر ، ومثل هذه القرابة تفضل كثرة المال والجاه - مثلاً - على القرابة ، فالناقص فى المال يريد السيطرة على الكامل ، والكامل يريد أن يزيد فى نقصان الناقص « وما النار للفتيلة أحرق من التعادى فى القبيلة » ^(٢) حتى ينهض كلاهما بالعداوة للآخر ، ويتتهى الأمر بالمناوأة والصراع مثلما وقع بين ملك بابل والأمير ، فقال الملك: كيف كانت تلك الحكاية ؟

(١) صفة الفلك جمع فلكة المغزل فحرك للاردواج ، ويضرب لكبير يحتاج إلى الصغير . الميدانى ، مجمع الأمثال جـ ١ ص ١٠٣

(٢) ورد فى مجمع الأمثال : ما النار فى الفتيلة بأحرق من التعادى فى القبيلة . الميدانى ، مجمع الأمثال ؛ جـ ٣ ص ٢٩٣

حكاية ملك بابل مع الأمير

قال الأمير : سمعت أن ملكاً ببلاد بابل ، كان له ولد صغير . وعندما أمسك فتقاضى الأجل بتلايب وذيل أمله ، واقترب وقت نزول القضاء ، ونقله من دار الدنيا الفانية إلى الآخرة الباقية ، دعا أخاه ، وأوصاه بأن يقوم مقامه في أمر السلطنة ثم جعل مولى وموصى في ترقيح حال الملك وتمشيته ، وترشيح الولد وتربيته وقال له : إننى أسلمت لك زمام القبض والبسط ، وعنان التولى والتملك في مجارى أمور الملك ، وهذا مربوط ومشروط بشرط هو : أن تقيم ولدى على الملك إذا بلغ مربية البلوغ والدراية ، ونهض له حكم التحكم وقيد الولاية ، وظهر عليه إيناس الرشد والتهدى ، ثم تطيعه وتدعن لأمره ، ولا تظن أن حكمه عليك من باب الظلم والإجحاف ، فتظهر التأبى على طاعته . أما إذا أمرك شيطان الحرص بوسوسة الخيانة أن تهتك ستر الديانة ؛ فاجعل خطاب الله عز وجل « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها »^(١) نصب عينيك ، وأخذ على ذلك عهداً أكيداً وميثاقاً غليظاً ، ومات الأب ، وبلغ الولد رشده ، ووصل إلى مقام المزاحمة على الملك والمطالبة به ، وكان عشق السلطة قد أخذ بمجامع الملك ، وملك عليه ثلاثمائة وستين وريداً ، واختلطت لذة السلطة بمذاق الطبع تماماً ، وفكر فى نفسه قائلاً : إن هذا الولد قد أخذ مرتبة الأبوة وحصل على الخبرة والدربة ، وسوف ينهض عن قريب لاسترداد حكم المملكة ، ثم يستقر عشق الاستبداد فى عقله فإذا واجهته ودافعه حيثئذ فسوف يتحاشانى رؤساء المملكة وقادتها فى

(١) النساء / ٥٨

أطراف الولاية وحواشيها ، ولن أستطيع - بأى حيلة - أن أجعلهم متفقين ومتحدين .

ومن ثم فالحيلة هى ألا أكون متهماً بهلاكه ، ومن هنا اجتث مشكلة وجوده من طريقه .

وذات يوم خرج قاصداً الصيد ، واصطحب الأمير معه أيضاً ، وعندما وصلوا إلى منطقة الصيد ، وتفرق الجنود فى كل ناحية ، بقيا فى موضع خال فأنزل الأمير عن فرشه ، وانتزع بيده عينيه اللتين تريا العالم ، ثم عاد من هناك .

وبرغم أن عين السكين الظاهرة قد كففت عن مطالعة عالم المحسوسات ، إلا أنه كان يقرأ بعين الباطن صحائف أسرار القدر ، وكان يرى شرح صنعة القدم على يد إعجاز عيسى بن مريم ، وكان يسمع بسمع العقل « وأبرىء الأكمه والأبرص وأحى الموتى » ^(١) من خلف ستر إمكانات القدر ، ويقول :

وَلَا تَيَاسَنَّ مِنْ صُنْعِ رَبِّكَ إِنَّنِي ضَامِنٌ بِأَنَّ اللَّهَ سَافٍ يُدِيلُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ بَعْدَ كُسُوفِهَا لَهَا صَفْحَةٌ تَغْشَى الْعَيُونَ صَقِيلٌ

والخلاصة أنه عندما شع نور اليوم على أطراف العالم ، وطويت ستارة الليل على رواق الأفق ، وعقمت أم الليل عن إنجاب الفتنة ، وحمل الليل بنتائج التقدير ، وأظهر المنجمون ألواناً مختلفة من خلف

(١) آل عمران / ٤٩

ستر السماء ، كان ذلك المسكين يختفى فى زاوية مسكن حتى تحسس بيده شجرة ؛ فصعد عليها خشية الحيوانات المفترسة ، وأمسك فرعاً منها ، وجلس مترصداً واردات الغيب .

حتى ينظر ماذا يخرج الفلك من تحت الستر ؟

وفجأة جاء ملك الجن الذى يسكن تحت تلك الشجرة ، فى ذلك المكان الذى كان مهجع الجن ومجمعهم ، فجاء وجلس فى موضعه ، والتف جن العالم حوله ، حيث كانوا يمضون الليل فى المسامرة والمساهرة مع بعضهم البعض ، وكانوا يخبرونه عن مستجدات الأحداث ، ويكشفون له خبايا الأسرار فى أقطار وزوايا العالم حتى قال واحد من بينهم : كاد ملك بابل اليوم للأمير ، وأجاز لنفسه مثل هذا الغدر .

وربَّ أخ ناديتُـه للمـةِ فـألفيتُـه مِنْهَا أَجـلٌ وأَعْظَمـا

فقال ملك الجن : لو فقه الأمير ما لورق هذه الشجرة من خواص ، لقطع ورقة منها ، ومسح بها على عينه فيبصر ، (وبالمناسبة) هناك فى الصحراء الفلانية نبات له جذور بهذه الصفة ، وهناك مقر لشعبان كبير ، تين عندما يلتف حول نفسه ، يخرج سم النموسة من عقدة الرأس والذنب على المريخ وزحل ^(١) فهو الشعبان الذى أكل عصا

(١) يقال إن المريخ وزحل كوكبان من كواكب النحاس ، فزحل يمثل النحاس الأكبر ، والمريخ يمثل النحاس الأصغر ، ويقولون إن إحدى صور الفلك على هيئة شعبان برأس وذنب . انظر : د . مهدي محقق : السابق ص ٢٠ ، ٢١

موسى بدلاً من سحر ومكر سحرة فرعون ^(١) فطالع وادة ذلك الثعبان وذلك الملك واحد وقد وقعا على نقطة تحرك واحدة ، وعندما يصل الكوكب القاطع إلى درجة طالعها ، فإن هلاكه (أى الملك) يكون جائزاً ، فلو استطاع الأمير أن يقتل ذلك الثعبان ، فسوف يكون مقتله وموت ملك بابل واحد .

وَأَنْ جَسِيْمَاتِ الْأُمُورِ مَنْوُطَةٌ بِمَسْتَوْدَعَاتٍ فِي بَطُونِ الْأَسَاوِرِ

وعندما سمع الأمير هذا الحديث ، أخذ ورقة من تلك الشجرة ومسح بها على عينه فارتد بصيراً ورأى صورة القدرة الإلهية بعيني الرأس وقالك :

الحمد للخالق القدوس الذى جعل التراب ناطقاً مبطراً

وكان يردد ما يسمعه بأذن العقل « من يحيى العظام وهى رميم » ^(٢) ثم يتلو فى كل لحظة قوله تعالى « قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » ^(٣) .

وعندما ظفر بمثل هذه السعادة نقداً وفوراً ، أسرع بتحصيل قرينة السعادة الأخرى ، وعندما أماط قرص الشمس عن فم المشرق سواد

(١) إشارة إلى قصة نبي الله موسى مع سحرة فرعون ، والتي أشار القرآن إليها فى أكثر من موضع ، ومن تلك المواضع سورة طه حيث يقول جل ذكره فيها « وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى . . . طه / ٦٩

(٢) يس / ٧٨

(٣) يس / ٧٩

ثعبان الليل ، هبط من فوق الشجرة ، وذهب إلى مواطن الثعبان ،
(وقتله) ، فأسلم ملك بابل - فى الحال - روحه إلى قابض
الأرواح ، والملك إلى قبضة الأمير ، ووصل جريح الحوادث (الأمير)
إلى عاصمة الملك ومنشأ الدولة ، وجلس على عرش السلطنة .

وقد قلت هذه الحكاية حتى تدرك أنه إذا كانت محبتك له من
قبيل هذه المحبة ، فلا تسلمنى إليه .

قال الملك : إن حبتنا بعيدة عن هذه المعانى ، قال الأمير : هناك
نوع آخر من هؤلاء الأصدقاء الذين إن نزل بهم بلاء ، يطلبون نجاة
أنفسهم بابتلاء الأحباب ، مثلما فعل ذلك الحداد مع المسافر .

قال الملك : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الحداد والمسافر

قال الأمير : سمعت أنه فى وقت ما ، جاب مسافر بساط الدنيا
وطوى بساط الخافقين .

أخو سفر جواب أرض تقاذفت به فلوات فهو أشعث أغبر

و ذات يوم وضع القدم فى ركاب السير ، ولوى عنان العزيمة إلى
قصد من المقاصد ، فوصل إلى أطراف قرية ، فرأى هناك بشراً عميقاً
مظلماً كليل مولد المحنة المدلهم ، أسود من دخان وقود دركات
السعير ، قيل : إنهم وضعوا فيه كل الحجارة (التى طحنتها طاحون
الفلك) وأنزل فيه كل الوقود الذى كان فى موقد جهنم . فهو مظلم
مثل رأى الجهلاء ، كالح مثل وجه السفهاء .

وكان قد وقع فيه شيطان ، واجتمع عدة أطفال حول حافته مثل الشهب التي ترحم الشياطين ، وأخذوا يلقيون الأحجار على رأسه مثل الأمطار . والعفريت المسكين أسير في قعر تلك المغارة كالعفريت في قمقم السحرة .^(١)

فقال المسافر في نفسه : برغم أن العفريت من أشرار خلق الله ، وكان يلقي مائة ألف سالك لطريق الحقيقة في بئر الظلام وغار الخيال ، فيضعهم في يد غلول الاغتيال ، إلا أن العفو عن المجرم الذي لم يفعل جرماً خاصاً ، ورحمة المسئ الذي لم يلحق سوءه بك ، أمر مقبول لدى العقل ومحمود في العرف ، حيثُ جاء مثل ملاك الرحمة على رأس البئر ، وأنقذ الشيطان وخلصه من حفرة العذاب .

فتعجب الشيطان من مباينة الطين ومنافاة الطبيعة التي بين الشيطان وبنى آدم ،

لقد رُقَّ لى حتَّى النسيم على السرى وساعدنى بالشجر ورقٌ تنغم
فمن غير مألوفٍ تعاطفٌ مسعدٍ ومن غير جنسٍ رقةٌ وترحم

وقال أيها الأخ إنك عندما أظهرت هذا الفضل ، وقدمت بوجه هذه المروءة والفتوة ، وأوجدت صداقة بين العفريت والناس بالرغم من أن ذلك ممتنعاً لدى العقلاء كمزج الماء والنار .

(١) وضع العفريت في قمقم نوع من السحر الذي يأتي به المشعوذون محمد روشن ،

مرزيان نامه جـ ٢ ص ٦١١

وأنا بدورى سأقوم الآن بشرط الوفاء ، لأننى اعتقد أن جزاء هذا الاحساس فرض على . فيجب عليك إن رأيت نفسك أسيراً - ذات يوم - فى شرك مثل هذه الداهية ، أن تجرى اسمك على لسانك ، حتى أتيك فى الحال ، وأخلصك من تلك الآفة ، ثم مضى العفريت من ذلك المكان ، وانطلق المسافر إلى الطريق حتى وصل إلى مدينة « رامهران » ، وكان له صديق حداد فيها ، فنزل فى بيته بحكم الدالة والصحبة السابقة .

وكان من عادات تلك المدينة أنه فى يوم معين من كل عام ، يجعلون الغريب الذى يصل إلى المدينة قرباناً ، وإن لم يجدوا غريباً ، يصير كل من تقع عليه القرعة من أهل المدينة بدلاً من الغريب .

وفى هذا اليوم كان الحداد هو هدف سهم البلاء ؛ لكن عندما رأى الضيف ذهب إلى باب قصر رئيس الشرطة ، وأخبر ذوى الشأن عن وصوله ، فجاءوا وأخذوا الضيف إلى ساحة الإعدام ، ووجد المسكين نفسه متورطاً حتى عنقه فى طين المحنة .

وأخيراً تذكر مواعدة العفريت ومعاهدته ، فأجرى اسم العفريت على لسانه ، فكشف العفريت حجاب الاختفاء عن وجهه ، وحضر ، وعرف مزاج الحال ، وعلم ما هو وجه العلاج .

كان لملك هذه المدينة ولد هو عين مصباح العالمين ، وكان الأب يرى الدنيا بعينه ، فدخل الشيطان فى جسمه فى الحال ، وجرى فى مجارى عروقه وأعصابه ، وصار سرِّ حديث « إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم » واضحاً . وخر الولد فجأة من ستر العافية مثل المجنون ، وأتى بحركات قبيحة وهذيانات مشوشة من القول والفعل

كمن يتخبطه الشيطان من المس^(١) وكان العفريت الخناس يتردد مثل كنّاسٍ في تجاويف قناة أعضائه ومنافذ جوارحه ، فتارة كان يجلس على صورهِ مثل الوسواس ،^(٢) وتارة كان يغلق الطريق على صُعداء الأنفاس ، وأخرى كان يقع مثل الخيال في الرأس ، وكان يطفأ مصباح البصيرة في رجاجة الفطرة .^(٣) حتى إن إنسان العين - في الشبكية الزجاجية - كان يرى جميع الأشياء تمويهات باطلة ، وتارة يحيك برأجه وأنامله في حبل التشنج ، وأحياناً يضع عذاب الألم في كل فصوصه ومفاصله ، حتى كان الخوف يقطع حبل أوتار وأربطة القلب من شدة التقلصات ، فيتقاطر دم العضلات بدلاً من فضلات العرق من مسامٍ وفوهات العروق .

فاجتمع الجيش مع الرعية ، وجلسوا في مأتم ، حتى يعلموا ما موجب حدوث تلك الحالة ، وكيف صار مثل هذا الغلام الملائكى الصورة عفريت الصفة ؟

وأصبح كبد الأب محترقاً من حزنه على فلذة كبده ، فبكى دماً صافياً بدلاً من الدموع ، وعجز عن حيلة في أمر الولد ، فاستدعى الأطباء الحاذقين والمداوين المحققين ، فيأمر كل

(١) إشارة إلى قوله تعالى : « لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ... » البقرة / ٢٧٥

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : « من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس » الناس / ٤ ، ٥

(٣) إشارة إلى قوله تعالى : « ... مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى رجاجة .. » النور / ٣٥

واحد منهم بعلاج بمقدار علمه ، فلا يفيد ، وعندما وصل الأمر إلى حد الصعوبة ، وبلغ حزن القلوب النهاية ، صاح العفريت من داخله : إن شفاء هذا المعلول مرتبط بخلاص ذلك الرجل الغريب الذي حُبِسَ للقتل دون سبب . فأمر الملك فخلصوه من السجن ، فخرج العفريت من جسمه ثم قال للغريب المسافر .

لقد جئت لأمرِك هذه المرة « وإن الكذوب قد لا يصدق » ، لكن لا تأمل في خير مني بعد ذلك ، واعلم أنني برغم خروجي من البئر برسن اعتمادك واعتصامك ، لكنه لا ينبغي لابن آدم أن يصعد من البئر برسن العفريت « وما كنت متخذ المضلين عضدا » .^(١)

وقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم أنه لو كانت صحبتك بهذا الرجل الخراساني من هذا النوع ، فاحترس من توصيته بي .

قال الملك : لقد سمعت كل ما قررت ، وتحرير ذلك جدير بأن يسجل في أعاجيب أسمار الاعتبار ، أما الموالاة التي بيننا ، فهي لا تتلوث بهذه العلل .

قال الأمير : تلك صداقة أخرى تنهض عن هواء الطبيعة ، وبإشاعة الشهوة ، وهذه الصداقة تقبل الفتور لأدنى سبب ، ويمكن أن تنتهي بالقطيعة الكاملة ، مثلما حدث بين البطة والشلب ، فقال الملك : كيف كانت تلك الحكاية ؟

(١) الكهف / ٥١

حكاية الثعلب مع البطة

قال الأمير : سمعت أن زوجاً من البط قد اتخذ بيتاً على شاطئ جدول ، واتخذ ثعلب مسكناً في مجاورتهم ، مرضى الثعلب بعله داء الثعالب فصار ضعيفاً وهناً ، وسقط لحمه وشعره ، وتعلقت الروح بشعرة لا وجود لها « كخرقة بالية بالت عليها الثعالب » ، فسقط في زاوية المنزل ، فجاءت سلحفاة لزيارته ذات يوم ، وشغلت نفسها بأمره والبحث عن سبب علته . ثم قالت له : إن كبد البطة مفيد في مداواة هذه العلة ، فإن استطعت الحصول على قطعة منه لأصبح نافعاً جداً لإزالة هذه العلة .

ففكر الثعلب في نفسه : إن كيف أحصل على كبد البطة ؟ فلهج ذلك الطير أشد تعذراً على من لبن العصفور !! فلا حيلة إلا أن أجلس على حافة هذا الشاطئ وأترصد حضور تلك البطة كيما أشدها بواسطة الإغراء في شرك الاحتيال .

وذهب بهذه الفكرة إلى هناك فتصادف أن وجد بطّة هناك ، فدلف إليها على سبيل المناصحة ، فبدأ بالملاطفات على عادة الأصدقاء الصادقين المهمومين المشفقين ، وقال لقد ارتاح قلبي كثيراً لمجاورتك ، فلقد رأيت فيك المهارة وحلاوة المعشر ، ووجدتك في إدارة البيت وشئونه نظيفة الطرف أريجة العرف دائماً . كما علمت أنك قائمة بحقوق زوجك ؛ لكنى سمعت - اليوم - أنه قد أبعد القلب عن عرش محبتك ، وأرسله لخطبة من هي أحب إليه ، وضرب بحلقة الرغبة باباً آخر ، فصرت بهذا بالنسبة لزوجك مثل مفتاح على الطاق (بلا فائدة) ، وحلقة على باب مانى ، ومن ثم عندما يراها ، فلن يلتفت إليك مطلقاً ،

إن من يجعل التفكير فيك توأم روحه ، يضع كل من سواك على
الطامة مهملاً .

وقد أبديت لك هذ المعنى حتى تعلمي جيداً ،

أنت عيني وليس من حق عيني غض أجفانها على الأعداء^(١)

فعندما سمعت البطة هذا الكلام منه ، تأملت قليلاً ، لكنها
قالت : إن الحق جلّ وعلاً جعل النساء في أمور المعاشرة محجورة
بحكم الأزواج مجبورة على طاعتهم ، كما قال عزّ من قائل « الرجال
قوامون على النساء » فماذا عساي أن أفعل وزنا بدوري - وفق
أحكام الشرع - يجب أن أضع أذني في حلقة الانقياد له ، وأن أكون
وفق رغبته .

فقال الثعلب : أحسنت القول ، ولكن لو تفضلين عليه آخر كما
فضل عليك أخرى فلا ضير .

أما وقد صار عيار جانبه معك مغشوشاً ، وميزان رغبته فيك مائلاً
نحو أخرى ، يلاحظها بعين القلب ، ويلقى بالمحافظة على حقوقك
خلف ظهره ، فليتك تشيمين بوجهك عن موافقته ، وتقطعين حبل تلك
الآلفة والزوجية الذي يربطك بزوجك لا يشيرون إلى شبيه له على
الأرض ، وقد قيل « النار ولا العار » .

(١) البيت لابن الرومي من قصيدة له يعاتب فيها أبا القاسم التوزي الشطرلحي ، ومطلعها :

يا أخى أين ريع ذاك اللقاء أين ما كان بيتنا من صفاء

إبراهيم عبد القادر المارني ، ابن الرومي : حياته وشعره ، شكل بحثه واختار شعره

كمال أبو مصلح ص ١٢٥ ، ط المكتبة الحدية بيروت سنة ١٩٨٧

فى الذى يستعدى جور الضداد الفجائى ، والصبر على مضرة
الضرائر والعيش مع الرفاق السفلة الخائنين على خلاف الطبع ،

فى طَّلعة الشمسِ ما يُغْنِيكَ عَنْ رُحْلِ^(١)

فقال البطة : كل ما تقوله قضية وفاق ، هو منك نتيجة الكرم
والإشفاق ؛ لكن الرجل مباح له فى عقد الزواج حتى أربع نساء ،
وهو متمسك فى هذه العزيمة برخصة الشرع « فانكحوا ما طاب لكم
من النساء مثنى وثلاث ورباع »^(٢) وهو رجل عاقل بعيد النظر صافى
الرأى ، وهو من العالمين بسر إشارة « فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة »^(٣) .
وإن لم تعلم إمكانية الجمع بين الضدين ، والتزام طريق العدالة
والنصفه ، وما لم تثق فى موافقتنا وفى استقامك فاطرح هذه الفكرة
جانبا ، فإمكانهم ضرب كلتا يدي أشجع الشجعان بالسيف ،
وإمكانهم شرب كأس مزدوجة بالمزاج القوى ، أما من لا يقوى على
محاربة نفسه ، لا يحارب خصمين ، ومن لا يكون جسورا فى مجال
السباحة لا يربط جرتين على رجله فى معبر نهر جيحون ، وعلى

(١) هذا المصراع هو شطر بيت للمتنى من قصيدة مطلعها :

أجاب دمعى وما الداعى سوى طلل دعا فلباه قبل الركب والإبل

أما البيت فهو :

خذ ما تراه أودع شيئا سمعت به فى طلعة الشمس ما يغنيك عن رحل

المتنى ، الديوان بشرح البرقوقى جـ ٢ ص ٦٣ ، ٦٨

(٢) النساء / ٣

(٣) النساء / ٣

سبيل المثال لو جاءت - من يجعلها قریتی - بمضادات الأقران
وسلكت معی طریق الظلم والتحامل فإنی أرى تحمله واجباً ، وأتحلى
بالمثل « إذا عز أخوك فهن » .^(١)

فقال الثعلب : عندما لا يفيد التعريض والتلويح ، ينبغي أن تقال
حقيقة الحال صراحة ، يجب أن تعلمی أن هذا الزوج يتهمك بأنك
تميلين إلى شاب آخر أكثر نضارة منه ، وهو يتخيل أنك استوليت على
قلبه ، ومهما أبديت له طهارة عرضك ، وحاولت إزالة خبث تلك
الصورة دون جدوى ، فإنه كما قيل :

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَقَ مَا يَعْتَادُهُ تَوَهُّمُهُ

ثم وضع (الثعلب) خطياً آخر من هذا النوع كل ساعة تحت نار
طبيعتها ، إلى أن صبّ كثيراً من زيت الحيل واللطافة على الشمعة
حتى صارت لينة ورضيت ،

شيئان يعجز ذو الرئاسة عنهما رأى النساء وإمرة الصبيان
أما النساء فميلهن إلى الهوى وأخو الصبى يجرى بغير عنان

(١) قال أبو عبيد : معناه مياسرتك صديقك ليست بضيم يركبك منه ، فتدخلك الحمية
به ، إنما هو حسن خلق وتفضل فإذا عاسرك فياسره .

وكان المفضل يقول : إن المثل لهذيل بن هبيرة السعلی ، وكان أغار على بنى ضبة فغنم
فأقبل بالغنائم ، فقال له أصحابه : أقسمها بينا ، فقال : إني أخاف إن تشاغلتم بالاققسام أن
يدرككم الطلب ، فأبوا ، فعندها قال : إذ عز - أخوك فهن ، ثم نزل فقسم بينهم الغنائم ،
وينشد لابن أحمر :

دبت لها الضراء وقلت : أبقي إذا عز ابن عمك أن تهونا

الميداني : مجمع الأمثال ج ١ ص ٣٤ .

ثم قالت : أيها الأخ إن ما تفضلت به ، إنما تقوله من باب الشفقة ، والتدين ، ورقة القلب والرحمة ، وأنا أرى مخايل صدق هذا الكلام على شمائل زوجي ، وأنا أعرف مقدار صداقتك المخلصة وحسن معاملتك ، وأعلم أن شوائب الخيانة بعيدة عن مشارع^(١) ديانتك ، وأنت لا تفعل إلا ما هو من مقتضى الوفاء والأمانة « والرائد لا يكذب أهله » .

والآن قل لي : بأي وجه يكون خلاصى منه ميسراً ؟ فقال الثعلب : لقد أحضروا لي نبتاً من نباتات أرض الهند ، يسمونه موت البط ، فإذا أعطيته منه حصل مقصودك ، فامتنت البطة لذلك ، وأغراها ذلك النبات وكأنه سكر ، وذهب الثعلب حتى ينجز ما وعده فغاب يومين ، ومكث في منزله ، ولحظة فلهظة تزداد بواعث الحرص في البطة على مجيء الثعلب وإحضاره للدواء .

كباحثٍ مُدِيَةٍ فِيهَا رَدَّاهُ

ثم نهضت وذهبت إلى بيت الثعلب ، حتى تعلم ما هو سبب تقاعده عن مزارها وتباعده عن مهد ملاقاتها ، وبأي مانع تخلف عن الوفاء بوعده السابق ؟ وعندما وضعت قدمها على عتبة الباب ، وجد الثعلب المكان خالياً والفرصة مواتية ليفتح على روحها كمين الغدر ، فمزق كبدها وصار من المعلوم أن كبد البط مثل جناح الطاووس وريشه ، وبدأت حياته من منبع مماتها ،

(١) مشارع جمع مشرعة ، والمشرعة هي مرود الماء . المعجم الوسيط .

لو كنتُ أجهلُ ما علمتُ لسرني جهلى كما قد ساءنى ما أعلمُ
الصمعود يغُر آمانا فى سرِّه حُبسَ الهَزَارُ لأنه يتَّرنمُ

وقد قلت هذه الحكاية حتى يعلم الملك أنه لا يمكن الاعتماد على مثل هذه الصداقة .

فقال الملك : يا بنى إن سبب صداقتى معه غاية الفضل وكفاية وغزارة العلم - والكياسة والخلال الحميدة والخصال المجربة فيه ، وقد اصطفيته على العالم بفضيلة العلم ، كما اختار ذلك الرجل التاجر

فقال الأمير : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية التاجر مع الصديق العالم

قال الملك سمعت أن تاجراً كان له ابن مقبل الطالع ، جميل الطلعة ، عالى الهمة ، يفوح كل الكون برائحة الرشيد والنجابة من حركاته ، ويلوح لون العظمة والفراشة على وجناته ، وذات يوم قال له الأب ناصحاً : أى بنى إن كل الناس فى هذه الدنيا يحتاجون إلى كل شيء ، وعندما تنزل الدنيا مصيبة فبالصديق هو الأولى بالنفع .

خذ ألف دينار من مالى ، وسافر ، وابحث لك عن صديق مخلص ، وطُف حول الأرض كالقمر عسى أن تعثر على صديق له سيرة المشتري فى منازل السير ، يمنحك السعادة بنظر المودة ، ومن ثم تجعله ذخيرة لعمرك ، وتجعله مفتاحاً لعقدة الحوادث ، وتحفظ به كمرهم لجرح الأيام .

أخاك أخاك إنَّ من لا أخاله كساعٍ إلى الهَيْجَا بغير سلاح

ولا شبهة في أن المراد من الأخ هنا هو الصديق الموافق ،
والحبيب المخلص ، وإلا فما الجدوى من أخوة الأخ الصلبي الذي هو
بعيد عن المحبة !! ولذلك قالوا « رب أخ لك لم تلده أمك » .^(١)

أخذ الابن المال وذهب بأمر أبيه ، ثم عاد بعد قليل ، فقال
الأب : فبالرغم من أن عادة الفجور بعيدة عن طبعك . ونزاهة خلقك
بابتعادك عن دنس الفسق مشهورة ، إلا أنني أعلم أنك قد أنفقت المال
في غير مصارفه الصحيحة ، ومن ثم تراجعبت بهذه السرعة عن
هدفك ، وعُدت . والآن قل : كيف ضيعت هذا المال من يدك ؟
وكيف حصلت على الصديق ؟ .

قال الابن : حصلت على خمسة صديقاً ، لدى كل واحد منهم
مائة ثقافة ، وهو صدر في الدنيا ، وزا ، دين نصيحتك من ذمة عقلي .

قال الأب : أخشى أن تكون قصة أصدقائك مثل ذلك الدهقان ،
فقال الابن : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الدهقان مع ولده

قال التاجر : سمعت أن دهقاناً كان لديه كثير من العقارات والمال
والضياع والمتاع الدنيوى ، وكانت مخازن الثروة مليئة بعقود النقود

(١) يروى هذا المثل للقمان بن عاد ، وذلك أنه أقبل ذات يوم ، فيينا هو يسير إذ أصابه
عطش ، فهجم على مظلة في فنائها امرأة تداعب رجلاً ، فاستقى لقمان فقالت المرأة : اللبن
تبغى أم الماء ؟ قال لقمان : « أيهما كان ولا عداء » فذهبت كلمته مثلاً ، قالت المرأة : أما
اللبن فخلقك وأما الماء الماء فأمامك ، قال لقمان : « المنع كان أوجز » . . . ثم قال لها : من
هذا الشاب الجالس إلي جنبك فقد علمته ليس بيعلك ؟ قالت : هذا أخى ، قال لقمان « رب
أخ لم تلده أمك » فذهبت مثلاً . الميداني : مجمع الأمثال ، ج ٢ ص ٣١ ، ٣٢ .

كامتلاء النهر إلى حافته بالماء ، وكماتلاء جيب المنجم بالذهب والفضة ، وكماتلاء البستان بالأزهار فى الربيع ، وكالغصن العامر دائماً بالأوراق فى فصل الخريف ، وكان دائماً ينصح ولده بالنصائح الطيبة المفيدة ، وكان يبالغ فى توصيته بالحفاظ على المال ، والمحافضة على دقائق الدخل والخرج وحسن تدبير المعيشة ، وفى مباشرة البذل والإمساك ، كما كانت الصداقة فى وصاياه بمثابة أول الكلمات فى القاموس ، وكان يعتقد أنها أهم المهمات ، وكان يقول :

أى بنى لا تبذر فى إنفاق المال حتى لا تندم بعد ذلك ، واختر الصديق عن طريق العقل حتى لاتصير عدواً للعقلاء ، واجتهد فى تحصيل العلم حتى لا تنفق عمرك فى غير فائدة ، لأن الدنيا بأسرها قاذورة وضعت فى هذه القارورة الشفافة ، فإذا ما نظر شخص بعين الاستقامة متأملاً فيها لعرف مزاجها ، ولعلم أن ما ينفعه فى عاجله هو الصديق ، وأن ما ينفعه فى آجله هو ذلك الذى لا زوال له وهو العلم .

تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا تُعْبَانُ مِنْ لَبَنِ شَيْبَا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالَا

وعندما مات الأب ، ترك كل شىء للابن ، فأطلق الابن يد الإلتلاف والإسراف ، وبسط سباط الإفراط ومائدة مع جمع من إخوان الشياطين ،^(١) فخسر فى أيام معدودة خسراناً بلا حدود .

وكان له أم عالمة ، حسنة الراى ، بعيدة النظر فقالت له : احفظ وصية الأب ، ولا تضيع ما آل إليك عبثاً ، فإنك تعطى حينما لا يلزم العطاء ، فإذا لزم العطاء فلن يوجد ما تعطى ، ولا تعدن أى صديق

(١) إشارة إلى قوله تعالى « إن المبشرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً . . . »

صديقاً مالم تختبر أوصافه في بوتقة التجارب ، ولا تتخذ صديقاً حتى تعرف مما خضته من مماذقته .^(١)

كثيراً ما يكون الصديق في معاقرة الشراب لكن قل أن يوجد الصديق المشارك في الألم .

وما أشبه عهد الجوعى الشرين بمصباح الأرامل الذى لا زيت فيه .
فالشريف والوضيع كلاهما على علم بالوضاعة لكن أطلق كلمة الرجولة على من يستحق .

ظهرت لدى الابن من هذا الكلام رغبة في اختبار حال الأصدقاء ، فذهب إلى أحد الأصدقاء ، وقال على سبيل الامتحان في بيتنا فأر يخرّب كثيراً ولا يقدر أحد على دفعه ، وفي منتصف الليلة البارحة ظفر على ملء الهاون عشر مرات وأكلها جميعاً ، فقال الصديق : ربما كان الهاون دسماً ولا يخفى حرص الفار على أكل الدسم ، فزاد اعتماد الابن على أصدقائه لذلك التصديق الذى أبدوه ، وجاء إلى أمه نشوان ، وقال : لقد اختبرت الأصدقاء ، فقد قلت خطأ جسيماً ، فلم ينشغلوا بالاستهزاء بى ، ولم يكذبونى حياءً وخجلاً ، وأخذوا كذبنى على أنه صدق ، فضحكت الأم من ذلك الكلام .

وربما ضحك المكروب من عجب فالسن تضحك والأحشاء تضطرب
ثم قالت : أى بنى إن العقل يسخر من هذا الكلام ، ولكن يجب أن تبكى على نفسك بألف عين ، لأنك لا تملك عين البصيرة ، حتى ترى وجه الصداقة والعداوة في مرآة العقل .

(١) المماذقة في الورد ضد المخالصة (لسان العرب) .

إن الصديق هو الذى يصدق معك لا الذى يصدق كذبك
« صديقك من صدقك لا صدقك »^(١)

ولأن الابن كان فى غاية الغباء والشقاء قال : صدق من قالوا :
لا يجب اتخاذ النساء مكاناً للسر ، أو إعطائهن مقام الإصغاء فى كل
الكلام ، وهكذا ضيع الابن كل تراث الأب جملة بريح الهوى
والهوس حتى وصله يومه إلى ليل الإفلاس ، وانقلب حاله فمن
ملبس الحرير والأطلس إلى ملبس الفقراء ، وأجلسته ريح الفقر على
تراب المذلة ، وذات يوم ذهب إلى ذلك الصديق نفسه وهو يجلس بين
أصدقاء آخرين ، وأخذ يحكى أمره وهو مضطرب ، فجرى على
لسانه أثناء الكلام « إننى فى الليلة الماضية كان لى رغيف على المائدة
فجاء فأر وأكله كله » .

فقال ذلك الصديق - الذى كان قد ألبس مموهات أكاذيبه وترهات
أقاويله لباس الصدق وجعل القبول على منزلتين لاستقبال الأباطيل -
على سبيل الهزل : أيها الناس اسمعوا هذا العجب وانظروا هذا المحال
كيف يستطيع فأر أن يأكل رغيفاً فى ليلة ؟ !

وقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم أن الأصدقاء يهتمون باللقمة
والخرقة أكثر من اهتمامهم بالحياء ، ويعلمون أن مالك هو منبع النفع

(١) « أخوك من صدقك النصيحة » يعنى النصيحة فى أمر الدين والدنيا ، أى صدقك
فى النصيحة ؛ فحذف « فى » وأوصل الفعل ، وفى بعض الحديث « الرجلُ مرآةُ أخيه » يعنى
إذا رأى منه ما يكره أخبره به ونهاه عنه ، ولا يوطئه العشوة .

الميدانى ، مجمع الأمثال ج ١ ص ٣٦

والضرر ومطمع الخير والشر ، وعندما لا يرون إسعاد التوفيق معك ،
ويعلمون أن الاستعداد الذي كان لديك قد فسد وزال ، جعلوا صدقك
كذباً ، وكفروك ولو نطقت بجميع كلمات الإيمان .

وعلى سبيل المثال لو كان لديك إبيريق مليئاً لطبعوا القبلات على
فمه وشفتيه فإذا ما فرغ طرحوه أرضاً ،

أَلَسْتَ تَرَى الرِّيحَانَ يُشْتَمُّ نَاضِراً وَيُطْرَحُ فِي الْمِيْضِ إِذَا مَا تَغَيَّرَا

يابنى إنى أخشى أن يكون أصدقاؤك - والعياذ بالله - من هذه
الطائفة ، لأننى أفنيت ثمانين عاماً التى هى مدة عمرى فى تجربة
أحوال العالم فى أمر الصداقة والعداوة حتى ظفرت بصديق ونصف ،
ارتشفت فى سبيل ذلك كدرَ الأيام وصفوها . فكيف اتخذت خمسين
صديقاً فى عدة أيام ؟ فتعالى إذن وأرنى أصدقاءك حتى أريك مقام كل
واحد منهم ، وإلى أى مدى وصل فى مراعاة جانب الصداقة ومدارة
رفقاء طريق الصحبة ، فاستجاب الابن .

وعندما أقبل الليل ذبح التاجر خروفاً ، ووضعها ملطخاً بالدم فى
قطعة من القماش ، ولفه فيها ، ووضعها على ظهر حمال ، وجعل
الابن فى المقدمة وأمره أن يذهب إلى باب أحد الأصدقاء ، وينادى
عليه من خارج البيت قائلاً : أن هذا رجلاً فى مشاهير رجال المدينة
قد هجم على هذه الليلة وهو سكران ، وتعلق بى فضربته بالسكين فى
فى مقتلته ، فهوى صريعاً على يدى ، والآن وفى مثل هذه الوقائع
توضع ودائع الأسرار أمام الأصدقاء ، وأتوقع منك أن تدفن هذه
الجيفة فى التراب ، وأن تظهر ذيل أحوالى من دمه .

فمضوا حتى وصلوا إلى باب قصر لصديق قد عرفه ، ثم طرق الابن الباب ، فخرج الصديق ، وكرر الابن الكلام مثلما تلقنه ، فأجاب الصديق : إن البيت ضيق علينا بسبب رحمة العيال والأطفال ، فلا تكاد تجد مكاناً تخفيه فيه ، ولى جيران يبحثون عن السعيب ويطلبون العثرة ، فهم جميعاً مشغولون بالغمز والنميمة على . ومن ثم فالأمر ليس فى يد إمكنى .

فرجعوا ولم يضرب أحداً يداً على صدر القبول لهم ، وقد طاشت كل أسهم التمنى .

فقال الأب : لقد اختبرتُ أصدقاءك ، وعلمت أنهم جميعاً مجرد نقش جدار ، وشجرة شوك الخيبة ، لا يحمل غصنها ثمرأ لمنفعة حتى يطيبوا بها الفم ، ولا تحمل أوراقاً يلقي بظل الراحة الذى يأوى المتعبين .

إذا كنتَ لا تُرجي للدفع مُلمةٍ ولم يكُ للمعروفِ عندك مطمعُ
ولا أنتَ ممن يستعانُ بجأهه ولا أنتَ يومَ الحشرِ ممن يشفعُ
فعيشكُ فى الدنيا وموتكُ واحدٌ وعودُ خلالٍ من وصالكُ أنفعُ

والآن هيا معى حتى تختبر الأصدقاء الرجال ، وذهبوا أولاً إلى باب النصف صديق ، ونادوا عليه ، فخرج ، قال له التاجر : انظر ماذا فعل بى القضاء ؟ وماذا قدم لى القدر ؟ لقد قُتل شخص على يدى ، ولا أدرى حيلة لإخفاء ذلك سوى عرض الأمر عليك ، بل يجب أن تخفى علينا (أنا والقتيل) حتى نرى إلى أين يصل خيط هذا الأمر ، وهذا التكرم والتفضل ليس غريباً عن كريم عهدك وحسن حفاظك .

قال النصف صديق : أنا رجل مفلس ، ولا أخشى من مؤاخذه الجناية ، ولن أبخل بهذا التنازل ، لكننى أملك بيتاً أضيق من قلب البخلاء ويد المفلسين ويمنع تزاحم الأطفال الصغار من الذكور والإناث وتراكم المتاع والأثاث من إمكانية اختفاء الاثنين ، أما لو جئت أنت ، أو أعطيتنى المقتول فهذا مقبول ، فضع واحداً من الاثنين مثل سواد البصر فى العين ، وسويداء القلب فى الصدر ، فقال له التاجر سأذهب وربما أعود .

فرجعوا ، وقال الأب للابن هذا هو النصف صديق ، الذى شرحت لك حاله ، فهيا بنا حتى نذهب إلى الصديق الخالص فضرب نقد ولائه على محك الاختبار ، فذهبوا ، وعندما وصلوا إلى باب قصره ، وأخبروه ، خرج الصديق من قصره وقد تهلل وجهه بشراً ، رابعاً لحزام السماحة فى أذيال العجلة ، متعشراً فى أذيال الخجل ، مستعداً لحقوق وزيارة الوقت المتأخر ، فألقوا عليه السلام والتحية ، وساقوا إليه حكاية القتل وإخفائه . فعندما سمع القصه ، وضع إصبع القبول على العين قائلاً :

ما لم تطرح كل شىء عندك وكل من هم لك ، فإن حديث العشق منك خطأ .

إن إصلاح أحوال الأصدقاء ، وترجيح جانبهم على جميع مصالح ومناجح آمال وأمانى هذه الدنيا واجب فى مذهب الفتوة وشريعة الكرم . أما الامتناع عن تلافى الخلل الذى يتطرق إلى شأن الأصدقاء فهو محظور أمام مفتى العقل ، وعندما لا يُتفَع ممن يُسمون بالأخوة بعضهم من بعض اليوم فسوف يأتى ذلك اليوم الذى يفحص الحال

« يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه »^(١) ، حيث لا يمكن تصور أى فائدة من أحد للآخر ، فلا يجب أن نجعل للخوف أو الانكسار طريقاً إلى الخاطر ، حتى لو قصرت كل قوة البشرية عن كتمان ما يقتضى الكتمان ،

فلا أنا عما استودعوني بذاهل ولا أنا عما كاتموني بفاحص
إننى سأخفى هذا المقتول تحت الأرض طيلة حياتى كإخفاء سر
المعشوق عن الرقيب ، وكإخفاء نية المكيدة عن العدو ، وكإخفاء
كل العمر فى ستر التراب ،^(٢) أو مثلما يختفى سرّ الأنجم والأفلاك
عن العالمين .

وسوف أخلى الحجرة من حضور الأغيار ، كإخلاء الجنة من
الأشواك ، حتى لا يشغلون مكان جلوسك ، ويظفرون بكل أسباب
الفراغ والراحة .

فعندما وجد التاجر لدى الصديق كل هذا الحب والبشاشة وكرم
الضيافة وحسن الشمائل ، صدق معه فى حديثه ، ووضع مقصود
الأمر ومصدق الحال أمامه وقال : اعلم أننى برىء من هذه الجريمة
التي ألحقتها بنفسى ، والغرض من هذا الاختبار هو قياس
درجة صداقتك ، ومعرفة جوهر ضميرك ، فعلمت إلى أى مدى أنت
فى محاسن الأخلاق ومكارم الأوصاف !! وأظهرتها على هؤلاء الذين
لا يعلمون . ثم نظر إلى الابن وقال : أى بنى ، إننى اخترت صديقاً

(١) عبس / ٣٤ ، ٣٥

(٢) كناية عن إخفاء الإنسان فى قبره .

عالماً ، وارتقيت بمعيار الصداقة عن طريق العلم ، وغربت كل الدنيا
بغريال الخبرة ، حتى عثرت على هذا الصديق المصطفى والمفضل .

لو كان العالم عدو روحك فهو أفضل من صديق جاهل

وأنا بدورى قد أرشدتك إلى ذلك الصديق ، حتى إذا تعلق دائن
الحوادث بتلييتك ذات يوم ، اعتصمت بذيل عصمته ، وجعلت رأيه
فى مدخلات الأمور قدوة لك ، وإذا ما وقع بينكم - أنتم الأخوة -
مشكلة يكفى أن يمد يده لإصلاحها فيصفى موارد ألفتكم وأخوتكم من
شوائب المنازعة .

يَرى لِلزَّائِرِينَ إِذَا أَتَوْهُ حَقُوقاً غَيْرَ وَاهِيَةٍ عُرَاهَا
إِذَا نَزَلُوا بِسَاحَتِهِ يَرَاهُمْ قُلْدَى فِي عَيْنِهِ حَتَّى قَضَاهَا

ثم انتقل الملك من دار الغرور إلى قصر سرور الآخرة ، وخلف
عرش الملك لأبنه الأكبر والتزم كل ابن من الأبناء مقام توليته حسب
وصية الأب ، ونزعوا النفاق والشقاق من بينهم ، حتى بقى الأمر
وفق الإصلاح بيمن وفاقهم ، واستقرت السلطنة عامرة ، واقتربت
البداية بالنهاية ، وبعد ، فلينظم الله تعالى حيات سلك أحوال العالمين
برأى فاتح العالم ، صاحب العظمة ، معين الإسلام والمسلمين ،
وليصن وليعصم - سبحانه وتعالى - غرة حلاله من وصمة عين
الكمال ، وليمهد له بساط المكارم ، وليجعل الله ذكر مآثره ومفاخره
مخلداً . بمحمد وآله وعترته الطاهرين .

الباب الثالث

فيما كان من أمر الملك
أردشير والعالم مهران به

فيما كان من أمر الملك أردشير والعالم مهران به

قال الأمير : سمعت أن الملك أردشير الذي كان متقدماً على قدماء الملوك وعظماء السلاطين في خصائص العدل والإحسان ولم تلد أم الأيام ولداً في حكمته وعلمه . كان له فتاة حسناء ؛ حتى أن كل من ينظر إلى محياها يجرى على لسانه «ما هذا بشراً»^(١) ، وكل من يرى لحظة من لحاظ دلالها يقول «أفسحر هذا»^(٢) . فصورتها لا يمكن تصورها على لوح المخيلة ، وجمالها لا يرى له نظير في مرآة التصور.

روحها لطيفة وجسمها طاهر ، حتى تظن أنها ليست من عالم الأخلاط .

وجهها كبستان في فصل الربيع ، لم يزرع فلاح سرواً يطاوله^(٣)

وهي قمرية الوجه تختلس الشمس النظرة إليها من خلال فتحة في خدرها ، أما حارس عصمتها فهو رجل ، ومن ثم فلم يصل إلى طرتها سوى يد المشط ، ولم ير جمالها سوى وجه المرأة ، وقد احتفظ فرجها حتى الآن بخاتم العذرية ، وما زال عذارها الفضي مغطى تحت نقاب الصيانة .

(١) يوسف / ٣١ .

(٢) الطور / ١٥ .

(٣) البيت الأول لأبي القاسم الفردوسي : أبو القاسم الفردوسي ، الشاهنام ، ط

موسكو ، ج ، ص ١٧٤ .

غزالٌ له مرعى من القلب مخصبٌ وظلٌ صَفِيقُ الجانين ظليلٌ
فكالشمسِ تَغْشَى الناظرينِ بُنُورها وليس إليها لأكفٌ سَبِيلٌ
وعندما وصلت إلى مرحلة النضوج امتدت جواذب رغبة أشرف
الملوك من شتى بقاع الأرض لخطبتها إلا أن طَرَفَ قناعها لم يلق بظله
على أى رجل ، حتى طالت الأيام «والبيض قد عنست و طال
جراؤها»^(١)

وذات يوم قال الملك لها : أى بنيتى ، هل تعلمين أن الزواج زينة
النساء ، وصون حالهن ، وزينة أيامهن ، فبرغم أنك ابنة فخر
الأمهات والآباء ، فإن الإباء عن الزوج وإظهار الممانعة والرفض يبدو
بعيداً عن الصواب فى هذا الباب ، كما أن طول مكث البنات فى
بيوت الآباء يجعله مثل الماء الزلال الذى يمكث فى الإناء أكثر من
المعتاد ، فيصير - لا محالة - نتن الرائحة ، وصاحب الشريعة الذى
علم عاقبة حالهن عدّ الموت لهن أفضل من الحياة ، فقال صلوات الله
وسلامه عليه «نعم الختن القبر» ،

كان سئ الطالع من كان له ابنة خلف الستر^(٢) ولو كان ملكاً
متوجاً .

(١) الجرو : ولد الكلب ، وولد كل سبع ، : من المجاز قولهم : جرو البطيخ ،
والرمان ، والحنظل : للصغير منها . والمراد هنا : أن رمان ثدى الفتاة قد كبر ، وتشبيه الثدى
بالرمان موجود فى الأدبين العربى والفارسى بكثرة . انظر الزمخشري ، أساس البلاغة مادة
«ج.ر.و» وانظر محمد روشن : مزيان نامه ؛ ج ، ص ٦٢٢

(٢) المقصود : عانس .

فالأولى أن ترضى بالزواج من الأمير «فلان» الذى لديه كفاءة الحسب والنسب ، فأريح خاطرى من التفكير فى همك . قالت الفتاة: «البنات محن والبنون نعم ، فالمحن مثاب عليها ، والنعم مسئول عنها» .

فالأبناء نعمة ، ونعمة هذه الدنيا سبب الحساب والمؤاخذه، والبنات محنة ومحنة هذه الدنيا مظنة المغفرة والثواب ، ولا بد للآباء من الصبر عليهن والمثابرة على شدائدهن من حيث العقل والشرع . وإمعان النظر فى تزويج البنت، واختيار الزوج هو شرط الولاية وحققها، أما الإجبار الذى أوجبه الآباء هو من قبيل كمال شفقة الأبوة وخبرتهم بدقائق طباع البنوة التى كانت باعثاً على الاحتياط والاستقصاء فى طلب مصالح البنات، غير أنه من الأولى عدم الزواج من الزوج غير المناسب للفتاة ، فالابن الذى لا يأتى الخير بمولده فإن الأفضل هو عدم مجيئه .

فإذا بحثت عن الكفاءة فى الملك والمال فهذا بعيد عن الكفاءة ولربما كان كفوئى ذلك الشخص الذى لا ينظر إلى الدنيا الفانية ، ولا يعتريه نقص فى خصاله، لأن المال مهما يكن كثيراً فى الدنيا، فهو فى معرض التلف وفى طريق سيل الحادث والوارث، كما أنه خال من المنفعة الحقيقية ، والنسب هنا بدون ضميمه الحسب لا يدخل فى حساب العقل، كما أنه لا جدوى له فى الآخرة «فلا أنساب بينهم يومئذ»^(١)

(١) المؤمنون/ ١٠١

فقال الملك : أنت أميرة وزوجك لابد أن يكون سليل الملوك ،

وَحُسْنُ اللَّأَلَى فِي النِّظَامِ أَزْدَوَاجُهَا

قالت الفتاة : إن الملك شخص مسلط على نفسه غيره

قال الملك : إذن فمن ذلك الذى يملك هذه الصفة؟

فقالت الفتاة : ذلك الذى يكظم غيظه ، ويسحق الطمع بقدم العقل ، وتطيعه نفسه ، بل ويعرض عن البحث فى عيوب الآخرين حتى لا يبحثوا عن عيبه ، وحتى يكون أمراً لغيره .

ومن ثم ظل الملك فترة طويلة يسعى للتوصل إلى مثل هذا الشخص حتى دلوه على شخص مستجمع لهذه الخصال ومتحلياً بهذه الصفات ، نظراً لأنه أعرض عن رخارف الدنيا ونأى بنفسه عن الصفات الرذيلة التى تبدو مستهجنة من حيث العقل والحكمة . ولهذا صان نفسه ورأى فى العلم أساس السعادة الحقيقية ، وهو العالم «مهران به» الذى يقيم فى المدينة الفلانية ، فاستقر رأى الملك وابنته على أن يزوجها لهذا الشخص ، فأرسلوا له رسولاً ، فتمت الموافقة بين الطرفين ، وعُقدَ عقدُ زواجها ، وزفت من حجرة الصون والعفاف إلى بيت زوجها .

وعندما مرت عدة أيام سأل الملك عن حال ابنته وزوجها ، واستفسر عن مزايا وعيوب خلق الزوج واحدة واحدة ، فعلم يقيناً أنه أكثر سعادة بالقياس إلى السعدين^(١) ، وأعلى شرفاً من النيرين^(٢) فى

(١) ، (٢) السعدان : هما المشتري والزهرى ، فالمشتري السعد الأكبر والزهرة السعد

الأصغر ، والنيران هما الشمس والقمر ، انظر د. مهدي محقق ، السابق ص ٢١

أوجهما ، وأن طعم وفاق كليهما قد وقع على مذاق الآخر . عند ذواق العسيلة ، وأطلق الزمان عليهما بسبب تلك الموافقة والمطابقة قولته «وافق شن طبقة»^(١)

وذات يوم نهض أردشير بدافع من الشفقة وصلة الرحم ، وتوجه إلى منزل ابنته وسألها عن حالها قائلاً : كيف تعيشين مع زوجك؟ وهل طريق التعايش مقترن بالرضا من كليهما أم لا؟ فقالت الابنة : لم أر منه ومن عاداته وأخلاقه إلا كل ما يرضيني ، ولم يبد لي منه ما ينفرنى منه أو يبعدنى عنه ، سوى أنه يضع طعامنا وملبسنا وفراشنا كله في مكان واحد ، وهذا أمر بعيد عن الصواب والنظام .

قال الملك : هل ينصرف عن هذا الأمر غير المألوف إذا التمس منه هذا؟ قالت : نعم .

حكاية الملك «أردشير» مع العالم «مهران به»

اختلى الملك أردشير بالحكيم مهران به وطلب منه أن يفصل بين المأكولات والملابس ، وأن يخصص لكل مأكول أو ملبوس مكاناً خالصاً .

= وقد يأتى استخدام هذه الكواكب بغير هذه السميات ، فتأتى الزهرة باسم «ناهيد» والمشتري باسم «هرمز» يقول الشاعر :

بهاى لشكرش ناهيد وهرمز به پیش لشكرش مریخ وکیوان

ادوار پروان ؛ تاریخ ادبی در ایران ، جلد اول ترجمه على باشا صالح ص ٦٧٢ تهران سنة ١٣٣٣ .

(١) يضرب للمتوافقين ، وقد اختلف في مورده ، ولم يختلف في مضره الميداني ، مجمع الامثال ج ٣ ص ٤١٨ .

فقال الحكيم مهران به : اعلم أننى قد جمعت متاع هذه الدنيا فى مكان واحد وختمتها بخاتم القناعة فلو فرقتها ، فإن كل متاع منه يحتاج إلى مكان ومارس بمرتب ، ومن ثم يكثر عدد الأعوان ويصعب الأمر على ، وأكون بذلك قد أيقظت ثعابين الشهوات النائمة والتي تسمى الحرص ؛ فتنفت سمومها القاتلة فى المكان .

قال أردشير : لا تفكر فى ضيق مقامك ومأواك لأننى أملك العديد من القصور الجميلة المزينة بمئات الآلاف من المرايا والصور ، والتي تشبه بيت رسام الصين . حيث أفنيتها الواسعة ، وأسقفها التي هى أعلى من نظر العقلاء ، وحجراته مضيئة مثل رأى الحكماء ، طروية مثل وجه الأصدقاء . فاختر أيها شئت وانزل بما تطيب نفسك منها ، وسوف أمنحك إياه ، حيثنذ يفرشون لك الفرش اللائقة والجميلة ، ويعدون لك الأطعمة والمأكولات الملائمة ، ويقف بين يديك الغلمان والخدم ، كلٌ فى موقعه فلقد قالوا : - «إن الدنيا سعة المنزل وكثرة الخدم وطيب الطعام ولين الثياب» .

وإذا ما احتجت إلى الجيش والمحاربين والأتباع ، فلسوف يرتبُ لك ذلك عندما تطلب .

فقال العالم «مهران به» : - من المعلوم أنه عندما تحل صدمة هادم اللذات فإنها تجعل مقام الملوك وقصر الأكاسرة مثل بيت الأرامل ، وعندما يحل الموت بقصر القيصر فإنه يفعل به مايفعل بماوى البؤساء والشحاذين . عندما تنزل مصيبة الموت فإنها تجد لها طريقاً إلى تلك العمارات الشاهقة مثلما تجد طريقاً إلى هذه الخرابة الحقيرة ، فالموت ينزل إلى ساحة قصر الطرب وفنائه ، مثلما ينزل إلى بيت الأحزان المحقر ، فلو رُفِعُ بناء بيت إلى شرفات قصر رحل جلست بومة

الخراب على سقفه ذات يوم. ولو وصلت سُقْفُ القصر إلى أوج
الفرقدين ، ومفرق المرزمين ، فسوف يتلو غراب بين الموت لحن ألم
الفراق الخفيض «أين الزمير وما فعل السرير وأين الحاجب والوزير» ويقول :

يا منزلاً لعب الزمان بأهله طوراً يجود لهم وطوراً يمنع
أين الذين عهدتهم بك مرة كان الزمان بهم يضر وينفع
وقد حكى نفس الحال ذلك الصوفي الذي قال :

ملك لقمان كوخاً ضيقاً كأنه حلق الناي وصدر الربابة^(١)

فألقي عليه فضولي سؤالاً : أي بيت هذا ذي الست والثلاث
خطوات ؟ ! فقال الشيخ بحسرة وبعين باكية : هذا لمن يموت كثير .

إننى حينما أعمر بيت الطين ، فقلبي حيثذا قارئ لـ «أينما تكونوا»^(٢)

أما المبالغة في الاستلذاذ بالشراب والطعام والتتعم بالملايس
والمفارش التي تعرضها ، فاعلم أن للنفس عنصريين غير مستقيمين هما
الحرص والشهوة ، اسم أحدهما النهم وهو جالب للمرض ، واسمه
الأخر «الغرور» وهو العجب بالنفس ، فلو حققوا للبطن ما تشتهي
كل يوم ما قنعت لأنها لاتعرف السبع «ولا يملأ جوف ابن آدم إلا
التراب» ولو صرف العمر كله في مصانع الأفلاك السبع لإعداد ملايس
التبخر والغرور كي تتأنق به ، فإنها تلبس (النفس) وتطلب المزيد
«والمؤمن لا يكون وباصاً ولا شحاباً» فلا بد من الإمساك بعنان

(١) هذه الأبيات وردت جميعاً - وإن كانت غير مرتبة - في قصة لقمان للشاعر
الفارسي سنائي تحت عنوان «في ذم الدنيا الفانية وقصة لقمان» سنائي ، الحديقة ، ص ٤١٦ .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : «أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة»
النساء / من الآية ٧٨

اختيارهما حتى يمضيا على طريق الاقتصاد الذى هو مسلك سالكى طريق الحقيقة ، فلو تأملت جيداً ترى أن حراس كثر القدرة مقتصدون فى أمور المعيشة ، ومن ثم فإنهم يضعون القدم على جادة الطريق ، ولن يجد ثقب الزوال أو نقب الاحتلال إلى كثرهم سبيلاً «لا زلت غنياً ما دمت سورياً» .

واعلم أيها الملك أن لدى جيشاً ونعمة أفضل مما تملك أنت ، فقال الملك : كيف ذلك؟

فقال مهران به : إن هذه النعمة التى تملكها ، هل تبقى معك عندما تنفقها؟

قال الملك : لا .

قال مهران به : هل تحتاج إلى حارس إذا أردت أن تودعها الخزينة؟

قال الملك : نعم .

قال مهران به : إذا تعرض لك شخص أقوى منك ، هل يستطيع أن يتزعمها منك؟

قال الملك : نعم .

قال مهران به : هل تستطيع أن تحملها معك عندما تمضى عن هذه الدنيا؟

قال الملك : لا .

قال مهران به : أيها الملك تلك النعمة التى أملكها هى العلم والحكمة ، أنفق أكثرها لنفع العباد ، ولا نقص بكثرة إنفاقى منها على الطلاب ، وليست هناك حاجة إلى حارس أو أمين على خزانة

حافظتى ، ولا تصل يد متغلب جبار أو جائر إليها ، ولا يتصور الانقطاع أو الافتراق عنها وقت الرحيل عن هذه الدنيا وفى الآخرة تزداد ثمار نفعها كثيراً .

فقال الملك : هذا أفضل .

فقال العالم الزاهد : إن هذا الجيش الذى تملكه بإمكانه أن يطلب منك أشياء بلا حدود ، فإذا أنقصت شيئاً من رواتب نفقاته أو ضيقت عليه مجال الطمع هل يطيعونك؟

فقال الملك : لا .

قال مهران به : وعلى سبيل المثال : إذا رأوا عدواً متغلباً عليك هل يمكن أن يفضلوه عليك ، ويتحولوا عنك وينحازوا إليه؟

قال الملك : نعم .

قال العالم الزاهد مهران به : إن جيش الصبر والقناعة يطلبان أى شئ منى بوقت معين ، وبحدود معينة ، فإذا كنت أملك هذا الشئ فأعطيتهما شكروا ، وإن لم أكن أملكه فلم أعطهم صبروا وفرحوا . ولو أن جميع أهل الأرض صاروا أعدائى ، ما عصونى ولا لووا عنان متابعتى .

قال الملك : هذا أفضل .

فقال العالم الزاهد : اغسل يدك من بخاسة وخساسة هذه الدنيا ، واثثر التراب على رأسها .

ترجمة مصراع فارسى .

بل إنها لا تستحق ذلك التراب لأنك تمر عليه .

فماذا تفعل بصداقة من إذا عنيت بها لا تلتفت إليك ولا تشكر
وإذا ما ذممتها لا تملك لذلك رداً ، تعطى بلا سبب وتأخذ غدرًا
بلا عقل أو حكمة «تقبل إقبال الطالب وتدبر إديار الهارب ، تصل وصال
الملوك وتفارق فراق العجول . لا يجب أن يمل في وفائها بالوعد الذى
وعدت به ، ولا يجوز توقع الثبات فى عقد الصداقة التى عقده» .

أيها الملك لا تجعل لذلك الصديق المنافق - الذى له قلب عدو
أعنى به الحرص والذى تنبت أسنانه فى المعدة - سبيلاً إلى نفسك ،
لأنه إذا ما داخلك فلن تكتمل غايته إلا بالقضاء عليك .

واعلم أن سطوته عليك أقوى من سطوة أى عدو تعرفه ؛ لأنه
عندما يقهرك خصم تستطيع الهروب منه ، وإذا ما طلبت الأمان منه
أمنك ، وإذا قدمت له هدية على سبيل الاستعطاف تحول إلى صديق ،
أما الحرص فإنه عندما يستولى عليك فلا مفر منه ولا مهرب ، فهو
مثل الظل يأتيك من الأمام والخلف ، وإذا ما أخرجته من الباب أتاك
من النافذة مثل الشمس . . وإذا صارحك فصحت أو صرخت كثيراً
لا يتركك أو يرجع عنك ، فإن لم يهلكك عاد إليك مثلما فعل
بالشركاء الثلاثة .

فقال الملك : كيف كانت تلك الحكاية؟

حكاية الشركاء الثلاثة قاطعى الطريق مع بعضهم

قال العالم الزاهد : سمعت أنه فى وقت من الأوقات ، اشترك
ثلاثة صعاليك من قطاع الطرق مع بعضهم ، وظلوا عدة سنوات
ينصبون الفخاخ على مدارج طرق المسلمين بلا رحمة . يتزلون - مهل
نوائب الدهر - الدمار بقوافل البشر .

و ذات يوم وصلوا إلى أطلال خرابة بأطراف مدينة فيروزية كانت عوادي الأيام قد خربتها ، فأصبح بابها وجدارها مثل السكران المتهالك الذي وضع رأسه على قدمه ، ففتشوا جيداً فيها حتى عثروا على صندوق صغير ملئ بالذهب فسعدوا وفرحوا ، واختاروا باتفاق واحداً منهم للذهاب إلى هذه المدينة وإحضار طعام حتى ننهض بالعمل . فأبدى المسكين استعداداه للذهاب ، ثم ذهب واشترى طعاماً ، واستولى عليه الحرص القاتل أكل الجيفة فخلط بعضاً من السموم القاتلة في الطعام . وعلى هذا يأكل الاثنان فيهلكان ، ويبقى المال له بمفرده . وحرص دافع الرغبة في المال الصاحبين على التخلص منه حينما يعود ، ويقتسم كلاهما ما وجدوه .

وعندما عاد وأحضر الطعام ، نهض كلاهما ، وخنقاه وأهلكاه ، ثم جلسا إلى الطعام ، فأكلا فماتا في الحال وفي نفس المكان ، ولسان الحال يقول : «هي الدنيا فاحذروها» .

لا تطلب ديةً من أحد لأنك أنت القاتل ، ولا تبحث عن المال فاللص في داخلك .

وقد قلت هذه الحكاية حتى تقنع نفسك بالقليل ، ولا تطلب الكثير ، وحتى لا تتركها في مرتع اختيار الطبع دون ضابط .

فالنفس الإنسانية قابلة للتخلق ، كما أنها تصير فيما تجعلها فيه^(١) والنفس رغبةٌ إذا رَغِبَتْهَا وإذا تُرِدُّ إلى قليلٍ تَقْنَعُ

(١) البيت لسنائي الغزنوي ، باختلاف في المصراع الثاني على أكبر وهنخدا : أمثال

وحكم ج ٢ مجلدة جاب دوم ص ٧٥٣

وقد قال الحكماء : إن الأمل هو شراك الشيطان ، فاحذر من حبه حتى تحافظ على نفسك ؛ لأنه طرد الآلاف من طواويس العقل «وهما»^(١) الهمة بصغير الوسوسة من فوق غصن القناعة ، وأنزلهم من أعلى درجات الاستغناء إلى أسفل وقيدهم فى قيده حتى لا يجدوا منه فكاكا . قال الحكماء : «لاتفكر فى الجوع عندما تشبع» لأننا رأينا كثيراً من الشبعى الذين ماتوا قبل أن يجوعوا ، ولا تأس إذا ما ستر الجسد ، لأننا رأينا كثيراً من العرايا ماتوا قبل أن يلبسوا ، ورأينا كثيراً من لابسى الثياب ماتوا قبل أن يصيروا عرايا ، ولم يلبسوا سوى الكفن ، ولا تجعل التفكير فى تكاليف الحياة يستولى عليك ، فكثيراً ما رأينا أناساً غالوا فى طلباتهم ولم يتكسبوا إلا النذر اليسير .

ومن يُنْفِقِ الساعاتِ فى جمعِ مالهِ مخافةَ فقرٍ فالذى فعلَ الفقرُ^(٢)

واعلم هذه اللطيفة وهى : إن مقدر الأقوات ومدير الأوقات قد جعل القوت علة الحياة ، ولا ينفصل المعلول عن العلة مطلقاً ، ومن ثم فإن من الواضح أنه لا يمكن حياة بلا قوت «فقد فرغ الله تعالى من أربعة : الخلق والخلق والرزق والأجل» .

ماذا تفعل بعالم قد صنع ، فقد فرغ الخالق من صنعه^(٣)

(١) هُما : طائر البلح : «اسم طائر خرافى كل من يظله يصير ملكاً» انظر : د. إبراهيم شتا : المعجم الفارسى الكبير جـ ٣ ص ٣١٩٩

(٢) البيت للمتنبى فى قصيدة يمدح فيها على بن أحمد بن عامر الأنطاكى مطلعها :

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر وحيداً وما قولى كذا ومعنى الصبر

المتنبى ، الديوان بشرح البرقوجى جـ ١ ص ٣٥٢ ، ٣٥٤

(٣) البيت للفردوس الطوسى فى شاهنامته قصة رستم وسهراب . أبو القاسم الفردوسى :

الشاهنامه چاب موسكو جـ ٢ ص ٥٩٢

واعلم أيها الملك أنك كلما وثَّقت علاقتك مع الدنيا كلما كانت هذه العلاقة أكثر سهولة في حلها ، وكلما ارتبطت بها أكثر كلما باعدتك أكثر .

فالدنيا هي الأمين الذي يوزع ما جمعته على الآخرين ، ويعطيهم ثمار الشجرة التي غرستها ، ويهدم كل أساس بنيته ، ولا يترك مشرباً دون تكدير ، ولا يترك مائدة طعام دون تنغيص ، ولا يترك لقمة تنزل في حلق أى إنسان دون منغصات العظم ، ولا يرغب في نزول شربة إلى حلق أحد دون أن يتجرع المرارة . فلو أنك وجدت واحداً بالمائة مما تفعله الدنيا معك (دائماً) من صديق دائم الإخلاص ، لبدلت صداقته عداوة مئات من السنين ولعرفت كيف كانت طاقته غشاءً على عينك ، فأرتك المحبة في الظاهر وحجبت عنك هذه المعاني برغم كل هذا الوضوح فلم تستطع إدراكه؟ وكيف وضع سماع الباطل قطن الغفلة في أذنيك فلم تسمع نداء أى نصيحة من منادى العقل؟ «حبك الشئ يعمى ويصم»^(١)

واعلم أيها الملك أن كل ما يتزل إلى هذه الدنيا هو آت من العالم العلوى ، وأن كل ما يصيب هذه الدنيا الوضيعة من نوائب وانحطاط هو من مشيئة القدر وعوارضه ، التى لا تثبت على حال فى أى لحظة ، حيث إن العناصر الأربعة ونوازع النفس الثمانية بآفاتها لا يمكن الخلاص من أضرارها ؛ لأن تركيب الأدمى والعالم قد يكون من أجزاء مفردات هذه العناصر ، وبالتبادل يمكن أن يتحول الهواء إلى

(١) ورد في مجمع الأمثال بهذه الصيغة : ويضرب فى الشئ الذى إن أحبته يُخفى حبه عليك مساويه ، ويصمك عن سماع العذل فيه . انظر : الميلائى ، مجمع الأمثال ، ج ١ ص ٣٤٩

ماء أو يتحول الماء إلى هواء ، وأحياناً يتخذ أشكال الرطوبة والبرودة وأحياناً تصبح البرودة حرارة .

ولن يستطيع آدمي أن يتخلص من آثار هذه التغيرات مطلقاً ، ومن ثم فإنه يتجمد بالبرودة ، ويتفصد من الحرارة ، وينفر من المראה ويميل من الحلوى ، ويورثه المرض الضعف ويذهب بطراوته ، وتزيل شيخوخته نداوته ، ويذبل قلبه إذا اغتم قليلاً ، ويثن من قليل الزلم ، ويضطرب من الجوع ويلتهب من العطش .

فكل ما هو متعين ويشغل حيزاً من الفراغ ، تحل به هذه التغيرات والتبديلات ولا يثبت على حال ، وحكمها واحد .

وَأَيُّ فِتْنَةٍ لَمْ تُرَنَّحْ كُعُوبُهَا وَأَيُّ حَسَامٍ لَمْ يَصْبِهِ فُلُولُ
وَأَيُّ هَلَالٍ لَمْ يُشْنِه مَحَاقُّه وَأَيُّ شِهَابٍ لَمْ يَخْنِه أَفُولُ

واعلم أيها الملك أن الله - تعالى - جعلك راعياً للرعية ، وحافظاً لمصالحهم ، غير أن الأخذ منهم بالقهر ، وتفريقهم من حولك بالسوط يؤدي إلى فقرهم وذلهم ، وهذا مورث وبالين ، وموجب نكالين :

أحدهما سفالة السائلين كما قالوا :

إن السؤال استجداء سواء أكان عشرين مائدة أو كان خراجاً ،
فالحقيقة واحدة، وإن أطلقت عليه مائة اسم.

فلا استجداء ليس شيئاً آخر سوى الطلب، فكل من يطلب فهو شحاذ
ولو كان سليمان أو قارون^(١)

(١) من قصيدة للأنثوري ، غير أن الشطر الثاني للبيت الأول يأتي هكذا : «رأنكه كرده
نام يا شديق حقيقت را رواست» . انظر : ديوان الأنثوري به اهتمام محمد تقى مدرس رضوى
مج ٢ ص ٥٢٨ ط سنة ١٣٤٧

وثانيهما : عهدة المسئولية التي سوف تحاسب عليها في ديوان المحاسبة فـ«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»، ولا بد أنه سوف يترتب عليه خجل وندم «ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم»^(١)

واعلم أن عقلك أمير على الأعضاء السبعة في مملكة بدنك، فلا تجعل الحس أداة طبيعية للعقل، ولا تجعل الشهوة خادماً للجسد، واحفظ كلاً في موقعه، فلا تسمح لأى منهم أن يتعدى حدوده قيد أنملة. وطالما أن العقل لا يعينك على الشهوة فإنه لا يصبح خادماً لك أو أميراً على جسدك .

واعلم أن زخارف الدنيا وزيئها شديدة الخداع للعقل، وشديدة السحر للعين، لكن الإنسان إذا ما أراد أن يكبح جماح شهواته ورغباته فعليه أن يدقق النظر جيداً في المنكرات، حتى يتعد بكل حيله عن أخطارها. خذ على سبيل المثال: السكر عندما يتذكر مرارة الخمر وتقطيب جبينه ونفرة طبيعته، وتلوث ملابسه منها، وصداع رأسه في وقت السحر وحركات الندامة وعريضة الليل وكسر الكأس، والعداوة والحروب، وتقديم الملهيّات وتأخير المهمات، وآلم الخمار، والأفعال السيئة، والخجل من شناعة ذلك كله؛ أثرت بشاعة كل هذا في مذاق العقل.

وعندما تأتي صورتها أمام عينيه، يتراجع قدمه قليلاً قليلاً حتى يتوقف عن شرب الخمر تماماً.

وكذلك الصياد الذي يتذكر - وقت حث الجواد على الجرى في أثر الفريسة - تعثر الحصان وسقوطه الذي فيه مظنة الهلاك، ويجول

بخاطره عار تعرض الصيد، وخوف أظافر الفهد، وأسنان الخنزير والوحش ، وغصة هروب الطيور والحيوانات، ويجول بخاطره ضياع وقته، ويضع الضرر الكثير فى مقابل المنفعة القليلة، لاشك أن هذا سوف يرطب قلبه، ويتهى إلى الترك الكلى وينأى بنفسه عن مواقع الخطر إلى ملجأ العقل.

فتذكر أيها الملك ذبول الشيخوخة التى هى خريف العمر، وسقوط أوراق الأمل، فأنت الآن فى أيام نضرة الشباب التى هى ربيع العمر
تمتع من شميم عرارٍ نجدٍ فما بعد العشيّة من عرارٍ^(١)

وكذلك اغتنم وقت الفراغ قبل الشغل ، ووقت عز الغنى قبل ذل الفقر ، ونعمة السعادة قبل محنة الحزن، وصحة البدن قبل عوارض المرض وسعة مجال العمر قبل الموت ، حتى يأخذ كل أحد حقه قبل فوات الفرصة وضياع الوقت ؛ لأن هذه الأحوال العشرة جميعاً إخوان صلب للمشيمة الذين ولدتهم السماء الثانية فى بطن واحدة، فهما توأما رحم الفطرة اللذان لا ينفصلان ، أحدهما عن الآخر. ويقول أفضل المخلوقات : «اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل مماتك» .

(١) البيت للصمة بن عبد الله القشيري ، شاعر إسلامي بدوي مقل ، من شعراء الدولة الأموية ، وقيل : هذا البيت قوله :

أقول لصاحبي والعيس تهوى بنا بين المنية فالضمار

انظر : أبو على المرزوقي ، شرح ديوان الحماسة جـ ٣ مج ٢ ص ١٢٤٠ ط دار الجيل بيروت سنة ١٩٩١

أيها الملك ليس هنالك أى حق أوجب للأداء فى ذمة العقل من العمر الذى عندما يحل الأجل يكون أداؤه محالاً ، وقد قرأت فى فوائد المكتوبات أن الإمام أحمد الغزالى^(١) رحمه الله ، التفت ذات يوم إلى الحاضرين فى مجلس تذكير ووعظ ، وقال : أيها المسلمون ، إن كل ما قلته لكم على مدى أربعين عاماً من فوق أعواد هذا المنبر قاله الفردوس فى بيت واحد ، فإن وعيتموه استغنيتم به عن كل شئ :

**تفكر فى يوم الرحيل ، واحترف عبادة الله
والحديث «كفى بالموت واعظاً» يؤدى هذا المعنى^(٢)**

واعلم أيها الملك أن هذه الأموال المنصدة التى تظهر على صورة العسجد والزبرجد هى حطب جهنم ، ونفسك حمالة الحطب التى تجمعها من أجل إحراق وجهك «يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون»^(٣)

(١) هو الشيخ أبو الفتوح مجد الدين أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالى الطوسى ، الأخ الأصغر للإمام أبى حامد الغزالى ، ولد فى طوس ، وعندما علمه أخوه مبادئ العلوم الإسلامية ، واردادت لديه الرغبة فى الوعظ ، صاحب المشايخ ولاذ بالخلوة والعزلة حتى استقام ، وثبت على التصوف ، اشتغل بالوعظ فى همدان ، ثم رحل إلى بغداد ، ومن كتبه :

- كتاب لباب الأحياء فى تلخيص كتاب إحياء علوم الدين .

- كتاب الذخيرة فى علم البصيرة وسوانح العشاق بالفارسية .

انظر : سعيد نفيس وديكران ، كارنامه بزرگان ایران ، ص ١٦٥ ، ١٦٦

(٢) البيت للفردوس الطوسى أبو القاسم الفردوسى ، الشاهنامه ط موسكو ج ٣ ص ٢٠٢

(٣) التوبة / ٣٥

فاجتهد من الآن حتى تستطيع أن تتحرر من صحبة هذه العجوز المتصايبية ، هذه العجوز الشوهاء التى طالما ألفت بكثير من الأزواج فى بثر الانحراف على رؤوسهم ، حتى تحصل على تلك السعادة الأبدية والنعيم الباقي .

فتمازج الملك أردشير بهذه الكلمات الحكيمة مثل اختلاط الروح بالقلب، وعلق حلقة قبول وصاياه فى أذن الباطن ثم ذهب من هناك إلى ابنته وقال لها :

فليبارك الله لك هذا الزواج المتفرد فى عالم عفة العظماء، الذى بلغ القمة فى العلم، أما هذه الطريق التى ارتادها فى آفاق طريق النجاة، وليس هنالك ثمة اعتراض على ما يفعل؛ بل هكذا يجب أن يفعل مع هذا المتاع المستعار فى هذا البيت المستأجر .

وبعد، وفى نهاية الأمر ، كان يتأمل فى حاله ويقول بلسان الاعتبار والانتباه :

لحساب من أضع هذا العمر الماضى، وعلى أية حال صرت فى نهاية سنين طويلة؟

والتزم أسلوب الاجتهاد، ووضع القدم على طريق السداد، وأبعد نفسه بقدر استطاعته عن الانقياد للنفس الأمارة بالسوء إلى أن مات على ما عاش عليه والله الموفق لذلك والهادى إليه .

تم باب الملك أردشير والعالم مهيران به، ويَعده نذكر باب العفريت كاويى والعالم الزاهد، ونبين ما هى فائدة العلم وأثر شجرته عندما تكون ثمرة ثمرة العمل؟ وكيف يلقي خاتم الخصم الجاهل فى شعب القصور الستة؟

ليوفق الله - تعالى - الملك سيد العالم معين الإسلام في الجمع
بين الحقين وتحصيل السعادتين، وليجعل الله مواظباً على الخير بمنه
وسعة جوده سبحانه وتعالى .

الباب الرابع

فيما كان من أمر العفريت
”كاوڤاي“ والعالم الزاهد

فيما كان من أمر العفريت «كاوپاي» والعالم الزاهد

قال الأمير : سمعت أن الجن التي تتوارى الآن خلف الحجب، والمحجوبة عن الأعين الباصرة، كانت في العصور المتقدمة والدهور المتقدمة تظهر علناً، وكانت تتصل بالآدميين عن طريق المخالطة والمعاشرة، وكانوا يغوون الخلق، ويضلونهم عن طريق الحق والنجاة، ويزينون أباطيل الخيالات في أعين الناس، حتى ظهر - فجأة - في أرض بابل رجل زاهد متدين، اتخذ له مسكناً على قمة جبل، ورتب لنفسه صومعة^(١)، وبسط هنالك سجادة للعبادة، وأخذ يدعو الناس إلى جادة العصمة، ولم يمر على دعوته سوى زمن يسير إلا وقد مد بساط دعوته على وجه الأرض، و تبعها كثير من الناس، ونهض ما لا يحصى من الأتباع وأيدوا التمسك بقواعد تنسكه. واستبدلوا شريعة الإيمان ببسطة الكفر، وأقبلوا على قبة الله عابدين، وأعرضوا عن الشياطين وأفعالهم، وذاع صيت هذا الرجل في أقاليم العالم، وأوشك أن يصبح سر الحديث النبوي : «سيبلغ ملك أمتي ما زوى منها» واضحاً في حقه.

فجاء الشياطين كلهم مضطربين غاضبين - من ضرر تلك الحال - إلى كبيرهم الذي يدعى «كاوپاي» الذي كان من مرادة العفاريت وفجرة الطواغيت ؛ والذي كان يهرب منه الشيطان مثلما يهرب إبليس من «لاحول» وقت الاستعاذة، وكان مثل المغناطيس في جذب الحديد، فكان قدوة لجيش الشياطين، وقائداً للجنود الملاحين، وكبير ومقدم

(١) الصومعة : مكان العبادة عند النصارى ، ويطلق مجازاً على مكان التعبد عند المسلمين. غياث اللغة بكوشش آفاي دكتور دبير سياقي .

قافلة الضلال، وزعيم قاطعى طرق الوهم والخيال، هو الذى كان قد
نقب نقباً فى خزينة عصمة آدم، وكان قد حطم خاتم سليمان، وعقد
طلسم سحرة فرعون .

فاجتمع الشياطين إليه، صائحين مستغيثين بلسان واحد : إن هذا
الرجل الزاهد قد جلس على الحجر، وقذف زجاجة عملنا بالحجر،
ومحا هيتنا من قلوب الخلق. فإذا لم نسد - اليوم - هذه الثغرة ،
ونكشف هذه الكربة، فغداً سوف يجهرن بالصلوات الخمس أحد
أركان الشريعة^(١) مظلة دولته على أطراف العالم، وسوف ترتفع شمس
سلطته فوق ذروة هذا الجبل، ولن يكون لنا من حيلة سوى الانقياد له
واتباع مراده .

ما أشد حسرتنا مع ما لدينا من الحظ، متى نهرب من ضياء
الشمس؟

وعندما سمع «كاوپاي» هذا الحديث، تعجب فى نفسه متأثراً،
وتأججت نيران شيطنته، وأورى ألسنة نيران الغضب، لكنه لم يلق
بعنان العجلة من اليد. وقال لهم : امنحونى وقتاً؛ لأن مثل هذه
الأمور لا يجب التوانى والتراخى فيها، ولايجوز فيها التسرع أيضاً،
وكما لم يرد احتمال التأخير فيها، فإنه لايمكن خوضها دون تقديم
بفكر عميق. ثم أحضر الثلاثة شياطين الذين هم وزراء المملكة
ومعاونيه يوم محنته ، وبدأ فى مشاورته مع الوزير الأكبر ، وقال : ما
رأيك فى الحادثة التى حدثت؟ فقال : غير خاف على العقلاء المجريين
أن شيئين لايقين على حال واحدة ، الأول : التوفيق فى الطالع ،

-(١) إشارة إلى الصلوات الخمس المفروضة يومياً .

الثانى : الروح فى الجسد ، وأن كليهما له غاية معلومة وأمد معين ؛ وهكذا وفقاً لمذهب التناسخ^(١) : الروح تحل فى قالب آخر غير القالب الذى كانت فيه ، وكذلك التوفيق يتقل من طالع إلى آخر .

والناس لا يتأثرون بالنكبات فى أيام التوفيق والسعادة ، ولا تختل قواعد أمورهم من صدمات الأحداث . وعلى سبيل المثال : إن الجبل لا تمزقه عرادة^(٢) الرعد أو نفاطة^(٣) البرق أو منجنيق^(٤) الصواعق أوحجارة المطر العاصف أو الأمطار الغزيرة . وعندما ينتهى زمن التوفيق فإنه يشبه الشجرة التى رحلت عنها النداوة والطرارة ووجد الذبول والفتور طريقهما إليها ، ومن ثم فإن الريح تكسر غصونها بسهولة ، وتقتلع جذورها بأقل جهد . وهكذا تكون دورة الزمان القدار وقاعدة الفلك الدوار :

فـيـومٌ عَلَيْنَا وَيومٌ لَنَا وَيومٌ نُسَاءُ وَيومٌ نُسَر

والآن لأن الأيام قد عقدت ميثاق محبة معه (أى مع العالم) ، ولأن القضاء يبعد كل سهم تدبير لنا عن هدفه من أجل إرضائه ؛ وكل فكرة نعلها لإراحة عرشه تبدو ساذجة . فينبغى علينا إعادة العلة إلى طبيعته ، وترصد ذلك الزمان الذى تغرب فيه شمس دولته ، ويلقى الحظ بظله على أمرنا ، ويحول الله طالعنا عن بيت السعادة

(١) التناسخ : انتقال الروح بعد الموت من بدن إنسانى إلى بدن إنسانى آخر (فرهنگ معين) .

(٢) عرادة : آلة حربية أصغر من المنجنيق ، كانت تستعمل فى الحروب القديمة (فرهنگ معين) .

(٣) إناء نحاسى يصب فيه الزيت (النفث) ثم يشعلون فيه النار ، ويقذفونه (فرهنگ معين) .

(٤) معربة عن اليونانية Maghghanikon ، والمنجنيق يشبه المقلاع الذى يعبأ بالحجارة

والتراب والنيران ويلقى بذلك كله ناحية العدو . (برهان قاطع بتصحيح دكتور محمد معين) .

«وتلك الأيام نداولها بين الناس»^(١) حتى إذا قمنا بمقاومته ، كان الظفر والنصر حليفنا ، والفشل والنكبة له .

ثم أشار «كاوي» إلى الوزير الثاني متسائلاً : ما رأيك في هذه القضية على سبيل الإجمال؟ فأجاب قائلاً : إن ما قاله الوزير مستحب لدى الحق وممدوح عقلاً ، لكن بأى وجه ترفع اليد عن صنيعة ، فليس من الصواب وضع قيد التعطيل والتسويق على يد وقدم القدرة والإرادة ، لأنه عندما يكون طالعه قوياً ، ثم تقاعست عن مهاجمته ، تكون بذلك قد زدت في قوته وزدت في ضعفك .

وهذا الرجل العالم كلما يرى الحظ والتوفيق مسانداً للعداوة ، لن يقلل من الجهد والسعى في مقاومته قدر وسعه ، ويرى ذلك القدر الباقي في قدرته فيجتهد في حفظه وإبقائه ، مثل الطبيب (مثلاً) الذي يعجز عن استرداد صحة المريض ، فيحافظ على بقايا القوى الغريزية بحسن المداواة وحيل الحكمة ، لأنه لو لم يفعل هذا لهلك المريض . وبناء على هذا يجب علينا أن نتوسع ما أمكن في هدم مبادئ عمله حتى يتسنى لنا التقدم عليه .

وإن كان قد ألبس القوم مناوئ التقليد في رؤوسهم ، وأمسك بمقاليد حكمهم في يده «وكل مجر في الخلاء يسر»^(٢) فيجب علينا

(١) آل عمران / ١٤٠

(٢) ويروى «كل مجر بخلاء مجيد» وأصله أن رجلاً كان له فرس يقال له «الأبيلق» وكان يجربه فرداً ليس معه أحد ، وجعل كلما مر به طائر أجراه تحته ، أو رأى إعصاراً أجراه تحته ، فأعجبه ما رأى من سرعته ، فقال : لو راهنت عليه ، فنادى قوماً ، فقال القوم : إن الخلبة عدا ، فقال : إني لا أرسله إلا في خطار ، فراهن عنه ، فلما كان الغد أرسله فسبق ، فعند ذلك قال : «كل مجر في الخلاء يسر» الميلى : مجمع الأمثال ، جـ ٣ ص ١١

الخروج لميدان الحرب ، وعدم الخوف من الموت ؛ لأن الرد على الخصم إنما يكون بحد السيف ، لا بدرع السلامة الذى يحطم أمام وجه الحمية :

فحبُّ الجبانِ النفسَ أوردته التُّقى وحبُّ الشجاعِ العزَّ أوردته الحرباً^(١)

فالتفت العفريت كاوپاي إلى الوزير الثالث قائلاً : ما هو رأيك فى إمضاء أفكارهم؟ فأجاب بقوله : إن ما أشاروا به قد استقر فى خاطرك ، وهذا هو طبيعة كل المخلوقات ، فالذى تسمعه ويوافق طبيعتها فسرعان ما تسترسل فى قبوله ، وبخاصة إذا كان الكلام فى نظم جميل وعبارة مهذبة ، وألفاظ مستعذبة ، فإنه يستقر سبكه فى قالب الرغبة ، ولقد قالوا: مثلما لا يفل الحديد الفولاذ إلا أنواع أخرى من الحديد ، فإنه لا يسلب عادات القوم ويسلخها سوى الألفاظ العذبة الحلوة ، فامتزاج الشعر الرقيق مع النكات اللطيفة يبدل البخلاء أسخياء ، والجبناء شجعان ، واللثام كرام ، والعاصين طائعين والسفهاء نبهاء .

وأما رأى عندى : أن اليسر إذا صار حليفه ، فإن سفك دمه ليس من الصالح فى شيء ، وسوف تلحق بنا عاقبته الوخيمة ، وهذا الفعل بعيد عن الحزم ويعد الرؤية ، فلو قضينا عليه دون سبب واضح وإلزام بين ، أو بلا علة ظاهرة وحجة باهرة؛ فسوف يحلون محله متدينا آخر ، يجعلونه يقوم مقامه ، وتظل هذه الفتنة حتى قيام الساعة ،

(١) البيت للمتنبى فى قصيدة يمدح بها سيف الدولة ، يقول فى مطلعها :

فديناك من ربع وإن زدتنا كرباً فإنك كنت الشرق للشمس والغرباً

المتنبى : الديوان ، ج١ ص ٤٠ ، ٦٠

ويخرج الأمر عن حدّ التدارك ؛ لأن عامة الخلق بفطرهم يحبون الضعفاء ويعادون الأقوياء . أما التدبير الصالح والفكرة الصحيحة هو أن تعلم أن بالوسوسة الشيطانية والهندسة السحرية تلقى بذرة حب الدنيا فى قلبه تجعله مشغولاً ومشغولاً بنقوش وزخارف دار الغرور، وتزين حائط معرض الشهوات واللذات فى عينه، وتقطر قطرات عسل الحرص من أعلى غصن الأمل - هكذا - فى فمه، ومن ثم فلن يرى أن ثعابين الأجل وهى فاغرة أفواهها تحت قدمه، وتكتب على ناسية حاله «وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون»^(١)، حتى يرى جميع الخلائق أنه مشغول بالدنيا عن مجرد الكفاف والبحث عن العفاف. حيث تطلق اللسان بإظهار معاييه وإفشاء مثالبه، فيصدقونك وينصرفون عنه فيكسد سوق دعوته .

وظهر هذا الكلام للشيطان «كاوباي» بعيداً عن النفعية قريباً من الصواب ثم قال لـ (الوزير المتحدث) : أصبت رأياً حسناً، وأوضحت طريقاً صحيحاً :

إذا نحنُ أدلجنا وأنتِ أمامنا كفى لمطايانا بلقياك هاديا
والرأى عندي الآن ، هو أن أجلس فى جمع عام وأقيم معه
حواراً فى أسرار العلوم وحقائق الأشياء، حتى يعجز عن مجادلتى
فأكشف عورة جهله على الخلق، حيث أريق دمه. لأننى إذا جعلت
قتله موقوفاً على تمهيد هذه المقدمات التى تقولها، فلن تودى إلى
نتيجة سوى ضياع الوقت. ثم التفت إلى كبير الوزراء قائلاً : ما رأيك
فى إنفاذ هذه الفكرة ؟

قال : عندما يقع الأمر بين طرفي التقيض ، فإن الحكم في تلك القضية على جانب واحد وطريقة واحدة ، وليس لاختيار العقل «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم»^(١)

وما أكثر الأخطاء التي يأتى بها الوهم بصورة الصواب ، وما أكثر الأكاذيب التي يأتى بها الخيال في لباس الصدق مثلما حدث لابن المضيف الأحول فسأل «كاوپاي» كيف كانت تلك الحكاية؟

قصة ولد المضيف الأحول^(٢)

قال الوزير : سمعت أنه في وقت من الأوقات ، كان هناك رجل سخي كريم مضياف يمسك بعنان جوادهم عندما يأتونه ، مفرغاً لحافته نقوده ، عطوفاً على الغرباء ، كانت كل الصفات الحميدة ملازمة لذاته إلا الإحسان فقد فاق تلك الأوصاف ، وكانت كل الخصال الحميدة خاصة بطبعه إلا الإنعام الذي كان عاماً ، وقد كان ما ينفقه من ماله المكتسب وليس من مال المظلومين ، مثل جميع أهل هذا الزمان الذين يخرج الدخان من مطبخهم حينما يشعلون النار في بيت مائة مسلم ؛ ويضعون خبزاً على مائدتهم عندما يسايسون المياه في أساس بنيان مائة برىء . وتصل حفنة الملح إلى قدرهم بينما يثرون حمل حمار على جراح الفقراء ويضعون عودين من الخطب في تنورهم في

(١) البقرة / ٢١٦

(٢) هذه القصة وردت عند مولانا جلال الدين الرومي ، وكذلك عند الشيخ مزيد الدين العطار ، وكذلك عند السنائي الغزنوي . انظر : بديع الزمان مرور انصر : مأخذ قصص وتمثيلات مشنوي ، ص ٧ ، ٨ دانشكاه تهران سنة ١٣٣٣ ، وكذلك : د. رجاء عبد المنعم جبر : الحكاية والتمثيل في حديقة سنائي .

الوقت الذى يصل منهم مائتا سوط من الخب على جسد العاجزين .

لقد تعلم كرام العالم عادة وفاضة الكرم وبخاصة فى الضيافة منه ، فالعقدة التى يظهرها السفلة عند نزول الضيفان عليهم ، كانت لديه ولكنها منقوشة على كأس ومائدة مطبخه ، والخل^(١) الذى يفصد عنه جبين البخلاء عند مقابلتهم للضيفان كان لديه ولكنه كان يسكبه فى طعامه^(٢) :

وَيَكَادُ عِنْدَ الْجَدْبِ يَجْعَلُ نَفْسَ حُبِّ الْقَرَى حَطْبًا عَلَى النَّيْرَانِ
وفى وقت من الأوقات ، نزل صديق عزيز ضيفاً عليه ، فقابله بجميع أنواع الإكرام وتعظيم القدر عند القدوم ، وأظهر له ما كان يفضيه الحال من الالتزام والملاطفة ، وبعد زمن فرغوا من تناول الطعام ، أبدى المضيف - على سبيل الاعتذار صعوبة إيجاد الشراب ، وقال لاشك أن مرآة العيش الصدئة ليس لها من ملمع مثل الشراب ، ولا يزيل الطبع المستوحش من بين الأصدقاء - فى وقت صحبتهم - سوى زجاجة الشراب ، وليس ثمة مؤنس لوفاء عهدهم من مكاره الزمان أفضل من الشراب .

أَدْرَهَا وَقَيْتَ الدَّائِرَاتِ فَيَأْتِيهَا رَحَى طَالَمَا دَارَتْ عَلَى الْهَمِّ وَالْحَزَنِ
وَلَسْتُ أَحَبُّ السُّكْرِ إِلَّا لِأَنَّهُ يُخَدِّرُنِي كَيْلَا أَحْسَ أَذَى الْمِحَنِ

(١) كناية عن العرق .

(٢) الطعام الذى يوضع عليه الخل يسمى «آشى» ويتكون من خل وكوشة والقمح المجروش والفاكهة الجافة «فرهنك معين» .

ومع ذلك كله، فإن هناك رجاجة صافية باقية من ذلك الكم الذي انفقناه في هذه الليالي مع الأصدقاء فلو رغبت أمضينا بتناولها الوقت.

قال الضيف : «والجود بالموجود نماية الجود» والأمر أمرك .

فأمر المضيف ولده : أن اذهب وأحضر الزجاجة الفلانية الموجودة في المكان الفلاني. وكان الولد المسكين مبتلى بحول العين وخبل العقل، فذهب، وعندما وقعت عينه على الزجاجة؛ تراءت صورتها في مرآة عين بصره الحولاء اثنان. فأتى إلى الأب وأخبره بأن هناك رجاجتين، فبأيهما أجيء؟ فعلم الأب طبيعة الحال فتصبب وجهه عرقاً من فرط الخجل أمام الضيف، لأنه ربما يدور في خياله (أى الضيف) أنه (أى المضيف) ضمن بالزجاجة الأخرى، فينسب إليه ضعف الرأي ونزول الهمة. فلم يجد حيلة سوى أن قال لابنه : اكسر واحدة وأحضر الأخرى. فضرب الابن الزجاجة بالحجر طاعة لأمر أبيه، وعندما لم يجد الأخرى، عاد إلى والده خائباً خاسراً، وحكى ما حدث. فصار معلوماً لدى الضيف أن ذاك الخلل موجود في عين الابن وليس في نظر الأب .

وقد قلت هذه الحكاية، حتى تعلم أن حاسة البصر برغم أنها أسلم الحواس في إدراك أعيان الأشياء؛ إلا أنها ليست معصومة من الوقوع في الخطأ. فكيف لعين البصيرة - وهى من حواس الباطن وترى من خلف الأوهام والخيالات - أن تخلو من مواطن الصواب والخطأ؟ .

فيجب أن ننظر في هذا الأمر بتفكير عميق خالص، ولا تضع القدم على طريق هذه العزيمة دون تأمل وتثبت؛ لأن الله - سبحانه

وتعالى - مع أنه خلق جوهر الإنسان أظهر من جواهر جميع الحيوانات، واختصهم بصفة العلم، والنظر الثاقب، والذكاء، وجعل لكل واحد نجماً من النجوم العلوية والسفلية حارساً لأحواله، حتى يربيه مثلما تربي الحاضنات الطفل في حضانة التربية، وجعل لكل إنسان ملكاً من عالم قدس الملكوت معلماً له، ووضع أمامه لوح التفهيم والتعليم، ومن ثم يأتي الإنسان في أفضل صورة للموجودات «علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى»^(١)، ولكنهم عندما يضعون قدمهم في إثر الهوى يصبحون أسرى لنا، ويصيرون مسخرين مقهورين لدينا، أما نحن فطينة خلقتنا مركبة من الدخان الأسود المظلم، والجهل المركب، فإذا ما وضعنا زمام القلب في يد الهوى، وكففنا اليد عن التفكير والتأني، فكيف يكون الحال مع هذا آدمي الذي يملك هذه العداة والعتاد؟ وكيف نسيطر على المتصف بكل هذه الخصال؟ «أخو الظلماء أعشى بالليل»^(٢) وأخشى أن تقعوا ببحثكم عن العظمة في حالة سيئة مثل ذلك الرجل الضيف مع رب المنزل، فقال كاويأى متسائلاً : كيف كانت تلك الحكاية؟

حكاية الضيف مع رب المنزل

قال الوزير سمعت أن فلاحاً جاءه ضيف في ليلة من ليالي الشتاء التي كان مزاج الهواء فيها بارداً، وكانت مفاصل الأرض متجمدة، وقد انقطعت الأمطار عن سبلان^(٣)، وهطلت الدموع على الطبقات

(١) النجم : ٥ ، ٦

(٢) يضرب لمن يخطيء حجه ، ولا يصير للخروج مما وقع فيه . الميداني : مجمع الأمثال، ج ١ ص ٩٣

(٣) سبلان : اسم جبل في آذربيجان بالقرب من أرميل، اتخذته الناس مكاناً لعبادة الله قبل الإسلام، وسكنوه بعد الإسلام «برهان قاطع» .

الزجاجية، وامتزجت مسام القشرة الأرضية بمسامير الجليد، وتجمد الماء مثل تجمد يد البخلاء عن إفاضة الخير، وكان الهواء البارد يحاكي نفس السفلة،

وتَرى طيُورَ الماءِ في وُكُناتِها تختارُ حَرَّ النَّارِ والسَّفُودِ
وإذا رَميتَ بِفَضْلِ كَأْسِكَ في الهَوَا عادتُ إليك من العَقِيقِ عُقُوداً

فقام بعبادته الكريمة، وهي القيام بواجب الأضياف وتقديم الموجود من الطعام، أوقدا نارا طيبة، ومزجا لطف المحاورات ومفاكهات الفواكه الروحانية بالشراب الشتوي النقي الطيب الرائحة، وكان صراف الطبع ينشد هذه الأبيات كل ساعة رغبة في قلب الشتاء :

اصهر ذلك الذهب في التنور بلا سرف، لأن الذهب يزكى السنة
النيران بشدة

تأمل الطاووس الذي أكل الغراب من حلقه، وهو يلتقط حبوب الكاورس^(١) ويحكم المباشطة والمخالطة الماضية، جلس الضيف والفلاح وزوجته ثلاثتهم أمام التنور. فظهرت عورة المرأة من فتحة بالسروال، وكان الضيف اللص يختلس النظر ثم يسكت، فلاحظ الزوج، وفكر في نفسه : إننى إذا تركت هذا الأمر فإن الضيف سوف ينظر ويتمزق حجاب الصيانة. ثم حمل عوداً من الخشب حتى يضعه على عورتها لعلها تتبّه.

(١) نوع من النبات له حب مر (فرهنك عميد) .

وكان الضيف يعلم، ويردد - في أثناء حكاية كل وقت بحيلة ما- هذه العبارة «إياك أعنى واسمعى يا جارة»^(١) والزوج غافل عن حقيقة الكلام .

وفجأة وضع طرف عود الخشب على الموضع المخصوص . فارتعشت المرأة وأخرجت ريحاً من دبرها، فخبجل الفلاح وندم على الحركة التي لم تفد .

وقد قلت هذه الحكاية، حتى لا تظن أن علاج هذا الأمر من طرف واحد، ولا تقصر حكم التفكير على جانب واحد.

فقال كاويى : لقد سمعتُ ما قُلْتَه، واستقر في نصاب الحق، ولكننا يمكن أن نظفر بالخصم بمهارة الفن، وغزارة العلم، ومساعدة العقل والحصافة، مثلما ظفر الفأر بالثعبان، فسأل الوزير : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الفأر والثعبان

قال كاويى : سمعت أن - فى وقت ما - فأراً اتخذ مسكناً له فى بيت غنى ، ومن هناك اتخذ مسلكاً إلى مخزن الحبوب، وهياً منه طريقاً إلى الحديقة، وكان يحيا - هناك - فترات طويلة مستريح البال سعيداً دون بلاء مصادمة المتعرضين له ،

(١) أول من قال ذلك سهل بن مالك الغزارى عندما رأى فتاة أعجبهته فأنشد

يا أخت خير البدو والخصارة كيف ترين فى فتى فزاره

أصبح يهوى حرة معطارة إياك أعنى واسمعى يا جاره

وضرب لمن يتكلم بكلام ويريد به شيئاً غيره . الميلى : مجمع الأمثال ؛ ج ١ ص ٨٠

كل من يملك السلمة والخبز، وله مسكن يستقر فيه
ليس خادماً لأحد، ولا يخدمه أحد، فقل له : اسعد فقد ملكت
الدنيا

والذى لا يعيش فى كنف حصن الأمن مع كفاية النعمة، وتيسر له
الجلوس سعيداً على مسند ، فلا يليق به أن يبحث على شىء فوق هذا
طعماً،

إذا الصَّحَّةُ والقُوَّةُ بَاقٌ لَكَ والأَمْنُ
وأَصْبَحْتَ أحَا خَزَنٍ فَلَا فَارَقَكَ الحُزْنُ

وذلك يوم جاء إلى تلك الحديقة طلباً للرزق ثعبان قبيح الوجه
صاوى الشفه ملتاع الكبد، قادماً من صحراء «شورستان» فمر من هناك
على بيت الفأر، فوقعت عينه على ذلك المكان الهادى، وكان هناك
باب مفتوح فى حديقة القصر الذى يشبه روضة إرم وساحة الحرم فى
الجمال والأمن، فقال فى نفسه ،

انظر : فقد اتجه برفقاء روحى نحو شفتك يوماً، ولقد أتى على
رائحة الفسق فوقع على السكر

فعثر الثعبان على زاوية بيت العافيه، وجلس على رأس كثر
المراد، ووضع الرأس على قدم السلامة، ولف نفسه على باب الكثر
مثل الحلقة .

نعم إن كل من تنزل قدمه إلى كثر السعدة يطرق حلقة هذا
الباب، أما طلاب الدنيا فإنهم يرون حلقة باب القناعة على شكل
ثعبان، لأن تحريك تلك الحلقة ليس فى مقدور كل شخص، فلا جرم

أن سرور قصر الإقبال والسعادة بمثابة الحلقة على الباب،

من لم يجد عزة العزلة؛ لم يجد شيئاً، ومن لم يروجه القناعة لم
ير شيئاً^(١)

خلع الثعبان حذاء السير والطلب، وأصبح «آمن من ظبي الحرم
وآلف من حمامة مكة». وجاء الفأر إلى منزله، ونظر من بعيد فوجد في
بيته ثعباناً ملتويّاً كالدخان الأسود، فاسودت الدنيا وأظلمت أمام عينيه،
وأخذ في إخراج آهات دخانية من صدره، وقال : يارب دخان القلب؛
أى خصم وصل إلى فسود كل ما أملكه هكذا؟ ربما كانت هذه الظلمات
بسبب ما فعلته من خيانة مع خلق الله، أو ربما هي دخان النار التي قد
اشعلتها في قلوب الجيران. «ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين»

والخلاصة : أن الفأر جاء إلى أمه كسير القلب، محطم الظهر
بسبب ثقل حمل الغبن، وحكى عن واقعه استيلاء الثعبان على منزله
ومتاعه، وألح على الأم في استرشاد طريق لدفع تغلب الثعبان.
فقالت الأم: كن كالضب يعرف قدره ويسكن جحره، ولا تكن
كالجراد يأكل ما يجده ويأكله ما يجده».

ربما طلبت شيئاً زائداً على ملك القناعة والكفاية أو مددت يد
التعرض على الأشياء الخاصة بالآخرين .

اذهب واتخذ لك مسكناً آخر، وعش مسكيناً لأنه ليس في
وسعك مقاومة الثعبان، ولا تستطيع أن تستزع قوس حقهده، فلو كنت

(١) البيت لسنائي الغزنوي في قصيدة له بعنوان «أين قصيدة نتيجه خاك پاك بلخ استا»

سنائي : الديوان ؛ چاپ استاد مدرّس رضوی. چاپ دوم ص ۱۷۹ تهران ۱۳۴۱

مغروراً بحدة أسنانك، فاعلم أن للشعبان الأسنان التي تجعل الفيل الهائج كحجر بين الأسنان ويسقط الأسد الهصور بسماها .

تكفى قطرة واحدة من السم لمائة كأس من العسل، من ذلك السم الذى يكمن فى حذر أسنان الأرمم

ولو أن بعدك عن موطنك ومألفك، وهجرتك - مضطراً - عن مركز استقرارك، ومشاهدتك لتمتع الآخرين بما صنعته، هو مجاهدة عظيمة ومكابدة عظيمة ومكابدة أليمة، والله - جلّ وعلا - جعل قتل العباد لأنفسهم وإزعاجهم وإخراجهم من سكنهم ومأواهم الأصلى متساويين «أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم»^(١)، أما الرجل الذى يتقدم عند الضرورة، ويعقد محمل العزم على غوارب الاغتراب، ويقطع - كالقمر - عرصه المشارق والمغارب، ويمضى - كالشمس - واضعاً السرج على مناكب الكواكب ،

لو أن فى شرف المأوى بلوغٌ على لم تبرح الشمس يوماً دار الحمل إن العلى حدثنى وهى صادقةٌ فيما تحدثُ إن العز فى النّقل حتى يهوى مقراً آخر ، ليستطيع أن يأخذ حقه فى كل ما أتلفه دوران الفلك .

فقال الفأر : إنك وإن كنت قد قلت فصلاً مفصلاً إلا أنه لا يشبعنى، لأن حمية النفس وإباء الطبع لا يسمحان لى أن أوافق على كل رذيلة وردىء، لأن الرجال لا يمتنعون عن مكافأة ظلم الظالمين

(١) النساء : ٦٦

واعتداء المعتدين، ولا يكفون عن مناضلة الخصم ومطاولته إلى آخر
سهم في اللعبة، ولا يسمحون لسلح مهارتهم بأن يكسل .

لَا تَكُ كَالْجَارِي إِلَى غَايَةٍ حَتَّى إِذَا قَارَبَهَا قَامَا

قالت الأم : إذا أردت مقاومة هذا الخصم بمساعدة الفئران
ومعاونتهم، فسوف تهلك سريعاً، ولن تصل إلى هدفك مطلقاً، فأنى
لشعاع الشمس الذى يدخل من النافذة أن يصعد إلى السماء مرة
أخرى؟ وأنى لشراك نسجه العنكبوت أن يصيد نسرأ طائراً؟

إلى ذاك ما باض الحمام وفرخاً^(١)

هذا العمل لا يناسبك، وأنت لا تناسب هذا العمل

قال الفأر : لا تنظرى إلى بعين الاستحقار «إياكم وحمية الأوقاب»
واننى سوف أقضى على هذا الثعبان عن طريق البستانى؛ بأن أحرضه
على قتله بشعوذة الحيل. قالت الأم : إذا كان لديك مثل هذه المهارة،
وتستطيع إظهار مثل هذه القدرة فقد «أصببت فالزم»

فذهب الفأر، وظل عدة أيام ملازماً للعمل، وجلس مترقباً
مترصداً وهو يفكر كيف يفتح بنفسه كمين مكره على هذا الخصم؟
وكيف يلقي بالندم على عين حزمه؟. وذات يوم كان يراقب فإذا
بالثعبان وقد خرج من الحجر إلى الحديقة، وذهب تحت جذع شجرة
الورد التى كان يذهب إليها دائماً طلباً للراحة، ونام وأعطى ظهره
للمشمس غافلاً عن أن الجهات الست لكعبتى التقدير سوف تكون فى
جانب الفأر، فيجعل زوايا نرد العناصر مغلقة أمام وجهه بقائه، حتى

(١) مثل يضرب للمطول الدفاع الميدانى : مجمع الأمثال ؛ ج١ ص ٩٣

يدركوا أن الغلبة لمن يلعب اللعبة الثانية لا لمن يبدأ، فإن التلاعب بمصائر المظلومين أمر غير محمود مثل اللعبة الرابعة من لعبات النرد.

وفي هذه اللحظة، وبالمصادفة، وجد الفأر البستاني نائماً في مكان استراحته، ووجد حظه يقظاً، فوثب على صدر البستاني، وأيقظه من النوم واختفى، فنام البستاني مرة أخرى، ففعل الفأر نفس الأمر وأيقظه من النوم، وكرر هذا العمل بهذه الصورة عدة مرات، فاشتعلت نار الغضب في قلب البستاني، وانتفض من مكان كالدهان وأخفى مطرقة ثقيلة في جانبه، وأخذ ينتظر لحظة وثوب الفأر، فوثب الفأر على بطنه بنفس الكيفية السابقة، فنهض البستاني من مكانه، وقد قلت زمام الهدوء من يده، وجرى في إثر الفأر، والفأر يهرول حيناً ويبطئ حيناً آخر حتى وصل إلى الشعبان. فدخل إلى نفس مكانه عن طريق الجحر، فظفر البستاني بالشعبان النائم، وحطم رأسه.

وقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم أنه عندما يتحكم الاستبداد في الضعفاء، وتقصر الأعمال، يستمدون العون من قوة العقل ورزاقه الرأي، ومعونة الحظ ومساعدة التوفيق؛ حتى يحصلوا على غرضهم، وفي المثل «التجلد ولا التبld»^(١)

قال الوزير : إن تقرير هذه الفصول أمر مقبول، ولكن اعلم أن الشخص الذي قضى زمناً في ممارسة عمل، ووصل إلى غوامض

(١) يعني أن التجلد ينجيك من الأمر، لا التبld، ونصب «التجلد» على معنى الزم التجلد ويجوز الرفع على تقدير حقك أو شأنك التجلد، وهذا من قول أوس بن حارثة، قاله لابنه مالك، فقال يا مالك : التجلد ولا التبld والمنية ولا الدنية .

الميداني : مجمع الأمثال؟ ج١ ص ٢٤٤ ، ٢٤٥

أسراره، وصار موسوماً ومتصفاً به، فمهما تعلم شخص آخر هذا العمل، وعرف كماله ونقصانه، ولكنه غير محترف له. فالغلبة - عند المجادلة والمناظرة - سوف تكون للمتخصص. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما ناظرت ذا فنون إلا وقد غلبته، وما ناظرني ذو فن إلا وقد غلبني .

فالعلم والحكمة حرفة هذا العالم، وكذلك البيان والفصاحة، فهو مطلع على جليل العلوم ودقيقها، وجليها وخفيها، أما أنت فمتردد ومتوقف في جميع المواقف ؛ ومن ثم سوف يظهر وفور علمه وقصور جهلك إذا أقيمت بينكما مناظرة. وسوف تكون رجاحة فضله سبباً في نجاح وسيلته، ويستقر أمره في نصاب الكمال، ويصبح نصيبنا هو الخذلان والخسارة مثلما حدث في حكاية بزر جمهر مع كسرى. فقال «كاويای» : كيف كانت تلك الحكاية؟

حكاية بزر جمهر مع كسرى

قال الوزير : سمعت أن بزر جمهر^(١) كان يسرع إلى خدمة كسرى صباحاً، وكان يقول له : استيقظ مبكراً حتى تظفر بمقصودك. وكسرى بحكم أنه كان يقضى الليل في المعاشرة والمعاقرة، وسماع الأغاني ولقاء الغواني ، وبعد هذا يضع رأسه على وسادة التنعم مع الحسنات من النساء حتى مطلع الشمس، فقد تأثر وتغير من كلمة بزر جمهر الثقيلة ، التي كان قد فهمها على سبيل التقرير .

(١) وزير الملك كسرى الأثروان ، ويقال إنه كان معلماً لابنه «هرمز» في البداية، وهناك كثير من الحكايات حول حكمة هذا الوزير وعقله وكفاءته . قتل في زمان كسرى ابرويز بأمر منه دكتور سعيد نفيسي وآخرون ؛ كارنامه بزرگان ایران ص ١٩٠ تهران سنة ١٣٤٠ هـ ش .

وفى أحد الأيام ، أمر كسرى خَدَمَه أن إذا جاء وقت غلس الصبح الذى تكون فيه الدنيا بين ظلمات الليل ونور الصباح ، ويم بزر جمهر وجهه نحو بلاطنا ، أن يتنكروا ويتزعدوا عنه لباسه دون أن يلحقوا به ضرراً . فذهب الخدم بحكم الأمر ، ونفذوا هذه اللعبة تحت ستار ظلمة الليل . فرجع ، وارتدى ملابس أخرى ، وعندما عاد إلى بلاط الملك كان قد تأخر على خلاف عادته السالفة . فسأله كسرى : ما سبب تأخرك فى المجيء؟ فقال : كنت آتياً فقبض على اللصوص ، ونزعوا عني ملابسى ، فشُغِلت بتجهيز وترتيب ملابس أخرى .

فقال كسرى : هذا على خلاف نصيحتك اليومية وهى : انهض مبكراً حتى تظفر بمرادك ، ومن ثم أصابتك هذه الآفة بتوهم النهوض ليلاً . فأجاب بزر جمهر مرتجلاً : لقد نهض اللصوص قبلى ومن هنا حسن حظهم وتحقق مرادهم . فخجل كسرى وصمت من سرعة قول الصواب وحضور الجواب .

وقد قلت هذه الحكاية ، حتى تعلم أن كسرى برغم أنه كان عالماً إلا أنه صار مغلوباً أمام بزر جمهر وإلقائه للحكمة التى هى ملكة لديه ، فلا كانت قضية حالك معكوسة ، فتغلب الأيام فكرك وتديرك «ورب حيلة كانت على صاحبها وبيلة»

فغضب كاوپاى من هذا الكلام ، وتخيل أنهم يقولون كل هذا بسبب استعظام علم الرجل واستصغار جانبه . ثم قال لرئيس وزرائه : إلى أى جهة تتجه إشارة رأيك؟ وما هو طريق الصواب فى هذه الأبواب؟

قال الوزير : اليوم هو يوم رواج سوق دولة العالم ، وزمان طاعة

أمره . وصار فلك النصر فصاً في خاتم حكمه الذي ختم على لسان
اعتراضنا ، وكل من يضع قدم التعدي ويتصدى له فسوف يصير مغلوباً
منكوباً إلى يوم القيامة .

لا تسع في الأمر حتى تستعد له سعى بلا عدة قوس بلا وتر

قال كاويای : إن ما استقر في قلوبكم من الخوف منه هو ما جعله
ينفض إلى جدالنا وقتالنا بلا تفوق حقيقي ، «وقذف في قلوبهم
الرعب»^(١) ، لكن أمور الدولة مثل ماء النهر الذي لو ظل يجري مائة عام
لن يتوجه إلى مجرى آخر ، مالم يسد مجرى ذلك النهر . وسوف أتقدم
بقدم الجرأة وأغير مجرى ماء دولته ، وأجعل في هذا النهر مرادى أنا .

وكان الوزير يسمع هذا البيان وهو يقول :

يا من صار الماء كدراً في نهرك بسببك ، ولم يتفق شكلك مع
جوهرك بسبب مزاجك

يا من أراح النفات وجهك عن الآخرين عشاق الزمان ، وارتاح طبعك منك
ومن هنا سلم الوزير زمام الاستلام إلى يد كاويای ، قائلاً في
نفسه : إننى لو زدت على ما قلت شيئاً ، وبالغت - فوق ذلك - في
نقض عزائمهم ، فلا شك أننى سوف أتهم وأوصم بالخيانة «وإن كثير
النصح يهجم على كثير البطنة» واستقر كاويای على هذا الرأي ، لأن
ألف شيطان يختارونه ويستحسنونه ، وربما يمزق كل واحد ألف مصيدة
للمكر ، ويربطون «زئار»^(٢) الإنكار على وسط كثير من الزهاد بدلاً من

(١) الأحزاب : ٢٦

(٢) بضم الأول وتشديد النون يونان Zonariom ، هو رباط كان أهل الذمة في المشرق
يربطونه بأمر المسلمين ، حتى يمتازوا من المسلمين (برهان قاطع ، فرهنگ معين) .

حزام الطاعة، ويلقون بكثير من العباد من زاوية القناعة إلى هاوية
الحرص مكبلين بسلاسل الوسوس .

وفى النهاية ، حشر كل هذا الجمع وذهب إلى سفح ذلك الجبل
الذى كانت صومعة^(١) العالم فوقه، وأرسل واحداً مشهوراً بالجرأة
والبسالة برسالة إلى العالم الزاهد يقول فيها : إننى زعيم وإمام
شياطين الدنيا، أسترى السمع من ملائكة المساء، وإن قوله تعالى
«فأتبعه شهاب ثاقب»^(٢) قد نزل فى شأنى. وعملى هو إضلال زهاد
الأرض، وقد نزل فى شأن اتباعى قوله تعالى «وإن الشياطين ليوحون
إلى أوليائهم»^(٣). فكيف أنزل إلى مستوى مزاحمتك؟ فأنت الذى
جئت تخطو بخطوات وسعه فى ميدان دعوى العلم، وتخدع العالمين
بإظهار التورع وأمثال هذا التصنع، وبخداعك وكذبك. وتريد أن تشوه
وجهه دولتنا المزين، وتشوش طرة دولتنا المتسقة .

والآن : لقد جئتُ حتى تجمعنا مناظرة تجرى بيننا فى حضور
العلماء وفى مجمع واضح من علماء الفريقين وعظماء الثقلين، حتى
تظهر الفصاحة والعلم لدى وعندك. فحفظ الشيطان هذا الفصل،
وذهب. وعندما وصل إلى حضرة العالم، استولت عليه مهابته
وعظمته، فلم يجد مجالاً للحديث. «كأنه عرته بهتة أو أخذته سكتة».
فسأله العالم : أى شيطان أنت؟ وأى شئ أتى بك؟ فقال : جئت من

(١) الصومعة : بيت العبادة عند النصارى ، ثم صارت مكان عبادة عند المسلمين .

(غياث اللغات به كوشش آقاي دكتور دبير سياقى) .

(٢) الصافات : ١٠

(٣) الأنعام : ١٢١

لذن الشيطان كاوپاي الذى جاء إلى سفح هذا الجبل فى جمع كبير من
مردة العفاريت الشياطين، وعبدة طواغيت الطغيان، وقد أرسل عدة
رسائل على لسانى لو أردت قتلها. فسمح له العالم، فحكى الشيطان
كل ما كان قد سمعه. فقال العالم : إن كاوپاي : - بهذا العزم الذى
جاء به - قد وضع قدمه فى ورطة الخطر، وساق الحمار فى الوحل،
والحمامة إلى المضراب^(١)، ويصدق عليه مثلُ الحظ السيء «أرى قدمك
أراق دمك»^(٢) وربما قد أرادت الإرادة الأزلية أزالَت خبثكم من على
ظهر الأرض، وتطهير ذيل آخر الزمان من لوث وجودكم، وأن زمان
إفساد الشياطين فى عالم الكون قد انتهى .

والآن : عندما تريد مثل هذه المناظرة والمنافرة فأقمها. وإن كان
نصيبى من علم الإلهيات قليلاً، ولا تعدو عدة قطرات من محيط
المعرفة اللامتناهى الراسخ فى أقدام النبوة والولاية «وما أوتيتم من
العلم إلا قليلاً»^(٣). لكننى لدى من العلم القدر الذى لا أعجز معه
عن السؤال والجواب، ولم استحوذ على خاتم العجز من صاحب
التدبير، «إن تك ضباً فإنى حسله»^(٤) .

(١) المضراب : آلة من آلات صيد الطيور والأسماك، وتسمى الآن عند أهلها «الشبكة».

(٢) إشارة إلى بيت أنشده شيخ الإشراق عند قتله وهو :

أرى قدمى أراقى دمي وهان دمي فيها ندمي

وأصل هذا البيت عند أبي الفتح البستي الذى يقول :

إلى حنقى مشى قدمي أرى قدمي أراق دمي

د. مهدي محقق : بيت كفتار ؛ ص ١٢ .

(٣) الإسراء : ٨٥

(٤) يضرب فى أن يلقي الرجل مثله فى العلم والدعاء اللتان : مجمع الأمثال ؛ ج ١ ص ٤٣ .

فرجع الرسول، وقد أحضر الأجوبة، فسأله كاويى : ماذا وجدت بحق؟ وكيف وجدت ظاهر العالم الزاهد وباطنه؟ وكيف يمكن الاستدلال بذلك على حسن أحواله أو سوئها؟ قال : وجدته يابس الشفه، دامع العين، أصفر الوجه، نحيل الجسد، هيئته كلها هيبة وشيمته كلها لطف. وجدته يسوق الكلمات القاسية فى عبارات ناعمة لطيفة، يسقى الحق المرّ فى إناء التقرّيع مختلطاً بعسل التلطف،

تَمَازَجُ مِنْهُ الْحِلْمُ وَالْبَأْسُ مِثْلَمَا يَمَازَجُ صُوبُ الْغَادِيَاتِ عَقَارُ

فخاف كاويى جداً من حكاية هذه الحال، وفكر فى احتمال أن يكون كل هذا علامات على الزهد ودلائل على احترافه للشريعة واتساعه فى الدين، الذى كان يبدو من عادات المتجربين والمتهجدين .

ويبدو أنه سخر وحش طبيعته بالمجاهدة، ولم يعد يُجلد فى كلامه الرسمى ، وأصبح يضرب بالسيف فى جهاده الأكبر مع النفس الكافرة، ومن ثم لم يعد يلبس الورع لتزالنا، لكننى ماذا أفعل ؟

لكنه عندما شرع فى الأمر، التزم به، ولم يجد بداً من التقدم فى الأمر

مناظرة الشيطان كاويى مع العالم الزاهد

وفى اليوم التالى، حينما ظهر طفل الصبح من بين مشيمة الظلام، وتساقطت طرة الليل من خلف أذن السحر، نزل «كاويى» ومعه جيوش الشياطين عند ذلك الموضع، واجتمع جماهير الخلق، من شياطين وملائكة وآدميين فى صعيد واحد. وأجمعوا فى هذا الاجتماع على موثيق العهود التالية :

- إذا استطاع العالم - فى هذه المناظرة - أن يتخلص من مضايق أسئلة كاويأى، وتمكن من الإجابة عليها، فإن جميع الشياطين سوف تراجع وتتخذ من بواطن الأرض مسكناً ومأوى، وتستوطن المغارات العميقة، وتبتعد عن ملاحقة ومطاردة الأدميين، أما إذا هزم العالم من الشياطين أهلكوه. واستقر رأى الجميع على هذا، وبدأت المحاوراة بأن قال الشيطان: ما هى أقسام الدنيا؟ وكم عدد خالقيها؟

قال العالم: الدنيا على ثلاثة أقسام^(١): القسم الأول: مفردات العناصر والمركبات التى تتركب من أجزائها، وتلك لا تهدأ حركتها، ولا تبقى على حالٍ واحد، بل إن التغير والتبدل من حال إلى آخر من لوازمها.

أما القسم الثانى فهو الأجرام العلوية السماوية، التى يكون بعضها ذا وجه متحرك مثل ثوابت الكواكب وسياراتها التى يطلق عليها الصعود والهبوط والشرف والوبال والرجوع والاستقامة والعلو والحضيض والاحتراق والانصراف والاجتماع والاستقبال، إلى غير ذلك من عوارض الحالات.

وتنسب - هذه الكواكب وسياراتها - إلى بطء السير وسرعته، وتأثير السعادة والنحس. أما بعضها فيكون ذا وجه غير متحرك حيث ترتز كل واحدة بينها فى دائرة فلك البروج، أو فى دوائر الأفلاك الأخرى التى تحيط بها فتحسبها فصوصاً ذهبية قد نقشت على الحلقة

(١) إشارة إلى تقسيم العوالم المشهور فى الفلسفة وهو: عالم العناصر، الأفلاك، والعقول والنفوس. د. مهدي محقق، بيت كفتار، ص ١٦

الفيروزية. أما الفلك الأعظم المحيط بجميع الأفلاك والمتشبت بها، فيدور بأمر فاطر السماوات، بطبيعته التي فطره الله عليها، وهو يحرك الجميع حركة قسرية داخل تجاويفه حول الكرة الأرضية، والآخرون ثابتون وساكنون في مراكزهم .

أما القسم الثالث : فهو عالم العقول ونفوس الأفلاك الذي هو جوهر طاهر من البساطة والتركيب، وعار من نسبة السكون والحركة، ومظهر عن الحدثان وتغير الزمان والمكان، قد طهر لباس فطرته في ينبوع القدس والتحق بالخدمة في بلاط عليين «فالمقسمات أمرا»^(١)

أما الخالق الواحد فهو مبدع الكائنات، ذاته مقدسة، لذا فهي تدخل في إبداع وإيجاد الموجودات «تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً» .

قال الشيطان : مما يخلق آدميون؟ وعلى أى أساس جاءت تسميتهم بـ«إنسان»؟ وكم عدد أرواحهم؟ وإلى أين يكون مآلهم؟

قال العالم : خلق البشر يتم من تركيب العناصر الأربعة والأمزجة الثمانية مفردة ومركبة على سبيل الاعتدال. أما اسم «إنسان» فيطلقونه على القوة المميزة لديهم، فتعرف الحسن من السيء والصحيح من الفاسد، والحق من الباطل، والجميل من القبيح، والخير من الشر، والمعاني التي يتصورها الإنسان في الذهن يخرجها بواسطة مقاطع الحروف وفواصل الألفاظ، وذلك الجوهر يطلقون عليه «النفس الناطقة»

(١) الذاريات : ٤

وروح الآدميين ثلاث حقائق قائمة بثلاثة أعضاء من الأعضاء الرئيسية :

الحقيقة الأولى : الروح الطبيعية التى تنبعث من الكبد، ويقاؤها يكون بالمدد الذى يأتى من القوة الغذائية .

الحقيقة الثانية: الروح الحيوانية، التى يكون منشأها القلب، ومنها يكون مبدأ الحسن والحركة، وقوتها مستفادة من حركة الأفلاك والنجوم النيرات .

الحقيقة الثالثة : الروح النفسانية التى يكون محلها العقل، ومنها ينشأ التفكير والتدبر ومثلما تطلب القوة النامية الغذائية فى الروح الطبيعية، فالقوة المميزة فى الروح النفسانية تنشأ من سعادة الدارين كليهما، وتتجند أسباب الشقاوة، واستمداد قواها من الأجرام العلوية والهيكل القدسية، وخلعة كمالها هى قوله تعالى «ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب»^(١)

أما المآب فهو إلى عالم الغيب، الذى هو مقام الثواب والعقاب، ولم تصلنا إشارة المكانية إلى اللامكان. قال الشيطان: على أى أساس نسقوا العناصر الأربعة؟

قال العالم الزاهد : هبط منها ما كان أكثر ثقلًا بطبعه، وارتفع ما كان أخف وزناً وثقلًا، فالأرض التى هى بارد يابس وأكثر ثقلًا من كل شئ ، جاءت شاملة للهواء ، والهواء شاملاً لها. والماء الذى هو بارد رطب، وأكثر ثقلًا من الهواء ، جاء شاملاً للهواء، والهواء شاملاً له.

(١) البقرة : ٢٦٩

والنار التي هي حارة يابسة جاء مركزها ومقرها أعلى من الثلاثة السابقة، وقمر مماسها هو سطح باطن الفلك، وبالرغم من أنها انفردت عن غيرها في أصل الخلق ومبدأ تكوين كل شيء لباطنها، إلا إنها خلطت أجزاء كل عنصر من العناصر الأربعة مع بعضها من أجل تنظيم أمور العالم ومجاري أحوال العالمين وفقاً للحكمة، حتى إنها إذا قلت في عنصر ازدادت في آخر، وتنتقل بتغير المزاج من حقيقة إلى حقيقة ومن ماهية إلى ماهية.

فالماء الذي هو البخار الذي يتصاعد - بسبب الرطوبة العارضة - من أجزاء الأرض بواسطة حرارة الشمس، لهذا نراه أكثر لطافة من الماء، ولا يستقر في مركز الماء والتراب بل يصعد إلى الهواء، ويرتفع إلى أعلى، وبقدر ما يكون أكثر ثقلاً من النار، فإنه يتوقف عند حد معين، وعندما تصل رطوبته إلى ذروتها يتحلل، ويتحول إلى مطر، وعندما تكتمل حرارته يصبح ناراً بإذن الله ولطفه.

قال الشيطان: أي الأشياء أكثر قرباً منك؟ وأيها أكثرها بعداً عنك؟ وما هو الشيء الذي لا يمكن إعادته؟ وما هو الشيء الذي لا يمكن امتلاكه، وما الشيء الذي لا يمكن تعلمه؟ وما الشيء الذي لا يمكن معرفته؟

قال العالم الزاهد: أكثر الأشياء قرباً مني - عن غيرها - الأجل، لأنه كقادم قد اتجه إليّ، وأنا كمستقبل معه جوادان أشهب الصبح وأدهم الليل، أتقدم إليه لرؤيته، ونلتقى سوياً.

هذا مَرَكُوبِي وتلك جنِيبَتِي بهما قطعْتُ مسافَةَ العمرِ والشيء الأكثر بعداً عني دون غيره من الأشياء، هو الرزق غير

المقدر لأن كسبه ليس فى مقدوره البشر، والشئ الذى لا يمكن إعادته هو أيام الشباب وريعانه، لأنه ريحان بستان الأمانى، وطالما طوتها يد الزمان القوية، ومن ثم لا يمكن إعادتها إلى سابق رونقها.

والشئ الذى لا يمكن امتلاكه هو السعادة التى انقضت، لأنه مثل السفينة المتحطمة التى اندفع إليها الماء من ثقبها، وأوشكت على الغرق، وكادت تصل إلى القاع، ومن ثم فلا يجدى معها إصلاح الملاح. أو أنها مثل أوراق الشجر التى لا يمكن أن يبقوا على واحدة منها على فروعها - وقت تساقط الأوراق - بكل ما فى الدنيا من حيل وبكل أنواع الإغراء .

أما الشئ الذى لا يمكن تعلمه فهو الذكاء لأنه فى جوهر الفطرة، ويمنح من خزانة «يؤتيه من يشاء»، ولا يمكن تحصيله فى أى مدرسة تعليم قط .

أما الشئ الذى لا يمكن معرفته فهو كمال كنه الله وحقيقة ذاته، إذ لا يستطيع أحد أن يتصور ذلك، يقول الرسول - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم - وهو أعلم الخلق وأعرف البشر بكل الخفايا- عند عجزه عن إدراك الكمال وصفة جلال الله «لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»

ولما بلغ حد جدالهم وحوارهم إلى هذه الدرجة، أرخى الليل سدوله عليهما، فتفرق الحاضرون كنجوم بنات النعش^(١)، وتعلقت

(١) الجمعة

(٢) بنات النعش : مصطلح يطلق على نجوم الدب الأكبر وهى سبعة نجوم، ونجوم الدب الأصغر وهى سبعة نجوم أخرى، وبينهما (أى بين المجموعتين) النجم القطبى، ويطلق عليها أحياناً بنات النعش الكبرى، وبنات النعش الصغرى .

ويضرب بها المثل فى التفرقة بعد الاجتماع يقول الشاعر :

عقود الثريا بجرس الجوزاء المتدلى من علاقة حمائل الفلك، لوى كاوپاي عنان المعارضة، و«أفلت وله حصّاص»^(١)، وظل طوال الليل يتحسر فى لجة لجأجه، وتعوص فى بحر الندامة ذلك لأنه قد بدا نزوله منزله عن منزلة العالم فى فنون العلم أمام جماهير الخلق.

وفى اليوم التالى : عندما زين الله ستارة السماء المعتمدة بأشعة الشمس الذهبية، بدأ نمط آخر من أنماط الكلام، وجاء كاوپاي عند العالم الزاهد، واجتمعت حولهما طوائف الخلق.

قال الشيطان «كاوپاي» لماذا كانت محبة الدنيا؟ ولماذا يغلب على الناس الحرص والطمع؟

قال العالم الزاهد : من أجل تعمير الدنيا، فلو لم يوجد الحرص، ولم يعصبوا عين البصيرة الأدمية بحجابه كى لاترى عواقب الأعمال، ما اغتم شخص فى الدنيا بأمر غد، وما كان لأدمى أملى قط فى تلك الفاكهة التى لها مذاق الحال بالرغم من أنها ذات طعم لذيذ. ولا غرس أحد فى الأرض غصناً، ولا بذر بذرة من أجل قوته قط، وهو يعلم أن منها مدد بقائه فى المستقبل، وينقطع بذلك سلك

= وكنا باجتماع كالثريا فصيرنا الزمان بنات نعش

انظر فرهنگ معین ، فرهنگ عمید

كذلك : د. مهدى محقق ، بيت كفتار ص ٢١

(١) الحصاص : الحَبَق، وفى الحديث، إن الشيطان إذا سمع الأذان «رلى وله حصاص كحصاص الحمار».

يضرب فى ذكر الجبان إذا أفلت وهرب .

الميدانى، مجمع الأمثال ج٢ ص ٤٣٨ (وهو من أمثال المولدين) .

نظام العالم، غير أنه لم تتضح صورة أحد هذه الأشكال فى معمل الإبداع، ولم تتحطم أواصر المكونات .

قال الشيطان : ما هو جوهر الملائكة ، وما هو جوهر آدميين؟ وما هو جوهر الشياطين؟

قال العالم الزاهد : جوهر الملائكة العقل الطاهر الذى لا دراية للسوء به قطه . أما جوهر الشياطين فهو الطمع والغضب اللذان لا يولدان إلا سوء والقبح . أما جوهر العقل داخله تكتسى ذاته بلباس الملائكة .

وتسمع نفسه جميع التلقينات الروحانية، أما إذا استولى عليه جوهر الطمع والغضب فإنه يدخل فى صفة الشياطين، ويميل إلى الإلقاء الشيطاني فى عالم الأمر والنهى .

قال الشيطان ما فائدة العقل؟

قال العالم الزاهد : إنه يمسك بزمام ناقة طلبك، ويدفع بها فى الطريق سوى إذا ما أخطأت طريق الحق، وإذا ما لحقك الغم كان لك أنيساً . وجليسك الذى يرشدك إلى الحق، وإذا ما أنزلت رجلك إلى مصادمات الوقائع كان معينك ومساعدك على الخروج منها، وإذا ما ألقى بك الزمن فى غيابات الفقر يوماً منحك مال الغنى من مستودع كيمياء سعادته، وإذا ما أصابك الخوف وجدت زمان فى كنف حفظه . إنه يصون الروح من الخطأ والخطل، ويحفظ القلب من النسيان والزلل .

إن كل من لروحه عقل، أدرك ماهية كل عمل .

فالعقل مرشد ، والعقل ، هادى ، والعقل معين من أجل الدارين
فهو المعطى وهو الآخذ ، وهو المستقبل ، وهو الموصل
هو الوسيط بين الصورة والإدراك ، بهذه أصبح اللسان وبذلك أصبح الأذن.
إذا ما لجأ إليه إنسان جعل السها^(١) بالعلم قمراً.
فيصير بعظمته ملكاً وبحمايته شمساً .

قال الشيطان : من هو العاقل بين الناس؟

قال العالم الزاهد : هو الذى يعرف مقام التحمل إذا ما ظلمه
الناس ، ويعلم أن التواضع مع ال اجزين من الكرم ، ويعرف أن العفو
عند المقدرة واجب ، ويدرك أعمال الدنيا الفانية بسهولة ، ولا يخلو من
التفكير فى دنيا البقاء ، وإذا ما أصاب إحساناً شكر الله بقدر ذلك
الإحسان ، وإذا ما لحقته إساءة أو أصابه سوء صبر على ذلك ، وإذا ما
مدحه الناس ازداد فى طلب محامد الأوصاف ، وإذا ما ذموه تحرز من
مذام السيرة ، سكوته محبة فى إثارة السلامة ، وكأنه فتح باب رؤية المنفعة
حتى يكون بين الناس كالشمع يمنح العيون ضياء بنوره وجوده وإذا ما
اعتزل فى زاوية بحثوا عنه بالمصاييح ، إنه لا يطلب فساداً من أجل
إصلاح نفسه ، ولا يقبل ثروة للسعادة والسرور ، ويسعى بدأب من أجل
الحصول على مالم يحصل ، ولا يهن فى تحقيق مراده الصعب المأل ، ولا
يزداد سروراً بنيله «لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم»^(٢) .

(١) السها : كوكب صغير نخبى الضوء فى بنات النعش الكبرى أو الصغرى ،

وفى المثل : أريها السها وترينى القمر (المعجم الوسيط) .

(٢) الحديد (٢٣) .

قال الشيطان : ما هو الشيء الموجود؟ وما هو الشيء غير الموجود؟ وأى شيء موجود ولا يمكن سلب الوجود منه؟

قال العالم الزاهد : إن كل ما هو موجود وما هو غير موجود هو كل ما بداخل فلك القمر من مفردات طبائع الأجسام ومركباتها التي تظل حقائقها موجودة دائماً، وأجزاؤها في تلاشي وتحلل حتى أن كل ذرة منها ترجع إلى عالم العدم تحل محلها في الوجود مرة أخرى على سبيل انتقال الصورة .

وذلك الموجود الذي لا يمكن سلب الوجود منه هو عالم الألوهية والذات المقدسة واجبة الوجود التي ليس للفناء والزوال إلى وجودها سبيل .

قال الشيطان : ما هو الجزء الذي يحيط ب كله؟ وما هو الجزء الذي كانت منه بداية الكل، وهو أشرف من الكل؟ وأى شيء يكون هزلاً من ناحية وجداً من ناحية أخرى؟

قال العالم الزاهد : الجزء الذي يحيط ب كله هو العقل، فمنزله حُجُب الدماغ، فإذا ما ارتقى بالقوى النفسانية طوراً فطوراً، ودخل طور البلوغ أشرف - من حيث الإدراك - على العقل الكلى، وعلم ماهيته .

وذلك الجزء الذي هو ابتداء الكل وأكثر شرفاً من الكل هو القلب، إذ أنه نقطة ارتكار فرجار الخلق، وهو منشأ الروح الحيوانية التي هي مصدر جميع القوى، هو بالإجماع أشرف كل الأعضاء والأجزاء .

والشيء الذى هو جسد من ناحية وهزل من ناحية أخرى هو الحكايات والأسمار التى هى من وضع العلماء الباحثين الذين جمعوها، ثم دونوها فى الأسفار والكتب من حيث إنهم حكوها على السنة الحيوانات، فإن لها وجهة هزلية، أما وجهتها الجدية فهى فى أنه - أى الأسمار والحكايات - جميعاً تلميحات وحكمها خفية والجد المحض مندرج فى مضامينها، حتى تجذب القارئ بميل طبعه لمطالعة ظاهرها، وبذلك يقف على أسرار باطنها بطريق التوصل .

ولما بهت الشيطان، وأظهر العالم الزهد بلاغته الكلامية، وحير الحاضري بأجوبته الحاضرة، ويسبب فقد العالم الدينى فى حلبة السباق ردداً هذا القول «جرى المذكى حسرت عنه الحمر»^(١) .

واغتازت الشياطين من تلك المأطرة، وكانوا «كالباحث عن حقه بظلفه»^(٢) وهزموا جميعاً فى ذلك المكان، وحلت بهم الخسارة وخيبة الأمل، فدخلوا فى باطن الأرض، وأقاموا مساكنهم فى الوهادات والمغارات، وانتهى شر مخالطته للناس حتى يعلم أرباب البصيرة أن إعانة الحق وإهانة الباطل سنة الإله تعالى تقدس . فلا يتفق تقرير الزور مع تقرير الصدق، ولا يخلف الجهل علماً، ويتنصر الحق دائماً ويقهر الباطل

(١) نصب (جرى) على المصدر كأنه قال : يجرى فلان يوم الرهان جرى المذكى . . يضرب للسابق أقرانه .

الميدانى ، مجمع الأمثال ج ١ .

(٢) جاء هذا المثل فى مجمع الأمثال هكذا «كالباحث عن المذبة» ويضرب فى طلب الشيء يؤدى بصاحبه إلى تلف النفس . يقال إن رجلاً وجد صيداً، ولم يكن معه ما يذبحه به فبحث الصيد بأظلافه فى الأرض، فسقط على شفرة، فذبحه بها .

قادر كل من كان عالماً ، فبالعلم يستعيد القلب الهرم شبابه.

تمت قصة الشيطان والعالم الزاهد ، يأتى بعد ذلك ذكر باب «داومه وداستان» الذى نيين فيه شروط وآداب خدمة الملوك ليعرف عامة الحشم والخدم وخاصتهم كيف يضعون القدم فى تلك المسالك والمدارج .

فليئر الحق تعالى رأى مزين الممالك ، وسيد الدنيا ، قانون أهل الدنيا وقدوتهم ، وليطهر سالكى هذا الطريق من غوائل الجهل بنور رؤيته وهداية ألمعيته ، وليجعله مصوناً ومعصوماً بمحمد وآله الطاهرين .

الباب الخامس

دادمه وداستان

دادمه وداستان

قال الأمير : سمعت أن أسداً كان متميزاً عن سائر الوحوش والضواري بقلة الأذى والورع ، متحرراً عن التعرض لضعاف الحيوانات . وكان ملكاً آمراً للجميع . وكان متوطناً لغابة كأنما زرعوا أشجارها من أغصان دوحه الطوبى^(١) . وكأنما جاء مذاق فواكهها من نهر عسل في الفردوس الأعلى . وقد سكنت الطيور على أطراف أغصانها هادئة البال كالنسر ، كما استقر الدجاج على شرفات هذا الصرح الزمردى آمناً من قسي بنادق^(٢) الآفات . وترعى الغزلان في مراتع خمائلها الخضراء آمنة من انطلاق سهام الحوادث مثل الجدى والحمل^(٣) في علياء المَرَج السماوى ، لا يصل أى شخص إلى القاصى أو الدانى من أشجارها . وقد قطع الزمان يد تعرض الجانى لمجانى ثمارها ، وبقي نخيلها وأعناؤها بخاتم بكارته كالكواعب الأتراب^(٤) ، ولم ير رمان نهدا وتفتح خدها من كوة نافذة الأفنان غير الشمس

(١) الطوبى : الحسنى ، وطوبى فى التثنية «طوبى لهم» : كل مستطاب فى الجنة من بقاء بلا فناء ، وعز بلا روال وغنى بلا فقر . (المعجم الوسيط) والمقصود هنا : شجر الجنة .

(٢) مصطلح «كمان كروهه» : هو ما يُطلق عليه العرب «قوس البنادق» أو «قوس الجلاهدق» (برهان قاطع)

والدليل على ذلك قول المتنبي فى مدح سيف الدولة :

تصيب المجانيقُ العظامُ بكفه دقائق قد أعيت قسى البنادق

المتنبي ، الديوان ج ١ ص ٤٧٧ .

(٣) المقصود : الجدى والحمل وهما يرجان من أبراج السماء (د. مهدي محقق ، السابق ص ٢١) .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى «إن للمتقين مفارا» (٣١) حدائق وأعناؤها (٣٢) وكواعب أترابا (٣٣) النبأ (٣١ ، ٣٢ ، ٣٣) .

والقمر، ولم يكشف عن فستق شفاهاها ولوز عيونها غير ربح
الصبا والشمال، ولم تصل أسنان الطامعين إلى شفاها أترجها^(١)
وعنق نارنجها^(٢). ولم تخطف أيدي المتناولين خوخة من
وجهها السماوي، وعارضها التفاحي، ولم ير عنايبها عناء، ولم يسمع
عتاباً.

فاخضل من سقياء كل مخرج واخضر من رياه كل مصنف
وتلثمت شمس النهار يبرقع من طرقيه والسما بمطرف

وكان للأسد نديمان وأنيسان من بني آوى^(٣)، ذكيا الطبع، خيراً
المحضر، بهياً المنظر، يدعى «دادمه» والآخر «داستان». وقد نال
كلاهما - دون سائر خواص الملك من الخدم - مرتبة التقدم، وصارا
مستشارين له ومحرمي أسرار المملكة. وكان هناك دب وزير للملكة
كان في فكر دائم من هذين الرفيقين الضئيلين اللذين صار إليهما
مراجع حسم الأمور، خشية أن يتصديا يوماً له ولنصبه، ويفسدا أمر

(١) الأترج : شجر يعلو ، ناعم الأغصان والورق والثمر ، وثمره كالليمون الكبار،
وهو ذهبي اللون ذكي الرائحة حامض الماء، واللفظ معرب. (المعجم الوسيط).

(٢) النارج : شجرة مثمرة ، دائمة الخضرة، تسمو بضعة أمتار، لها رائحة عطرية
وأزهارها بيض عبقة الرائحة تظهر في الربيع، والثمرة لبّة تعرف كذلك بالتاريخ، عصارتها
حمضية، وتستعمل أزهارها في صنع ماء الزهر والعطور، واللفظ معرب. (المعجم الوسيط).

(٣) ابن آوى : حيوان من الفصيلة الكلبيّة وهو أصغر حجماً من الذئب. والجمع بنات
آوى وبنو آوى. (المعجم الوسيط).

الوزارة عليه، قائلاً :

فلا تحقرنَّ عدواً رماك وإن كان فى ساعديه قصر
فإن السيوف تحزُّ الرقاب وتعجز عمَّا تنال الإبر

ومن ثم كان يحسدها على علو الدرجة والمترلة، ودائماً ما يقول لنفسه :
يجب علىَّ أن أتدبر هذا الأمر، وأن تقع عيني على الوسيلة التى تبعدهما عن
عناية الملك وأفرق بينهم، بحيث لا يصبح لاثلامه إصلاح والثام.

و ذات يوم - حسب العادة الجارية - استراح الملك متكئاً،
فاستغرق فى نومه، وجلس «دادمه وداستان» عند وسادته يتسامران
وينفثان على سحر سُكر نوم الراحة. وفى تلك الأثناء خرجت ريح -
من مخرجها المعتاد - من الملك، فانبعثت من «دادمه» ضحكة مفاجئة،
وما إن شعر بها الملك حتى استيقظ، وظل فى مضجعه متناوياً متصامماً
يتظاهر بالنوم حتى يسمع ما يكون منهما .

فقال داستان لصديقه : لماذا ضحكت على الملك؟ هل رأيت
واقعة غريبة أو منظراً شنيعاً قد صدر عن الملك؟ وعلام تُحمل هذه
الضحكة الباردة وهذا الاستهزاء المنكر؟

- أيها الأخ إن المزاج^(١) إذا خلا من الفضلات، حيثئذ يكون
الآدمى ملكاً أو شيطاناً أو جنياً

- وإن لم يكن فى بدنه قوى ماسكه ودافعة، لما تفوق على طفل
يخطو خطواته الأولى

(١) المزاج : هو الحالة الطبيعية للبدن. (فرهنگ عميد) .

- ففعل الطبع يأتي عن طريق التسخير لا اختيار فيه، سواء في الجماد أو النبات، بل نحن في المقدمة^(١)

وغير خاف أن قلم التكليف قد رفع عن السكران والمجنون والطفل والنائم، وعلامة قبول العذر وعدم المؤاخذه على الإطلاق أن يُشاهد الفعل منهم دون وجود رخصة من الشرع أو العرف، غير أن عذر النائم أكثر الأعذار قبولا وأقربها إلى العقل من كافة الأعذار الأخرى، لأن السكر والجنون - مثلاً - لا يخلوان من الحركة والسكون والفعل والاختيار، أما النائم فقد وضع عنان التصرف بأكمله في يد الطبيعة، وعقد قيد التعطيل على قدم الحواس ومن ثم عزلت قوة الإرادة عن عمله، ولذلك قال الحكماء : النوم موت جزئي والموت نوم كلي والنوم أخو الموت. ولقد قرأت في كتب الأخلاق : أن العاقل هو الذي لا يعير غيره بعيب ملزم لذاته هو. وخادم الملك هو الذي يصور عيبه (أي عيب الملك) على أنه فن وباطله على أنه حق، وهذا من مقتضيات العقل. والأوجب على خواص حضرته والمقربين في خدمته مراقبة هذه الحال، لأن الذين يتعقبون رلة الأقدام يقفون «على شفا جرف هار»^(٢) فمن جالس الملوك بغير أدب فقد خاطر بنفسه، وهكذا جاء الخطّاب من جانب الكبرياء في تقويم أكمل وأفضل الخلائق فقال «فاستقم كما أمرت»^(٣) حتى يقول لسان النبوة من

(١) هذه الآيات للأنوري، وهي في قطعة بعنوان «در علوقی کردن در مجلس شراب گفته»

انظر : الأنوري : ديوانه، باهتمام محمد تقی مدرس رضوی ج ٢ ص ٧٤٠ سنة ١٣٤٧ هـ ش .

(٢) التوبة : ١١٠ .

(٣) هود : ١١٢ .

هيبة نزول هذه الآية : «شيتنى سورة هود»^(١) .

فقال دادمه : إن صاحب العرض المتزه عن العيب واللسان الذى لم يعجر عليه الكذب، والنفس غير المنسوبة إلى عار الجهل لا يخشى من الضحك على أى شخص.

فقال داستان : ثلاث عادات من شأن الجاهلين : الأولى : أن يتخلوا أنفسهم بلا عيوب. الثانية : أن يقللوا من شأن الآخرين فى مرتبة العلم. الثالثة : الاغترار بعلمهم متخيلين أنهم بلغوا النهاية فى العلم.

عندما تقول : إننى تعلمت كل العلم، وجمعت منه دون تمييز

إذن فالعظيم الذى يجلسك أمام المعلم، يقامر بالوقت

ومن لطائف عظة أرباب الحكمة : أنك عندما تبحث عن عيوب الآخرين لترى فضلك فلا تغفل عن البحث عن عيوبك لترى فضل الآخرين، لأن كل من لا يقف على عيب نفسه وفضل الآخرين؛ لن يكون طاهراً أبداً، ولن يصل إلى درجة الفضلاء. وقد جاء فى الخبر «إذا أراد الله بعبدا خيراً بصره بعيوب نفسه»^(٢) ويقول أبقرط «كن فى الحرص على تفقد عيوبك كعدوك»

(١) هذا الحديث جاء بصور مختلفة ، ومنها هذه الصورة « شيتنى سورة هود وأخواتها »
فيض القدير، شرح الجامع الصغير. المناوى ج٤ ص ١٦٨ ، ١٦٩ ط الثانية دار المعرفة
بيروت ١٩٧٢م

(٢) «إذا أراد الله بعبدا خيراً فقهه فى الدين وزهده فى الدنيا وبصره بعيوبه»

هذا الحديث جاء بالصورة السابقة فى فيض القدير.

راجع فيض القدير شرح الجامع الصغير ج١ ص ٢٥٥

قال «دادمه» : إن من يشغل بتنقية نفسه الطاهرة من رذائل العيوب فمثله كمن يعكر صفو نبع ماء زلال ليعرف إلى أى درجة يكون صفاؤها من الكدر ، فلا شك فى أن المبالغة فى الاضطراب تحيل صفاءها (النفس) إلى كدرة وأن التلوث المفاجيء يغير من لطافة أجزائها .

فقال دادته : إن أى عاشق لا يرى عيب المعشوق - ولا يكون لعاشق جرأة أمام الحبيب ولهذا السبب فإنه دائماً يرى محاسن نفسه ومساوئ الآخرين كقول القائل :

يا من تنظر إلى نفسك دائماً ، وترى كل العمر موقوف عليها
فانظر إلى نفسك كما ينظر إلى حجر ، فلربما ترى نفسك كزجاجة بقٍ

فكل من يرى أن دورة الفلك مساعده له يتخيل أن الجميع مثله فى هذا المزاج ، مثل ذلك المنعم الذى يعيش صيفاً فى قصره ، حوله غلمان بيض الوجوه ، مزينين بأقراط الذهب ، سعيداً بالمروحه التى تداعب شعره ، ويظن أن التعساء المحروقين من لفح الشمس الذى يلسع قفاهم ، لهم مثل ذلك النصيب من اللذة والراحة ، أو مثل الغنى الذى يجعل هواء الحجرة دافئاً فى فصل الشتاء بتأثير شعلة النار، يتناول الشراب الأرجوانى على نغمات الموسيقى مع الحور الحسان اللائى يشبهن الأقمار جمالاً ، ثم يقيس على نفسه حال أولئك الذين قتلوا من قسوة برد الزمن وجو الحياة والذين ربما يرضون فى نهاية الأمر بأن يضعوا سواعدهم مكان عيدان الخطب على نار كانون الأغنياء . كل هذا يكون من باب الجهل والغباء والغفلة وعدم النضج الذى يجعل عاقبة كل الرعية وخيمة .

والملك كلما جعل طريق الإنسباط مفتوحاً كان واجباً أن تجلس بعيداً عن بساط حشمته « فإن اتخذك الملك أخاً فاتخذته ربا وإن زادك إنساناً فزده إجلالاً » .

قال « دادمه » : هذه الضحكة خرجت منى على سبيل الخطأ حقاً ، لكل الكلام الذى خرج من القم ، والسهم الذى انطلق من قبضة القوس ، والطائر الذى طار من الشراك لا يمكن تصور عودته .

القول كاللبن المحلوب ليس له ردٌ وكيف يرد الحالب اللبناً

وهذا المعنى مقرر ، لأن الإثم ما لم يصر واضحاً فلا خوف من العقوبة ، فإنه الآن آمن من إيذاء ويال هذه الخطيئة ، لأن ما حدث بينى وبينك قد انتهى ، وقد قال المجربون المحكنون الذين لاك حصان الأيام الأشهب لجام رياضتهم^(١) : لا يتسع قلب شخص لسر شخص إلا قلب الصديق ؛

خزانة سرٌ أعجزت كل فاتح

ولو أنك احتفظت بهذا السر تحت خاطرك ، فإن هذا لن يكون غريباً عن حسن عهدك وصدق ودادك .

قال داستان : ألم تسمع قولهم : عادتان من لوازم الجهلاء : الأولى : أن الإنسان يقرض فضة لشخص آخر ثم لا يستطيع أن يستردها إلا بالتضرع والشفاعة .

الثانية : أن يودع الإنسان سره لدى شخص يتطلب حفظه أن يقسم بغلاظ الأيمان وشدادها .

وقد قالوا : إن السر هو الشيء الذى يكمن البلاء فى للحاقظة عليه ، والهلاك فى إفشائه مثلما حدث للص مع البرغوث ، قال دادمه : كيف كان ذلك ؟

(١) كناية عن الحكماء .

حكاية اللص مع البرغوث

قال داستان : سمعت أنه في وقت من الأوقات عزم لص على أن يتسلق بحبل إلى شرفة قصر الملك ، ويزحف بشجاعته نحو خزائنه ، واستولت غوغاء هذه الفكرة على عقله قشره ولبابه ، وامتلاً وعاء ضميره بها ، ونفدت طاقته في إخفائها « والمصدور إذا لم ينفث جوى » . ولم ير اللص محرماً لائقاً ولا صديقاً موافقاً في الدنيا كي يودعه هذا السر ، ولكنه عثر في النهاية على برغوث في ملابسه فقال في نفسه : هذا حيوان ضعيف لا لسان له كي يحكى ، وحتى لو استطاع هذا !! فمتى يستحسن أن يفشى سرى وهو يعلم أنني أغذيه بدمي ؟!

وكانت روح المسكين في بدنه مثل البرغوث في السروال والحجر في المتحف تبدى الضيق حتى يفضى بذلك السر له . وذات ليلة أغار القضاة على روحه فتأهب لإرتكاب ذلك الخطر ، وألقى بنفسه - بشتى فنون الحيل - في قصر الملك ، فوجد حجرة النوم خالية من الخدم مصادفة ، فاختماً تحت السرير ، واختلط تقدير شجرة السياسة من أجله ، فدخل الملك ، وذهب إلى السرير ووضع رأسه على الوسادة رغبة في النوم ، فخرج البرغوث من ثياب اللص ودخل في ثياب نوم الملك ، فأحدث كثيراً من الإضطراب ، وعكر صفو الملك ، فأمر الملك أن يشعلوا الأنوار ويبحثوا جيداً في ثياب نوم اللص ، فقفز البرغوث ونزل أسفل السرير ، ومن هنا وجدوا اللص أثناء البحث عن البرغوث ، فنفذوا فيه حكم العقوبة .

مشى برجليه عمداً نحو مصرعه ليقضى الله أمراً كان مفعولاً^(١)
وقد قلت هذه الحكاية لتعلم أن سر القلب لا ينبغي البوح به لكل
حى .

وعندما انتهت مناظرتهما غضب الأسد ، ومزق قيود الصبر
ورمجر زمجرة غضب بعد نومه ، وأمر فسجنوا « دادمه » وشدوا
وثاقه . وانطلق داستان فى حالة سيئة إثر الموقف الذى ذكر ، وذهب
إلى باب السجن متأسفاً ملتهفاً ، وبدأ مع دادمه بعتابات مثيرة
للإضطراب وكلمات مخلوطة بالسّم ، فكان يستأصل كيانه بالثريب
والتوبيخ ، ثم قال : إن العلماء قالوا : لا تبذل المال إلا بمقدار اليسار
حتى يثمر للمحتاج ، والكلام الذى لم نقله فى حقك يسقط القدر ،
وطرف اللسان الذى يمكن فيه الخطر فالأولى أن يكن مقطوعاً وكذلك :
الأفضل من الضرر من كثرة الطعام الضرر من قلة الطعام ، والأفضل
من الحزن على كثرة الكلام الحزن على قلة الكلام .

ما إن ندمتُ على سكوتى مرةً لكن ندمتُ على الكلام مراراً
وهكذا قال براهمة الهند الذين ملكوا الحكمة فى البيان : إن
الكلام قبل قوله يشبه الفتاة المخدرة البكر ذات الطبع المرغوب والقلب
المحبوب ، التى للخطاب رغبة صادقة فيها أمّا الكلام المقول مثل المرأة
القصيحة التى تتحايل حتى تروج سوق زواجها الكاسد ، وقد قرأت من
لطيف كلامهم أيضاً : أن السكوت ستر لعورة الجاهل وزهرة لعظمة
العلم ،

(١) هذا البيت تضمن فى شطره الثانى جزءاً من الآية الكريمة « إذ يريكموهم إذ التقيتم
فى أعينكم قليلاً ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولاً » الأنفال / ٤٤ .

إن صاحب العقل المتسرع العجول ، يكون كثير الكلام قليل الإدراك
لا ثروة لك أفضل من صولجان العلم ، ولا زينة لك أفضل من الصمت
وقد عدّوا صفتي التجسس وتعود اللسان ذكر الفحشاء والمنكر
دليلاً على رذالة الطبع وسفالة النفس ، وقد كنت تصر على استحسان
صورة حالك ،

فإلى أين تنتهى بنفسك ؟

قال دادمه : إن الخوف يا داستان هو أن أردد : « السجن أحب
إلى »^(١) بسبب غبن كلامك ، فأنت تعذر الملك برغم ما صدر منه ،
وتجعل الفعل طبيعة والسلب اختياراً . لماذا - إذن - لا تعذرني بهذا
العذر ؟ ولكن ماذا أفعل ؟ لقد جبل ابن آدم على هذا !!

لقد تبسّمت الأيام بسبب نظر العبد

وكل دموع الحسرة التي كانت تتساقط من عيون الورد هي بمثابة
الضحكة التي كانت تنبعث من برعم وردة السحر في الدنيا ؛ وقهقهة
الزجاجة التي تكون في الحلق الآن هي التي تصفى دماء القلب بدلاً
من الدموع .
لا تحسبن سروراً دائماً أبداً من سره زمن ساءته أزمان

اعلم يا داستان - بعد ذلك - أن الحظ عندما ينقلب أجمل فكرة
في أسوأ عبارة ويحاسبون على اللغو القليل الذي يأتي سهواً فكيف بما

(١) يوسف / ٣٣ .

جاء عمداً ؟ وهكذا المزاج الممرض الذى كلما زاد الاحتياط فى ترتيب الغذاء وقاعدة الاحتماء انحرف عن سمه الاعتدال بقليل من الزيادة التى يتطلبها الأمر ، وعلى العكس من ذلك إذا أتى الإقبال فإن المتحدث الذى لا يملك من أهلية الحديث إذا زاد كلمة نفع واحده ظهر ركيك الكلام متيناً محكماً ، ومن ثم استقر فى مقاعد سمع القبول ، ومن هذا القبيل أيضاً : رامى السهام ذو الساعد الضعيف يصيب بكل سهم خرج من قبضته هدفه إذا ما ساعده الحظ ، أما إذا أعرض الزمان عن طريق موافقته فإنه يفقأ عين البصيرة ، ويجعل النهار المضىء أمامه ليلاً حالك الظلمة مثلما حدث لذلك الرجل مع الهدهد . فقال داستان كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الرجل الطيب مع الهدهد^(١)

قال دادمه ، سمعت أن رجلاً كان قد تعلم لغة الطير فى مدرسة « علمنا منطق الطير »^(٢) وكان يتمتع بأصوات بغبغاوات قصر العرش وطواويس الحديقة القدسية ، وكانت له صداقة مع هدهد فرآه ذات يوم جالساً على قمة جدار فقال له : أيها الهدهد : حافظ على نفسك فى هذا المكان الذى تجلس فيه ، وكن متيقظاً لأن هذا المكان مكان كمين لقناصى القضاء . فهم يصلقون سهم البلاء من قبضة الحوادث من هنا ، وقافلة ضعاف الطيور تجتاز هذا المكان باحتراز وحذر .

(١) يشير ذلك إلى النبی سلیمان علیه السلام .

(٢) سورة النمل / ١٦ .

فقال الهدهد : إن هذا المكان به طفل يضع شراكاً لصيدى وأنا أشاهده متمتعاً لأنه يضيع الوقت عبثاً ويتعب دون جدوى .

فقال الرجل الصالح : لقد قلت ما علىّ ، ثم ذهب ، وعندما وجد الهدهد أسيراً فى يد ذلك الطفل ، قال له : ألم تكن تضحك على وضع شبكة ذلك الطفل وتضيع وقته ؟ ولقد كانت الحبة أمامك كما كان الفخ واضحاً ، فما موجب الوقوع فيه ؟ فأجاب الهدهد : ألم تسمع الخبر « الهدهد إذا نقر الأرض يعرف من المسافة ما بينه وبين الماء ولا يبصر شعيرة الفخ لينفذ ما هو فى مشيئة الله من القضاء والقدر »^(١) . وغير خاف أن مراد الرجل هو إظهار جمال المصلحة بواسطة عين العقل ، فكلما نزع الغطاء عن المراد أدرك سمة النقصان فى كل جوانب أموره وأحواله .

ولقد أسرع فى تزيين طرف الثوب ووضع القلنسوة الحريرية المرصعة ، وطرت بمنتهى السرعة والمهارة ، واعتمدت على ذكائى الحاد ، وكانت الحبة باعثاً لى على ذلك فأوقعتنى فى الشرك ، وأعلم أن قلم الإرادة عندما كتب ذلك وسجل رقم الحدوث فى الأزل ، كانت طيور شجرة الملكوت تخرج من عش العصمة ، وينصبون الفخ كباعث ، بل إن آدم الصفى الذى له قلب السريرة يحكى عن نقش ألواح الغيب فى عالم الشهادة ، والذى كان يظهر تفاضلاً مع الملائة الأعلى بعلمه ،

(١) أورد الجاحظ هذه العبارة تحت عنوان « الهدهد » فيقول « ويروون أن لمجة الحرورى أو نافع بن الأزرق قال لابن عباس : إنك تقول إن الهدهد إذا نقر الأرض عرف ما بينه وبين الماء والهدهد لا يبصر الفخ دون التراب ، حتى إذا نقر التمرة انضم عليه الفخ فقال ابن عباس : « إذا جاء القدر عمى البصراً » .

عبد السلام هارون : تهذيب الحيوان للجاحظ ، ص ١٠٧ ط الخانجي القاهرة سنة ١٩٨٣ .

فراى حبة القمح ونبذ الفخ برغم أنه علم عداوة إبليس وسمع وصية « لا تقربا هذه الشجرة »^(١) فلماذا صار أسيراً خداع النفس وغرورها ؟

- صرت غير موفق كما يهوى العدو ، فما دمت أنا منك فأى قصد للأيام
- إن قلبى طائر يحلق عالياً ، لكنه سقط فى شباك الزمن بقضائه^(٢) .

فعلم الرجل الصالح أن كل ما يقوله الهدهد محض الصواب وعين الصدق ، فأعطى الطفل درهمين واشترى ذلك الهدهد وأطلق سراحه .

وقد قلت هذه الحكاية حتى لا تتركنى فى وحل هذه المخافة ومخلب هذه الأمة ، ولا تستحسن الكثير من هذا التوييح والتقريع ، أما ذلك الذى تنفقه من وقت فى التقريع والتشنيع على ؛ فالأولى أن تبذل فيه فكرك لتدير أمرى .

دَعْ عَنْكَ لَوْمَى فَإِنَّ اللُّومَ إِغْرَاءٌ وداونى بالتى كانت هى الداءُ

فرق قلب « داستان » من هذا الكلام ، وازدادت الحرارة فى قلب « دادمه » ثم قال داستان لدادمه : لا تجعل للتوجع طريقاً إلى خاطرك ، ولا تتصور أن أى مُلم أو مهم أو داهية من الدواهى سوف تجعلنى غافلاً ذاهلاً عن إنجاز أمرى لأن حقوق الأخوة ثابتة بيننا ، وكذلك عقود الموالاة والمؤاخاة مؤكدة ، وقد قال الفرس ؛ المال ينفع يوم

(١) البقرة / ٣٥ .

(٢) اليتان للخاقانى الشروانى .

انظر : خاقانى شروانى تصحيح ومقدمة وتعليقات ، دكر ضياء الدين سجادى ص ٥٦٧
تهران ١٣٣٨ .

الشدة والصديق ينفع زمن المحنة ؛ وهناك أربع خصال فرض عين على الأصدقاء في شريعة المروءة وهي :

الأولى : عندما يصيب الصديق بلاء فإن صديقه يشاركه بنفسه في معاناته .

الثانية : عندما يسيء الصديق التفكير فإنه يلوى عنان عزمه عن طريق التنفيذ ولا يتركه ينتهي إلى الفعل .

الثالثة : ألا يتأخر عن معونته بسبب المنافع والمشاكل .

الرابعة : أن يقدم إتمام مهماته على عوارض حاجات نفسه «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» غير أنه ينبغي أن ينبه إلى الإشارات الدقيقة التي وردت ضمن ثنايا هذا الحديث حتى لا ترتطم قدم فهم قاصر النظر بحجر الخطأ فيفهم أن الشارع قد حرص هنا على إعانة الظلم ؛ ولكن المراد من نصرة الظالم هو منعه عن الظلم ، فلا مانع عندي من حفظ دمك ومالك لأن الصديق للصديق ، وقد روى في فوائد حكماء الهند أن : من لا عمل له لا أجر له ، ومن لا صديق له لا راحة له فكن هادئ البال .

لو لم أصانعك لكان هذا من أجلك أيضاً

وسوف أذهب إلى بلاط الملك ، وانظر طبيعة مزاجه ، وسوف أسلك كالشعرة من العجين^(١) بتخمير التفكير والتدبير .

(١) استفاد الكاتب من المثل العربي « خرج مثل الشعرة من العجين » وهذا المثل شائع لدى الفرس ، وقد استخدمه السوزني السمرقندي في قوله :

چون طبع رام مخيم کردی به زهر ویند ران کفته هاچومی برون آی ارخمیر

= وترجمته : طالما أقيمت الطبع بالزهد والنصح ، فأخرج عما أنشدت مثل الشعرة من الخمير .

د. محمد محمد يونس، السوزني السمرقندي ص ٢١٠ ط ٢ مكتبة الشباب سنة ١٩٨٩ م.

قال دادمه : آمل أن تنمو سيرة الصفاء ، ولا تدخر ما فى الوسع فى سبيل الإبقاء على حق وفائى وإظهار فرط حسن الأصل وطهارة العرق . لكن العقلاء من الناس لا يحبون زيادة الإختلاط فى صحبة المحزونين والمحتاجين إلا بقدر ما يتعلق بالضرورة ؛ لأن المحنة مثل النار الملتهبة تحرق من هو أقرب إليها بسرعة . وربما ينتهى هذا النحس المستمر من أيام خيبتى ، فتقطع عنى لأنهم قالوا : إن الجهل مرض نفوس الناس ، وسوء الحظ الملازم لحال الناس هو مرض يجب الإحتراز من عدواه باتخاذ الحيلة ، فلو لم يجب ترك الأصدقاء فى حالة المرض ، فلا يجب أن تؤثر علة مرضه عليهم ؟

ألم تر أن المرء تَدْوَى يَمِينُهُ فَيَقْطَعُهَا عَمْدًا لِيَسْلَمَ سَائِرُهُ
والآن عندما يستقيم لك نجم سعادتى ، يجب أن يُحرس ويُرعى حتى لا يبقى الألم بلا فائدة مثلما فعل الملك العالم مع كسرى ، قال داستان : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية كسرى مع الملك العالم

قال دادمه : سمعت أن خصومة وقعت بين كسرى وأحد ملوك العصر ، وظهر لدى كل منهما باعث على انتزاع الملك من الآخر . حتى وصل الأمر إلى قيام الحرب بين الطرفين ، فلم يتردد فيها بينهما سفير سوى السهام ، ولم يدر بينهما حوار إلا بأسنة الرماح . فنظموا صفوف المعركة ، وحاربوا حرباً عظيمة وانتصر كسرى آخر الأمر وهبت رياح النصر على طرة الراية وقرطها الشيبة بالهلال ، وألقت

ريح دبور الأدبار بتراب الخسارة فى كأس الخصوم ، فهزموا وشردوا ،
وحملوا الملك إلى كسرى أسيراً ، فتلا كسرى صاحب الهمة الملوكية
والسيرة العظيمة - فى ذلك الوقت- « إذا ملكت فاسجح »^(١) وقال :
لا يليق بالرجل أن ييخل بالمومياء على كسير النفس ، وينبغى له أن
يرفع من أوقع به لأن هذا من سنن الكرم ، أما نقض العهد مع
الآخرين فهو من عادة اللئام ، وكذلك مد يد العقاب على الجميع ،
ووضع قدم الإحتقار على عنق كل من قُدر عليهم ليس إلا من عادات
السفهاء والسفلة ، وفطرة سيئى السمعة وخصال التافه الحقير .

ثم أمر به حتى يُعاد مع زوجته وأهله على سبيل الإعظام
والإحترام بالسلاح والعدة والأدوات والأهبة والخيول ، فلهث الملك
بالثناء على كسرى والحمد والمدح والإمتنان له ، ثم قال : هذا الأمر
هو غاية الفتوة وعلو الهمة ، لكننى أتوقع أمراً لو كتب له القبول
فلسوف أرى علامات سعادتى وتوفيقى .

فقال كسرى : لا حيلة فى عدم الإجابة على كل ما يجول
بخاطرك .

فقال الملك : يوجد نخيل فى بستان القصر الذى أحضرونى إليه ،
فأريد أن تمنحنى إياه حتى أصير مجاوراً لك بعد عام واحد . فتعجب

(١) الإسجاح . حسن العفو ، أى ملكت الأمر على فأحسن العفو عنى وأصله السهولة
والرفق ، قال أبو عبيد : يروى عن عائشة أنها قالت لعللى رضى الله عنهما يوم الجمل حين ظهر
على الناس فدننا من هودجها ثم كلمها بكلام فأجابته « ملكت فاسجح » أى ملكت فأحسن . فجهزها
عند ذلك بأحسن جهاز ريعث معها أربعين امرأة وقال بعضهم سبعين امرأة حتى قدمت المدينة .

الميلداتى : مجمع الامثال ٤ جـ ٣ ص ٢٧٨ .

كسرى من هذا الكلام أيما تعجب ، بل ربما اختل رأسه ونقص عقله من هول هذه الواقعة وخوف هذه الحادثة التى أوقعه الملك فيها ؛ لأنه يسأل سؤالاً بهذه الركاسة ويلتمس التماساً بهذه الخساسة .. وإلا ما للملوك والمطامع الدنية ١٢

وبرغم كل هذا ، فقد منحه حاجته ولم يتنذل رأيه ، فأعطاه بستان القصر والنخيل . فكان الملك يرى أن أوراق وثمار ذلك النخيل وثماره تتساقط كل أسبوع ويجدها فى طريقها إلى الذبول والإصفرار حتى لم يعد هناك أمل فى بقائها .

وذات يوم - حسب العادة - شق طريقة إليها ، فرآها وقد صارت فتية من جديد مثل حظ السعداء ، إذ تفتحت عقدة التغصن من أغصانها كالجبين المتهلل الأسارير ، وفتُح ما انسد من عروقها وكأنها هى البرعم المتفتح ، وكأنما هى النافجة المتفتحة . وازدانت بلون العرائس ورائحتهن الجميلة ، وشمخت برأسها فى الحلة الخضراء والحرير الأصفر كشجرة « چنار »^(١) ذات الألف يد .

طبيها من جوهرها وطبعها مثل العود المحترق ، وصورتها من الخارج وقلها من الداخل مثل الرسام وذهب الملك - من هناك - لزيارة كسرى ، فأخبره عن رؤاه لحال الشجرة فقال : كنت قد قرنت قرعة التفاؤل هذه المرأة باسم هذه الشجرة ، ورأيت تشابهاً بين حالى وحالها فى رؤيا الأمانى ، واليوم علمت أن شأنى قد ارتفع من حضيض التراجع إلى عهد التراجع ، وهكذا ظهرت هذه الطراوة والرونق على الشجرة بعد تغير الحال التى

(١) شجرة من الشجر غير المثمر ، المرتفع جداً ، يصل طولها إلى ثلاثين متراً ويقال لها «چنال» أيضاً . « فرهندك عميد » .

كانت عليه ، وسوف يأتي أمرى وفقاً لنسق أمور السلطنة . فياليتك ترسلنى اليوم إلى مكانى اللائق وتفكر التفكير الذى يتفق مع العناية بى والعمل من أجلى !!

فأرسله كسرى - فى ذلك الوقت - إلى بيته (أى بيت الملك) مصحوباً بالأهبة والجلال والأبهة فى ملابس التمكين ومعارض التزين ، فوصل الملك برغبته إلى مملكته وسلطانه .

وقد قلت هذه الحكاية حتى تتدخل يدك الآن فى إصلاح أمرى ومن ثم تنتهى محنتى ، ويصبح السعى الذى تسعاه مؤثراً ، والبذور التى تبذرهما مؤثرة ،

ويمضى هذا الألم عنى مثلما ، مضى ملك خاقان ودولة قيصر

قال داستان : إن البعد عن الصديق وإدارة الظهر إلى أمره فى كل أوقات السوء التى يأتى الزمان بها على الأصدقاء أمر بعيد عن قضية المكارم وسجية الأكارم ، بل يجب على الصديق أن يكون واحداً فى حالة الشدة والرخاء والخيبة والرجاء ، وسوف أذهب الآن إلى بلاط الملك وأبحث عن خلاصك بلطائف التدبير ، وأوصل الأمر إلى مخلص الخير وأظهر فرجة الفرج من مضيق هذا الحبس .

وانطلق داستان من هناك صوب بلاط الملك ، وتصادف وجود الدب عنده ، ففكر داستان فى نفسه قائلاً : إننى لو تكلمت فى موضوع دأبته فى حضوره ، فسوف يخرج بواعث العداوة من صدوره ، ويطلق لسان الاعتراض ، ويبدأ بقوادح العرض ، ولن يسمح لكلامى أن يقع فى نصاب القبول . ولو تكلمت فى غيبته ربما يصل إليه الخبر فيتحين بعد ذلك الفرصة ويهدم أساس كلامى كله فى

خلصة من الوقت ثم يسقط قواعد سعيي ، ويجتهد في إبطال هدي ،
ويزيف كل ما قررته فقد قالوا : إن مكيدة الأعداء وتدبير الخصوم
تأتي مستترة في حجاب الأمر ، أما الماء الذي يخفونه تحت مقعد
الحيلة فهو الذي يوصل الخصم إلى غوطة الهلاك بسرعة « وما حيلة
الريح إذا هبت من داخل » ثم فكر ثانية قائلاً : - إن الكلام في
حضوره أولى ، لأنه لو تقدم (أي الدب) لمدافعتي في الظاهر ،
وعبر عما تمكن في باطنه من الحقد على دأده ، فلا شك أن الملك
سوف يعلم أن كلامه جاء بدافع غرض فاسد شرير ، وأنه مشوب
بشائبة الحسد ، ولو أطلق - حيثئذ - سهماً من قوس التعنت فلن
يصيب هدفه .

وأخيراً افتتح داستان الكلام بالدعاء للملك ، ثم قال : إن من
كرايم عادات الملوك ومحاسن شيمهم منح العطايا ومنح العفو عن
الخطأ ، لأن استغناء الناس عن المال ممكن ، لكن الإنسان لا يتصف
بالعصمة الكلية عن الذنوب ، وخلاف محققى الشرع واسع في هذا
الأمر ويصل إلى أربع آلاف ومائة وعشرين نقطة ، وبرغم كمال
حالهم ربما يخرجون من هذه الدائرة وربما لا يخرجون .

فإذا كان دأده مجرمًا فاعترافه بجريمته سوغ شفاعتي له ،
فلو أسدل الملك ذيل العفو على عثراته ما بعد عن كمال الأريحية
وكرم السجية ، والكريم من عفا عن قدرة .

وعندما سمع الملك هذا الكلام علم أن داستان ليس له غرض
أو مقصود من هذا الكلام وهذه المقدمات سوى حسن السمعة للملك
وإشاعة ذكره بحسن السيرة ، وليعلم أن حماية جانب دأده فرع من
ذلك الأصل .

وبذلك روض داستان جموح طبيعة الملك ، وأمسك بزمام الاهتمام إلى جانبه وطأطأ رأسه ، فظل الملك فى موقف التردد والتحير وقتاً ، فعلم الذئب أن سكوت الملك دليل رضاه ببراءة دأدمه .
فوجب عليه أن يأخذ العدو الذى يقع بالضرب والركل ضربة قهر حتى لا ينهض ، ثم قال : إن الملك يعلم جيداً أن الناس سيئى الجوهر والطوية مثل الثعبان فى اللدغ ، والثعبان الذى يصير مؤذياً يجب أن تضرب رأسه ، وإلا فلا يمكن التوقى من سُمِّه الزعاف ،

وكم من قائلٍ إنى نصيحٌ وتأباه الخسلائقُ والرواءُ
واعلم ياداستان أن كل من أخفى جرم المذنبين عن السلطان ،
وأراد أن يجعل وجه حالهم بتزوير باطل تحت ستار تقرير الحق ، وأن
يبرز - مُموها على الناس - مقابحة فى لباس الزينة والمحاسن هو
خائن وغادر ومبادر إلى نبذ حقوق ولى نعمته .

فقال داستان : ليس كل من يتحدث فى أمر الذنب والتقصير
يكون ذنبه حقيراً ، لأن العاقل لا يعتذر عن فعل طيب مطلقاً ، ولا
يخجل شخص من فعل الخير ، وقد قال العقلاء : تنقسم كل الذنوب
الصادرة عن الناس إلى أربعة أقسام :

الأول : الزلة الثانى : التقصير

الثالث : الخيانة الرابع : المكروه

ولكل ذنب عقوبة لائقة ، ومكافأة معينة موافقة ، فعقوبة الزلة
العتاب وعقوبة التقصير الملامة ، وعقوبة الخيانة القيد والسجن ،
وعقوبة المكروه مكروه مثله كما نزل فى محكم تنزيله لا وكتبنا عليهم

فيها أن النفس بالنفس»^(١) الآية ، وجعل العفو والتجاوز زينة قواعد السياسة وجمل الحدود الشرعية بلباس هذه المجاملة ، لأنه قال « فمن تصدق به فهو كفارة له »^(٢) .

وذنوب دأده - من خلال هذه الأقسام - ليس سوى زلة ؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يكون معصوماً منها ، ومن ثم نقول : إن الملك لو يقتصر على هذا التأديب ، ويظهر زاوية الخاطر من غبار الكراهية ، فإنه يكون قد مضى على سنة كرام الملوك .

والعُلى مَحْظُورَةٌ إِلَّا عَلَى مَنْ بَنَى فَوْقَ بِنَاءِ السَّلَفِ
قال اللب : في شريعة السلطنة وعاداتها أن الملك يجب عليه إظهار التحرز والتوقى من كثير من أجناس البشر ، وتوقع الإيذاء منهم ، فإنسان يعزل من عمله دون جريرة ، وآخر يصادق عدوه ، وآخر يرى منفعته في خيانة الملك ، وآخر يطلب أن يكون له مكافأة على خدماته الكثيرة فلم يجد ، وآخر يفشى سر الملك بين غير المحارم . والآن : يجب أن يؤخذ دأده على مثل هذا الجرم ، وألا يعتمد ، فلن يأتى استعطافه بنفع .

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا^(٣)
قال داستان : إن دأده أجبر وخادم يخدم أملك ، ونديم قديم الخدمة ، وجليس المجلس وأنيس المحرم وأمينه ، وقد صدرت عنه سيئة

(١) المائة : ٤٥

(٢) المائة : ٤٥

(٣) هذا البيت للمتنبى من قصيدة له مطلعها :

لكل امرئ من دهره ما تعودا وعاده سيف الدولة الطعن فى العدا . المتنبى :

ديوانه بشرح البرقوقى ج ١ ص ١٩١

سهواً ، وقد أثبت كثيراً من حسنات الأعمال على صحيفة سجل
الطاعة والانقياد ، فلا ينبغي إلقاؤه بمثل هذه الصغائر في موطن اتكاء
الذل والصغار ، وقد جال القلم في مرضيات خدمته ومقتضيات طاعته ،
فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللاتى سررن ألوف^(١)
فلو يعفو الملك عن هذه الهفوات ، ويغمض عن الكرم عنها ،
فلا شك أن الرعية سيعرفون ذلك جيداً ، مما يجعل للملك فائدة الشاء
على كمال رأفته .

ثم التفت إلى الدب وقال : إننى أثبت اسمى فى سجل الشفعاء
« من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها »^(٢) ؛ لأننى « داستان »
فكن أنت أيضاً « داستان » ، ولا تعرض بالوقية لصاحب الواقعة ،
واشفع بتدبير شفاعتى وحديثى حتى لا تبقى بين مقتسمى هذه السعادة
بلا نصيب ، لأن فاعلى صفقة الخير جميعاً ليسوا خاسرين ، كما أن
القانعين لا يخيبون ألبته « إننا لا نضيع أجر من أحسن عملاً »^(٣)
وعندما وصل كلامهم إلى هذا الحد ؛ قال الملك : ارجعوا اليوم حتى
أنظر بعين الإمعان واليقن من أى وجوه المصلحة يمكن مباشرة ذلك ؟
فخرجوا ، وذهب داستان إلى باب القصر ، وتلا ما حدث على
مسامع دادمه ، ثم قال له : والآن : لا تغتم لأن ضوء صباح النجاح
قد بدأ يظهر ، وتباشير البشر على أسارير الملك تشعر بحصول الغرض ،

(١) البيت للمتنبى من مقطوعة له مطلعها :

ومتسب عندى إلى أن أحبه وللبل من يديه حيف المتنبى ، الديوان ج١ ص ٤٤٨

(٢) سورة النساء : ٨٥

(٣) سورة الكهف : ٣٠

فإذا جاءت عقدة تأخير للأمر ، أو عاقته عقبة ، وظل وجه المراد تحت ستار التعذر بسبب ما ، فلا ينبغي أن ييأس ،

فإذا كان الحال أكثر حلكة من ذلك ، فسيكون أمل القلب هو الضياء
فلا تنظر إلى الليل الذي يجعل ذلك الزمان أكثر حلكة لأنه سيكون نهراً^(١)

فقال دادمه : لم أرد أن تتحدث في أمرى ، فى أيام انقلاب الحال وزمن اضطراب الأمور ورواج سوق نفاق الخصم ، أو أن تشجع فى المجاهرة بأمرى معه ، لأن وقع الكلام السيئ فى حق الرجل الشجاع يؤثر مثل تعبير الرؤيا السيئة فى أحوال أرباب المحنة ، فيجب على الرجل العالم أن يجلس ساكناً فى موضعه فى وقت الإبتلاء مثل القطب الذى يتأمل حركة هذه الطاحونة^(٢) وهى تطحن الناس حتى يتم خلاص كوكب السعادة من ظلمة كسوف ؟ الأدباء ، فيستريح من زمن سوء الحظ مثلما فعل بزور جمهر مع كسرى ، فقال داستان كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية بزور جمهر مع كسرى

قال دادمه : سمعت أن كسرى تنزه ذات يوم مع بزور جمهر فى بستان قصره وجلسا على حافة حوض يتأملان بطاً يعوم على صفحة الماء اللامع ، كل بطة على شكل زورق فضى .

(١) البستان من قطعة للخاقانى راجع ديوان خاقانى ، چاپ دكتور سجادی ص ٨٦٥

(٢) يقصد الدنيا .

واحدة كانت تلقى بنفسها إلى الشاطئ بواسطة كف رجلها مثل الملاح ، وواحدة مثل اللاعبين المهرة الذين يتعلقون فى سلم الهواء على سطح دجلة ، ثم يقفزون على رؤوسهم فى الماء ، وواحدة تغتسل غسل جنابة السفاد من اخمص القدم حتى أعلى الساق ، وواحدة تتوضأ لرفع حدث الملامسة وأحياناً يفرشون السجادة على الماء ثم يصلون - مثل الزهاد - أمام كسرى ، وأحياناً أخرى يضربون بأجنحتهم على الماء فيحدثون فقاعات مثل غاسلى الملابس الذين يغسلون لباس البحر ، وأحياناً يلقون بدرع الغدير على شكل الغدائر المعتبرة ، والمسلسلة حلقة فى حلقة وعقدة فى عقدة .

وكان كسرى يلبس خاتماً من الذهب الثمين فى يده ، ويلعب به دائماً . ذلك الخاتم المرجانى الذى لم يضع الكون مثله فى حقّة فم أى معضوق ، وهو اللؤلؤة التى لم يلف الزمان مثلها بأهداب أى عاشق ، ولم تر عين أى نرجسة برداً مثله ، ولم يرب رحم أى صدف سلالة مثله .

فوقع الخاتم أثناء الاستغراق فى هذه الحالة ، فالتقطته بطة بمنقارها وابتلعتة ، وكان بزور جمهر يشاهد ذلك ويخفيه ، إلى أن ذهب كسرى إلى بيت خلوته ، ثم جاء بزور جمهر على مهل .

تذكر كسرى ذلك الخاتم فأرسل رجلاً معتمداً ، حتى يبحث بجد بليغ فى ذلك الموضع ، فبحث الرجل كثيراً فلم يجد شيئاً . وكان كسرى يخشى من تغابن تضييعه أن ينفرد السلك المنظوم بالجواهر فى عينه دموعاً .

فأحضر بزور جمهر وسأله : كيف يعود ذلك الدرُّ اليتيم إلى اليد؟
ومثل هذا الدر اليتيم لا يضيعه الله ، لكننى الآن حزين القلب على
ضياعه فما علاج هذا الأمر ؟

وكان بزور جمهر يرى بحكم ذلك أن طالع الملك فى ذلك الوقت
موبلاً ونحوس الكواكب ناظرة إليه بنظر العداوة ففكر فى نفسه : أنه
لا يمكن الإشارة إلى بطة بعينها من بين ذلك البط المشتبه فيه الذى
يصل عدده إلى الألفين .

ولو قلت على سبيل الإجمال : إن الخاتم فى بطن واحدة من
البط ، أخشى أن يؤخر تأثير الطالع السيئ إصابة الحكم حتى يذبح بط
كثير فإذا لم يجد الخاتم ، يغضب كسرى ، وينسبني إلى الجهل أو
الخيانة . وأمضى بزور جمهر ذلك اليوم فى التفكير ، ولم يقل شيئاً ،
وعندما خرج كوكب الإقبال والسعد عن الوبال ، وصار الطالع معه
كما كان يرغب ،

السم فى كأسه صار سكرًا ، والحجر فى يده صار جوهراً

ثم أسرع إلى بلاط كسرى وقال : - ليكن جواهر سيف الملك
منيراً لليل حوادث الأيام دائماً . إننى أرى اليوم بشعاع ملوكيتك فى
مرآة فراستى أن الخاتم فى بطن واحدة من هذا البط ؛ لأنهم جميعاً
طلبوا الخاتم مثل الغواصين وكانوا يجوبون أطراف الحوض . فلو يأمر
الملك أن تذبح عدة بطات يمكن للخاتم أن يؤدى ديتهم بعد مدة .

وبحكم الأمر ذبحوا أول بطة فوجدوا الخاتم فى درج حوصلتها
فأخرجوه بطرف السكين ، وبعد عدة قطرات من الدم الأحمر السيل
والياقوت المذاب ، نزل الخاتم كقطرة ماء خلالها ، ووسط هذا الدهول
سأل كسرى بزور جمهر : لم لم تخبر بهذا الأمر أسرع من هذا ؟

فقال بزور جمهر لم أكن أرى سعادة الطالع على طريق المساعدة
ففكرت فى أننى لو قلت لخلط مشعوذ الأراضين السبع هذا الجواهر
بزبرجد النهار مع سبج الليل ، فيخفيه عن أعين الأوهام ، ويخرجه
بعيدا عن يد التصرف بالتزوير ، أما اليوم فإننى أجد أن إقبال الملك
معاون وموافق للأيام ، ومن ثم قلت هذا الأمر ، وهكذا حدث .

وَقَدْ يُوَافِقُ بَعْضُ الْمَنِيَةِ الْقَدْرَا

وقد قلت هذه الحكاية حتى لا تسعى فى شأنى بلا فائدة لأن أى
كلام يمكن أن يقال فى حضرة الملوك وله وقت خاص ، قال داستان :
إن تأثير الكلام فى النفوس الإنسانية يكون بحسب الاعتقاد ، فلو أنظر
فى قلب الملك ، وأرى أن قصده يتساوى مع عنايته بى « تعارضا تساقطا »^(١)
وكانت كفة مقصودى غير راجحة ولا مرجوحة فى ميزان التجربة .

وَكَانَ كَفَافًا لَا عَلَى وَلَا لِيَا

فإذا كان فى بادئ الأمر صلباً ، ولم يلن بالكلام المبين والحديث
الحاسم فلا أقل من ألا يزيد فى غلظته .

(١) إشارة إلى القاعدة الأصولية الشهيرة : الشيشان إذا تعارضا تساقطا كل شىء يرجع
إلى أصله . راجع د . مهدى محقق ص ٢٣

وفى اليوم التالى : أخرج هذا اليوسفى الوجه العلوى النسب رأسه من مغارة سجن بيت الظلمة ليرى القمر مع الكواكب فى سجدة تقرب من أجل اقتباس النور منه . فأحياناً يدنو بهاء جماله من برج الميزان وأحياناً تبدو درجة كماله فى ارتفاع برج الدلو .

وذهب داستان من أمام بيت السجن إلى بلاط الملك لاستخلاص دأدمه . فقبل أرض الخدمة ، ورفع يد الدعاء إلى السماء وقال : «الصادق يرام إذا وعد والبارق يشام إذا رعد » . لقد جددت أفس - أنا العبد - حديث ذلك العبد القديم فى الخدمة ، وأنا أجد نضارة الملك دليلاً واضحاً على عفوه ، نلو يوفى اليوم بهذا الأمل ، ويوفى بحق عبوديته من ذمة كرمه يكون ق أحيا سنة كرام الأسلاف ، وأذاع صيت كرم الأعراق ولطف الأخلاق فى الأطراف والآفاق ، وطيب المسامع بطيب محامد الأوصاف، ولو لم تكن واسطة جريمة المجرمين؛ فكيف تظهر فضيلة العفو ؟

لولا اشتعال النار فيها جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود
وسعد روحاً من قال :

إن الزيت المصرى والمسك التبتى مزكى للشعبان ومطيب للرائحة الكريهة دائماً .

وعندما سمع الدب هذا الكلام ، اشتعلت نار البغض فى داخله ، وأمسك بقارورة القدح فى كلام داستان وقال : كل من يعلم أن جرم الرعية حقير لا يعلم أن عفو الملك عظيم ، وكل من يعد الأثيم برئ الساحة لا يعلم حق تجاوز الملك ، وأنكرت هذه الوقاحة بشدة وقال : ليس بأول قارورة كسرت ، إن التقصير والجريمة والإثم والندامة يأتى

جميعها فى حق الأتباع . وقبولها وإجابتها جميعاً متوقع من العظماء دون إصرار أو شرط لكن حديثكم قد انتهى بالتطويل فى النزاع والدفاع ، وضيقتهم مجال التطويل ، وما دام الكلام يأتى عار من ستر الحياء والخجل ، فإن وجه الحقيقة سيظل مغطى لغرض ما ؛ ثم تسرى نار الحسد من بواطنكم إلى ساحة الملك والدولة ، ولكنه سوف يتعد عن معاداتكم ومواجهتكم لغرض خاص ، لأن الفتنة العامة ستصل إلى أدنى الولاية وأقصاها ، إن داستان برغم أنه يحفظ جانب الأصدقاء فى هذه الأحاديث ، وهذه أفضل الخصال وأشرف خلال الرجال إلا أنه يريد من وراء هذه المعانى اقتناء دخائر السيرة الحسنة ، واجتناء ثمرات حسن حفاظنا . فلو يعاقب كل خادم بكل خطيئة تأتى منه فسوف تنتهى عادة خدمة الخادم للمخدوم من الدنيا .

فلو أَخَذَ اللهُ الْعِبَادَ بِذُنُوبِهِمْ أَعَدَّ لَهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ جَهَنَّمَا وليس هنالك من شبهة فى أن لك هدفاً من هذه الكلمات الموحشة فى حق دامة ، وهو ألا تتقدم بقية طوائف الخدم الأخرى عن طريق الجسارة إلا بحسن الأدب ولا يتجرأون على ارتكاب الجرائم ، ويمسكون اللسان عن البحث فى المعاييب ؛ لأن النفس الآدمية هى منبع المعاييب ومنشأها . والآن يجب عليك الابتعاد عن المشاحنة والمداهنة وترك التملق والتزوير والمراوغة وقول العيب كذلك .

وحقيقة العلم هى أنه لو لم يكن لدوران الفلك وسير الأنجم اتفاق آخر باختلاف الرجوع والاستقامة التى تعتمد عليها ، ولو لم يكن لقلم المشترى وعطارده لسان واحد ، ولو لم يتسع نطع واحد

لسيف كل من الشمس والمريخ ، ولو لم يتوافق التراب مع الماء ، ولو لم يلتزم الهواء بمكانه بعيداً عن حزام سرج النار ما وصلت صنعة الخلق إلى درجة الكمال ، وما انتظم سلك هذا النظام ، وما شيدت الأرض والسماء مثلما جاء في نفى الشرك وإثبات الوحدانية ، قال تعالى « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »^(١) .

وعندما رأى الدبُّ عناية الملك بدادمه على هذا النحو نجعل من كل ما كان قد قاله له ، وأخذ في مسح أذن جريمة الطبع وعضُّ إصبع ندامة العقل . وجعل حديث الملك طريقاً للتسليم وأظهر من نفسه الاستسلام ، وشغل نفسه بتصويت الكلام وتذليله ، ونهض من أمام الملك تحت ستار لعب الخجلى . ثم ذهب إلى البيت وجلس متفكراً مغتماً . وعلم أن في خلاص دادمه ، والتجاسر الذى كان دائماً في مقصوده ، والعداوة التى كان قد أظهرها (أى الدب) وإخراج سر ضميره من ستار الكتمان على هذا النحو جرحاً لا التئام له . ومن ثم انطلق ذلك السهم من قبضة قوس الكفاية خطأ .

فقال فى نفسه : لو شرعت فى المصالحة بعد هذه المكاشحة لكان ذلك اضطراراً لا بساً لباس الاختيار، وتمحلاً فى الطبع قد أتى بتكلف، وتكملاً من عين الرضا^(٢) . فكيف يمكن تدارك هذه الواقعة ؟

(١) الانبياء : ٢٢

(٢) إشارة إلى قول الإمام الشافعى رضى الله عنه :

وعين الرضا عن كل عين كليله ولكن عين السخط تبدي المساويا .

أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى ، تحقيق محمد عبد الرحمن عوض ص ٣٢

ط دار الكتب العلمية سنة ١٩٨٤م

وكان له أرنب صديق يدعى « فرخ زاد » مشهور بفطانة الذهن ورزانة الرأي ، عالم بالأمور ودستور في بعد النظر ، وكان مقصد الأصدقاء والأحباء المحتاجين ، وكان ابن بجدة^(١) الرشيد والكياسة والحدس والفراسة في أبناء جنسه ، فذهب إليه بهذه الحالة من الذعر ، وعندما دخل الأرنب من باب بيته وجد الدب مضطرباً بهذه الصفة ، ملتهباً في نار الهم والغم - فسأله : ما هذا الاضطراب ؟ وما موجب وجود عقد العبوس على الجبهة ؟

فحكى الدب له الحال وما حدث ، وأخرج من قلبه نفثة المصدور التي تكون من ودائع صدور الأحرار .

فقال فرخ زاد : كل من يشرب من كأس الدنيا الغرورة لا ينظر إلى عاقبة الأمور ، ولا يتذكر المخرج في بداية الفكرة . ودائماً ما يكون مشتت القلب مختلط الذهن مضطرباً في الأمور ، فلا يكون منه أمر حسن ، لقد فكرت أن رأى الملك في « دادمه » يقبل تغييراً ، وأنه سقط السقطة التي لن ينهض بعدها ، لكن وقيعتك لم تحظ بالقبول « وهيئات استسمنت الورم ونفخت في غير ضرم » . وليس هنالك حسرة ، والرأى هو أن الإنسان لا يصل إلى الناس من خلال فعله ، فالمرء حسن الرأي ، المعنى الفكرة ذكى القلب سليم الفطرة عندما لا يرى اشتغال الكلام على منفعة محضة يصمت عن الحديث ، ويعلم أن الامتناع عنه واجب إذا علم أن فيه مضرّة ممكنة الوقوع ،

(١) أى عالم بالرشد ويقال أيضاً هو ابن مدينتها وابن بجنتها من مدّن بالمكان ويجد ؛ إذا أقام . ويقال : البجدة : التراب : فكان قولهم أنا ابن بجنتها ، أنا مخلوق من ترابها . الميداني مجمع الأمثال ج ١ ص ٣٤

دون أن يعلم ضرورة تحمله على عدم الامتناع ولا يوقع نفسه فى تحمل أعباء ذلك الكلام « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »^(١) .

والعاقل هو الذى لا يفضل العدواة على الصداقة ولا يرجح العزلة على الألفة والرفقة . ولقد قالوا : ينبغى أن يكون العدو مثل الكرة البلورية التى توضع فى زجاجة ، ثم يخرجونها من وقت لآخر ينظفونها ويغسلونها ويفعلون كل ما فى وسعهم فى سبيل ذلك ، حتى يأتى اليوم الذى يرون فيه حجراً كبيراً متيناً ، فيضربون الكرة على ذلك الحجر ويحطمونها قطعاً صغيرة فلا يمكن تركيب أجزائها أو تأليفها .

فكل من يمسك بعنان جواد الهوى ويثبت القدم فى ركاب الصبر فإن قرين عاقبته هو السعادة والنشاط مثلما حدث مع ذلك التاجر فى زوجته . فقال الدب كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية التاجر مع زوجته

قال فرخ راد : سمعت أن تاجراً غنياً فى بلخ ، كان يكثر بثروتها - من كثرتها - خزائن البحر ومعادن البر ، وبعد فترة من الزمن تقهقر حاله عما كان عليه ، فراجع إلى الخلف وأنفق الموروث والمكتسب من ماله فى تتابع أحداث الزمن ، فصار حقيراً كالحال الوجه فى أعين أهل البيت والأصدقاء والأبناء ، وأصبح لا منزلة له ولا قدر .

(١) حديث صحيح أخرجه الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه راجع : ابن رجب الحنبلى : جامع العلوم والحكم ص ٩٧ ط دار نهر النيل د . ت

و ذات يوم استحسن الهجرة من الوطن ، فشدت أسباب الفقر والفاقة زمام ناقة نهضته صوب مقصد بعيد ، وذهب إلى مدينة في أقصى بلاد المغرب ، وأخذ معه رأس ماله إلى أن ذهبت الأيام بأثقاله ومتاعبه ، ورجع إليه الحظ ثانية ، ووصل بالنعم الوفيرة إلى الحظ الوفور الذى كان قد فر منه . وظهرت أسباب رجوعه إلى وطنه ومسقط رأسه .

ملأتُ يَدَي فاشتقتُ والشوقُ عادةً لكلَّ غريبٍ زَالَ عَنْ يَدِهِ الْفَقْرُ
فقال فى نفسه : كان هنالك حياء فى الرجوع قبل ذلك ، أما الآن فقد زالت هذه الموانع عن الطريق . والرأى هو أن أرجع إلى مدينتى والعيال التى كانت فى حوزتى لأنظر ، هل خاتم صيانتى ما زال موجوداً أم لا ؟

ولكن إذا رجعت بالعدة والأسباب والعبيد والدواب والأثقال والأحمال فذلك يشبه البستانى الذى اقتلع شجرة مثمرة وحملها بثمرها من مكان ليزرعها فى مكان آخر فيستحيل نمو هذه الشجرة أبداً ، ولا تنبت ولا تقبل الترشيح والتربية .

كدابغة وقد حلم الأديم^(١)

ومن ثم فالأولى أن أذهب بمفردى دون علائق وأنظر إلى أى طريق صار الأمر ؟ وماذا على أن أفعل ؟ ثم ابتدر الطريق وسار حتى وصل إلى مدينته ، وانتظر على أطرافها حتى تلونت مفارق الآفاق

(١) يضرب للأمر الذى انتهى فساد ، وذلك أن الجلد إذا حلم فليس بعده إصلاح ، ويرى هذا المثل عن الوليد بن عتبة حيث كتب إلى معاوية يقول له :

فإنك والكتاب إلى على كدابغة وقد حلم الأديم الميدانى : مجمع الأمثال جـ ٣ ص ٣٥

بسواد الليل ودخلها متوارياً متنكراً في حجاب الظلمة ، وعندما وصل إلى باب داره وجده موصداً ، فصعد إلى سطح المنزل من الطريق الذى ألفه ونظر من النافذة ، فوجد زوجته نائمة مع شاب آخر فى واحدة من أجمل ثياب النوم ، فسرت رعشة الحمية والإباء فى أعضاء وجوارح الرجل ، وجرح قلبه من مطالعة ذلك الحال جرحاً غائراً ، فأراد أن يستل السيف وينزل فيصنع من دميها مرهماً يعالج به جرحه ، لكنه - مرة أخرى - أخذ عنان التملك فى يد الكفاية ، وقال فى نفسه : ليس من شروط العقل أن يكون الإنسان أسير نفسه وهواه حتى يفكر أولاً فى تحقيق هذا الحال . فلربما أخبروا بوفاتى بسبب طول غيبتى ، فأمر قاضى الزمان بنكاح زوج آخر بسبب قلة ذات اليد وعلة الإعسار^(١) .

ثم نزل من هناك وطرق باب الجار ، ففتحوا له الباب ، فدخل وقال لهم إننى رجل غريب ، قادم من مكان بعيد ، وهذه الدار المغلقة كانت لتاجر غنى جداً ، وكان يستقبل الغرباء ويحسن إليهم وكنت أنزل إليه هنا كل وقت فأين هو ؟ وكيف حاله ؟

فحكى الجار واقع الحال فكان الأمر كما ظن ، فراجع تفكيره من لوح التقدير الصحيح ، وأدى شكر الله تعالى على صبره ، وقال الحمد لله الذى لم يحول ويال هذه الأفعال السيئة من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل^(٢) وربط عقل عقل يد تصرف الطبع .

(١) إشارة إلى القانون التقيى فى باب الطلاق وهو : أنه إذا طالت غيبة الزوج ، ولم يصل خبر عنه أو بعث بنفقة إلى زوجته ، يحق للحاكم أن يطلقها إذا طلبت .

د . مهدي محقق ص ٢٤

(٢) إشارة إلى فكرة الوجود بالقوة والوجود بالفعل وهى فكرة فلسفية بالمعنى العام .

د . مهدي محقق ص ١٧

وقد قلت : هذه الحكاية حتى تعلم أن العجلة من عمل الشيطان
وأن عدم الصبر من باب الجهل .

فقال الدب لابد من فعل الشيء الذى لا مجال لتأخيره أو تعليقه
قبل أن يخرج الأمر عن حد التدارك .

قال فرخ زاد : وهو أن تدخل مع دادمه فى باب المصالحة وأن
تترك باب المكاشحة والمقاطعة ، وتقابل نفى غبار التهمة بخفض
جناح الذل^(١) وتشغل نفسك باستمالة الخاطر ومحو فساد ذات البين
الذى حدث بين الجانبين فذهب فرخ زاد من هناك إلى بيت داستان ،
وطلب منه أن يداوى جرح القلب الذى كان قد أصابه بسبب دادمه ،
وسأل عنه (أى عن دادمه) بحرارة ، ثم ذكر بعض الكلمات الطيبة
والسيئة والناعمة والخشنة ، بعضها سبب الوحشة والآخر سبب الألفة ،
هذه الكلمات هى التى كانت قد حدثت بينه وبين الذئب ثم وضع
أمامهما قطع العذر والعتاب التى هى أحلى من قطع السكر ، كما
لقى بلسان ذرب النكات اللطيفة التى كانت مثل حب البندق الذى
يكسره كل منهما للآخر . وكان يخرج لباب كل من البندق والنكات ،
ويبتزغ الفائدة التى تزين كلام ذوى الألباب وأظهرها فى كل باب ثم
صنع المعجون الذى لو كان الدب قد ابتلعه بصعوبة لعاد حال مزاجه
مع دادمه إلى الصلاح . ثم ذهب من هناك إلى باب السجن فأنس
دادمه ساعة بلطائف التحايا والسؤال عن أحواله الماضية ، وقال إن
السبب فى عدم مجيئى إلى حضرتك حتى هذا الوقت هو أننى أعلم
أن رؤية الأصدقاء فى قيد البلاء ، ومشاهدتهم فى حبس الآفة أمر

(١) إشارة إلى قوله تعالى «واخفض لهما جناح الذل من الرحمة...» الإسراء : ٢٤

صعب. ولم يكن في مقدوري أن أضع قدماً لسعى جدير باستخلاصهم ، لكن الجميع يعلم أنني لم أكن خالياً أبداً من صفاء النية وصرف الهمة إلى أمرك ، ولما كانت اليد لا تصل إلا إلى الدعاء رفعتها إلى الله تعالى ، ولم أترك مقدار شعرة واحدة من دقائق الإخلاص ظاهراً وباطناً . ومن ثم فقد ظهر الآن نور صبح الأمل .
 يمين همة الأصدقاء المخلصين ، وامتدا ظل مساعدة الحظ وأتى الملك بكبير عفوه .

أما أنت فلا تحزن بسبب إصابة هذا المكروه ، حتى لا يستمر غبار العار دثار وشعار أحوالك بسبب هذه الحادثة .

فَلَا تَجْزَعَنَّ لِلْكَبْلِ مَسْكَ وَقَعُهَا فَإِنْ خَلَاخِيلَ الرُّجَالِ كُبُولُ^(١)

وقد قيل : إذا وصلت الآفة إلى المال فاشكر حتى لا تصل إلى البدن ، وإذا وصلت البدن فاشكر حتى لا تصل إلى الروح « فإن في الشر خياراً »^(٢) .

فقال دادمه : إن العقوبة متعقبة للجناية ، والجاني مستحق للعقوبة ، وكان من يعيش مستبداً مفتخراً بنفسه ، يلفت وجهه عن استمداد مشاورة المشفقين الناصحين والرفقاء الصالحين لا تأتي له الأيام إلا بالفشل .

(١) البيت للطغرائي من لاميته المشهورة انظر الطغرائي : الديوان ص ٤٥

(٢) ورد في مجمع الأمثال : « بعض الشر أهون من بعض » وهذا من قول طرفة بن

العبد حين أمر النعمان بقتله ، فقال :

أبا منذر أفنيت فاستيق بعضنا حنائيك بعض الشر أهون من بعض

يضرب عند ظهور الشرين بينهما تفاوت . وهذا كقولهم « إن من الشر خياراً » .

الميداني : مجمع الأمثال : ، ج ١ ص ١٦٤

قال فرخ زاد : لو أن الدب قد ألقى ببعض الكلمات غير الموافقة لرأينا في حضرة الملك ، يجب أن يُعلم أن المقصود من ذلك ما هو إلا استعمال الرأي وفق المصلحة والاسترسال مع طبع الملك الذي قد لا يكون من واجبات أحواله . وعندما وجده الدب متغيراً متنقراً من جانبك فلو كان قد ذهب بمناقضة قوله ومعارضته لكان هذا بعيداً عن قضية العقل . فطريق إلقاء الكلام له سمات خاصة ونسق منفصل على حده . فلو كان اللسان الطلق والقلب الجريئ مساعداً لمجارى تلك المكاملة فيجب أن يكون وقت تمشية الأمور - وبخاصة التي على خلاف الإرادة - موافقاً له ، ويكتال ببعض كيله .

ولو كان هو كل الريح ، وقوله تعالى « وجادلهم بالتى هى أحسن »^(١) إشارة إلى مثل هذا المقام ، وعندما هدأت ثورة غضب الملك وصار مستريحاً عن ذى قبل ، وجرت على اللسان الكلمة التى كانت لائقة لسيرته الحميدة وخلقه الكريم ، وكان يراعى فى حضرته شرائط حفظ الغيبة التى تنهض بين قضايا الفتوة والمروءة فى خلعة جميلة وحلية لائقة . وقد جاء هذا مستدعياً لمزيد من الشفقة والرحمة . فيجب أن تظهر قلبك من غبار العداوة والحقد ، كما يجب أن تبعد قاذورات الكدرة عن مشروع المعاملة .

اقبل معاذير من يأتيك معتذراً إن برّ عندك فيما قال أو فجراً حتى تحل عقدة التعسر دفعة واحدة عن الأمر ببركة الإخلاص

(١) النحل : ١٢٥

ويمن الصفاء . فبعث فيه فصلاً حاراً من هذا القبيل ، وأظهر الاستعطاف الذى هز أعطاف محبته ، ثم قال : يا فرخ زاد :
والله إن الذى يرى وجهك فى طلعة الصبح يومه مبارك .

علم الله أننى استرحت من كل الأدواء المبرحة عندما وقعت عيني على مثل هذا اللقاء ، وصرت مستأنساً برؤيتك الكريمة فى بيت الوحشة (هذا) ومكان الهم ، ووجدت الراحة فى لطف هذه المحاورة وسعادة هذه المجاورة ولا شك أن كل ما قاله على لائق للحال ومناسب للمقام .

ولم يكن من الممكن الحصول على طرف الخيط إلا بهذا الرفق ، ولم يكن من الممكن كذلك إطفاء نيران غضبه إلا بمياه هذه اللطافة ، وأنت لست محتاجاً إلى إدلاء أى عذر فأنت معذور فى كل ما قلت ومشكور عليه ، ومذكور على لسان العقل . وباختصار « هدنة على دخن » ، فجدد عهد المصادقة . ثم ذهبنا من هناك إلى الملك متفقين ، واطلقا لسان الموافقة والإخلاص لخلاصه ، فوقف الملك على صفاء عقائدهما ، وأنهما لا يريدان سوى الذكر الطيب وإشاعة ذكر المخدم بالحلم والرحمة وإذاعة حسن سيرته ، وأنهما لا يبحثان إلا عن ترغيب وتقريب الخدم على طريق الطاعة والخدمة .

فأمر بتخليص دادمه ، فخرج وذهب إلى بلاط الخدمة ، وقبل عتبته بشقة الاستكانة على عادة المقهورين ، ومثل مع أقرانه وأمثاله على عتبة الطاعة منكس الرأس خجلاً . وعندما نظر الملك إلى ملامح وجهه علم أن سبيكة فطرته قد وصلت إلى العيار التام بذلك الخلاص من الحبس ، ولم يبق منها شئ من غائلة الغش والغل ، وأنه قد قبل

التأديب والتهذيب ، وأنه قد بدل السفاهة بالنباهة .

وقد يستقيمُ المرءُ فيما ينوُّهُ كما يستقيمُ العودُ من عَرَكَ أذنه

إن الطين قد قاسى كثيراً وسط البوتقة ، حتى صار في النهاية يدفع الصداق عن الرأس^(١)

وأخذ داستان - بأمر الملك - بيد دادمه ، وأوصله إلى يد التقييل ، فأبدى الملك عاطفة ملوكية ، وأمر - متلطفاً - أن يفتح له طريق الانبساط أمام بساط الخدمة ، ثم قال : لقد سترنا ذنبه بستر الكرامة ، وعفونا عما قال وفعل ، واتبعنا هذه الحال قوله تعالى « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين »^(٢) حتى يكون هو وبقية الحاضرين - فيما بعد - متبهمين حاضري النفس ، يعرفون مواضع الكلم ومواطني القدم ، وأن يتكلموا بالكلام الذي يلقي القبول وليس الذي يلقي بالجهد والتعب على أسماع وطباع المستمعين مثلما حدث لنديم من ندماء ملك الهند ، فقال الحاضرون : لو سمح الملك يقص تلك القصة حتى نستفيد من عظمتها .

(١) البيت للخاقاني من قصيدة مشهورة في رثاء الإمام محمد بن يحيى وحادثة حبس سنجر في فتنه الغز .

الخاقاني ، الديوان ط دكتور مجادي ص ١٥٧

(٢) الشعراء : ٢١٥

حكاية ملك الهند مع النديم

قال الملك : سمعت أن ملك الهند كان له نديم ماهر عالم ،
ذرب اللسان ، فكان يكيل الدر على ذيل الزمان وقت المحاورة ،
وكان يملأ ظرف الزمان والمكان^(١) كليهما بظرافة طبعه ، وكان خفيف
الروح محبوباً يدخل في ستر جميع القلوب مثل حبة القلب ، وكانوا
يجعلون له مكاناً في جميع الأعين للجلوس مثل إنسان العين .

و ذات يوم جرى على لسانه وسط النوار والاعاجيب (قوله)
إنني رأيت طائراً أكلأ للنار ، يأكل الحجر الملتهب ، والحديد المذاب ،
فلم يصدق ندماء المجلس وجلساء الحضرة جميعاً هذا الكلام . واطلق
الجميع اللسان بتكذيبه ، وكلما أظهر يبراهين العقل ودلائل العلم
جواز هذا المعنى لم يقتنعوا . وعندما كان يحاول مع الخاصة ، أن كل
ما هو من سر الخواص والطبائع في الجواهر والحيوانات مستودع من
الخلق لا يعرفه أحد سوى واهب الصور وخالق المواد وكل من يفرق
بين الممكن والمحال حتى لو عجز خياله عن تصور هذا المعنى ،
فإن عقله ينقش على لوح الوجود ، إن هذه التقارير لا تفيد .

ثم فكر في نفسه قائلاً : إن حجاب هذه الشبهة لا يمكن دفعه من
أمام عين هؤلاء القوم إلا بالمشاهدة الحسية . فخرج في هذا الوقت من
مجلس الملك ، واتخذ صوب بغداد ، وكان يسجل - لمدة طويلة -

(١) إشارة إلى ظرفي الزمان والمكان ، يقول ابن مالك :
الظرف وقت أو مكان ضمناً في باطراد كهنا امكث أرمتنا
د . مهدي محقق ص ٢٤

المنارل والمراحل ، وىصبر على المخاوف والمهالك ، حتى وصل إلى ذلك المكان الذى وجد فيه حيوانا { مثل الجمل والطائر فاصطحبه معه فى سفينة ، وانصرف تجاه إقلىم الهند ، وعاد يرافقه توفىق السعادة فى طريقه حتى وصل إلى بلاط الملك فى رحاب السلامة ، فأخبر الملك بمجىئه فأمر أن يحضر إله ، وعندما أتى الندىم إلى خدمته أدى رسوم الدعاء والثناء ، فسأله الملك : ما سبب غىتك الطويلة ؟ فقال : فى اليوم الفلانى قصصت فى الحضرة حكاية أننى قد رأيت طائراً أكلاً للنار فلم يصدقونى ، وظهر منهم استنكار بلىغ ، فلم أرد أن أكون مهذاراً ، قائلاً للهراء ، ساذجاً ، ولم أرد أن ألوث ذىل أحوالى بقدر الهذر ، فیندرج اسمى فى جملة أسماء قائلى الكذب لأنهم قالوا : إياك وأن تكون لكذب داعياً وراوياً فإنه يضرك حين ترى أنه ینفعك فقامت وذهبت إلى بغداد حتى وصلت إلى المقصد فى حضرة إقبال الملك ومدد هممه ، ثم عدت بالمقصود ، وأحضرت عدداً من الطيور آكلة النار حتى يروا بالعیان ما سمعوه منى بالخبر ، وحتى یقرأوا على سبورة حس البصر النقش الذى لم یرتسم على مرآة عقولهم . فقال الملك إن من كان مزیناً بزينة العقل وظل العلم لا یقول إلا صدقاً ؛ لكن الكلام الذى اضاع سنة فى إثباته كان الأولى ألا یقال .

وقد قلت هذه الحكاية حتى یتوفر الأشخاص الذين هم خاصة خواص مجلس الملوك على دأب آداب الخدمة ، وأن یكونوا مستیقظین عن التعثر فى أذیال الهفوات .

انتهى باب «دادمه وداستان» وبعد هذا نذكر باب «زیرك وزروى»

ونبين فيه أنه عندما يوصل أحد شخصاً إلى علو الهمة ويرفعه إلى
سماء العظمة والجلال من قاع السفالة ، ويكون زمام الإرادة بيد كفايته
وسياسته ، ويضع التاج والعظمة على نجم إقباله لا بد وأن يحمل وجه
ترقيه في أمره ، ويضع التوقي من الموانع أمامه ، ونبين ماهية ذلك ،
وما هو طريقه ، وما هو سبيل تسويته ، والله الموفق للرشاد في
المعاش والمعاد ، ليجعل الله - عز اسمه وتعالى - جميع أقدام جاه
وجلال الملك - سيد العالم - في مراقى المنزلة العالية ، وليجعل طراز
مفاخره ومآثره باقية على كم الدين والدولة بمحمد وآله الأطيبين
الأكرمين .

الباب السادس
فيما كان من أمر
« زيرك وزروي »

فيما كان من أمر « زيرك وزروى »

قال الأمير : سمعت أن راعياً كان لديه قطيع من الغنم ، وجعل قائد القطيع تيساً يدعى « زروى » وكانت الشراسة المفرطة تغلب على خلق هذا التيس ، فكان يجرح خروفاً كل يوم ، كما يلحق الضرر بالجمال والخراف الصغيرة حتى تعب الراعى منه وقال فى نفسه : من الأفضل أن أستفيد من « زروى » بدلاً من هذا الضرر . فحمله إلى السوق حتى يبيعه .

نظر « زروى » فرأى من بعيد قصاباً سمج الصورة ، رث الثياب ، يمسك بيده سكيناً ، ويتمنطق بحبل ففكر « زروى » فى نفسه قائلاً : إن هذا الرجل سبب هلاكى وسوف يأتى من أجل ذبحى . ومع أنهم قالوا : إن الظن يخطئ ويصيب « فلا بد أن أقف بقدم الثبات وأتمالك نفسى حتى أرى ماذا يحدث » .

وعندما غلب الخوف والخشية على قلب الجدى ^(١) ، تصلب فى مكانه وعجز عن الحركة . وصل القصاب عنده واشتراه ، وطرحه أرضاً وأحكم وثاقه وذهب فى طلب « المسن » ^(٢) فى الدكان .

ففكر « زروى » فى نفسه قائلاً : ليس هذا بمقام صبر ، ولسوف أفعل كل ما يتسع له جهدى ، فإن تخلصت من هذه القيود ولنجوت

(١) فى الأصل « الرجل » وقد تمثلت فى ذلك خاصية تناسى الرموز .

(٢) المسن : حجر تزن عليه السكين عند ذبح الذبيحة .

فهو المراد ، ولو صرت أسيراً مرة أخرى وشُنقت فهذه الحالة هي الكائنة الآن .

أنا الغريقُ فما خَوْفِي من البَلَلِ (١)

وكان يضرب بيده ورجله بكل قوة ممكنة من هول الواقعة وخوف الروح ، ولسان النصيحة ينادى فى أذن قلبه :

اضرب بيدك وقدمك كالضفدعة فى هذا البحر الذى لا ساحل له
فأى علم لك بالقفز ؟ (٢)

وفى النهاية تمزق الجبل ، ونجت الروح التى كانت معلقة على شعرة واحدة ، وانطلق الجدى انطلاق السهم من القوس ، والطائر من الشراك ، والقصاب يجرى فى إثره . وكانت هناك حديقة مجاورة للقصاب وملاصقة لبيته ، وكانت زوجته « حاشا لمن يسمع » لها علاقة مع بستانى الحديقة ، وكانا يلتقيان فيها كلما وجدا المكان خالياً ، وسنحت لهما الفرصة ، وقد حدث اللقاء مصادفة فى ذلك اليوم .

وعندما وصل « زروى » إلى باب الحديقة ، ضربه بقرنه خشية بطش القصاب ، واندفع من تلك الناحية الأخرى ودخل الحديقة ، والخصم فى إثره ويده السكين .

وفجأة وجد زوجته مع البستانى ، وعندما وقعت عيناها عليه

(١) هذا الشطر من بيت للمتنبى فى قصيدة يمدح بها سيف الدولة ، والبيت هو :

والهجر أقتل لى بما أراقبه أنا الغريق فما خوفي من البلل

(٤) البيت لسنانى الغزنوى ، سنائى الحديقة ص ٤٨٧ المتنبى - الديوان ، ج ٢ ، ص ٦٥

ظنا أنه كان يعلم بحال اجتماعهما ، وجاء للمقاتلة ، فاشتبك
القصاب مع البستاني ونهض الناس من كل جانب للصراع والمشغلة .
فخرج « زروى » فى ذلك الوسط من فتحة الفرج ونجا بروحه .
مصائب قوم عند قوم فوائد^(١)

وفى نهاية الأمر خرج من البستان إلى الصحراء ، واستلقى فى
حماية غار إلى أن أسندت الشمس ظهرها إلى جدار المغرب (بعيدا)
عن هذا السقف الأزرق ، وضربت الخيمة الحيرية السوداء بأوتاد
الطالع والغارب على رأس سكان العالم . فخرج « زروى » من الغار
ليطلب عوناً . وكان ينظر فى كل ناحية ويتنسم رائحة الراحة ، حتى
وصل إلى مسامعه صوت كلب ، فقال « زروى » : إن الكلب كان
رابع ثلاثة أو خامس أربعة لأصحاب الكهف^(٢) وسيكون لى ثانى
اثنين فى هذا الغار^(٣) لكن صوت الكلب هو دليل العمران ، وخراب
أمرى من هذا العمران . ثم ذهب ناحية صوت الكلب ، وكان الكلب
يقرب ، حتى التقيا ، وعندما وصل القرينان الموافقان والصديقان
المشفقان إلى معهد الوصال ومشهد المشاهدة بعد استمرار عهد الفراق ؛
تبادلا التحية والسلام ثم قال زروى : بما أنه لا يوجد سابق صحبة أو
مقدمة معرفة ؛ تفضل بتعريف نفسك : من أنت ؟ ومن أين أتيت ؟

(١) هذا الصراع من بيت للمتنبى فى قصيدة يمدح بها سيف الدولة والبيت هو :
بلدا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم ، عند قوم فوائد

المتنبى : الديوان ج ١ ص ١٨٣

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : « سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم
... الكهف / ٢٢

(٣) إشارة إلى قوله تعالى « إذ أخرجه اثنين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ... » . التوبة / ٤٠

فقال الكلب : اسمى «زيرك» قد تخلفت عن القطيع الذى كنت
أحرسه ، وابتعدت عنه ، وأنا أبحث الآن عنه حتى أعرف أين هو ؟
فنى زروى بمقابلته المعاناة التى عاناها من الوحدة ، وارتاح من
فكر الخوف وأنواع الآفات .

فمن يأتِه من خائفٍ ينسى خوفه ومن يأتِه من جائعِ البطنِ يشبعُ
وقوى به ظهر الاستظهار ، وزادت الثقة بشفقته . ثم التفت
إليه وسأله : ماذا تريد أن تفعل ؟ وعلى أى شئ استقر رأيك المبارك ؟
وعلى أي أمر قصرت الهمة ؟

فقال « زيرك » عندما يحرقون حراقة الليل ويشعلون مشعلة النهار ،
سوف أكون هنا فى جوار صحبتك . وغداً أطوف حول هذه النواحي
حتى أجد القطيع وأمكث معهم ، وبعد إحماذ السرى ربما
أتلو : « العود أحمد » .

قال زروى : يا زيرك الألقاب تنزل من السماء ، بسبب الذكاء
سميت « زيرك » ولذا اشتهر اسمك بالذكاء ، ومن ثم فالأجدر بك
هو أن تفكر فى كل شئ وأن تكون ذكياً .

قضيت أعواماً وأفنيت العمر فى متابعة الراعى وحراسة القطيع ،
وحرمت على نفسك لذة النوم والراحة ليلاً ونهاراً ، وصرت بعيداً عن
مخالطة الناس ومصاحبتهم ؛ تقنع بكسرة خبز من الشعير التى تبقى
من الراعى ، وتأخذ لقمة مصحوبة بآلاف الصرخات ، ودائماً لا

تأكل لحماً بلا عظم الجفاء ولو ضربت برأسك كأسه يوماً لشج كأس
رأسك بالعصا الخشبية ، بل إنه يغسل الكأس سبع مرات بالماء من
نجاسة لعاب فمك ، ويطهره تماماً منه بالتراب الذى تدوسه بأقدامك .
فلماذا نزلت بلا إلمام ضرورة وإلجاء حاجة إلى هذا الهوان والمذلة ثم
استسلمت لهذه المعاناة والمشقة ، لا سيما وأنا أرى فى سيماء فرحك
دلائل على الرزق ومخايل الظفر والنصر فى كل مرادك .

ولم أر فى عيوب الناس شيئاً كَنَقْصِ القادرين على التَّمام (١)

والرأى هو أنك عندما تستطيع أن ترفع نفسك من مرتبة السفالة
إلى درجة العظمة ، وتصل بها من صف نعال الطاعة إلى صدر صفة
معطى الأوامر ، فلا ترضى بنذالة هذا المقام ، وانظر إلى مطامح الرفة ،
وضع دواعى الهمة على تلك القبضة التى تأخذ بزمام السلطنة على
السباع وسوائم هذه الصحراء .

ومن ثم فسوف أربط حزام التقدم لإعداد وتجهيز أسباب هذا الأمر ،
ولسوف أحل عقدة المشكلات وعروة معضلاتها بسحر المجاهدة ، مع
أنهم قالوا :

إِذَا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ قَلَّ الْمُسَاعِدُ (٢)

وسوف أرى العالمين - بعونك ومعاضدتك فى إتمام هذه المهمة -

(١) البيت للمتنبى من قصيدة مطلعها : ملومكما يجبل عن اللام
المتنبى : الديوان ج ٢ ص ٤٠٠

عيار التدبير والخبرة وثبات القدم فى طريق الخدمة وأداء الحق ، ذلك
لأننى سوف أكون دائماً - فى حجر حمايتكم وكنف كلاءتكم - آمن
السرب من شر الأعداء ، وسأعيش فى ظل شوكتكم وسطوتكم فارغ
البال من قصد الأشرار .

بِقَاوُكَ فِينَا نِعْمَةُ اللَّهِ عِنْدَنَا فنحنُ بأوفى شكره نستديمُها

فقال « ريرك » : لو أردت الحق ، نحن جعلنا جميع السباع
أعداء لنا بسبب الإفراط فى حبكم والتهوين فى قوتهم ، وقد رفعنا
من بيتنا الجنسية التى يسمونها علة الضم . وهكذا فلا يمكن أن يقوم
أي تكلف لمقام الانجذاب والاجتماع بيتنا .

أيها المنكحُ الثريا سهيلاً عمرك الله كيف يلتقيان
هى شاميةٌ إذا ما استقلتُ وسهيلٌ إذا استقل يمان

ولأن عادة الأسلاف السابقين كانت هكذا ، فنحن نستطيع أن
نضع أساس المحبة والعداوة على ستهم ورسمهم وعاداتهم . وحديث
« الحب يتوارث والبغض يتوارث » يأتى مفيداً فى هذا المقام . لكنه لا
يصح طلب السلطنة والسرور والتصدى لمثل هذا الأمر بدون مظاهره
الجيش والحشم ومعاضدة الخيل والخدم . ويحتاج هذا الأمر إلى عدة
كبيرة ومدة طويلة وعدد من الجيوش ، ومدد من الفضة والذهب .
وكلانا معسر قصير القامة . وكلانا مفلس بلا رأسمال ؛ لأننا لا نملك
فلساً من جميع أنواع الزينة والحلى السلطانية فى كيسه الاستظهار ،
فكيف نتمنى هذا ؟ !

مهما أنظر إلى الشمال واليمين ، فلست برجل غم بهذا القلب
الذي أحمله .

قال زروى : أحسنت ، وهذا رأى سديد يتم عن بعد نظرك
وغزارة علمك ، ويمكن معرفة كمال الاستعداد لديك على إعطاء
الأمر من هذا الكلام ، لكن المرء يطير بهمته كالطير يطير بجناحيه ،
فخلق بجناح الهمة لطلب أعالي الأمور ، لأنك ترى صقور الفلك
الذين هم حوامل هذا القفص الأزرق مسخرة في مخلب مرادك ،
وثبت قدم إقدامك على تحصيل وتسهيل هذا المرام حتى تظل مصاناً
من إذلال شيطان الضلالة ، وسوف يخرج مقصودنا من حيز الامتناع
ببذل المجهود ، وإننى سوف أجعل مجموعة من جوارح الوحوش ،
وضواري السباع فى قيد اتباعك منقادين لك طائعين لأمرك . وربما
يأتى هذا المعنى بأن تأتى عدداً من أفعال السباع وصفات الكلاب ،
وتتوب عن أكل اللحم وشرب الدم حتى ينتشر صيت قلة إيذائك
وحسن فعالك فى أنحاء العالم وأرجائه ، ويتزايد ارتجاء الخلق فى
حكمتك . فكل من يبحث عن حسن أداء الأمر يضع رجله أولاً على
عنق النفس ، ويرد أطماعه فى نحر الهمة ، بل إن الذين يبحثون عن
النعيم الأبدى ، فهذا هو طريق إيجاد مقصودهم قال تعالى : « وأما
من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى »^(١)
وعندما تضع قدم الانتهاج على هذا المنهاج ، وتمضى مدة وجيزة

(١) التارعات / ٤٠ ، ٤١

على هذه القاعدة والعادة فإن الوحوش سوف تأوى إلى كنف أمانك وصوان إحسانك ، وبعض السباع التى تقترب طباعهم من المساهلة والمجاملة فإنها ستميل إليك بطبيعة الأمر ، وسوف تدخل فى زمرة التابعين والطائعين .

حينئذ سوف تؤثر مشاهدة هذه السيرة وهذا السلوك فى الآخرين حتى يرفع الطالع شعار الصالح ، ويصبح الأشرار أخيارا ، ومن هنا يصل الأعوان والأنصار ، والآلة والاستظهار إلى الحد الذى يحترق الأسد معه من رعشة حمى التفكير فيك إذا مرت ريح هيبتك على الصحراء ، والذى تسقط معه أنياب التمساح فى البحر وكذلك قبضة النمر فى الجبل خوفاً من شوكتك وجاهاك .

أنت لست سوى قمر فى السماء ، ولا تستحق غير سرير الملك .

يرتفع الطالع إلى السماء إذا شئت ، فيسعد جسدك ويهنا فؤادك . قال ريرك : كل من يتجه لتحقيق الهدف يرى مذمة على عدم حصوله عليه أكثر من تلك المحمدة التى يراها مع حصوله عليه . وأنا أفكر لو أننى لم أحصل على الأمر حسب رغبتى وفكرتى ، فسوف يصل إلى ذلك الحزن الذى وصل إلى الطائر آكل السمك . قال زروى : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الطائر آكل السمك مع السمكة

قال ريرك : يحكى أن طائر زغن^(١) مرت عليه عدة أيام دون أن

(١) زغن : بفتح الزاى والغين طائر شبيه بالغرراب ولكنه أقل منه فى الحجم ويسمى ' عليواج وكليواج ' .. (فرهنگ عميد)

يجد شيئاً من النمل والملح والهوام والحشرات التي كانت طعاماً له حتى يسد جوعه بذلك أو يسكن لوعة نيران الجوع فنهض يوماً لطلب الرزق ، وجلس مترصداً مثل الصياد على شاطئ النهر ، حتى يصيد صيداً من شبكة الأرزاق ، وفجأة مرت عليه سمكة ، فنهض والتقطها ، وحاول ابتلاعها فقالت : « ما العصفور ودسمه والبرغوث ودمه » ماذا يفيدك أكلك إياي ؟ ولكن لو أعطيتني الأمان أجعل عشر سمكات أبيض من الفضة وأطهر من ثلج شهر «دى» تمر عليك من هذا الممر فتأخذهن واحدة واحدة وتستعملهن وفقاً لهوى القلب ، وإذا لم تثق بى ولم تصدق مجرد القول أقسم لك قسماً مغلفاً حتى أنجز ما قلت ، فقال طائر الزغن للسمكة : قولى «بالله» فكان فتح المنقار وسقوط السمكة فى الماء مرة واحدة مثل لقمة الفقراء الصغيرة .

أسقط الفلك لقمة من فمى فى التراب ، وأتى الحظ بالكأس حتى مراشفى وأسأله على التراب .

وبقى هو خائباً خاسراً « كراج آب مكسور النصاب »^(١) وقد قلت هذه الحكاية حتى تنظر إلى بداية هذا الأمر ونهايته ، وتسوى بين الفاتحة والخاتمة ، وتعلم أن استمرار الخوض أولى ، وتعيد جذب عنان العزم ، حتى لا يتأتى ذلك التعجيل (التسرع) الذى يسقطنا فى

(١) يقول العلامة القزوينى فى تعليقه على هذا المثل : « ولم أظفر بتفسيره » انظر القزوينى :

• حاشية مرزبان نامه ط ليلدن ص ١٣٨ أما محمد روشن فى تعليقه ما ترجمته : معناه واضح وهو أن الصياد لم يظفر بالصيد بسبب كسر يد السكين أو تبلد أمله بسبب تكسر آلة الصيد ، ويرغم هذا فإن روشن لم يثبت هذا المثل فى نسخته التى حققها محمد روشن : مرزبان نامه جلد دوم ص ٦٨٣

ورطة الندامة ، ولا يتأتى التوقف الذى يمنع من إدراك الفرصة .
وإياك والأمر الذى إن توسَّعتْ موارده ضاقتْ عليك المصادرُ

قال زروى : قيل إنه عندما يصل حكيم إلى الناس ، فإنه يأتى بكل تدبير صائب ورأى سديد ، ويفتح عين البصيرة المغلقة ؛ حتى إنه ليطالع مغبات الأحوال ومغيبات المآل فى مرآة الفكرة ، ويبدو العمل الحقير منه عظيماً مثلما ترى قطعة الحجر التى تلقىها فى الماء الصافى أضعاف حجمها ، فدعك من هذا المعنى واعلم أن الناس يعدون خمس مجموعات من الفقراء :

المجموعة الأولى : التى لا تملك شيئاً من العقل والعلم .

المجموعة الثانية : التى لها مزاج ملول .

المجموعة الثالثة : هى المحرومة من لذة الأمن .

المجموعة الرابعة : هى التى ينظرون إليها نظرة استحقار

المجموعة الخامسة : هى المحتاجة دائماً .

وأنت مطرود ومؤذى من الناس فقد ضربوا سُرةً وجودكم على الدرة والحاجة ، فاجتهد حتى تطهر عرضك من دنس هذه النقائص .

فقال ريرك : أحسنت قولاً ؛ لكننى كلما أنظر إلى حاصِل أمر هذا العالم أجد أن كل من يستريد عن حاجته يجعل نفسه عبداً للطمع والغضب ، وإذا سيطر هذان الخصمان على الرجل يصعب دفعهما .

والجاهلون من الناس لا يعلمون أن بناء بيت أملهم قد بنى على الرياح والماء مثل قبة الحباب وسدة السحاب ، فجمعوا أسباب الزخارف أمام السيل الجارف ، وجعلوا بعضها فوق بعض ثم سقطوا فى النهاية فى ماء العدم الأسود قال تعالى : « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (١)

أما الذين يدعون أن الزيادة فى مال الدنيا نقصاً ، ويعلمون أن لذلك الشمل شتاتاً ، ولذلك الجمع تفرقة فى النهاية ، وقد نزلوا منزل الأوساط فى رباط أمور هذا العالم الدنيوى البالى فقد أمسكوا بسبيل الصواب أثناء المرور من هناك ، مثلما قال صاحب قطيع الغنم للراعى . قال زروى : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية صاحب الغنم مع الراعى

قال زيرك : إن قطيع الغنم الذى كنت حارسه ، كان له صاحب مكثراً بأجناس الماشية ، ومستظهر بالنقود والأموال .

أما قطيع غنمه فكان عددها أقل من الألف ، فإذا زاد الناتج عن الألف باعه ، بحيث لا يتجاوز العدد عن الألف .

وذات يوم سأله الراعى قائلاً : إن الآخرين لا يملكون مقامك فى العبودية لكن الثروة والاستظهار لديك لا تصل إلى واحد بالمائة

(١) الكهف / ١٠٣ و ١٠٤ وقد وردت فى نسخة القزوينى « أنبئكم . . . والصحيح ننبئكم . . . »

(عما عندهم) ، فهم يملكون أكثر من ألفين فى القطيع ، أما غنمك فلا تصل إلى الألف أبداً . فما موجب ذلك ؟

فقال صاحب الغنم : اعلم أن الألف نهاية العدد ، وكل شئ يصل إلى الغاية فلا بد أن تعقبه النهاية . ولهذا فإننى أجعل عدد هذا القطيع أقل من الألف . ولقد رأيت أكثر من ألف قطيع أنزل محاسبو الأوراق عددها - على مائدة القسمة - من مرتبة الألوف إلى مرتبة المئات والعشرات بل وأوصلوها إلى الأحاد ولم يصل القصور والكسور إلى أعداد غنمنا فى القانون الألفى مطلقاً .

وقد قلت هذه الحكاية حتى إذا كنت حارساً للغنم ، كنت محروساً من آفة الخصوم . أما عندما أرفع شعار السلطنة رما أفتح باب مناقشتهم إياى ، ثم تبدر علامات وأمارات الفتن الكبرى بسبب تلك الإمارة . وبسبب استخراج العسل الذى يحصل من توهم حلاوة السلطنة أكون قد أثرت نحل بيت حسد الأضداد ، وحرضت الأصدقاء على عداوتى . ومن ثم : لأفضل ألا أنقى بالكرة فى ميدان لا نهاية له ، وألا أنزل فى هذا التيه المظلم بلا رأس أو قدم بسبب غفلة العقل وجهل القدم .

- أيها القلب انظر جيداً إلى الباب ولا تذهب إلى هناك حيران ؛ لأن هذا الطريق غير ممهد لقدم مثلك .

- ولا تنظر إلى حافظة اللص ، حتى لا تراه يشق جيبيك فجأة .

قال زروى : هذا الكلام صحيح ، ولكن لا يعلم الوجه الصحيح

لمجئ الأحوال سوى مسبب الأسباب . وهذه القاعدة غير مطردة ،
ولعكس هذه النظرية أخوات كثيرات ونظائر كُثُر . فلقد رأيت الآلاف
من أصحاب الغايات نزلوا من قبة الترقى إلى أسفل الانحطاط . كما
رأيت الآلاف من أصحاب البدايات نهضوا من حضيض التسافل إلى
ذروة الارتفاع ، فالطبيب يخدم الطبيعة ، أما الأفضل من المرض أن
يجد الإنسان الدواء في صيدلية « وإذا مرضت فهو يشفين » ^(١) وإذا
أصاب الأجل المحتوم المريض ، فلا يُلام الطبيب ولا يعاتب « اعملوا
ما شئتم فكل ميسر لما خلق له » .

فتحركات الهمة عند « زيرك » إلى جانب تحرك الأمل بسبب
الإصغاء لهذه العبارات التى كانت من أصول الخبرة ، وقال لزرورى :
لقد وضعتُ زمام تصرف هذا الأمر الصعب فى كف كفايتك ، وسملت
عنان رياضة هذا الجواد الجموح بيد اختيارك ، وجعلتك إماماً فى
تحرى جهة الصواب وتتبع قبلة الحق . فاعمل كيفما تعرف وتستطيع
بلا تكاسلٍ أو توانٍ ؛ لأن كل شئ هو من وضع القدرة آت لا محالة
فى قالب التدبير وسوف يظهر على اختلاف الأيام .

وليس امرؤ فى الناس آتياً سلاحه عَشِيَّةً يلقى الحادثاتِ بأعزلٍ
قال « زروى » : بما أنك انتويت تيسير هذا المراد ، يجب عليك
الا تبصر من إنفاذ هذه العزيمة ، وألا تفصم عروة التصميم ، وألا
تعطى للتردد والتبلد طريقاً إلى خاطرِكَ ، ويجب أن تكون قوى القلب ،

(١) الشعراء / ٨٠

ثابت الرأى ، راسخ القدم ، نافذ العزم ، يقظ الحزم ؛ حتى يظهر جمال وجه الامال من تحت حجاب الإمكان بسرعة ، وتظلل السعادة حصولها عن قريب .

ولى معك عدة شروط ، أستطيع أن أقولها لك اليوم ، وليس فى ذلك اليوم الذى تبدو فيه هيئة ملكك فى لباس الهيبة ، وقامة دولتك فى قباء الاستقامة .

حيثذ تعرونى حيرة الملك ودهشته بالقدر الذى يجعلنى بلا حياء أو وقار إذا تحدثت فى مصالح الملك ، أو عرضت لمحاسنه ومقابحه ، أو أقحمت نفسى فى رتق أمور الدولة وفستقها ، أو رفع مبانى المملكة ووضعها .

لأننى أرى شروط الرجوع فى مجارى الأمور متفقاً فى ذلك مع رأيك ورؤيتك وهذا ما لا أستطيعه أبداً . ومن هنا فلا أرى الخير إلا فى انتهاء وقت الحديث واختلاس الفرصة .

ومن المقرر والمسلم به أن بعض الناس عندما يرتقون من الأسفل إلى درجة رفيعة ؛ تتغير أخلاقهم ، ويظهرون تفاوتاً بقدر تغير الحال فى معاشرة الصحبة مع الأصدقاء والأجانب . وإن الغد الذى تمشط فيه مشاطة التقدير طرتك ، وترى عظمتك وحقارتى فى مرآة الحظ ، سوف تقطعنى فيه (أى فى هذا الغد) أسنان الطمع التى تشبه أسنان المشط . ولذلك يجب أن تكون معى - حيثذ - فى درجة متساوية ومتوازية حتى لا تقع فى تهمة اشتراك الملك ، وترفض صحبة الفساد بتخالف وتجانف الفساد .

قال زيرك : أحسنت القول ، لكن البحث عن مساعدة الإخوان بمساعدة الزمان ، وإسبال ذيل الخيلاء والتجبر على الأرض مع أخلائي يكون علامة نخاسة النفس ، ونجاسة العرض ، ودناءة الهمة ، ورداءة السيرة ، ومن ثم تبدو حقارة النفس وتصغير مقدارها من هذا المعنى .

ومن هنا يجب أن يقال كل شرط من شروط القول أو العمل - والذي يفضى إلى تسيير الأمور - كما يجب رفع نقاب الحياء عن وجه مصلحة الحال وإظهار كل ما يتوافق مع أخلاق الملوك ويلزم للسلطنة ، حتى يتسنى لنا أن نطلب توفيقاً وفتحاً من الله - عز وجل - فى إتمام هذا الأمر .

قال زروى : الشرط الأول : أن تبعد سيئى القول عن مجاورتك ، وألا تحكم على أحد الطرفين بكل ما تسمع من النفى والإثبات بدون الاستقصاء والاستقراء الذى يأتى فى تحقيق ذلك . وألا تعطى مكاناً لأول وهلة دون مهلة فى سمع رضاك ؛ حتى لا تبادر إلى فعل تندم عليه « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين »^(١) ، وعندما يرفع أحد المتحاكمين مظلمة إلى حضرتكم ينبغى أن تجعل دفعها أو جوابها موقوفاً لحين حضور الخصم الآخر . ويجب أن تعلم أن الاقتداء بقدوة أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واجب ، فهكذا يقول القاضى بحق والخليفة المطلق أمير المؤمنين على بن أبى طالب -

(١) الحجرات / ٦ .

رضوان الله عليه - : « لا تقض لأحد الخصمين ، ما لم تسمع كلام الآخر » .

كما يجب ألا تعود لسانك على القول السيئ والخشونة والفحش ؛
لما يروى في حق عيسى - عليه السلام - أنه عندما التقى مع كلب
عقور مجنون قال : « صحبتك السلامة » فسأله : لماذا قلت في حق
مثل هذا الحيوان التجس مثل هذا اللفظ ؟ قال : حتى يتعود اللسان
على حسن القول ؛ لأن :

النفس الإنسانية تقبل التخلق

ويجب أن يأبى سمعك سماع السيئ ؛ لأن مساوئ الخلق لو لم
يظهر أثرها في الحال تؤثر على مدى الأيام ، وتظهر آثاره مثلما حدث
للفأر مع القط . فقال زيرك : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الفأر مع القط

قال زروى : سمعت أن - في وقت من الأوقات - رجلاً فقيراً ،
ضائق اليد ، مقل الحال . وكان في بيته قط جائع دائماً ، خارت قواه
بسبب عدم وجود القوت ، فسقط ضعيفاً مريضاً . وكان في زاوية
هذا البيت فأر قد اتخذ مسكناً له هناك من مدة طويلة ، كما ادخر
كثيراً من أنواع الكنوز في منافذ الأرض . فقال في نفسه : لقد سقط
هذا القط عاجزاً ضعيفاً ، وربما يرسل له من عالم الغيب الشيء الذي
لم يصله حتى الآن ، حينئذ يصير قوى الحال ، ويثقل من فراش
المرض إلى انتعاش الصحة فيستغنى عني ويصير الحال كما قالوا :

فبادر بمعروف إذا كنت قادراً حذار زوال أو غنى عنك يعقب

وأنا اليوم أتردد بلا اكتراث ، وأمر متجاسراً بمكامن مكره ، أما

اليوم الآخر فيجب على أن أضع القدم في ذيل السكون ، وأنزوى في مسكن الأحزان ، وأظل طيلة العمر في الجحر خائفاً مختفياً .

أما إذا دخلت معه في مقام الاحتياج هذا بالمواساة ، فأهديه شيئاً من هذه المأكولات اللذيذة التي تملأ روايا البيت عندي لحماية نفسه بها وأقول : (خير المال ما وقى هب النفس) . فلا شك أن جميع العداوات التي بيننا ستزول بهذه الفائدة ، وأكون آمناً دائماً في هذا المكان من مهاجمته ، وتستقر في قلبه عاطفة جياشة في كل مرة من هذه المرات التي يرى فيها مثل هذا التبرع مني ، فقد قيل : إن العلم الكامل هو ما يستحسنه أهل العلم ، والفضل الفائق هو ما يعترف به الأعداء ، والعطاء الطيب هو الذي لا يجعلك فقيراً ، والمال اللائق هو الذي يجعل العدو صديقاً وهذا لقول يجب استعماله هنا ، كما قيل : ما استرضى الغضببان ولا استعطف السلطان ولا استميل المحبوب ولا توقي المحذور إلا بالهدية .

وبعد ذلك أؤكد هذه الصداقة معه بمواثيق العهود ومغلظات الأيمان التي لا تجعله - فيما بعد - قاصداً افتراسي ، بل تجعله يزيل الطمع كلية في ، ويتحد معي قلبياً ، ويربط حبل الوداد والاتحاد - الذي يلزمه الاستمسك بالأصدقاء والأحبة - من طرفيه .

وأمضى الفأر هذه الفكرة ، فجمع أنواعاً من المأكولات التي علم اشتهاها القط لها ، وأنها منتهى طلبه ، وحملها إلى مكانه على عادة الخدمة ، وأهداها له ، وقال : إن الباعث على مجيئي إلى الخدمة هو

أننى وجدتك متصفاً بالتعقل وقلة الأذى وطلب العافية والعفة والقناعة ومختلف الخصال الكريمة والخصائص الحميدة ، وأننى حزين لهذا المرض الذى لو كان يقبل الاستبدال لاستقبلته بدلاً منك .

لو كانت الأمراضُ محمولةً يحملُها القومُ عن القومِ
حَمَلْتُ عَنْ جَسْمِكَ ثِقْلَ الْأَذَى حَمَلٌ جُفَوْنِي ثِقْلَ النَّوْمِ

ولأننى أعلم أن سبب ضعفك وانكسارك هو انقطاع مدد الغذاء وليس بسبب علة أخرى ، فقد رتبت هذه العجالة الآن ، وبعد اليوم أرسل رواتب هذه الخدمة يوماً فيوماً ، وأرتب من ذلك المقدور كل يوم حملاً حتى تأكل بسعادة وتظهر عليك آثار السلامة .

قال القط : لا شك أنك إذا أردت أن تظهر القبول والوفاء بهذه الوعود ، وأن تقرن كل فكرة لديك بالعمل ، فيتحول من القول إلى الفعل ، فإنك تظهر فى امتنانك بهذا الخير والإحسان وفضيلة اليد العليا معجزة اليد البيضاء فى معالجة هذا الداء العضال الذى أصابنى ، ويكون حديث « حب الهرة من الإيمان » قد نزل فى شأنك بحق .

فقال الفار : برغم أننى واثق من حسن طريقتك ، ونظافة داخلك إلا أننى أطمع فى ركون النفس وسكون القلب ، وأن تقسم بغلاظ الإيمان حتى يتجدد إيمانى فى حسن عهدك ، ولا تظن أن بى شكاً بسبب هذا الالتماس ؛ لأنه أتى فى طلب خليل الله مع فضل النبوة وكمال الخلّة، إذ طلب من الله - عز وجل - الإحياء مرة بعد أخرى حتى تتلأأ المعينة فى مرآة حسه ، فقال تعالى له : « أولم تؤمن قال

بلى ولكن ليطمئن قلبى « ^(١) وأن تتعهد فى نفسك مع واهب الروح
وفاطر الجسد ألا تراجع عن قرارك ، وألا تخلط معيار الرحمة
والإشفاق بشائبة الشقاق عندما يبرأ مزاجك الشريف ونفسك العزيزة
من هذا الداء ، وتعود الصحة والاعتدال والقوى الطبيعية إلى أصلها ؛
حتى لا تحرم من سعادة قوله تعالى : « وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم » ^(٢)

فقال القط : أقسم بالله الذى أضياء بنور معرفته ظلمات بيت
البشرية ، وزين إيمان العريان بحلية حسن العهد ، الذى يقوم لطفه بالتوسط
لتأليف القلوب الشاردة النافرة ، وينشئ عاطفة الأمومة والبنوة بين
القط والفار ، والذى يأتى قدم إكرامه بإصلاح ذات البين بيننا ، ويمنح
ألفة الأخت مع الأخ للذئب مع الشور ، أن يتفتح ورد الوفاق من
حديقة شوك النفاق وينمو غصن التعارف فى دار وحشة التناكر : « لو
أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » ^(٣) ، وأن
يتطهر درن العداوة وخبائث الدخيل من القلوب مع كليتنا دون أن
يتقضم حبل الموالاة والمؤاخاة بيننا ، وأن يأخذ كل منا بيد الآخر فى مجال
اليسر ومضيق العسر ، وأن نعلم أن إثبات قدم الرجولة والمعاونة
والمظاهرة واجب ، وأن نجعل الظاهر والباطن مراقباً ومحافظاً على
رعاية حقوق الصحبة . فإذا ما تركنا شيئاً من هذا ، وأهملنا قضية
الشرع والعرف نكون قد نقضنا العهد والأيمان وأبطلنا حدود الحق
وأوامره : « الذين يتقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به

(١) البقرة / ٢٦٠

(٢) البقرة / ٤٠

(٣) الانفال / ٦٣

أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون . (١)

وتعاهدا على هذا النمط والشكل ، ورقص عرق الروح طرباً في القط الذي كان قد انحنى من الضعف خلف الركبة ، وسعدناى الحلق الذي كان يتألم من الأنين بلا صوت بشرى هذه العطاءات ، وقد زاد إنجاز مواعيد تلك الفوائد والعوائد بتلك الموائد سعادة ونشاطاً وسروراً واغتياباً .

وقال القط للفأر : لأنك وضعت أساس الموافقة ، وعقدت سلسلة المصادقة فسوف يتزوى البغض والعداوة من ضمائرنا وضمائرهم ، وسوف تزول الضغينة التي تملأ أنحاء القلب وحنايا الصدر ، وسوف تكون غاية كفايتك وكمال درايتك باعثاً على ذلك ؛ لأنك افتتحت اللطف بإهداء التحف والهدايا وأنا في معاناة المحنة وجهد الخضوع والذلة ، ولم أكن في مقام التخويف أو في معرض الطمع ، وتقدمت قدمك في حلبة مسابقة الفضل ، فإن لم أقم بحق الشكر والثناء ، ولم أكن رهين منة هذه الأريحة ، ورفيق هذه الحرية ، حتى قيام الساعة لفخر الكلب الذي هو أخس الحيوانات وأنجسها على ؛ لأننى قط . ولقد ذكرنا لسان النبوة وشرفنا حيث قال : « إنها من الطوافين عليكم والطوافات » .

ثم افترقا على هذه المخالصة والملاطفة ، وانصرف الفأر وربط حزام الاستعداد على وسطه استعداداً لراتب المستقبل . وهكذا ظل يرتب ويضبط وظائف الغداءات والعشاءات ، واستمر يعمل بهذه

(١) البقرة / ٢٧ .

الطريقة عدة أيام حتى صارت بطن القط لها أربعة جوانب من النعمة ، وصار (بفضل الفأر) مملوء الرقبة سمين المقعدة . وكان للقط ديك يجالسه في السراء والضراء السر والعلانية ويختلط به ، لا يتكلمان إلا سوياً . فلما شاهد الديك اختصاص الفأر بمجالسة القط وموانسته ، فكر في نفسه قائلاً : إن القط سوف يستغنى بموافقته عن مصادقتي ، وإذا ما استغنى لا يجب أن أطمع في نفع منه ؛ لأن العاشق يحتمل تدلل المعشوق ؛ لأنه يكون في حاجة إليه ، ويرتبط به ؛ لأن لبه غير متعلق بحب آخر .

وكانت لوعة ثم استقرت كذاك لكل سائلة قرار

فلا بد أن أفكر في قطع أسباب هذه المودة ، وأهدم بنيان هذه المحبة بالأكيدة . ثم نهض وذهب إلى القط وقال : منذ أيام كثيرة وأنا أسمع أن هذا الفأر كره المنظر سيئ المخبر ، ذميم الطوية ، دميم الطلعة ، يحكى كل يوم عن مقابح سيرتك ومفاضح سريرتك أمام الجيران . يحكى عن عدم وفائك ، وانعدام حيائك ، وكثرة إزعاجك وقلة شرفك . ويشرح سبب بقاءه قائلاً : إننى أعدت الروح الطيبة إلى قلبه الفاسد ، وأصلحته مثل الإسكندر الذى كان قد أحيا مأجوج ، ومثل الخضر حيث أعدت ماء حياته على هذا النحو . لكننى لا آمن لهذا الجوار بسبب موثبته ؛ فخيار غدره يلوح أمام خاطرى فى اليقظة والنام . والخلاصة : لا تسأل عن كثرة ما حدثهم عن خطر صحبتك الذى أقره فى خواطرهم وعمما أثاره فى قلوبهم من غبار الغيظ ، فلو أن رجلك جاءت على حجر المحنة يوماً فلن يمد أحد لك يده بالعون ولو استطاعوا أن يطئوك بالقدم لفعلوا . فإن أضأت مصباح البصيرة ، وأدركت صباح هذه الهداية فمبارك ، وإلا أقول : على الديك الصياح . وأنت تعلم

فاستبدع القط هذا القول واستبشعه في مذاق قبوله لكن تسويل المسؤولين وتخييل المخيلين لا يخلو - كما هو معهود - من التأثير وتغيير الحال ومن يسمع يخل^(١) وقال في نفسه :

ما الحب إلا للحبيب الأول

والديك كان معي دائما بالرأى في السراء والضراء ، ولقد كان من أول العهد ولا يزال ظريف البيت وفرخ العش ، رؤيته مرتبطة عندي بالقال الميمون السعيد ، ولقد وجدت صدق مصاحبته في تلك المداعبة والملاعبة التي كانت بيننا من أيام الصبا وموسم الطفولة ، ثم تضاعفت إلى يومنا هذا ، ولو أنني تعلقت اليوم بآخر ، فلن أستطيع التراجع عنه .

كثَّارِكَة يبيضها بالعرء وملبسة بيض أخرى جناحا^(٢)

فكل ما يقول محسوب في حساب العقل ، ومكتوب في كتاب العلم . أما أنا فيلزماني أن استفسر عن شيء من علامات الأمر حتى أعرف ماذا يقول . ثم قال للديك : أيها الأخ من أين أطمئن على صدق هذا الكلام ؟ فقال الديك : « يعرف المجرمون بسيماهم^(٣) »

(١) يقال : خلت إخال بالكسر وهو الأقصح وينو أسد يقولون : إخال بالفتح وهو القياس والمعنى : من يسمع أخبار الناس ومعانيهم يقع في نفسه عليهم بالكروه . المبداني : مجمع الأمثال ج ٣ ص ٣١٠
(٢) جاء في مجمع الأمثال في الحديث عن المثل « أحقق من نعامه » وذلك لأنها تنتشر للطعم وربما رأت بيض نعامه أخرى قد انتشرت لمثل ما انتشرت هي له ، فتحضر بيضها وتنسى بيض نفسها ثم تحيى الأخرى فتري غيرها على بيضها فتسمر لطريقها ، وأياها عنى ابن هرمة بقوله :

فتاركة يبيضها بالعرء وملبسة أخرى جناحا المبداني : مجمع الأمثال ج ١ ص ٣٩٩ ،

٤٠٠

(٣) الرحمن / ٤١ .

فلو نظرت إلى لوح ناصيته يمكنك أن تطالع هذه الأمارات فيها .
ومنها أنه عندما يأتى أمامك يجلس مطأطأ الرأس خائفاً ، وعندما
يكون متحرراً متحذراً يتلفت فى كل الاتجاهات ، ويتنظر الآفة التى
تأتى منك لحظة بلحظة :

فلا تصحب أخا	حُـمق وإيَّاكَ وإيَّاه
فكَم من جاهل أرى	حكيماً حين آخاه
وللقب على القلب	دليلٌ حين يلقاه
وللنَّاس من النَّاس	مقاييس وأشباه

وبينما كان فى هذا الحديث ، إذ دخل الفأر ، فرمقه القط بنظرة
السخط والعداوة ، حتى جاء إلى خاطره كل ما كان من محاسن صفاته
لباس المقابح .

فالصورة التى كانت أجمل من صورة الملك ، تبدو صورة شيطان
فى المخيلة .

فصدَّق القط الديك فى كل ما قاله ، وتحقق كل ما جاء فى
الخيال ؛ لأن مجئ الفأر إليه كان من قبيل الاضطراب والافتقار وليس
على سبيل الرغبة والاختيار ، ولو كان عنده سلاح للمقاومة وشوكة
للمصارعة لما بادر وسارع إلى ذلك ، ونهض من المكان بهذه الفكرة
وهذا التصور بسرعة . فحزن الفأر جداً وتحير من ظهور هذه الحالة
التى لم يرها من القط قبل ذلك والتى لم يكن سببها معلوماً لديه

فارتعد وظهرت على أعضائه الرعشة واللكنة على لسانه . ومن ثم لم تسبق لديه قرة تماسك . ثم إن الصديقين كليهما رأى صورة صاحبه مشوشة بسبب حجاب غيمة صاحب الغرض وخبث شيمته . وانفلبت المؤانسة بينهما إلى مدالسة وانتهت المصافاة إلى منافاة . وأشار الديك على الفأر بتلك الإشارة التي كان قد جعلها علامة للأمر . وكان القط قد جلس مشمراً متمراً ، فصاح الديك فجأة ، فقفز القط على الفأر واقترسه ، مثلما يقفز البازي على طائر السمان والفهد على الغزال ، وجعل دم ذلك المسكين بالهوى والهذر مباءاً وهندراً .

وقد قلت هذه الحكاية ليُعلم أن أغلب الهيئات التي تظهر في طبيعة البشر من الرضا والسخط والأمور النفسية الأخرى الخفية ، وبخاصة لدى الحاسدين الماكرين الذين يسكون بقلم التصوير والتزوير في أيديهم ثم يمسرون الأحوال كما يريدون .

فيجب أن يكون المالك على درجة من كمال النفس تجلده ببناءى عن مغالطة الأرقام ، ومزالق الأقدام حتى يتعالى ويتعد بعصره عن ونخامة ذلك .

قال « ريك » لقد سمعت ما قلته ، واستقر في مقاعد سمع القبول وأخيراً ، هات كل ما تريد من ملتمسات .

قال « زروى » : أريد أن تميزنى بميزة التوقير والتعظيم عن جميع طوائف الخدم ، وأن توقر جانبي لدى جنابكم ؛ لأن كل من يعزز الأقارب يكون قد عزز جوهر نفسه ، وكل من يحترم عماله فهو محترم لعمل نفسه والوزير الذي لا يكون نافذ الأمر مسموع القول في حضرة الملك ، فإن

الجيش لا يعظم له حرمة ولا ينقادون لأوامر الملك ، كمثل الرسول الذي أرسل إلى الخلق فلم يستجيبوا لدعوته ، ربما لشبهة فيها ، ومن ثم لن ينقادوا بقوله (أى بقول الرسول) لطاعة الله - عز وجل وحكاية الزاغة ^(١) مع ابنتها كانت كذلك فسأل «زيرك» : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية بنت الزاغة مع أمها

قال «زورى» : سمعت أن زاغة كان لديها ابنة حسناء ، تفضل الطاووس فى زيتتها وجمالها ، تعيش فى سترة العزة وعش المنعة ، مكتوب على فص خاتم عذريتها هذا الكلام :

لا تطلب خدى لأنه فى قرص الشمس ، ولا تطلب شفتى لأنها فى منقار السيمرغ .

وكانت جميع الطيور فى كل البساتين تتغنى كالبلبل بجمال خدها ، وكانوا يشربون من كأس سعادة جماله .

نهض فرخ بوم للحصول عليها كيما يجعلها زوجة له ، وأرسل خاطباً لأمها وطلبها للزواج . فدعت الزاغة ابنتها وقالت لها : أى بنيتى : لقد جاء إلينا الأشراف من الأطراف يتنازعون ويتزاحمون على خطبتك

(١) الزاغ : غراب صغير يميل إلى البياض ، لا يأكل الجيف وهو المسمى الآن بمصر الغراب النوحى (القاموس المحيط) .

وقال الدميرى : « الزاغ من أنواع الغربان يقال له : الزرعى وغراب الزرع وهو غراب أسود صغير وقد يكون محمر المنقار والرجلين ويقال له غراب الزيتون ؛ لأنه يأكله وهو لطيف الشكل ويقال : إنه يعيش طويلاً .

الدميرى : حياة الحيوان ، ج ٢ ص ٢ .

وطلبك ، لكننى أريد أن أزوجك لطبعك ، ويكون تحت يدك ، ولا
 يد رجله أكثر من فراشه (١) وفى نفس اليوم أرسلت الزاغة شخصاً
 لاستدعاء البوم ، وقالت لابنتها : إذا رغبت اقترن بك ، فهو أليق من
 الجميع ؛ لأنه برغم الإخفاق الذى ترينه شخص مطيع ، كما أنه يستطيع
 أن يقوم بخدمتك ومراعاتك مضطراً ، بل إنه يكون ملجأً بحكمك وأمرك
 مثل القمرى الذى لا يتفاخر بالطوق المعنبر ، ومثل الهدهد لا يستعلى
 بالتاج المرصع ، ومثل الهما (٢) الذى لا يرى الخلق محتاجين إلى ظله ،
 يرضى بضيق عشه ، ويقنع بضنك عيشه ، فلو تتفاعلين معه يشكر ، وإن
 تحزنيه قصداً لا يشكو :

لكل من الأيام عندى عادة فإن ساءنى صبرٌ وإن سرنى شكرٌ

فقلت بنت الزاغة لأمها : يا أماء لقد أحسنت قولاً ، وفى هذا
 الكلام فائدة . كما أنك تريدن لى الاستقرار ؛ لكن الزوج الذى يستطيع
 ضربه وطرده ، فأى قدر له بين الطيور ؟ وأى افتخار لى بين طوائف البشر
 والأقران عندما يكون الزوج كذلك ؟ فكيف أرضى به من أجل نعومة
 الزواج ورغيد عيشه فأكون تحت حكمه :

ألا رب ذل ساق للنفس عزةً ويا رب نفس بالتعزز ذلت

وقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم أنه إذا استقل جيشك ظلى ولم يروا
 لى منزلة عالية ، فلن يكون لسلطانك عظمة ، ولن يخافنى عدوى .

(١) إشارة إلى المثل العامى « على قد لحافك مد رجلك » .

(٢) الهما : اسم طائر خرافي كل من يظلمه يصير ملكاً ويضربون به المثل فى التيمن والسعادة . « فرهنگ
 عميد » .

قال «زيرك» : لقد سُمع هذا الكلام بأذن الروح ، وعزم الفكر على تنفيذ تلك الأحكام ، ولو بقى شئ من ضوابط وروابط هذا الأمر ، قلها ولا تترك شيئاً . فكل ما تقوله لا مفر من قبوله .

فإني لو تُعاندني شمالي عَنَادكِ ما وصَلْتُ بِهَا يَميني (١)

فقال «زروي» : أعلم أنني حينما ربطت حزام طاعتك على وسطى ، ووضعت أنت تاج العظمة على رأسك لا أستطيع أن أقول كل الكلام حتى ولو كنت أعلمه مثلما حدث للرجل مع الشجرة التي عبدها الناس . فسأل زيرك : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الشجرة التي عبدها الناس

قال «زروي» : سمعت أنه كانت هناك شجرة في مدينة بأقصى بلاد الصين ، وكانت جذورها ضاربة في أعماق الأرض ، وفروعها مرتفعة إلى عنان الثريا ، وكانت في عمر العجوز وهيئة الشاب ، قديمة الزمن ناضرة الوجه ، إذا رأيته قلت : إنهم أحضروا غصنها من جذر باسقات الخلد ، ومن نبات حديقة إرم . فقد كان بستاني إبداعها يرويها من نبع ماء عين الحياة ، ويطلّي أوراقها الحريرية الفستقية وأغصانها العناية الصفراء بلون من مصبغة القدرة . فلم يبدع القدماء من مزخرفي ربيعهم صفاءه (أي اللون) ولم يأت ملونوا خريفه بعد لونه المعصفر بالشكل المزعفر . لقد أعادت بطبيعتها في إظهار خوارق العادات صفة نخلة مريم ؛ حتى صارت مثل شجرة آدم مزلة قدم أبنائه ، فتخيل أنها شجرة متكلمة بلسان من خشب ، وتلقى على سمع العالمين : « إني أنا الله رب العالمين » (٢) حتى إنهم كانوا يسجدون لها على تراب المذلة .

(١) هذا البيت غير مناسب لسياق الكلام كما يقول القزويني .

(٢) القصص / ٣٠ .

و ذات يوم وصل مسافر إلى مدينة تلك الشجرة فرأى أمة من الناس يعبدونها . فأبدى تعجبه من ذلك الحال . ثم دخل في جدال الملامة مع عبدة تلك الشجرة وقال : إنها جماد وليس لديها حواس الإدراك الحيوانى ، وليس لديها قوة الحركة الإرادية . لا تملك دفعاً للألم في الطبيعة ، وغير جاذبة للراحة في الطينة . ليس لديها واسطة لكسر الشهوة وليس عندها وسيلة لجر منفعة لكم ، فبأى سبب اتخذتموها قبلة الطاعة ؟ قال تعالى : « لم تعبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً » (١) .

ونفض الرجل بعد الغبن الذى رآه من غلو هؤلاء في عبادة الشجرة ، وأخذ فأساً وأراد أن يقطع الشجرة من وسطها . فصرخت الشجرة قائلة : أيها الرجل ماذا فعلت لك حتى عزمت على الاعتداء على ؟

فقال : أريد أن أظهر للناس أنك مجبورة مقهورة حتى يعلموا أنك لا تنفعين فى أي أمر ، ويعلموا أنك ستكونين بعد فترة من الزمن حطب جهنم لهم . ولن تكونى سبب نعيم الجنة . فصاحت الشجرة ثانية : ابعد عن التعرض لى ، واذهب حتى أمنحك فجر كل يوم - قبل شروق الشمس من جيب الأفق إلى ذيل قبة السماء - ديناراً من الذهب الخالص وأضعه لك فى المكان الفلانى ؛ حتى تأخذه منه ، ويمرور قليل من الوقت تصبح صاحب مال كثير . فرجع الرجل من عند الشجرة بفرط الحيرة والتفكير . وتساءل كيف حدث هذا الأمر ؟ وفى اليوم التالى فى الموعد المحدد وجد دينار ذهب أحمر فالتقطه ، ومضى أسبوع على هذا النسق ، يذهب ويجد الذهب .

(١) مريم / ٤٢ .

وذات يوم ذهب - كالعادة - فلم يجد شيئاً ، فحمل الفأس ثانية وذهب إلى الشجرة ؛ فصاحت ماذا تريد ؟ فقال : إلى اليوم كان يوضع لى شئ ، وكانت هناك المتعة والراحة ، وكنت ملتزماً بعهدة الحياء وأداء حقوق تلك المحبة والإخلاص . وعندما تركت حسن عبادتك وقطعت الدينار الذي كان موظفاً لى كل يوم ، أردت استئصالك وقطعتك من الجذور ؛ لأن الشجرة التى لا فائدة منها فقطعها أفضل :

إذا العودُ لم يثمر وإن كان أصلُهُ من المثمراتِ اعتدَّ النَّاسُ فى الحطَبِ

فقلت الشجرة : إن كل ما وجدته منى كان مصطنعاً ، وجعلتك بواسطة مقلداً ، وجعلت عنقك فى ريقة الخدمة والعبودية ؛ حتى تعلم أن الذى يملك يد الإحسان عليك يملك القدرة على الإساءة لك أيضاً . فوقع هذا الكلام على قلب الرجل وقعاً شديداً . وشاهد تمام الهيبة فى استغنائها ؛ وشاء : ذل الاحتياج فى نفسه ومكانه فى النهاية احتوته حتى عجز عن الجواب .

وقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم أنه عندما تصبح ملكاً ، وأنا عبداً يستقر وقار الملك على افتقار العبودية ، ويخطر ببالى كل هذا فلا يستطيع قواه بشجاعة أو بلا مبالاة . واعلم أن الاختلاط ، وإظهار التبسط مركب فى جبلتك ، لكن هذا لا يجب فى كل الأحيان . وخاصة فى الملك ؛ لأنه عيب عظيم ومنقصه شنيعة فيه . والرجل العالم محنك وغير متهور دائماً ، لا يتوغل ولا يتعجل فى الأمور دون تجربة واختبار ، ويعلم أن لكل كلام مقام تصديق وتحقيق حتى لا يصيبه ما أصاب الرجل الإسكافى . فقال « ريرك » : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية زوجة تاجر الحرير مع الإسكافي

قال « زورى » ذهب تاجر حرير ذات يوم إلى السوق ، وكان هناك رجل يبيع طائراً ، فسأله : ما هذا الطائر ؟ وأي شئ يفعل ؟ فقال هذا هو الطائر الذى يرى كل شئ فى المنزل ، ويحكيه لرب البيت . وكان لتاجر الحرير زوجة لم يحمل نقاش الصين صورة أجل من صفحة خدها ، ولم يرسم قلم المصور مثلها على الإطلاق . ومثلاً تكون الزوجات الفاجرات ، كانت (هى الأخرى) تدخل فى رجم ظن زوجها . ولذلك فإنه عندما سمع أن الطائر يملك هذه الخاصية صدقت رغبته فى شرائه ، وفكر قائلاً : إننى سأعهد إليه بمراقبة أحوال البيت ، وأخوف المرأة من إشرفه حتى تحفظ نفسها فى غيبتى ، وتحذر من رقابة الطائر . ومن ثم لا يتحتم على أن أعاقبها على أفعالها ، ولا يحدث شئ موجب للفضيحة وهتك ستر الحرة ، واشترى الطائر . وحمله إلى البيت ، وقال لزوجته : اهتمى بهذا الطائر جيداً ، وأكرميه ، لأن هذا الطائر يتميز عن جميع الطيور بالحدس والذكاء لأنه إن لم يحمل الرسائل مثل الحمام الزاجل فإنه يقرؤها . فهو أتم من القمر وأشد غمراً من المسك طليعة الغيب ، وجاسوس شوارق النظر .

أتم من النُصولِ على خضابٍ ومن صافى الزجاج على عقارٍ

كل شئ يراه فى الداخل يحكيه ويخبر به فى الخارج ، فتعجبت المرأة واحتارت واشتد خوفها وعندما خرج تاجر الحرير ، انتهزت المرأة فرصة غيبة زوجها ، ودعت - كعادتها - الإسكافي الشاب جميل الوجه الذى تكتحل حوريات الخلد بغبار حذائه بدلاً من الكحل ، والذي كان جاراً للتاجر وكانت المرأة على علاقة قديمة به - إلى حجرة الوصال . وحيناً وقع

اللقاء قالت المرأة له : انتبه لا تلمسنى بحضور هذا الطائر ، ولا تتحرك
لأنه يقف على أمرنا ثم يخبر الزوج فضحك الرجل من هذا الكلام ،
وقال بالأسف من سخافة عقل النساء وقصور معرفتهن . ثم أقسم أن
يجامعها ويمسح رأس القضيب على منقار هذا الطائر حتى يرى بماذا يخبر !!

وبعد طول التمتع الذى أظهرته المرأة ، رضيت بالتماسه ومكثته من
نفسها وبعد أن فرغ من الأمر ثم رفع رأس القضيب فى مستوى منقار
الطائر . فتقدم الطائر الذى كان فى غاية الجوع متخيلاً أن ذلك قطعة لحم ،
فوثب وثبت المخلب والمنقار فيه حيثئذ أنهار الرجل من الألم وقال للمرأة :
أظهرى له فرجك حتى يطلقنى فكشفت المرأة فرجها بالقرب من الطائر ،
فعلق مخلبه الآخر فى فرجها ، وأحكم القبضة عليهما . ووصل تاجر
الحرير فى تلك الأثناء فضربهما ثم حملهما ووضعهما فى المكان اللائق
بهما واشتهر هذا الخبر فى المدينة .

وقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم أنه لا ينبغى الإصغاء إلى كل الكلام .
ولا يجب أن تسرع فى عمل بلا سبب مقنع . فقال « زيرك » لقد سمعت
كل ما قلت . وسوف يقترن العمل بالقول فابدأ بسم الله ، ولا تفكر كثيراً
فى حسن النتيجة أو سوءها ، وكن حاضراً متيقظاً فى مقام الاجتهاد الذى
هو موقف الرجال لأنه قيل :

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكّب عن ذكر العواقب جانباً^(١)

(١) هذا البيت لسعد بن ناسب بن مارن ابن عمر بن تميم وهو شاعر إسلامى المروقى : شرح ديوان
الحماسة ج ١ ص ٦٧ .

وعندما وصل الكلام إلى هذا الحد . وانتهى تحاورهم وتشاورهم إلى هذا المقام كانت هنالك حماسة في عشاها أعلى الشجرة التي كانا تحتها ، فسمعت حوارهما كاملاً . فقكرت في نفسها قائلة : إن هذين الحيوانين - وإن كانا مختلفين في الجنسية - عندما يتعاونان سوف يصلان إلى هدفهم بسرعة بفضل آلة الكياسة وأداة الفراسة وما لديهم من بعد نظر وذكاء عقل ، وعندما يحصلان على العظمة والملك ، ويصبح البلاط والديوان مستغرقاً بازدهام الخدم والرعايا فسوف يصعب انضمامي لهذا الجمع وانخراطي في عدادهم إذا أردت ذلك عن طريق اختيار الطبع وإلجاء الحاجة ، كما قالوا :
آه يالني من مسكين لا طريق له إليك بسبب ازدهام الروح والقلب
في كوكبة عشقك

فالوجه الأوفى والطريق الأولى هو التحرك قبل أن ترتفع شجرة دولته ، وتثمر ثمرة الأمانى ، ومن ثم لا بد أن أكون مثل الزهرة التي تتشبث بغصن حمايتها فأهبط من فوق هذه الشجرة ، وأظهر التقرب الذي يضمن القربى لى ، واغترب من هذا المعين اللذيذ قبل المراحمين الآخرين وأنال حظى ، لأن أدنى حق من الخدمة يثبت اليوم . ويكون له الأثر الطيب في ذلك اليوم الذي يوسم الآخرون من أمثالي بوسم الاختصاص ثم هبطت في الحال وأطلقت اللسان بفوائح الشاء وفوائح الدعاء وقالت

- إذا مار وقع الاتفاق في هذه الليلة فإن السلام عادة ما يكون في الفجر
- ولما كنت أنت يوم الزمان ، فأى وقت أراك فيه هو الفجر

فليكن الليل مقروناً بنهار الإقبال ، وليكن نهار الأعداء مظلماً دائماً ، وليكن باعث هذا الاجتماع هو خدمة هذا الجنب الذى هو موئل ومآب المحتاجين فى الدنيا ، ذلك لأننى لى بيت فوق الشجرة منذ سنوات وما زال موطناً لى حتى الآن ، ولقد ألقى نور حضوركم السعادة على هذا الموضع فى هذه الليلة ولذلك فإن الخادم الذكى العالم بعيد النظر هو الذى يفكر فى هذه المهمات التى أقررتكم ، وإن دقائق الأمور هى التى تظهر الكفاية والكياسة فى مفاوضاتكم ، ولقد استرقت السمع فى كل ذلك جملة ، وكان اعتمادي على ذلك وبقينى بدأ يزيد تدريجياً . وكنت أترنم فى ستر الأغاريد ورمزاة الأناشيد من غاية الترنج وفرط الاهتزاز والنشوة وأقول :

يُكَادُ غَرَابُ الْبَيْنِ عِنْدَ حَدِيثِكُمْ يَطِيرُ ارْتِياحاً وَهُوَ فِي الْوَكْرِ وَاقِعٌ

حتى أثارتنى جواذب الأمانى ، ونوازع الاحتياج ، فجئت وطوق العبودية فى عنقى ، وحزام الخدمة على وسطى ، والنطق بالدعاء والثناء على لسانى .

أيها الصديق إن ترد اختبارى ، فانظر طلبك للروح وإعطائى إياها لك

ويحمد الله بالرغم من أن رئيس الوزراء ، وخازن خزائن الأسرار المقدم فى الأمور بعلو الهمة وسمو الرتبة وإصابة النظر وأصالة الرأى ، سابق على الجميع .

تُجَلَّى غِيَابَاتُ الْأُمُورِ بِرَأْيِهِ كَمَا صَدَعَ الصَّبْحُ الدَّجَى بِشُعَاعِهِ

إلا أن الخدم والحشم يعدون قوائم سرير الملك ، ويقيمون دعائم

قصور الدولة ، فالذبابة تعمل لشهرة وشرف الملك مثل الطاووس تماماً .
فأشر حتى أتى بكل ما هو فى الاستطاعة والإمكان وأجعله فى حيز الفعل ،
فتهللت أسارير زروى من هذا الحال ، وصار جاهزاً وأكثر استعداداً للأمر ،
وقوى ظهره بمظاهرتها له ، والتفت إلى « زيرك » وقال هذا هو مبشر قدوم
الإقبال غير المتوقع لأول وهلة ومفتتح الأمر بهذا الخادم الذى ربما يكون
مفتاح باب السعادة ، ومصباح ظلمات الشبهة ، الذى جاء دون إحضار
أحد له ، وأسفر عن وجه الترهيب والرغب ، وظهر من خلف ستر الغيب
مثل السعادة المفاجئة .

أهلاً بهذا القمر القادم ومرحباً بالمطر الساجم
فرأية بين العدى حارس وكُلّ باليقظان والنائم

ثم أثنى « زيرك » عليها أيضاً لوشها كثيراً من العواطف السعيدة
ومنحها إعلاء الجاه والمنزلة وإعلاء القدر وقيمة الاستظهار ، واستقر رأي
« زيرك » و « زورى » على أن يرسلوا الحمامة كسفيرة للطيور وحملها
الرسائل اللطيفة المعطرة لتذهب بها إلى الآخرين ، وتتركها لتحكى لهم
يامعان النظر واليقين أحوال « زيرك » وزروى « ثم تعود لتخبرهما عن
كيفية الأمور .

فدعا « زيرك » الحمامة ومنحها ! كل التقريب وتمام اللطف وأوصاها
بحسن الإلتفات ، ثم قال لها : يجب عليك الذهاب إلى طوائف الطيور ،
وجعلهم يثقون كثيراً فى قولك ، ويأمنون جانبك ، ولا يشعرون بالغيرة
معك ، وإبلاغهم على لسانى هذه الرسالة عندما أكرمنى الله تعالى بالتوبة

عن عادة إراقة الدماء ، وأكل الحرام ، وفقكم الله للصحة ، والبعد
عن الشر وإصابة الخير وشرفكم الله بخلعة الاختصاص عن سائر
جنس السباع ، وأخرج داعية طلب السلطنة والملك عليكم وعلى
الأنواع الأخرى من داخل ، وزادنى من التعرض والتحريض للعظمة
والرياسة عليكم ، وينبغى حمل هذا المعنى على نظر رحمة الله تعالى
الذى يلقى بالزمر إليكم وإضافة هذا إلى واسع كرم الألوهية الذى
يفيضه الله عليكم بلا حدود ، ومثلما وجب علي رعايتكم ،
وحمايتكم ، فلازم عليكم أيضاً طاعتي ومتابعتي ، حتى أنشر عليكم
جناح الرأفة والرحمة ، وأجعل النجاح والسلامة قرين حالكم ،
وأحفظ كل واحد منكم فى بيته وعشه بحصانة الحفظ ولا أترك لأى
غاشم ظالم إطالة يد الظلم عليكم مطلقاً وكل من أصابه كسر من
كواسر الطيور ، فلاننى أقوم بجبر ذلك الكسر وأمر بوضع مرهم
اللطف على كل مكان جرح بسبب جوارح الوحوش . وهكذا يسكن
العصفور فى عين البازى ، ويحافظ العقاب على بيت الصعورة^(١)
ولا يصل مقراض منقار الصقر إلى ذيل الكبك^(٢) المتهالك ، ويركن
الشاهين حاد المخالب إلى حضن الديك الصحراوى .

أما إذا استهواكم هوى الشيطان - والعياذ بالله - عن متابعتنا ،
وهبت ريح الاستكبار على نار عصبتكم وعصبيتكم ، فرفضتم أمرنا ،
فيجب أن تعلموا الحقيقة وهى : أننا سوف نقتلع بنيانكم بصواعق
الغضب وزلازل القهر . ونعمل يد النهب والتدمير والإجلاء فى

(١) الصعورة : طائر أصفر من العصفور (فردتك) عميد

(٢) الكبك : طائر فى حجم الحمامة (فرهتك) عميد .

موطنكم فيصير مأوى للبوم ، حتى تصبح ساحة الدنيا أضيق عليكم من حوصلتكم . وتضطربون من الحسرة - على الماء والحب - مثل الحبة على وعاء القلى والتحمير ، ولا يكون مكان جلوسكم إلا على أعالي الأشجار الشاهقة والأغصان الباسقة ، وتهرب الوحوش من الغابة والصحراء والمتزهات الجميلة إلى قمم الجبال هرب الديك الرومى خشية مخالب سطوتنا ، وجواذب صولتنا ، ويذهبون إلى المكان الذى يطئون فيه الشوك بدلاً من الورد . ويرعون فيه الشيخ بدلاً من السنبل ويتحتم عليهم أكل الطين الأسود مثل النبات الأخضر ، وربط حجر الصبر على القلب . حتى يصل الأمر إلى أن صياد الأوهام فى مرتفعات الآكام ومنخفضات الآجام لا يستطيع أن يصيب أحداً بسهم التصور ، وما نحن قد أعطيناكم عنان التخيير فى تقديم وتأخير الأوامر يسدكم ، حتى تعلموا مقام سخطنا ورضانا ، ولا تبدلوا سعادة الطاعة بشقاوة العصيان والطغيان :

فَأَوْوَا إِلَيْهِ وَلَا تَبْغُوا بِهِ بَدَلًا مَن ضَرَّهُ اللَّيْثُ لَمْ يَنْقَعْهُ سَرْحَانٌ

وعندما سمعت الحمامة هذا الكلام بحسن الإصغاء ، وضعت حلقة القبول والرضا فى أذنها . وعندما بزغ الفجر الذى أعاد الضياء الأبيض للمشرق ، تاهبت للقيام برحلة من رحلات طيران حمام بروج الفلك ، ونهضت من مكانها ، ووضعت رجلها فى ركاب ربح الصبا . وأمسكت بعنان ربح الشمال . وقادت الحصانين على قمم الجبال العالية ومضت بعيداً عن محمل الضباب ، وألقت هودج ربح الدبور عن كاهلها ، وهبطت من هناك إلى المنخفض ، وسرت بعزيمة فى أحد الميادين الضيقة إلى حدود بيت الطيور ، وعندما علموا الخبر ، جاءوا وتسابق كل منهم

مع الآخر فى إعزاز قدومها بحكم المعارف السابقة ، وكانوا يجلبون لها
الهواء بمروحة جناح الطاووس . ويزيلون عنها الغبار بمديل جناح السمندر^(١)

وسألوها بشرق عن بارد أيامها ودافئها ، وتعرفوا على أحوالها ، ثم
أحضروا بسبب التكلف الذى كان من سمة العصر - من سائر أسباب
الراحة .

فقلت الحمامة : إننى أحمل لكم فى قلبى شوقاً كبيراً من قديم الزمن .
وكنت أتوقع اتفاق اللقاء فى أحسن الأوقات بأفضل الأسباب ، وكنت
مسرورة يتمتع الروح بتذوق هذه الحالة التى تيسرت .

وربَّ أمنية أحلى من الظَّفَر

والآن أقول لكم : إن هناك كلباً يدعى زيرك ، يتحدث بقوة مع أسود
العالم وذلك لفرط الشجاعة وعلو الهمة ويسخجل من ظل الهما بسبب
القناعة وعزة النفس ، قد تصدى للسلطة ورفع يد التعدى - برغم القدرة
- عن ضعاف الحيوانات ، وأقلع عن خُلُق ظلم الخلق . وقد تفوق على
جميع المتقدمين والمتأخرين بفضل قوة العزم وصلابة الحزم وسماحة الطبع
ورجاحة العقل .

وقد أرسلنى إليكم ، وأطلق لسانى فى أداء الرسالة وإظهار الإعجاز
والإيجاز فى البلاغة والإبلاغ وعندما تخلصت من الرسالة ، وألقت
أعباءها عن كف الأمانة ، وحكت كل ما كانت قد سمعته من وعيد القهر ،

(١) السمندر أو السمندل : حيوان برماتى ، شبيه بالحرياء ، يفر من جسدته تطفى النار ، ومن هنا
قيل إنه حيوان لا يحترق بالنار (فرهنك عميد)

ومواعيد اللطف ، وحسن الأحوال وسيئها ، وناعم المقالة وخشنها ، قبلوا الدعوة بلا توقف وتبرم أو تردد وتلعثم ، وأقبلوا على البيعة واتفقوا جميعاً بنية صادقة وطية صافية وقالوا : يجب علينا الذهاب إلى الخدمة ، والتلذذ بسعادة الوصول وشرف المثل أمام هذا الجنب ، ونشر الأرواح مكان الدرهم والدينار ، ووضع شكر هذه الموهبة من الواهب على التمام والكمال ، والحصول على خصوصية تشريف المشافهة وتكريم المواجهة ، ثم جعلوا الحمامة أمامهم وأسرعوا منتظمين - إلى خدمة « زيرك » وعندما وصلوا إلى هناك استقبلهم « زوري » بالإجلال ، وأمر أن يجلسوا . . كل واحد في مقامه الملائم ومنزلته المناسبة ، وعندما زين المجمع الخاص بالعوام والخواص أطلق « زيرك » لسان الفصاحة وفتح حاجب الحسن والملاحاة ، ولاطف طوائف الطيور بلطائف العبودية الجميلة وغرائب الاستعطافات وألقى فصلاً مشبعاً مستوفياً في باب الكرم والوفاء . وصبغ غر الكلمات ودرر العبارات من حقة الخاطر ودرج الضمير ، إلى أن غرتهم محاسنة الغر وصغر الخبر والخبر^(١)

ولما كان الحمامة قد قررت لهم كل شيء ، ورأوا عنوان الصدق على صفحات قولها ، زادت ثقتهم في مخايل رحمته وعاطفته وسجدوا جميعاً له سجود الخدمة ، وأقاموا له شرائط الشكر والثناء . ثم استنهض « زيرك » الحمامة لحمل رسالة أخرى إلى الصيادين . فجذبت عنان حصان العزيمة -

(١) هذه العبارة مأخوذة من بيت للمتنبي ضمن قصيدة يمدح بها علي بن أحمد بن عامر الأنطاكي ، والبيت هو : واستكبر الأخبار قبل لقائه فلما التقينا صغر الخبر الخبر المتنبي الديوان ، ج ١ ص

بحكم الأمر - فطوى بالقوادم والخوافى ميدان صحن الهواء ونزلت إلى الصحراء التي كانت مكان راحتهم وكان قد نما إلي سمعهم - قبل مجيئها - أمر مملكة « زيرك » ودعوة الحيوانات ، واستتباع الوحوش والسباع ، والافتاح بالمراسلة مع الطيور وامثالهم وانقيادهم له ، وصار الخبر شائعاً وذائعاً فذهبوا إليها بقدوم صدق في الحال واستفسروا منها عن سبب المجئ . فوضعت الحمامة الرسائل التي كانت معها ، وشرحت الصدور بشرح الأحوال ، ونفشت عليهم من رياح سحر الدعوة عدة نفثات ، وما إن اشتعلت النار في الخرقه حتى تزلزل داعية الخدمة في داخل كل واحد منهم وظهر على الجميع آثار الولاء والهوى . وقالوا : لا شك أن الكلاب هذا فالمطلوب في النهاية هو حفظ مصلحة الملك التي يقوم بنيانها على رعاية الرعية ، ومن هنا فسوف يمنع جور الآخرين عنا ، « ما يضر الطحال ينفع الكبد » وعظمة انتمائنا لحماه تكمن في أنه يصوننا من شر الأشرار . وإذا ما فكر - في وقت من الأوقات - أن يضرنا فلن يظهر علينا أثر ذلك الضرر لأننا - أعترف به العدو المبين واشترك في معرفته المخبر والمعاين . ثم استقرت طوائف الوحوش على ذلك القرار وهو أن ينصبوا غزالاً ويجعلوه مع الحمامة حتى يذهب ويرجع إليهم رافعاً إليهم أحواله عن طريق السؤال والجواب معهم ، ويحصلوا على كل شيء يؤمل فيه ، ويتمنى عليه ويؤكد شروط الوفاء بواسطة القسم والاستظهار . فعينوا غزالاً وتوجه مع الحمامة في وقت السحر الذي كان شيب الصبح ، العارض مختلطاً فيه بخضاب الشباب ، وذيل طاووس المشرق تحت جناح الغراب ، ثم أسرع الحمامة إلي الخدمة قبلة ، فقالت نبذة عما حدث من الأحوال . فأشار « زورى لـ » « زيرك » أن مر حتى تدعى الطيور فيحتفظ كل منهم في الجلوس بمكانة وفي الاستقرار بمقامه ، وأن يعينوا لكل واحد مكانه حسب اختلاف المراتب . حتى إذا دخل الغزال رأى المجالس في ملابس الهيبة

والوقار . فمن أهم وظائف الوقت أن تحتفظ فقط بمقدار القيام والقعود معه ، وألا تترك طرفى التفريط والإفراط من اليد خلال الانقباض والانبساط ، وإذا ما كانت هناك حاجة إلى الأسئلة والأجوبة أثناء أداء الرسالة فلا تسق جواد العبارات الساخنة واجعل عنان الكلام بيدى فى مضايق الدقائق ، واترك لى مناظرته حتى تأتى العشرة التى يتعثر فيها العقلاء فى الطريق ، لأنك لو تغلبت عليه فلن يزداد شرفك ، أما لو غلبت منه فقد ثبتت الوصمة الكبيرة والمنقصة التامة وعندما شحن البلاط بعوام الحشم وخواص الخدم ، جلس « زيركش » فى المجلس وسط الزينة التى كانت مناسبة للوقت . ثم أدخلوا الغزال بالتقريب والترحيب الذى كان يستحقه ، وأجلسوه محترماً مكرماً وأزالوا عنه وحشة الطريق ووعثاء السفر بتحية ناعمة وسؤال دافئ بحياء وخجل .

ودخل « زيرك » فى الحديث وتكلم بلسان ذرب ولهجة حلوة ، فألقى حلوى محشوة باللطف دون حشو العبارات ، فكان الغزال سعيداً من أعماق روحه بحلاوة هذا الكلام حيثئذ نزعته الدهشة من بينهما واستعت عرصة الأمل والرجاء ودخل جريئاً فى الحديث وعرض - بلا تحاش أو مكاتمة - كل ما التمس فى ثياب الخضوع والعبودية ، وخشوع وضعف .

وفى النهاية واصل « زيرك » الكلام قائلاً : ينبغى أن تأمنوا من ناهيين ، فكثير من الملوك الذين يتخذون الصغار أعداء فإنهم عندما يعلمون التزامهم فى أمورهم ، ويظهرون اللياقة فى شغلهم يصبحون محبوبين عندهم ومقرين لديهم ، وأنت تعلم أن ذلك فى أصل فطرتنا وطبيعتنا . فالكل قاصد لكم . لكن ليس هذا من جهة أنهم رأوا منكم فعلاً غير موافق ، أو وجدوا ضرراً لاحقاً بهم ، بل كان هذا من جهة أنهم أسيرو الطمع وعبودية الشهوة والخضوع للطبيعة ، فلا جرم أنهم

دائماً جوعى للحومكم ، وعطشى لدمائكم ، فيقضون كل العمر في
كمين تلك الفرصة التي يأسرون فيها أحداً من تلك المواشى بمخالب
قهرهم . وأنا بعون التأييد الإلهي قد نصرت العقل على الهوى ،
وأغمضت عين الطمع والغضب عن كل ما كان مطعماً ومطعماً حيثئذ
- سنكون في حوزة حمايته من ضرر الآخرين ، ويبدو هذا القدر من
التعب أنه عين الراحة .

إلا أن أرنباً يشتهر بالدهاء والذكاء مثل شعاع بين ذكاء بين الأنجم ،
كان حاضراً هذا الاجتماع ، وبدأ بالاعتراض قائلاً: أعجب من أمركم أيها
الحمقى تسمحون لأنفسكم أن تجتمعوا وتتفقوا على هذا الأمر بلا تفكير .
ولا تعلمون أن الناس وقت المشاجرة وعندما يقذف كل منهم الآخر بالهجاء
يشبهه بالكلب ، ويضربون به المثل في الخساسة والسفالة . ومن ثم فهو
ناقص في جوهره ، للدرجة أن صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام يأمر
من ابتلى بمس فم الكلب بغسله سبع مرات بالماء والتراب من باب
الاستكاف ، كما أن جلده لا يأخذ الحكم بالطهارة بأى دبح ، ولا يزول
نتن الرذيلة التي جبلت في تكوينه بأى خصلة أو بأى فضيلة ،

مَنْ وَسَخَّتْهُ غَدْرَةٌ أَوْ فَجْرَةٌ لَمْ يَنْقُهِ بِالرَّخْصِ مَاءُ الْقَلْزَمِ

ومن أول لوازم الاستعداد للملك النسب الظاهر الذى إن لم يوجد فيه
(أى فى الملك) فكل شئ يأتى منه مشوب بنوع من النقصان ؛ لأن السرو
والياسمين لا ينبت من منبت الثوم والزنجبيل الشامى أبداً . ولا يأتى الورد
والريحان من مغرس الخيزران ، قال تعالى « والذى خبث لا يخرج إلا
نكدا » ^(١) قالت الحمامة له : تجاوز عن هذه الخيالات المستحيلة ،

(١) الاعراف / ٥٨ .

لَا يَقُومِي شَرُفْتُ بِلْ شَرُفُوا بِي وَيُنْفَسِي فَنَخَرْتُ لَا بِجُلُودِي ^(٢)

إن السلطنة أمر عظيم والتحليق فوق قمة معاليها لا يكون إلا بجناح الهمة العالية ؛ لأن النسب رتبة وجه الحسب ، ولو لم يوجد النسب فالحب وحده هو الأصل ويغنى عن كل شيء ومن هنا يسأل عن الرجل من ناحية محامد الصفات الذاتية مثل الفضل والفتوة والمنقبة والمروءة . ثم يسوقون الكلام عن نسب الأبوة ، لأنه ليس كل ما يلقيه الغزال مسكاً طيب الرائحة ، أو كل ما يخرج النحل عسلاً مصفى ، أو كل ما يريه الصدف لؤلؤاً متلألأ ، وليس كل ما تلده اللبؤة أسداً شجاعاً ، أو كل ما يصنعون من الحديد يكون سيفاً ،

فالرجل الذي رأس الفردوس أنى له أن ينظر إلى الدنيا ، والذي وصل إلى البحر أنى له أن يطلب المستنقع ؟

فانظر إلى الصدف وقل (لها) إن تكونى أفعى مؤذية ، واطلب المسك وقل له لا تكن غزالاً شريد الصحراء ^(٢)

وتلك الفضلة السيئة التى ولدت من أصل طاهر ، وهذه العلامة غير المقبولة التى وضعوها على ناصيته هى « أنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح » ^(٣) ثم إننى أعلم أن مجرد النسب ليس علة العظمة والسلطنة وإلا فالحب الذاتى لا يمكن أن يكون مكماً ومنقصاً ، وجوداً وعدماً ، بل ربما انتهى به الذى يجدر به أن يكون مفخر الأصل ،

كم من أبٍ قد علا بابن ذرى شرفاً كما علا برسول الله علنانُ

(١) البيت للمتنى من قصيدة مطلعها :

كم قتيل كما قتلت شهيد بياض الطلا وورد الخلود المتن : الديوان ، ج ٢ ص ٢٠٨ .

(٢) هذان البيتان من قصيدة للخاقانى فى مدح فخر الدين منوچهر شروانشاه خاقانى شروانى ، الديوان بتصحيح دكتور سجادى ص ٣٣٤ ، ٣٣٦ .

(٣) سورة هود : ٤٦

وكل ما تقول من ان الكلب منسوب إلى خسة الطبع فاعلم أن الرجل الذكي دائماً ما يبحث بمصباح العقل عن عيبه ، فإذا وجد عادة مذمومة وصفة منفردة في نفسه أبعدھا بجهد وتكلف مثلما فعل اللص الذكي فسأل الأرنب : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية اللص العالم

قالت الحمامة : زعموا أن لصاً كان أسرع من الوهم ومن خيال الليل ، لو أراد ضرب نقب في حصار رحل ، أو خلع النقاب عن وجهه لفعل ، فقد كان يدخل من فتحة كل نافذة مثل شعاع القمر ، ويزحف من ثقب كل باب مثل الشمس ظل أمير الولاية يطلب إدخال رأسه في حبل الحيلة لمدة عامين ، فلم يتيسر له ذلك .

وذات ليلة كان اللص يجلس مترصداً - كعادته - خلف منحني جدار حتى يخطف من المارة متاع البيت . فشاهد جماعة من الناس كانوا قد قبضوا على امرأة - سيئة الفعال - بجرمة الزنا ، وكانوا يجرونها إلى قصر الوالي . فصاحت المرأة : أيها المسلمون لم أقل بهتاناً ولم أسرق فماذا تريدون من المسكينة ؟ فأعطى هذا الكلام عقاباً وتأديباً شديدين للصوص ؛ فقال في نفسه : أف لعمل عملته فترة من الزمن تخجل منه امرأة زانية . ثم ذهب وتاب عن هذا العمل ، ولم يفش ذلك السر أيضاً .

وقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم أن « زيرك » عالم جداً وذكي جداً وذو مهارة وصاحب فضيلة ، ولو وجد مثل هذا العيب في نفسه ، لعلم أن الاجتناب عنه واجب ، ولو لم تكن هذه المعاني غير مسموعة مني لديكم ، فوكلوا أحداً منكم على ، وأوكلوا إلى أمانته تحقيق هذه المعاني ؛ فيأتى ويشاهد : كيف أن السلطان مزين بلطافة الكلام وذلاقة اللسان ونظافة العرض !! وقد اشتهر من مناقبه ما راق وفاق وطبق ذكره الآفاق ، حتى للحيوانات المفترسة ، وابتعدت عن كل هذا ، واتخذت العقل دستوراً

فى الأمور حتى لا يصل منا ضرر لآى حيوان على الإطلاق . وحتى لا يتخذ بغضنا وحسدنا مكاناً فى قلب أى حيوان ، ويجب أن يعلموا أن عدلنا - بعد اليوم - سوف يكون حارساً للجميع للقطيع . وسوف يكونون مطمئنين فى كنف أماننا وأماننا وسوف يأتون بالوحوش من أطراف العالم وأكنافه بفضل موثيق عهدنا ومواعيد لطفنا ؛ حتى يتعايشوا فى سلطتنا بالرحمة وقلّة الأذى والرفق والرعاية حتى لا يتصوروا جهدنا وسعينا حلاً ومالاً إلا بالثناء الجميل والثواب الجزيل الذى صار ذخراً .

فقال الغزال: ليكن البقاء والفوز للملك الموفق سعيد الحظ لا شك أن طريق الخلاص من الخصوم - بلا محابة لك منا - أن نتوسم بوسم عبوديتك ، حتى يحفظنا حزام أمرك من مخنقة مخلب الأعداء وتحميننا عظمة أظفرك من مشافر سافكى الدماء .

أما عندما تكون بيوتنا متفرقة فى الجبال والتلال ، ومساكننا فى المصاعد والقلال المتفرقة ويكون لكل طائفة منا عدد مختلف ، فسوف تغلى مرارتنا دائماً من الخوف منهم ، وتبدو جميع أزهار جبالنا وثمار حدائقنا مثل نبات السم ، ونشبه قطع الأغنام الذى يملك مجمعاً ومضجعاً واحداً ، يأكلون مجموعة واحدة فى مرعى واحد ومعلف واحد ينامون كذلك فى مكان .

فالتفت زيرك إلى « زورى » متسائلاً : ما جواب هذا الكلام ؟ فقال « زورى » اعلم أن السلطان الشمس المضيئة التى تنير كل أقطار العالم من مكان واحد ، ويبدو شعاع أنوارها فى كل مكان تصل فيه شكل مختلف ، حتى يستولى روع البأس ورعب الخوف فى الأدنى والأقصى على كل قلب بطريقة مختلفة فقد قيل : لا تأمن السلطان وإن كنت بعيداً عنه لأنه قادر عليك أيضاً .

كالشمس في كبد السماء محلها وشعاعها في سائر الآفاق

والحقيقة أنه عندما يستقر الملك ويستمر الحكم ، تظهر الكثرة في سواد الجيش ولا تستطيع الخيالات في سويداء أى قلب أن تقصدكم ، مثلما لا يتعلق أي مخلب النمر على ذيل جلد الغزال ، وقدم الذئب لا تساوى سرعة هوس الخروف ، ومثلما تمنع عظمة غصة البقرة اللقمة في فم الأسد ومثلما يغسل كحل عين النمر الصغير دمع حسرة الغزال .

قال الغزال : لنا التماس آخر ، وهو أن يجعل الملك طريق الذهاب والإياب مفتوحاً لنا ، حتى إذا وقعت الواقعة التي نحتاج لرفعها ، فإنك تسمع بالسمع المبارك بلا واسطة ، فترفع تلك المظلمة عند مساس الحاجة . ويتنظم الصغير والكبير والرفيع والوضيع والخطير والحقير والمجهول والوجيه والخامل والنبیه جميعاً في نظام وسلك واحد وقت الاستغاثة ، ولا ينفرد أحد عن الآخر مثلما فعل أنو شروان مع الطحان فسأل « زيرك » كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية كسرى مع حمار الطحان

قال الغزال : سمعت أن كسرى كان في غاية الرعاية والعدل لرعيته لأن طبعه قد فُطر على ذلك ، ومن ثم طلب ألا تُخفى عليه جزئيات أحوال الرعايا من رعايع الناس وأشرافهم مطلقاً . ولأنه لو طلب العدل عن طريق لسان الناس وأشرافهم يحدث تقصير في كشفه

، يحدث الخلل فى قاعدة العدل التى يبنى عليها مناهج الخلق
ومصالح الملك ؛ أمر أن يفتلوا حبلاً من الحرير ، ويعلقوا فيه أجراساً ،
ويربطوه بالقرب من ساحة القصر ، حتى يمسك ذلك الحبل ويضرب
الحرس كل مظلوم يُركل بنعال الذلة . ويصل صوت حكاية حال ذلك
المتظلم إلى سمع أنوشروان حتى أن قلب الجرس الحديدى صار يربت
على قلب المظلومين ويرحمهم فى ذلك العهد ، لأنه يوفى حق
المسلمين فى كشف بلواهم وبث شكواهم بلسان اللامشافهة وكان هذا
الحبل الحريرى قد ربط بروح الملهورفين ، فيتحرك فى جميع أجسامهم
لحمايتهم .

أما اليوم فلو يتعلق ألف مظلوم بحبل ، فلن يوجد الشخص
المغيث عندما يتحرك الجرس ، فتحتار أكان ذلك الحرير قائماً على
تأسيس عدله أم كان أوتاراً عندما ضعفت خرجت أنات الممتحنين
جميعاً من تحت الستر .

ومنذ عصر ذلك الملك حتى اليوم ، نجد كل ملك من الملوك
وصلت إليه نوبة سماع هذا اللحن ، قل الحرير عنده ، حتى زال
اليوم عن الاستعمال تماماً . وما زالوا يحتفظون بنفس الحجاب .

و ذات يوم خلت المنطقة حول قصر أنوشروان من الناس ، فوصل
إليها حمار وحك جسمه فى ذلك الحبل بسبب الجرب الذى ظهر على
أعضائه نتيجة الضعف الشديد . فسمع أنوشروان صوت الجرس
ولشدة حبه للعدل ورفضه للجور بحث عن مكان حتى أتى إلى زاوية

فى سطح بيت الخلوة ، ونظر فرأى حماراً على هذه الصفة السابقة ، فسأل عن حاله . فقالوا له : هذا حمار الطحان قد عجز عن العمل والحمل بعد أن صار عجوزاً نحيفاً . فأطلقه الطحان خارج البيت فأمر أنوشروان الطحان أن يعيد الحمار إلى المنزل ، ويواظب على إطعامه وسقايته ، وألا يتعبه فى بقية حياته بألا يكلفه عملاً ، وأمر منادياً ينادى : بأن كل من يملك حيواناً وانتفع به فى شبابه فلا يضيعه وقت الشيخوخة .

وقد قلت هذه الحكاية حتى يـَلم كيف كان ملوك العالم حراساً له (أى للعالم) !! وكيف كانوا يـَرون بتأسيس مبانى العدل ، وقواعد الشفعة على الخلق !!

شئ آخر هو أنك إذا أمرت بعقوبة فى وقت ما ، يجب أن يكون الباعث عليها هو تأديب الرعية وتعديل أمور المملكة ، وليس الهوى والغضب الذى يظهر بسبب إغراء الطبيعة ، وأن تضع حمل التكليف على قدر الطاقة حتى لا ينهار ما يحملونه ، وأن تترك غير المتمرس « إن أردت أن تطاع فسل ما يستطيع » وعندما تجازى على جناية يجب أن تميز بين المتعمد والساهى ، وبين المكافئ والبادئ وينبغى فيمن ينفذ ذلك علينا أن يكون متبصراً ، متيقظاً ، عاقلاً ، حافظاً يبحث بطبع الصلاح ، ولا يظهر آثار التكلف والتقليد فى ذلك حتى لا يتعد عن الفطرة ، ويرغب عن النفس مثلما قال المغنى للعريس فسأل زيرك : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية المغنى مع العريس

قال الغزال : سمعت أن فى وقت ما تزوج شخص فتاة وشغل بالعرس والوليمة كالعادة ، وبكل ما كان ضرورياً من رسوم وعادات تلك الضيافة التى أعدها للضيوف ، ولما كان فى عزلة عن الجميع ، وكان له جار تتألم زهرة السعد من آله الموسيقية ؛ مثلما تعاني زهرة دعد لفراق رباب^(١) تثير ضرب نقراته لحن البلبل على أوراق الورد ، ويعكس نشاط نغماته ضحكة الورد على وجه البلبل .

لم يأخذ سماع هذا المزمار المعكوس فى ثوانى وثالث الحركات مع مثاله ومثانية فى لحن أعلام التصوف ،

فارس العريس (المضيف) شخصاً فى طلبه ، فذهب إليه قائلاً : احمل العود واحضر بسرعة ، فبادر بسؤال : هل خطب العريس هذه الفتاة برغبة القلب ومراد الطبع ، أو أن أبواه هما اللذان حكما بذلك ؟ فأنكر الرسول عليه هذا التساؤل متعجباً :

فقال المغنى مبرراً : إن الرجل إذا خطب المرأة حباً فيها ، تعلقت روحه بسماعى ، وعلق عزفى بقلبه وجعل من أغاريدى وأغانى بارى وصال وفراق مع خيال وجه غوانى العشق ، ويسمع عزفى للحن العشاق من خلف كل ستر ، فيعود على فوائد كثيرة من تأثير السماع

(١) عامل الكاتب دعد وريباب على أنهما عاشق ومعشوق ، مع أننا نعرف أن دعد وريباب معشوقتين لهما قصص حب مشهورة فى الأدب العربى .

فى نفس العريس وقلوب الحاضرين . أما لو لم يكن الأمر كذلك ،
فما هو حاصل السماع بالنسبة لى وله !!؟

فرق بين العشق الذى ينهض بالروح ، وبين ذلك الذى يقيد النفس
بحباله .

وقد قلت هذه الحكاية حتى يكون مقررأ أن أمر الرعايا ورعاية
أحوالهم لا يجب أن يفوض لى شخص .

قال زروى أحسنت قولاً . لىكن الشاء واليمن على هذه الفطرة
التي فهمت هذه الحقائق على هذا النحو ، ولعلها - بهذا - قد سارت
خطوة فى طريق رفقة الأصدقاء . وآن فإن رضانا يقتضى أن تسيروا
فى طريق الوفاء والصدق بصبر وأمانة ، لأن كل شئ لا يؤسس على
الوفاء والصدق لا يثبت على حال .

واعلم أن محل الصدق شيئان : القول والفعل ، وصدق القول
يكون فى : إذا قلت شيئاً استطعت أن تخلص ذمتك منه ، أما صدق
الفعل فهو ألا تترك قاعدة الاعتدال .

واعلم أن الاعتدال ليس هو المساواة فى مقادير كل شئ وإنما
الاعتدال هو العمل وفق المصلحة وكل من يفهم العدالة على المعنى
الأول يفعل فعل ذلك الطباخ الجاهل ، فسأل الغزال : كيف كانت
تلك الحكاية ؟

حكاية الطباخ الجاهل

قال زروى : سمعت أن حكيماً ترأس اجتماع الحكماء ذات يوم .
وكان هذا الحكيم طيب العشرة ، وكان يتحدث فى كل ألوان الحديث ،
حتى وصل الكلام عن اعتدال الأخطاط^(١) والأركان ، وقال : إن من
يكون - دائماً - متساوى الأجزاء فى الصفراء والسوداء والبلغم والدم
بمقدار صحيح غالباً ما يظل مزاجه الكلى على قراره الأسمى ، وشبيه
بهذا أن الربيع يأتى عندما تكون الشمس فى نقطة الاعتدال ،
وتساوى ساعات الليل والنهار ، مثلما يلتصق اعتدال الفلك بعين
الشمس ، فيظهر الاعتدال المطلق فى مزاج العالم . وكان هناك طباخ
قد وقف بين المشاهدين ، فلم يستطع الفهم ، فتخيل أن المراد من
الاعتدال هو تسوية المقدار . فذهب وصنع قدراً من حساء الكمون
ووضع عليه لحماً وزعفران وكموناً وملحاً وماء وتوابل أخرى بمقادير
متساوية وعندما نضجت وضعها أمام رئيسه ، فأظهر البرهان على
جهله ،

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم^(٢)

وقد قلت هذه الحكاية لتعلم أن رعاية العدالة طريق دقيق ، لأنه
لا يمكن سلوك هذا الطريق بدون آلة العقل ، فالعقل هو المقياس الذى

(١) الأخطاط فى اصطلاح القدماء : الدم ، الصفراء ، السوداء ، البلغم (فرهك عميد)

(٢) هذا البيت للمتنبى من قصيدة مطلعها :

إذا غامرت فى شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم المتنبى : الديوان جـ ٢ ص ٣٧٩

يرعى الأمور العرفية والشرعية فى فوائد الدنيا والدين ، والإشارة النبوية التى تتمم الأمور هى « ما دخل الرقق فى شىء قط إلا زانه وما دخل الخرق فى شىء قط إلا شانه » .

فحفظ الظبى هذا الكلام ، ونقش ما سمعه من « زيرك وزروى » على سواد وبياض العين والقلب ثم دعا بالدعاء اللائق للحال وأثنى بالثناء المستحق فى هذا الوقت . ثم اتجه مع الحمامة - مأموراً - إلى المقصود بوجه صبيح وأمل فسيح وحصول مراد القلب ، وخصب مراد الأمانى مقضى الوطر مرضى الأثر والنظر ، ، عندما وصلا إلى المقام والمستقر حضرت الوحوش ، وهنا بعضهم بعضاً ، ثم أطلق الظبى اللسان بذكر محاسن أوصاف « زيرك » ومحامد أخلاقه وسيرته المرضية وقال :

له خلقٌ كالروض غازلة الصَّبَايزُيدُ فَبَضْوَعٍ فى أَكْنَافِهِ أَرْجُ الزُّهْرِ
على مَرِّ الزَّمَانِ سَجَاحَةً كَمَا زَادَ طَوْلُ الدَّهْرِ فى عَبْقِ الخَمْرِ

وتوقع سير أمور الوقت فى مستقبل الحال بهدوء . وسعدوا جميعاً ثم وقف الظبى والحمامة لتبليغ رسالة « زيرك » وإشاراته ، وجملة الوصايا التى كانت قد قيلت فى قضايا وأمور السلطنة والرعية ، ثم أعادا ربط الأصول والفصول التى كانت قد أُلقيت فى ذلك الباب . فاطمأنت القلوب واستقرت على قبول الطاعة ثم طاف الظبى حول أطراف تلك الحدود ، وجمع جماهير الوحوش ، واحتشدوا

جميعاً على أتم وجه للسير إلى بلاط « زيرك » فقامت الحمامة على رسم الحجابة في الأمام ، ووصلت إلى الخدمة ، وأوصت الخبر عن وصولهم فقال « زيرك » كلما كانت عقائدهم خالية عن مكائد قصدنا هذه الساعة كانت الضمائر صافية عن تصور الجرائر ومضرات الضرر والأذى . أما عندما تظهر صولتنا ومهابتنا أمامهم فلن تكن بعيدة عن التمكن في أصل الفطرة . وعندما يقتربون منى يرهبوننى ، فإذا غلب على أحدهم ضعف القلب ، وجهل أن عنان طبيعته يخطف ، ذلك أو أن ليس لديه خبر عن كيفية الحال ، فيلاحظ الجهد ويولي وجهه شطر الهرب لا قدر الله ؛ لأنه يؤدي كل حركة بتحريش وتشويش ، ومن ثم أوجد طريقاً لتردد الحيوانات المفترسة ، ومن ثم يتبدد النظام وتبقى الأمور الفاسدة ، مثلما حدث للشعب مع الديك ، فسألت الحمامة : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الشعب مع الديك

قال « زيرك » سمعت أن ديكاً كان قد طاف العالم ومزق شراك المكر ، ورأى كثيراً من حكايات الشعب ، وسمع حكايات حيلهم . وذات يوم كان يطوف في حديقة ممتعة حول القرية ، فمشى كثيراً ثم وقف على أول طريق حيث الورود المفتحة وشقائق النعمان الجميلة ، قد تهدل عليه الشعر المسكى المجعد من مفرق الرأس على العنق والكتفين ، وتدلى طرف الذؤابة الياقوتية على عروة القلنسوة في كساء

منقس وقباء مبرقش مثل العروس فى الحجلة ^(١) والطاووس فى الجلوة ،
وقد جعل ذيل الحسن على القدم ، وأذن ، فسمع الثعلب الذى كان
فى تلك النواحي ، وطمع فيه ، وجرى بحرص تام حتى وصل إليه ،
فقفز الديك - من الخوف - على الجدار ، فقال له الثعلب : لماذا
تخاف منى ، لقد كنت أطوف هذه الساعة فى هذه الأطراف وفجأة
سمعت صوت آذانك للصلاة ، فأخذ القلب يخفق فى نافذة صدرى
بسبب نغمات حنجرتك . فالبرغم من أنك ديك ^(٢) رومى أصيل ،
إلا أنك أوصلت حديث « أرحنا » الذى مضى مع بلال الحبشى إلى
سمعى داخل حجاب الذوق والسمع . وحركت سلسلة وجدى ،
ومن ثم حركت دواعى المحبة وجواذب الألفة مثل بلال الحبشى
وصهيب الرومى .

إننى أطوف حول قربتك من أجلك مثلما يأتى البلبل إلى حاقة البستان
من أجل الورد .

ولقد جئت الآن بقصد هذا التبرك ، لكى أحصل على بركات
أنفاسك والأنس بك ، وأسعد لحظة بمحاورتك ومجاورتك ، وأخبرك
أن الملك - الآن قد نادى بالآلا يعتدى شخص ، على شخص مطلقاً ،
أو ثمر على قلبه فكرة الجور والظلم ، حتى لا تمتد يد تطاول الأقوياء
إلى الضعفاء . وحتى لا يتعاشوا إلا باللطف والإحسان مع بعضهم
بعضاً . وهكذا تعيش الحمامة فى عش العقاب . ويصبح الخروف

(١) الحجلة : مخدع العروس .

(٢) فى الأصل (رجل) .

قرين الذئاب ولا يشغل الأسد بالتعرض لابن آوى ، ولا يجهز الفهد أسنانه لافتراس الغزال ، ولا يمزق الكلب جلد الثعلب ولا يخطف الثعلب عرف الديك مرة ثانية - والآن - يجب أن يُقتلع من بيننا التناكر والتنافر ويزداد الاستظهار التام فى الجنابين بالعهد الوافى .
فرفع الديك عنقه أثناء الحديث لينظر نحو الطريق ، فقال الثعلب : لماذا تنظر ؟ فقال : إننى أرى حيواناً آتٍ بسرعة من ناحية هذه الصحراء ، هذا الحيوان ذئبى الجسم ، عظيم الأذنين يتجه إلينا . فتطرق اليأس للثعلب من طمعه بسبب الكلام عن الكلب ، وأصابته حمى الرعشة جميع أعضائه من الهول ، وتراجع عن افتراس الديك ، وطلب الاختفاء من الخوف والاضطراب عله يستطيع أن يتحصن بمكان . فقال الديك : تعال حتى تنظر ما هذا الحيوان على كل حال .

فقال الثعلب : هذه الأمارات والعلامات التى تشرحها تدل أن ذلك هو الكلب العربى ، وأنا لا أسر برؤيته كثيراً ، فقال الديك : لكنك تقول : إن المنادى قد أعلن عن عدل الملك فى الدنيا ، وأنه لن يعتدى أحد على آخر وأن جميع المفسدين والظالمين سوف يُحررون الخلق من الأذى والخوف من القهر .

فقال الثعلب : لكنه من الممكن أن هذا الكلب لم يسمع هذا المنادى ، ولم يتوقف أمام هذا المقام ، وهرب من هذا المكان وانزوى فى جحر .

وقد قلت هذه الحكاية لربما يكون من بين هؤلاء القوم من لم

يسمع صوت موافقة العهد الذى بيننا وموائقته فتتلاشى الغاية . والآن هو الوقت اللائق لكى ترسل « زروى » لاستقبالهم مرة أخرى ، حتى يحصل السكون والاطمئنان لأبناء جنسهم عندما يرونك ، حتى يتسنى لساحة الصدور أن تتطهر مرة أخرى من غبار الظن والشبهة ، وأبدت الحمامة استعدادها للمساعدة فى هذا الأمر ثم أشارت إلى « زروى » أن ينهض لإتمام هذه المهمة ، ويلقى الفتور جانباً عن عزمته ، ويقوم بتكملة الأمر . وقد مدحت شهامة القلب وصرامة العزم ووفور الحزم لديه ، فقد جربته فى جميع المعظّمات والمختصرات (الكبائر والصغائر) ، وهو غير محتاج لوصية ، ومعلوم أن كل ما يقوله جميل وطيب إلا فى استصلاح مفاصلنا واستنتاج مقاصدنا ، ولا يزيل رضانا لهوى نفسه ، ولا يشتري غرورها ، ولا يبيع مخدمته لأى غرض ، ثم أشارت إليه أن انهض وحل هذه العقدة الأخرى عن الأمر بقدر ما تستطيع ، وأبرء ذمتك من هذه العهدة الأخرى .

وَمِثْلُكَ إِن أَبْدَى الْفَعَالَ أَعَادَهُ وَإِنْ مَنَعَ الْمَعْرُوفَ زَادَ وَتَمَمَّ

فذهب زروى إليهم بمقتضى الأمر - وأدى الواجب الذى طلب منه من وظائف هذه الخدمة ، وأم استرضاء الجوانب من موال ومخالف وأقارب وأباعد ، وموافق ومعااند ، ومضاييق ومسامح ومنافق ومناصح ومخالص ومماذق تماماً ، وأحضر الجميع إلى خدمة زيرك مسرعين ، وعندما قبلوا عتبة بلاط الخدمة وخصوها بالعناية والشفقة ، وورصوا ببيان العدل والرافة . ثم جمعوا كل ما كانوا قد

سمعوه ، فشاهدوه ببصر البصيرة وجلبوا تشديد معاقدة الإيمان وتجديد المعاهدة على مباني الإيمان ، ووجدوا مثلاً : وهو أن الجميع مع مواطنيهم يعودون مكرمين سالمين ، ثم وصل هذا الخبر إلى جميع الحيوانات في جميع النواحي فاستقر وقاد جموع الجيش والأتباع من مختلف أصناف الحيوانات ، فتأملوا في إحكام أساس ذلك التدبير الذي يضعونه في أوضاع وأحكام السلطنة فظهر تفرغ وتوزع في خواطر المفسدين ، فانتهوا عن أطماعهم الفاسدة وافتراسهم واختلاسهم ، واهتموا بنظافة اليد وصيانة النفس ، وعاشوا في تلك المراتع والمراعى في رغد عيش ولذة عمر في أمن واستقامة وفراغ قلب واستقامة حال دون تعذيب حاذ ومنة راع يتمتعون في الخصب والنعمة .

ومجاثمُ الآسادِ في أيامه بالعدلِ صِرْنَ مرابضَ الأطلاءِ

فحصل «زيرك» على السلطة نتيجة اتباع إشارات « زروى» ونصائحه ، وتقديم مقدمات رأيه ووصل «زروى» إلى أتم منعة بكل شيء ونتيجة للفكرة التي قدمها لـ«زيرك» لوضع أساس العدل وقاعدة الحق وطبيعة يشرع ، وأصل العقل ،

وتقاسمُ النَّاسُ المسَرَّةَ بينهم قِسَمًا فكان أجْلُهُم حظًا أنا

تم باب زيرك وزروى ، ونذكر بعد هذا باب « الفيل والأسد » ونظهر فيه ما هي عاقبة الظالمين الذين يمتهنون البغى ، ويفكرون في طلب المحال ، وإلى أى مدى وباله ونكالهم .

فليزين الله تقدست ذاته ، الملك سيد العالم بزينة الشرع ،
ولينشر رسوم الدين وحليته ، وليتم العدل ولينقه من كل مدام
الأوصاف البشرية ، وليتزه نفسه الطيبة عن الدنس بمحمد وآله أجمعين .

الباب السابع

في أمر الأسد

وسلطان الأفيال

فى أمر الأسد وسلطان الأفىال

قال الأمير : رعموا أنه فى الأرض التى هى موطن الأفىال ،
ومعدن جواهرهم ، ظهر فىل كبر الجسم ، عظم الهيكل ، مهيب
المنظر ، لم يكن يشهد الفلك فى دوران أيامه مثل هذا الهيكل ، ولم
يلد الزمان فى هذه القلعة ^(١) ذات الاثنى عشر برجاً مثل هذا البدن ،
فصار ملكاً على أفىال بلاد الهند . ووضعوا طوق أمره فى رقبة الطاعة
راضين .

وذات يوم حكوا فى حضرته أن الموضع الفلانى قد زين بالماء
والكلأ ، والخصب والنعمة ، وقد أتى دون بقية أنحاء الدنيا وأقطارها
بعجائب الثمار وغرائب الأشجار . فهو بمنزلة الربيع من الزمان ، وقد
وصفت الطيور تلك المعانى بمنطق الطير السلىمانى ^(٢) فى لحن الأغانى
الداوية بقولهم :

مَغَانِي الشَّعْبِ طَيِّبًا فِي الْمَغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ
مَلَاعِبُ جَنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا سُلَيْمَانُ لَسَارَ بُرْجُمَانٍ ^(٣)

فكل وارد يراها منبعاً للذات الروحانية ومرتعاً للآمال والأمانى ،

(١) لعله يقصد الدنيا أو الفلك ذا الاثنى عشر برجاً .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : « وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق السطر » النمل ١٦ .

(٣) هذان اليتان للمتنبى من قصيدة فى مدح عضد الدولة الديلمى وأبا دلف ، ويذكر طريقه
بشعب بوان ، وهو موضع عند شيراز . راجع المتنبى : الديوان ج ٢ ص ٤٨١ والحاشية رقم

ويسرح فيها نظر الراحة ، ويطرح مفارش الفراغ ، وينفذ فيها فى الحال نسيئة اللجنة الموعودة . ويعاين فيها وجه إرم التى هى فى نقاب الخفاء من نظر الأجانب (غير المحارم) .

تَمَسُّ السَّحَابَ عَلَى أَطْوَادِهَا فَرَقَا وَيُصْبِحُ النَّبْتُ فِي صَخَرَاتِهَا بَدَاً
فَلَسْتُ تُبْصِرُ إِلَّا وَاكِفًا خَضَلًا أَوْ يافِعًا^(١) خَضِرًا أَوْ طَائِرًا غَرْدًا

وكان لتلك المملكة أسد ، قد جعل هذا المكان الجميل مكان صيده ، وجعل كواسر وحوش تلك النواحي فى شراك طاعته ، يأكل ويشرب مرة بعد مرة من مشرب تمتعها بلا تكدير ومزاحمة أى مزاحم .

باختصار جمعت أسباب العيش « فى عيشة راضية ، وجنة عالية »^(٢) بذلك المكان المريح الجميل فتحركت بواعث عدم الصبر والقلق فى دواخل ملك القبيلة من سماع هذه الحكاية ، وحينما يتذكر ذلك الفيل - الذى يعيش فى بلاد الغربية - بلاد الهند يفقد زمام الهدوء والاستقرار من شدة الشوق الجاذب لذلك المستزده ، وظل فى حالة شبق النشاط ونشوء الاغتيباط الناتج عن نخوة الشباب التى غلت مراجلها فى رأسه وظل يستعيد ذكرها كل حين .

أعد ذكر نعمان لنا إن ذكره هو المسك ما كررته يتضوع
فإن مرّ قلبي فاتهمه وقل له بمن أنت بعد العامرية مولع

(١) يافعا : ما أشرف من الرمل : وجبال يافعات ، مشرفات ، وقيل كل مرتفع يافع (لسان العرب) .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى « فهو فى عيشة راضية . فى جنة عالية » الحاقة / ٢١، ٢٢ .

وكان لملك الفيلة وزيран ، أحدهما يدعى : «هنج» وهو خير بالدنيا
مجرب للأمور باحث عن الصلاح ، قائل للصواب ، والآخر يدعى :
« زنج » سافك للدماء ، مثير للفتنة ، مشاغب ، مفسد ، نجس متهور .

على كاسمه أبداً على^١ وعيسى خامل وتحن^(١) دنى
هما ثمران من شجر ولكن ولكن على مدرك وأخوه نى

وما ذلك إلا لتعلم أن السم والترياق كلاهما يخرج من معدن واحد
والسنبل والآراك ، كلاهما ينبت من منبت واحد ، وأخوات هذا المعنى
لا تحصر ، ونظائره لا تعد ولقد أحسد ذلك المراغى^(٢) حين قال :

يا سيدى كلانا مراغى ، ومن ثم فى وفيك أثر من حمار
لكن لأنك جاهل وأنا من أهل العلم ، فإنك جئت من دبر الحمار
وأنا من لجامه .

فاستدعاهما أمامه ، وقال لهما : قد عزمت على تجريد جيش
لتلك الناحية . ويبدو لى أن الاستيلاء على ذلك الملك سهل ، فما
رأيكما فى تصويب هذه الفكرة لى أو تسفيها ؟

(١) وتحن : رجل وتحن ككف أى خسيس (تاج العروس) .

(٢) نسبة إلى « مراغة » وهى اسم مدينة فى آذربيجان إلى الشرق من بحيرة أرومية ، وكانت مراغة تعبر
العاصمة القديمة لآذربيجان ، لكنها كانت دولة مستقلة فى عهد الأتابكة ، وأبرز من حاولوا فتحها فى
ذلك الوقت خاص بك بلنكرى وأحد أمراء السلطان مسعود .

د . عبد النعيم حسنين : نظامى الكتجوى شاعر الفضيحة ص ٣٩ ط ١ سنة ١٩٥٤

فقال هنج : إن الملوك مخصصون بالتأييد الإلهي والتوفيق السماوي ، ومن ثم وضع في يد اختيارهم زمام التصرف في المصالح والمفاسد ، والمسرات والمساءات من هذه الناحية ، لأن علمهم وحده يفوق علم الجميع على العموم ، وإن كان قوله تعالى : « وشاورهم في الأمر »^(١) لم يغن أي مستبد من الاستضاءة بنور عقل المستشارين والناصحين . أما وقت تعارض المهمات وتنافي العزمات فإن رأيهم الطاهر يكون أفضل وسيلة للنجاة من الشجار والخصومة . لكنني سمعت من العلماء ويعيدى النظر أن كل شيء وضع في موضع حسن فلا تضعه في أحسن منه ، لثلا يتسبب ذلك التغير والتبديل والمبالغة في إكمال التعديل في أن يدخل النقصان على الوضع الحالي ، ويسبب توهم النسيئة التي كانت متأرجحة بين طرفي الحصول والامتناع ، يضيع من يدك الموجود لديك بالفعل ، ويزول عنك ، وربما لا تصل إلى الذي تتوهمه ولا تحصل إلا على الندامة بعد تحمل التكاليف وتكلف الحيل ، ولقد قالوا : إن كل نفس من النفوس البشرية الناقصة مسلط عليها شيطان دائماً ما يلبس عليها فكرها ، أسموه « هوجسا » لأنه كان ينفخ بريح هواجس الهوى والهوس في دماغه ، وكلما أقدم على مسعى من مساعيه قال له : إن المعنى الفلاني أفضل ؛ حتى لا يثبت على قدم قط ، وقد قيل : إن الذنوب الثلاثة العظيمة التي لا تدل إلا على ركاكة العقل وسماجة الخلق وسخافة الرأي هي :

(١) آل عمران / من الآية ١٥٩

الأول : سفك الدماء بغير حق .

الثاني : الاستيلاء على أموال الناس بالباطل .

الثالث : طلب هدم البيت القديم .

وأكثر الذنوب الثلاثة ذمماً هو : التعرض للبيت القديم بالهدم ، لأن الذنوب السابقة قسمان ، ولو تأملت جيداً لوجدت القسم الآخر منها يندرج تحت هدم البيت القديم .

واعلم أن الله تعالى وتقدس - لم يوكل أحداً للنظر على الباطن ، ولم يخصصه بدولة العظيمة ، ولم تقتض إرادته القديمة استمرار هذا المنزل وإقامة ذلك المسكن السعيد . فالأسد ملك بن ملك انحدر من منبع أصيل ومنشأ كريم وأثيل . وقد ورث عن آبائه الكرام الملك وطاعة الأمر على سباع تلك البقاع ، ثم ضم إلى ذلك الآثار التي اكتسبها بكرم عاداته ، ولأنه لم يصدر منه ما يسيء إلى أحد ويخاصة أنت ، ولم يصدر منه سبب من أسباب العداوة التي ربما تكون مبدأ هذه الحركة ، فكيف يمكن التصدي لهذا الأمر ؟ وما ذلك إلا لأن الأسد ليس خصماً ضعيف الصولة ، وأمر الهجوم عليه ليس أمراً سهلاً المأخذ ، بحيث يمكن اقتحام حدود مملكته بجراءة وسهولة ، لأنه قد أمسك - بقوة - بزمام تلك الدولة في يده ، فينبغي إذن النظر في بداية الأمر ونهايته ، ويجب رؤية مداخله ومخارجه بفكر صائب وتأمل شافٍ ؛ لأن كل عمل لا تقتضيه ضرورة يحمل عليها ، ولا يكون موضوعه متمكناً

فى حيز المصلحة ، لا يمكن أن تكون المبادرة إليه محمولة إلا على ضعف العقل وسفاهة الرأى ، مثلما جرت عليه الإشارة النبوية « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » (١) .

فالتفت سلطان الأفيال إلى " زنج " قائلاً : وأنت ماذا تقول ؟ فقال " زنج " : إن كلام " هنج " ربما كان كله هو نقش خاتم المصلحة ، وإنسان عين الصواب ، يبد أنه لا علم له بجور الأسد على ضعف الخلق وهو جور يتضاعف يوماً بعد يوم ، وقضية عدل الملك وإحسان نظره الشامل تقتضى منه أن يخلص الخلائق من مخالب قهره ، ويتزع تلك الولاية من يد التغلب ، فإن كان خرجُ الملك قد راد عن دخله ، ولم يعمد إلى زيادة رقعة المملكة أو مجاوزة حدود بلاده بقدم الطمع ، فلن يجعل أموال الخزانة - حتماً - إلا من جيب الفقراء والمعدمين ، ولن يمضى وقت طويل إلا ويصبح الرعايا فقراء وتغدو الخزانة خاوية ، ويظل الملك بلا شوكة .

والدُرُّ يقطعُه جفَاء الخالب

فيجب على الملك توصيل هذا العزم إلى حيز التنفيذ .
ولا يثنين عَزْمَكَ خَوْفُ القتالِ بِسَمَرِ دِقَاقٍ وَبِبيضِ حَدَادِ
عسى أن تنالَ الغنى أو تموتَ وَقَسْرَكَ فى ذاكَ للناسِ بادٍ

(١) حديث حسن رواه الترمذى وابن ماجه .

ابن رجب الحنبلى : جامع العلوم والحكم ص ٩٧ ط ١ دار نهر النيل القاهرة د . ت .

فإن لم تَتَلْ مَطْلِبًا رُمْتَهُ فليسَ عليكَ سوى الاجتهادِ

فأشار الملك إلي "هنج" قائلاً: لا تحجب كل ما يأتى على خاطرك . فقال « هنج » : هكذا سمعت من أرباب الحكمة وفضلاء العالم : أن كل من يبحث عن منفعة في مضرة الآخرين ، لا يتمتع بها إذا حصل عليها ، أما رذا لم يحصل عليها يذم اسمه ويلطخ بعار الظلم ، ويقع ما كان يراه حقيقةً بأن ينسب إليه من خير وظفر وقع موقع الضنك والفشل .

والملك البصير هو الذى إذا رأى الخرج أكثر من الدخل فإنه يسوى بحسن التدبير بين مستوى الخرج ومستوى الدخل ، لأن الخرج الذى تجاور حد الدخل ، لا يسدوله علاج ، وطلب الشيء والإلحاح عليه ينبغي - عند حصوله - تحمل أنواع المشاق فى الحفاظ عليه زمناً . وفى النهاية سوف يفنى ويتهى ، فهذا ليس علامة على نور البصيرة مثلما قال ذلك المجنون لكسرى ، فقال الملك كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية المجنون مع كسرى

قال هنج : سمعت أنه كان لكسرى غلام ، وكان - هذا الغلام - معشوق روحه وحبّة فؤاده ، وفجأة اختطف من حضنه ، وجاء إعصار الأجل وقطف زهرة غصن الأمانى قبل موسم الشباب ودفنها فى التراب ، وصار كسرى مثل الرجل الذى قطع الأمل الحلو عن روحه ، فوقع فى القلق والجزع ، وكاد أن يذرف عينيه بدلا من الدموع ، مما جعل الدنيا تسود بدخان الغم ، حتى جاءه عاقل فى هيئة مجنون ، (يقظ القلب سكران الظاهر ، والذى كان من مجانين عقلاء الوقت ، وكان يقدم

على كسرى فى حين فينال) - أى كسرى - العظة من غرائب كلماته ونكت فوائده ، وسأل : ماذا حل بكسرى ؟ وماذا وقع حتى جعله مضطرباً على هذه الصفة ؟ فقال كسرى : انتزعوا من كان مثل السراج أمام عيني ، فأظلمت الدنيا فى وجهي ، وابتليت بحرقة فراق فلذة الكبد كما ترى .

صُبَّتْ عَلَى مَصَائِبَ لَوْ أَنَّهَا صُبَّتْ عَلَى الْأَيَّامِ صِرْنَ لَيَالِيَا

فقال المجنون : أيها الملك إن عيسى - عليه السلام - عزى مصاباً ببلاء فقال له كن لربك كالحمam الإلف يذبحون فراخه ولا يطير عنهم ، لكنى أسألك سؤالاً ، فأجب بالحقيقة . أكنت تريد ألا يموت هذا الولد مطلقاً ؟ قال : لا ولكن أردت أن يتمتع ببعض لذات هذه الدنيا ، ويطول عمره ، فقال المجنون : هل رأيت أثراً لبعض اللذات التى كان قد رآها ؟ قال لا : قال المجنون هل كان معه شىء من بعض الملذات التى لم يجدها ؟ قال لا ، قال المجنون إذن صح أن تحصيل اللذة وعدم تحصيلها سواء .

والآن تخيل أن ذلك الذى لم يجده قد وجدته ، وذلك الذى لم يأكله قد أكله ، وأنه عاش طويلاً ثم مات .

ونفس بأعقاب الخطوب بصيرةٌ لها من طلاع الغيب حاد وقائدٌ إذا ميزت بين الأمور وأبصرت مصايرها هانت عليها الشدائدُ

وقد قلت هذه الحكاية حتى لا تضع أساس هذا التمنى الذى يلقي الشيطان بسية الطمع فى القلب ، وأن تعلم أن :

عابد الطمع والباحث عن العداوة ، لا يسمع من أحد في الدنيا كلمة « أحسنت » .

فقال " زنج " : هناك ثلاثة أمور لا يلزم التفكير حين يقدم المرء على مباشرتها إذ لا يمكن الوصول إليها إلا بالمبادرة والجسارة ولا يمكن أخذها بغير شطر المثابرة والمصابرة :

الأول : تجارة البحر ، « فالتاجر الجبان محروم » .

الثاني : مقارعة العدو وقت اللزوم .

الجدُّ أنهضُ بالفتى من جدِّه فانهضُ بجدِّ في الحوادثِ أو دع

الثالث : طلب العظمة والزعامة .

وإذا كانت النفوسُ كباراً تعبتُ في مرادها الأجسام (١)

وقد وجب تحمل الأخطار في سبيل هذه الأمور الثلاثة . فيجب على الملك جعل الفكرة جازمة ، ونصب راية العزم ، ولا بد من الاعتقاد بأن النصر والفتح رينة فاتحة الأمر وخاتمة بالنسبة لنا ، فلقد قيل : الليل حبلى بالنتيجة السيئة التي تتولد ، ولا ينبغي السماع للتفكر والتردد بالورود على الخاطر .

فقال « هنج » قال تعالى : « تحسبونه هينا وهو عند الله عظيم » .

(١) البيت للمثنى من قصيدة يمدح بها سيف الدولة .

المثنى : الديوان ج ٢ ص ٢٤٥

(٢) النور / ١٥

إن أولئك الذين عرفوا جميع وجوه الآفة ومخافة تقديم وتأخير الأفكار ، وجربوا عواقب الأمور وفواتحها ، وأصابوا فى معرفة أحوال العصر ، وأهوال الحرب ومخاطرها بفضل التجربة ، فثبت أن قولهم طريقاً مستقيماً للمسترشدين ، وقد قيل : إن الشعب المتحصن فى داره متمتع بقوة لا يملكها أسد فى بيت غيره ، وواضح أن تجريد جيش وجمع حشر لبيت غريب يتضمن الأضرار التى تؤدى إلى السمعة السيئة فى الدنيا والخزى فى الآخرة ، فما أكثر العمارات الجميلة التى ربما وصل من ساحتها رائحة الراحة لخلق الله قد تيمم وجهها صوب الخراب . وما أكثر دماء الأبرياء التى ربما حفظت فى رجاية الصيانة تراق على الأرض .

لا تجعل الروح والعقل أسيرين للطبع المخالف ، ولا تستبدل حور الجنة بزانية النار

فالذى يقطع الجلد تهلك دولته ، لأنه يمنح الثعابين منح الأبرياء^(١)

وفى عرصات يوم الحساب يوسم بهذه الخسارة على جبينه كما قال النبى - صلى الله عليه وسلم - ، وهى : « آيس من رحمة الله » .

فإن ظفرت بخصمك فهذا انتصار عارض وإن لم تظفر - وهذا فى حد ذاته هو نقد الحال - وقلب الدهر المتقلب فكرك بقلب المجن ، ووقعت قرعة الهزيمة على قلب جيشك وهوى طائر إقبالك مكسور

(١) هذان اليتان من قصيدة للخاقانى قالها فى نعت النبى صلى الله عليه وسلم والحكمة والموعظة الحسنة .

الخاقانى ، ديوان الخاقانى بتصحيح ضياء الدين سجادى ص ٦

القلب ، مقصوص الجناح من أوج مطامح الهمة إلى منخفض عدم حصول المراد ، ومزق القدر - الذى هو مفرق الجماعة - أوصال جموع جيشك ، حيثئذ لا حيلة لك إلا بخروج رأسك سالماً من المعركة حتى إذا ما تعرضت الأسباب والأموال للغارة ، فعلى كل حال سوف تعتبر نجاة الرأس ربح رأس مال العافية ، وسوف تتلو « ومن نجا برأسه فقد ربح »^(١) . ولكن إن تلاشى من اليد ما جمع فى الأعمال من المال والمتاع الوافر ، ونفض ذيل الاستظهار ، ولم يبق من اليمين أو اليسار إلا يد فارغة فى الكم ، فكيف يمكن الاحتفاظ منذ ذلك الحين بمناهج أحكام الدولة ، ومناظم دوام الملك كى تسير وفق المراد ؟ لأن أمور المملكة تستقيم فى يد رجال ذوى خبرة وجيش وقائد . فإن رأوا جيش الملك فقيراً لم يخافوا منه ولم يطمعوا فيه . وكلما زاد فى إغداقه عليهم وإرضائهم لا يجنى فائدة . وكلما وعدهم وعداً حسناً عدوه كاختلاب البرق لا مطر فيه ، وكلما فتح وأعطى لم يقبلوا منه منة . فلو تساقط الدر من فم رجل فقير وقت حديثه لعدّه الناس كثيراً الكلام وأنكروا عليه كل كلامه فضائله وورثته . ولو استعمل المروءة وقتاً عدوه مبذراً . وإن امتنع فهو بخيل .

وإن أبدى مراعاة لم يشكروا ، وإن واسى لم تقبل مواساته وإن كان حليماً نسبوه إلى الجبن ، ولو تجاسر وسموه بالجنون ، أما إذا كان

(١) يضرب فى إعطاء الحاجة وتعذرها حتى يرضى صاحبها بالسلامة منها قال أبو عبيد :

الليل داج والكباش تسطح

نطاح أسد ما أراها تصطليح

فمن نجا برأسه فقد ربح

الميلانى : مجمع الأمثال ج ٣ ص ٣٠٩

الرجل غنياً ، وكان ذا علم قليل فإن الناس تعظمه ، وإن رأوا منه عطاءً قليلاً كالوا له الشكر والثناء . وإن بخل قالوا : إنه عالم خبير . وإن قال كلاماً لا وجه له لا يعترضون عليه ، بل يلتمسون له مائة تأويل وتعليل .

إن ضرتَ الموسرُ في مجلسٍ قيلَ له يَرْحَمُكَ اللهُ
أو عطسَ المعسرُ في مَجْمَعٍ سَبُّوا وَقَالُوا فِيهِ مَا سَاءُ
فمضراطُ الموسرِ عن بيته وَمَعِطْسُ المفلسِ مَفْسَاءُ

ولقد وجدت في أحسن كلمات الحكماء أن « الفقر شيخوخة الشباب ومرض الأصحاء » مضى هذا ، أما أنت فيجب عليك أن تتأمل في نتيجة هذا الأمر وعاقبته بنظرة جيدة ، كما ينبغي عليك ألا تعتمد على حولك وقوتك وصولتك وشوكتك لأن الأسود شجاعة ، مقدامة ، جريئة صارعة للخصم مهدمة للزهرة ، وصاروا مثلاً على أوصاف البلية والسيطرة في أذهان الناس ، أما أتباعك وحشمك ، فالبرغم من اقتلاعهم للمدن وهدمهم للجدر وأكلهم للنار ، فإنهم لم يجربوا حرب الأسود ، وجرح قبضة مصارعهم ومقارعتهم ، ولعلمهم يقصرون عن ارتقاء قصر تلك المملكة ، وتؤثر العين اللامة (الحسد) على حاجب محراب هذه الدولة بالحوادث والزلازل بحيث لا يمكن إصلاحها معه طوال الأعمار ، ونصبح علامة مذمة العالم .

تَبْنِي بِأَنْقَاضِ دُورِ النَّاسِ مُجْتَهِداً داراً سَتَقْضُ يوماً بعد أيام

فأشار الملك إلى رنج أن ماذا تقول ؟ فقال رنج : ليس هنالك شبهة

فى أن كل هذه الفصول محض توقعات وتفكير فى العاقبة ، وأن كل ما يقوله يأتى من منبع العقل الكامل والعثور على حقيقة أمر الدنيا ، لكن العالم والناس فطروا دائماً على أن يطلب الملوك الملك على غرار هذه العادة ، ولقد وضعوا مرامى النظر على أبد مسافة للإدراك ، وتقدم بعضهم على البعض الآخر بالمغالبة والمناهبة ، فكيف كانت همة الملك أدنى وأسفل من همة التاجر حتى يكون أجبن قلباً منه ، فالتاجر يضع كل ما يملك فى السفينة ويجلس هو بنفسه ، ثم تتساوى فى عين قلبه ومرة خاطره صورتا الوصول إلى الساحل أو الغرق فى قاع البحر كليهما .

فإما أوصلت قدمى إلى المقصود والمراد ، وإما أضع الرأس حيثما وضع القلب عن اليد .

وأنا أقول ذلك لأن جيشنا ربما لم يجرب حال الولاية الأجنبية فهو ضال ومتحير فيه ، ولم يقف على مدارج ومكامن الطرق فيها ، وربما ليس لديه خبر بمخاوفه ومآمنه ، وربما يسحبنا العدو بشراك المكر والاستدراج والمراوغة إلى مضيق فتقصر يد القدرة عن تدارك ذلك ، ويصعب الأمر علينا ، ومن ثم فهو يقول حسناً . أما ما يعارض هذه الفكرة هو أن الأسد ملك ظالم ، سفاك ، صائد للرعية ، شديد الإيذاء .

أما جنوده فبعضهم جبنا ، وغير آمنين ، ونافرون منه ، وبعضهم أغنياء أثرياء يملكون كثيراً من العمارات والعقارات ، وسوف يذعنون لنا من أجل استرعاء جانبهم ، طائفة تبحث عن سلامة الرأس ، وقوم

يطلبون حماية المال ، والبعض الآخر - والذي ربما لم يجد من دولته أي ثمرة ، ولم يجد ظل ولايته عليهم - يتطلعون إلى حركة الزمان ويطلبون دولة جديدة وملكاً جديداً عساهم يصلون ، عن طريق مداولاتهم تلك إلى نصيب .

لَهُمْ فِي تَضَاعِيفِ الرَّجَاءِ مَخَافٌ وَلِي فِي تَضَاعِيفِ الزَّمَانِ مَوَاعِدُ
ولا شك أنهم إذا اتصلوا بنا فإن إمدادات النصر تتوالى من كل الجوانب ، فقال الملك لهنج : ما الإجابة على هذا الكلام ؟ فقال هنج : بالرغم من أن وجوه هذه الاحتمالات ليست من المحالات ، والعقل ليس بعيداً عن تصديق ذلك الذي يتصوره كله ، فإن تباين الطبيعة وتنافي رسوم المعيشة بيننا وبين الأسد معلوم ، والتناسب في السن والرسوم بيننا وبينهم غير مقبول بأي وجه من الصور مطلقاً . فعندما يختارون مجانبة الأسد ، ويميلون إلى جانب ماكي ، فماذا يظهرون في رغبة الرعية وأمر الأخوة ؟ وهذا المثل مشهور وهو : أن الكلب يعرض الكلب ، لكنهما عندما يريان ذئباً يتحدان ظهراً ووجهاً في قتاله ، وعندما يفكرون في إلحاق الضرر لا يجتهدون في مخالفته ، ويرضون بمواساتنا .

كملت مس إطفاء نارٍ بناقح

والأسد وإن كان ظالماً سافكاً للدماء ، متكبراً ، مغروراً ، إلا أن ذلك الجيش وخدمه وعبيده لا يزالون أكثر رضاء بالسلطنة والصدارة

وأكثر طاعة لعظمته وسيادته ، وتبعيته من ناحية جوهر السبعية الذي يشترك بينهم جميعاً ويظهرون أكثره .

وتلك السباع وإن كانت متعددة في اختلاف الطبائع إلا أنها تتفق في الوقت الذي يعتدى عليهم خصم من غير جنسهم ويتحدون .

واعلم أن ذلك الجيش مختلف الأفعال في القتال ، وكل واحد له أسلوب مختلف عن الآخر ، فبعض يحاربون علناً وجهاً لوجه مثل الفهد ، وبعض ينصبون كميناً للخصم مثل النمر ، وبعض يتحينون الفرصة برزانه وتأن مثل الدب ، وبعض يعمل بالحيلة والمخادعة مثل الثعلب ، وبعض بالمبادرة والمسارعة كالخنزير أما جيشنا فلا يسلك إلا طريقاً واحداً وعادة واحدة ؛ وهي أنهم وقت المصاولة والمجاورة يولون وجوههم جانباً واحداً ، فإن ارتفع الأمر وهم متحدون ظهراً واحداً وقلباً ، فيها ونعمت وإلا نعوذ بالله من تلك الحالة ، وبعد ، كان كلام زنج قد استقر في سويداء قلب الملك ، ولاح أمام خاطره الغصن المزين وثمراته في زهرات التمني ، وسعد مذاق الطبع بحلاوة الإدراك ، ولأنه لم يكن من الممكن أن يشعر أبداً بمرارة الوخامة وندامة العمل ، نهض من ذلك المجلس وقال : للحرب ناب لا تقل ومخلب ، ثم أخذ في الاستعداد للذهاب والاستيلاء على تلك الولاية ، وشغل بجمع الحشر والأجناد ، وتوجه للاستمداد والاستنجد من ملوك الممالك المجاورة وحشر جميع أنصار الدولة وأعوان يوم الحاجة من عظيم القبيلة وعالمهم بالحرب (مجريهم) ، والشرائط ما ضفى النار الذين يظهرون في حملة بأسهم

وحدة سطوتهم في رداء بهرام جوين^(١) وسيف خورشيد^(٢) لتمزيق أسيد خيمة الفلك ، واستعد (ملك الفيلة) للحرب ، وتوقدت نار الغضب ، وامتلات قارورة الأثير من خل جبهاتهم وذابت كرة ثلج الزمهرير من وقدة برق أنفاسهم ، يئن مثل « كاوماهى »^(٣) ويدور حول نفسه مثل الساقية من حمل قوائمهم يوصلون دخان الخيشوم إلى سطح (بيدر) القمر ، ويلقون بعقدة الخردوم على تنين السماء هكذا جاء في شرح كمالهم وصورة أشكالهم :

يُقلِبْنَ أساطينَ وَيَلْعَبْنَ بثعبانٍ
عليهن تجافيفٌ يُشهرن بألوان

وكان هنالك غراب - بحكم الاغتراب - قد نزل في تلك النواحي وكان قد امتلك مسكناً في ولاية الأسد فعلم خبر تفكير ملك الفيلة وعداوتهم للأسود . ففكر في نفسه قائلاً : إننى مقيم فى هذا المكان ، هناك طائفة من أشقائى وأصدقائى يقيمون فى ذلك المكان ، وبعضهم منتظم فى سلك الاختصاص بخدمة الأسد ، وسوف يؤثر هذا النكال - لا محال - فى حالهم .

هو الجبلُ الذى هَوَتْ المعالى بهدته وريح الآمنونا

(١) أحد قواد إيران الأبطال قبل الإسلام ، الفردوس ، الشاهنامه الترجمة العربية ص ٢١٣ .

(٢) أحد ملوك إيران قبل الإسلام .

(٣) كاوماهى : نوع من السمك يعيش فى بحر الخزر يسمى حوت الجن ، وهو الحوت الأسطورى الذى يقال إنه يحمل الأرض د . شتا ، فرهنك بزرگ فارس (ج ٣) .

أكثر من ذلك أنهم يهجمون على تلك الولاية ، ويمارسون فيها أسلوب زبانية جهنم وعدوان مرده البشر بمغافصة ^(١) المفجأة ومنازعتها وتصل فتنة رجوم آفة هذه الشياطين إلى أركان تلك الدولة ، ويخرج الأمر عن ضبط التدارك وحد الإصلاح ، ومن هنا ، فسوف أذهب إلى خدمة الأسد وأخبره بهذه الحالة ، فربما - بسبب هذا التقرب - أكون من خاصة بلاط حضمرته ، وعندما يكفى شر هذه الحادثة ، يدخرني الملك عنده كوسيلة مرضية نادرة ، والتي بواسطتها أجد الاختصاص في الخدمة ، ويمنحوني وثيقة القيام بالواجب . ثم نهض من المكان و انطلق مثل السهم الواثب من قوس العزيمة ، ممزقٌ درعَ السحاب ، ونفذ من درع الهواء ، ووصل إلى المقصد « قبل أن يرتد طرفك » ^(٢) وذهب إلى أحد المقربين إلى الأسد ، وقال لقد جئت من طريق بعيد ، وطويت مراحل ومنازل ، ومررت على مخاوف ومهالك لا يشق الزهم غبار قدم سرعتي ، وجئت بخبر حال من الأحوال التي قد يصبح الملك مسكيناً من سماعه . فلو تسمح أوصله إلى سمعه الشريف ، فأمر الأسد أن يحضر الغراب . ليعلم ذلك الذي أمسوا فيه ، فأحضروا الغراب ، وقبل بساط الحضرة ، وظهر من انبساط الملك وسروره الذي ازداد في النشاط بحضوره ، حيثُ أزال حجاب الدهشة ، - وبعد تقديم الدعاء والثناء - وحكى أنهم

(١) المغافصة : المفاجأة ، غامضه الأمر : فاجأه على غرة منه (أساس البلاغة) .

(٢) النمل / ٤٠ والآية « إنا آتيناك به قبل أن يرتد إليك طرفك » .

نسجوا الحكايات أمام سلطان الفيلة عن مقر ك الميمون - جعله الله مفر ومهرب اللاجئين من الحوادث . ولا أرى الله صفة رغادة هذا العيش والتنعيم وصمة الزوال والانقطاع - فأوصلوا هذا إلى سمعه (ملك الفيلة) وأثاروا بواعث رغباته ونواهض عزماته على قصد هذه الولاية والاستيلاء عليها ، وقد أحضروا كل شئ يتعلق بذلك الأمر من إعداد لأسباب الحرب وإمداد التجهيز والاستعداد ، وأعد الجيش الجرار الذى يحذر الجبل من مصادمته ، ويتصاعد البخار من البحر بوطأته ، واستنهض المعاوين من كل جانب ، ومضى فى استعراض جمعه الذى ربما يكون قد اقترب من هنا ، ويتظرون السجر حتى يقيموا الختن ، ويأخذوا الجميع وهم فى سكر نوم الغفلة ، والحال على هذا النحو الذى قلته . وقد خرجت من عهدة (ذمة) العبودية والخدمة والقيام بواجب نعمة الملك التى تغمرنا وتشملنا جميعاً ، حتى يصل الرأي المبارك إلى كيفية تدارك هذا الأمر ، ويأمر بفضل إجماله الفكر الصائب - بإزالة هذه الغائلة الهائلة على أى وجه وفى أى مكان . ومهما كان وثوقنا بأصول وعراقة هذه الدولة فإن ذلك لا ينهض باستنفادها من أيديهم ، ويجعلهم يضربون بفأس هذا الكيد على قدمهم ، ويقطع جراثيم وذلك بجدي خراطيمهم ، « ولا يحقق المكر السيئ إلا بأهله » ^(١) ففزع قلب الملك من خوف هذه الحكاية وبأسها ، وشل تفكيره من توهم هذا الخطب العظيم ، فدعا الملك

جميع ودرائه المعتمدين والمؤتمنين فى السلطنة - آنذاك - الذين كانوا محل الاستشارة فى عوارض المهمات وحلول الوقائع ، وعرض عليهم حديث الغراب الذى حذر وأندر منه ، وذلك الشكل الغريب الذى يشبه نعيه ، وقال لهم : ما هى حيلة هذه الحادثة ، ومن أى جهة يستطيع أن يصل وجه تدبيرنا إلى تدمير الخصم ؟ فأخذوا يخوضون ، ويوازن كل واحد بين النفع والضرر فى كل شئ لدفع ذلك بأدوات علمه وكفايته . وانتهت خلاصة الآراء - بعد تمحيص الأفكار العميقة واستعمال الآراء القوية الجريئة - إلى أن يحضر كل أصناف الجيش من أنجاد الحشم وأشرافهم إلى البلاط ، ويختاروا أربعة منهم : أسداً قوياً جريئاً ، ونمراً خبيراً بالحروب ، يتمساحاً محنكاً . وذئباً شجاعاً ممزقاً للصفوف خفيفاً خاطفاً للشئ ، وثعلباً خداعاً منافقاً . وجعلت كل طائفة من أصنافهم زمام تدبير الأمر وترتيبه بيد تصرف ذلك القائد والزعيم . هكذا فعلوا ، ثم أحضرت طائفة الأسود - بالإجماع - الأسد الذى دعوه زعيماً ، وميزه الملك بالتقديم والتمكين عن الآخرين المقدمين فى الجيش والشجعان وقال له : ماذا ترى فى هذا الأمر ؟ وما هو وجه خلاصتنا ومناصتنا من هذه الورطة المهلكة ؟ فقال الزعيم :

طريق العقل فى هذا الأمر واضح يفتح كل شئ مغلقاً
فيجب الرجوع إلى العقل أيضاً حتى نرى بماذا يأمرنا عقلنا

عندما يبدأ عدونا الحرب ، لن يخرج الأمر عن احتمالين : إما الإقدام على مساورته ومقاومته أو الفرار من أمام صدمات قهره ، ونحن - بحمد الله وفضله - قهرنا المشاهير فى المناجزة والمبارزة ، ونحن مذكورون ومشهورون فى أفواه العالمين بالشجاعة ، وقهر الخصم ، وهزيمة العدو . ولن نضع شاذخة ^(١) هذا العار على نمرة الزمان أبداً ، ولن نعجب بـ « كلف » ^(٢) هذا الحوار على ناصية الأحوال ، فماذا لو صرنا ظهراً واحداً ويدا واحدة فنضع طريقة القتال ، ويكون لنا يد الاستحواذ ^(٣) والاستعلاء ، لأنهم هم البادون وعلى الباطل مصرون ومتمادون فكل مرة بدأوا بها الظلم تصل فى الإساءة إليهم ، ورب رمى عاد إلى التزعة ^(٤) أما إذا تغير وجه الأمر إلى شكل آخر - عوداً بالله - وأبدي الزمان الغادر الخيانة فى محنتنا ، وقهرنا وهزمنا ، فإننا فى النهاية سوف ننال درجة الشهادة بالإضافة إلى حسن السمعة « وَمَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ » أما الهروب

(١) الشاذخة : الفرة التى فشت فى الوجه ، ويقال غرة شاذخة : غشيت الوجه من الناصية إلى الأنف . الزمخشري ، أساس البلاغة ج ١ (ش . د . خ) الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٥ .

(٢) الكلفة : حمرة يخالطها سواد ، أساس البلاغة ج ٢ (ك . ل . ف) .

(٣) الاستحواذ بمعنى الغلبة والانتصار ، وطبقاً لقواعد لغة العرب كان يجب أن تكون استحاذ لأن الكلمة من نوع الأجوف الوار مثل استقام ، ولكنها جاءت على سبيل الاستثناء قال الله تعالى : « استحوذ عليهم الشيطان فأنسأهم ذكر الله » للجادلة / ١٩ ويقول المتنبي :

فى موقف وقف الحمام عليهم فى ضنكة واستحوذ استحواذا ديوان المتنبي ص ٣٠٤

(٤) عاد السهم إلى التزعة ، أى : رجع الحق إلى أهله ، والتزعة الرماة ، من « تزع فو، قوسه » أى رمى فإذا قالوا : « عاد الرمي على التزعة » كان للمعنى : عادت عاقبة الظلم ويكنى بها عن الهزيمة تقع على القوم الميدانى مجمع الأمثال ج ٢ ص ٣٤٤ .

وإجلاء الزوجة والولد وإخلاء البيت والسكن القديم الثابت وتحمل قطع العلاقات مع الكثير من الخلق ، وضياح الصيت والشهرة العالمية من يد حمايتنا واستهلاك القومية التي كانت تمثل استمساكهم بعروة سلطتنا ، وإظهار عدم المبالاة ، وتخفيف معاني الآباء المركورة في جوهر آبائك والحمية التي تمثل مع المروءة مركب ذاتك . ولا يمكن التظاهر بشعار هذا العار ، كما لا يمكن لشعب أبي النفس حمى الأنف البقاء على مثل هذه الحياة ولكن يطلب أن يعيش موفقاً سعيداً في عزه ومسرة وعندما يفارق هذه الدار الفانية يعلم أن ذكره الحميد وشهرته العالية تستأنف بقاءً آخ . ومن ثم يفضل الموت على تلك الحياة التي تكون هكذا مثلما قال لك الملك للمنجم فقال الأسد : كيف كانت تلك الحكاية .

حكاية الملك مع المنجم

قال الملك : سمعت أنه كان في أرض بابل رسم قديم وقاعدة مستمرة ، وهي أن زمام عزل وتولية الملك كانت بيد الرعية . وحينما كانوا يرغبون في واحد وقعت عليه قرعة الاختيار ، يجلسونه على عرش مملكتهم ، وعندما كانوا لا يرغبون فيه يعزل ، وذات مرة كانوا قد أجلسوا واحداً على عرش المملكة وفعلوا له كل ما كان من أمر التعظيم والتفخيم وترويحاً لسوقه ، واعتبروا حُبَّ دولته كالقلب في الصدر والضياء في العين ، وجهزوا له كل ما يلزمه من أسباب فراغ البال والراحة والتمتع وحسن العيش جميعاً ، وذات يوم - كما كانت

عادتهم - غضبوا عليه ، وعزلوه ، وأجلسوا واحداً آخر مكانه .
وجلس الرجل - الذى كان قد ذاق لذة السرور والسلطنة وملك
العظمة ويد الحكم على العالمين - فى زاوية بسبب غصة تلك المحنة ،
وكان يقول :

كانت لدى أمانة فرَدَدْتُهَا وكذا الودائع تُسْتَرَدُّ وتُقْتَضَى

وفكر فى النهاية : أنه لو كنت أعلم طالع الوقت فى مطلع تلك
السعادة التى منحتها إياى تلك الدولة وكنت قد جلست باختيار
مسعود واتصال محمود ، واخترت برجاً ثابتاً ، لربما لم ينقلب الحظ
بسرعة هكذا . أما وإن الأمر قد حدث وأصبح من المتعين على أن
أغادر هذا المكان ، فيجب أن أخرج هذه المرة باختيارى للوقت ،
ويبحث لدى علماء النجوم الحاذقين والمبرزين فى علم النجوم سائلاً
إياهم : من هو الموجود فى المدينة من المنجمين ؟ فأشاروا له على
المنجم الذى وصل إلى درجة الكمال فى حقائق هذا العلم ودقائق هذا
الفن ، الذى يحتاج مجسطى^(١) وأبو الريحان^(٢) فى حل المشكلات

(١) إشارة إلى مجسطى بطليموس وهو عالم فى علم الهيئة د . شتا ، فرهنك فارس برك ج ٣ ص ٢٦٩٤ .

(٢) أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى الفيلسوف الرياضى المشهور ولد سنة ٣٦٢ هـ وتوفى فى غزنة سنة ٤٤٠ فى السابعة والسبعين من عمره محمد عبد الوهاب القزوينى - عبد الوهاب عزام ود . يحيى الخشاب ، حواشى جهار مقاله ص ١٤٦ ط الأولى القاهرة سنة ١٩٤٩ .

إلى تفهيمه^(١) ، ولم يصل أبو معشر^(٢) إلى عشر فضله ، ويفاخر الفاخر^(٣) بالتلمذة على يديه ويتضاءل جهد كوشيار^(٤) عن مرتبته ، كأنه كان يطلع اطلاعاً حسيماً بجواسيس نظره على غوارب الأنجم وشواهِق الأفلاك وودود البوادر وحدوث صوادر الغيب ، فدعاه وقال له : اختر لى يوماً طيباً وساعة مفضلة حتى أخرج من المدينة .

فسأله المنجم : من أي البروج طالعك ؟ وكم عمرك فالاختيارات تأتي صحيحة باعتبار تاريخ الميلاد . فقال عمرى لا يزيد عن سنة ، فتعجب المنجم من هذا الكلام متسائلاً مع نفسه ما هذا الرمز ؟ وما هذه الإشارة ؟ ثم استفسر عن ذلك المعنى فقال : إذا حسبوا الحياة منذ مساعدة الأيام ومتابعة السعادة التى يعيشونها فى عزة نفس ونشوة طبع وسعة منال ورغد العيش ، فإن عمرى لا يزيد عن سنة وهى التى كنت فيها ملكاً حاكماً وسلطاناً آمراً .

وقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم أن الناس لا يطلبون الحياة إلا

(١) إشارة إلى كتاب « التفهيم فى صناعة التنجيم » وهو كتاب فى مقلدمات علوم الهيئة والهندسة والنجوم بطريقة السؤال والجواب ، ألفه أبو الريحان البيرونى من أجل ربحانة بنت الحسن الخوارزمية . القزوينى ، حواشى جهاد مقاله ، الترجمة العربية ص ١٤٨

(٢) هو أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخى من مشاهير منجمى القرن الثالث الهجرى وتوفى فى سنة ٢٧٢ هـ وكان قد جاوز المائة سنة . القزوينى ، حواشى جهاد مقاله . الترجمة العربية ص ١٤٩ .

(٣) أحد المنجمين المشهورين وهذا يلاحظ من السياق .

(٤) كوشيار الجبلى : هو هركيا أبو الحسن كوشيار بن لبان بن شهرى الجبلى نسبة إلى (جيلان) من مشاهير المنجمين وكبار الفلكيين فى عصره . القزوينى ، حواشى جهاد مقاله ، الترجمة العربية ص ١٥١ ، ١٥٢ .

على هذا النحو ، فالتفت الملك إلى النمر ، وقال له : وأنت ماذا تقول ؟ فقال : إن كثرة أعدادهم غير خافية ، فلو قصرنا العزيمة على مواجهتهم وجهاً لوجه فإننا نكون قد أظهرنا قصورنا ، وفتحنا طريق البلاد وجذبنا الموت إلينا بحبل ، وفتحنا طريق الهلاك على أنفسنا « كالباحث عن حتفه بظلفه » (١) .

ولا يكون لدينا الطاقة على مصادمتهم ومبارزتهم ، فيجروا سيل ماء سطوتهم - لا قدر الله - ويستأصلوا جذور وأساس بيتنا الذي بلغ عمره الألف سنة ، ويخرجوا دخاناً من هذه القبيلة بنار الفتنة ، ويفض خاتم العصمة لمحارمنا وأطفالنا - اللائي هن ربيبات حرم الحرمه وعرايس ستر الصيانة - على يد هؤلاء القوم الفجرة وتدوم وصمة هذا العار .

هل للحرائر من صونٍ إذا وصَلتْ أَيْدِي الرُّعَاعِ إِلَى الخُلُخَالِ والخدم والرأى هو أن نرسل اليوم رسولاً ، ويكون رجلاً عالماً بالرسوم ، لسناً ، ماهراً بالآله التي تجعله يعتمد على كفالاته في كفاية المهمات ، فيستطيع أن يجمع ماء اللطف إلى نار العنف ويمزج بين زعاف المكافحة وعسل المصافحة .

(١) يروى هذا المثل في مجمع الأمثال « كالباحث عن مديّة » يقال إن رجلاً وجد صيداً ، ولم يكن معه ما يلبيحه به فبحث الصيد بأظلافه في الأرض فسقط على شفرة ، فلبحه بها ، وضرب في طلب الشئ يؤدى صاحبه إلي تلف النفس . الليلاني ، مجمع الأمثال ج ٣ ص ٤٨ .

ولما رأيتُ الحَرْبَ قَدْ جَدَّ جِلُّهَا لَبِستَ من البُردين ثوبَ المحَارِبِ^(١)

فترسل مثل هذا الرسول إلى سلطان الفيلة ، حتى يحمل الرسالة منا ، فيفتر حال دواعي وأسباب مجيئه ، ويجعل نطاق نهضته جزءاً منفصلاً عن محاربتنا ، ويجذب ميل التخيل إلى عين حدسه ، ويلقى على دماغ حزمه نوم الغفلة بسحر الاحتيال وأفيون الإغفال ، حتى لا يجلسوا طلائع الرأي على مدارج الآفات ويروا مواضع حيلنا ويتقوا مواقع زللهم ، ومن هنا تأمر الأبطال والشجعان بشن غارة ليلية في تضاعيف هذه الحال ، ونزل بغتة فجأة على رؤوسهم شن القضاء المبرم ، ونبنى حولهم « على حين غفلة^(٢) ونحقق مآربنا . أما إذا كنا كثيرين فإننا نصنع على عمرهم كميناً ، ومن ثم يمكن أن نسقط عليهم وهن المفاجأة ثم نطحن منقار شوكتهم في فاتحة الأمر ، ونلوي عنان صولتهم نوعاً ما .

عَسَى وَعَسَى يُثْنِي الزَّمَانُ عَنَّا بِتَصْرِيفِ دَهْرٍ وَالزَّمَانُ عَثُورُ
فَتُدْرِكُ آمَالٌ وَتُقْضَى مَآرِبٌ وَتَحْدُثُ مِنْ بَعْدِ الْأُمُورِ أُمُورُ

وأشار الملك إلى الذئب قائلاً : وأنت ماذا تقول ؟ فقال هكذا

(١) يبدو لي أن هذا البيت مفحم على المعنى ، فبين معناه والسياق اختلاف كبير ، فالسياق يقتضى السياسة والكياسة ومعنى البيت الدخول في الحرب إذا نشبت وإعداد العدة لها ، وكان يفضل أن يقال « مع البردين » بدلا من « من البردين » حتى يتسق المعنى .

(٢) إشارة إلى الآية الكريمة « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها » القصص / ١٥ .

سمعت ممن يفكرون في الأمر قبل وقوعه والمجربين : أنه عندما يأتى لك عدو قوى ، فيجب عليك أن تجتهد فى إنفاذ مراسلات ومجاملات بلباقة لسان القلم ، وإنفاق الأموال وإيراد حسن المقال له . حتى تشيه عن طريق التعدى وعزم التصدى للخصومة ، وتجعل النفع والخسارة فداء نفسك العزيزة وتقول « وخير المال ما وقى به النفس » . والتفت الملك إلى الشعب قائلاً : أي هذه الأقسام تختار ؟ فقال إن الأمر لا يخرج عن هذه الأقسام الثلاثة التى قالوها : الصلح أو أو الحرب أو الحيلة ، لكن أمام إقدام عدو شجاع وقاصد أفاك سفاك ، يلزم عدة أسباب ويجب عدة واجبات لوضع قدم الاقتحام بسرعة فى هذا الأمر . الأول : فكرة نقص المياه وتعذر العلف الذى إن منع عن الخصم فإنه يعجز عن الأداء ، ومن هنا إما أن يطلب الجيش زيادة معاشهم وقت اعتراض الخصم ، ولا يكون لدى الملك فيخشى من أن يصبحوا مظاهرين ومعاونين للخصم بعد أن يصيروا أصدقاء له ومن أحزابه وقت الحرب وإما أنه لا يعتمد على جيشه ويفكر أنهم يخدعونه بدعوة العدو ويطمعونهم ويغررونهم ، ومن ثم يلوون العنان عن طريق مهاجمتنا ، ويحمد الله لا يوجد لدينا سبب من هذه الأسباب مطلقاً ، وشرع هذا الملك وهذه الدولة طاهر من هذه القضايا ، وكذلك ذيل معاملة هذه الرعايا والجيش نظيف وطاهر من هذه القاذورات ، إذن لا يوجد لدينا أي باعث ضرورى للمبادرة فى هذا الأمر فلا يلزم التقدم والإسراع إليه . وإنما يجب جذب عنان

السرعة والعجلة باليد . لأن كل من لا يعرف مقدار ضعف جيشه وقوته ، ولا يعرف ماذا يستطيع كل واحد منهم ، فيظن كل فرد منهم فارساً محارباً مجرباً ويحسب أنهم مستعدون ليوم الحرب يصيبه ما أصاب الفارس صائد الغزال فقال الملك : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الفارس صائد الغزال

قال الثعلب : سمعت أن شاباً محباً للصيد ، شجاعاً فارساً ، كان إذا أطلق العنان جعل كرة المسابقة تسبق الوهم ، لا يصل التخيل (الإدراك) إلى قدم فرسه ، كان يلعب كل ليلة في المساء حتى السحر مع خيال الغزال . وكان كل تفكيره هو أنه كيف أشبع كلب النفس من كتف الحيوان ؟ وكيف أجعل ضعيفاً في قبضة ثمر الطبيعة . وكان له كلب أسرع من الريح ، وأشد قفزاً من البرق ، كان إذا أطلق مثل الشيطان ^(١) المُسَوَّجَر والعفريت المسلسل فكن يريد أن يقفز إلى السماء ويدخل المخلب في عين الثور وقلب الأسد ، وينزع بكلبتي الذراعين أسنان الكلب الأكبر والدب الأصغر ، وكان لعيارى ^(٢) الصحراء من حد سكين أسنانه كساب كبدٍ دائماً ، وكانت النساء المخدرات تنزل دم الحيض - مثل الأرنب - من هيبة نباحه ،

(١) كلب مسجور ومسجّر - مُسَوَّجَر وقد سَجَرْتُهُ سَجَرْتُهُ طَوَّقْتُهُ الساجور وهو طوق من حديد مُسَمَّر بمسامير حديدية الأطراف (أساس البلاغة) .

(٢) والعيار : الكثير للجنى والذهاب والزكى الكثير التطواف والأسد (القاموس للحيط) .

وكان لا يصل طعام إلى أى سبع فى متصيد تلك الصحراء بسبب :
مزاحمته ، حتى أبيحت لحم الجيفة للذئب ، وقنع الخنزير البرى
بعظم أسنانه .

وذات يوم كان هذا الرجل جالساً فى بيته إذ دخل عصفور من
النافذة فقفز القط من ركن البيت ، وافترسه ، فسعد الرجل بمشاهدة
تلك الحال من غاية حرص الصياد^(١) . وقال فى نفسه : لابد أن
يحسن إلى هذا القط بعد اليوم ، لأننى لم أر كلباً بهذه الشجاعة
والسرعة فى الصيد مطلقاً ، وغداً أمتحنه حتى أرى ماذا يفعل ١٢ .

ونفض مع الفجر قبل أن يضع أحد فرسان المشرق قدمه فى
ركاب جواد الدنيا الكميت ذى الغطاء الأخضر النوردي^(٢) وجلس
على قاعدة كل يوم ، وجعل التظ فى جانبه ، وأخذ الكلب فى
يده . وعندما وصل إلى مكان الصيد بدت بطة برية من تحت العشب ،
فأطلق (الصياد) التظ من جانبه ، فرأى القط الكلب فأراد أن يعود
إلى جوار الصياد إثر نباح الكلب ، فوقع على رأس الفرس وجبهته
فانتفض الفرس من تمزيق مخالبه ، وألقى الرجل على الأرض
فأهلكه .

وقد قلت هذ الحكاية حتى لا تظن أن جميع الناس أهلاً للأمر ،
وتعلم أن جيشنا لا يستطيع مقاومة جيش الفيل ومطاردته ، أما هجوم
الليل الذى يقرره النهدي (فإنه لا يفيد) إلا إذا كان الخصم غافلاً
وذاهلاً عن فكره .

(١) الترجمة الحرفية « الصيد » .

(٢) النوردي نسبة إلى « نورد » وهو الاسم القديم لمدينة كالرون الإيرانية . « فرهنك بزر كك فارسى » .

لكنه ربما يكون متوقياً لنفسه متحفظاً يجلس ، مشغولاً بتثبيت
الفكرة وترتيب أمر آخر مثلما فعل الجمال مع الجمل فقال الأسد كيف
كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الجمل مع الجمال

قال الثعلب : كان هناك رجل جمال يملك جملاً . وكان يضع
عليه كل يوم حملاً^(١) من الملح يأتي به من الملاحاة إلى المدينة لبيعه .
وذات يوم رأى الجمال وجوب النظر بعين الرحمة إلى الجمل ، فوجه
وجهه إلى الصحراء - على سبيل التخفيف - حتى يستريح باختياره
ويتقوى لحظة ، ووصل قادراً إلى ذلك المكان الذى يقطن فيه الأرنب
الذى كان له صداقة ومعرفة ودالة معه فى سابق الأحوال .

وتلاقى كلاهما اللقاء الذى كان ينشده كلاهما منذ فترة طويلة ،
ثم خرج من حجاب الانتظار ، ومن ثم حدث ارتياح لكليهما برؤية
كليهما للآخر ، وأبديا تعظفاً عندما تعرفا على الحال ، وقال الأرنب :
لو لم تذكرنى فإنك لا تنسى شيئاً ، لأن لى معك ومع تذكرك
أموراً كثيرة .

ومنذ تلك الفترة التى حالت بيننا فيها حوائل الفراق ، وانقطعت
حبائل الوصال ، وأنا قد وقعت فى زاوية بعيداً عن أصدقاء الصديق ،

(١) « خروارى » بمعنى حمل جمل أو ثلاثمائة كيلو جرام أو طن « فرهنك بزر كك فارسى . »

ووضعت لى مقعداً فى زاوية من زوايا الاتزواء والوحشة حيث لا مذكر ولا أنيس ولا مسامر ولا جليس ، وكانت جاذبة اشتياقك محرّكة لسلسلة الخاطر دائماً ، وكانت داعية الطلب تحرك حلقة الرغبة فى لقائك المبارك ورؤيتك العزيزة ، ثم تفحص الجمل جيداً فوجده ضعيفاً نحيلاً . فقال يا أخى لقد رأيتك - من قبل - مثل الجبل من فرط السمنة ، فكان السمن يقطر من ممخضة سنامك قطرة قطرة ، ولم يكن جلدك يحتاج إلى مسح السمن على الإطلاق .

بل ربما من كثرة الذى كان يأتى إلى طواحينك ونواجزك الذى كان يعطى المدد لخيمر المنسم الذى جعل - بدوره - محيط الصدر سميناً هكذا ، وكنت تمشط اللحم والشحم بمظ الظهر ومراة الركبة كل عام كالمشاطة^(١) ، وكنت قوياً ضليعاً حتى إنه لم توجد فرجة فاصلة بين مقوس أضلاعك على قوائمك الأربعة بسبب السمنة ، فكانت الأفيال العظيمة ممزقة السلاسل الحديدية ترتعد^(٢) من عريضة سكرك ، وكان هدير حنجرتك يقطع زئير حجرة الأسد فى حلقة . واليوم أراك وقد تراجع أثر القوة والنشاط من الذروة إلى الخضيف ، وتكسرت فقرات الظهر من عصر ضرب الحوادث ، وتركت - لقب - سفينة الجبال بسبب الضعف ، وأصبت الجرب ، وذهب الصوف المزين والشعر

(١) مشطت الناقة كفرح صار على جانيها كالأمشاط من الشحم (القاموس المحيط) . ومنه مشطت الماشطة والماشطة والمواشط وامتشطت المرأة (أساس البلاغة) وهذا الأسلوب كناية عن ضخامة الجمل .
(٢) الترجمة الحرفية « يأتى الحجر إلى أسنانها » .

الملون وأتى مكانه سراييل القطران ، وقد كالت تلك الأيام كل بذور القطن في تجويف بطنك ، وأرالت كل هذا الصوف (الوبر) . فماذا حدث حتى تصبح - مرة ثانية - مثل صبي صانع الحبال . ولعله يغزل من هذا الصوف فصار عنقك إلى هذا الحد من النحافة ، وأصبحت مسخاً مرة واحدة ، وكتب قلم النسخ في جريدة أحوالك : ماذا حدث للمزاج الشريف والطبع الكريم ؟ حتى جاء سبب تبدل الحال وموجب زوال ذلك الكمال . فقال الجمل : إننى أنتظر منك هذه الأسئلة التى سألتها الآن وكذلك التفقد لكرم شيمك وحسن شمائلك ،

سَمَاعٌ عَجِيبٌ لِمَنْ يَسْتَمِعُ	حَدِيثٌ حَدِيثٌ بِهِ يُنْتَفَعُ
رَمَانِي الزَّمَانُ بِأَعْجُوبَةٍ	تَكَادُ الْجِبَالُ لَهَا تَصْصَدَعُ
بَعُورَاءَ تَعُثُّرُ فِي ذَيْلِهَا	وَعِزْرَاءُ تَأْبَى عَلَى الْمُفْتِرِغِ
بَوَاقِعَةٍ حَرَّتْ مِنْ حُزْنِهَا	كَمَا حَارَ فِي الْحُزْنِ عَافٍ وَقَعَ

واعلم أن الجمال غير الرحيم الذى هو صاحبي ، وجعلوا زمام تسخيرى وتذليلى فى يده ، شىء آخر مثل نزول مكروه على ساحة الأحوال وعدول المزاج عن جادة الاعتدال التى لا يمكن أن تكون من موجبات هذا الشكل وهو ^(١) أنه من مدة طويلة وكل يوم - بحكم التكليف والتعنيف - يضع على ظهري حملاً من الملح أكثر من المقدار العادى - برغم كل هذه النحافة والهزال الذى تراه - حتى

(١) المعنى الحرفى «لكن» وهى لا معنى لها هنا .

أحمله من مكان بعيد إلى المدينة . ولم يخطر مطلقاً على قلبه أن أضع جزءاً من حمل العذاب هذا ، وأقلل مشقال ذرة من ضغط وقييد هذه الأثقال فلا جرم أن ظهر طاقتى قد تحطم بهذه الصفة التى ترى وقريباً يجعل الغراب عشاءً له على عنقى طمعاً فى طعامه ومن أجل اللحم الذى لا يمكنه^(١) تصويب سهم على فيه ، ويبيض النسر فى محاجر عيونى ، وينعب الغراب نعيب النعى على قامتى بعد أربع تكبيرات يصلحها على سلامتى . ولا أدرى أى تدبير لدفع هذه المصيبة سوى ذلك الأمر الذى عرضته عليك . وأنتظر ما تأتى به الأيام وأرفع يدي إلى قبلة الدعاء ، وأبعث بالأتين والحنين من حنايا القلب إلى حضرة السميع المجيب وأقول :

أيها القلب عندما قيدك الهجر بالسلسلة ، لم يبق فى اليد سوى تدبير واحد ليس لك من تلبيس سوى سهم السحر ، حتى يصل أحد سهامك إلى الهدف قال الأرنب : برغم أن تسليم النفس إلى يد القضاء أمر محتوم ، ومع أن أمر النجاح والفشل من لدن الله تعالى ، وذلك كله قضية العقل والشرع ، لكن عند حدوث الإيذاء ووقوع البلاء يجب التفكير فى دفعه ، ولا ينبغى التقاعس والتكاسل فى إزالته ، وأنا أرشدك إلى الحيلة التى تكون منقذاً لك من قاع البلاء ، فوصلت رائحة الروح إلى الجمل من هذا الكلام وقال :

(١) الضمير يعود على الغراب .

يا مرهم مائة ألف إلم ، ويا سرور مائة ألف حزن
يا من لا يواجه رأيه ظلام وجه التخمين والظن في جميع وجوه
الأمور^(١) .

كل الالتزامات التي سوف تأمرني بها بكرم عهدك سوف أجعل
لازمة الوفاء قرينة لها . فقد خرجت من عهدة الجميع . والآن أشر
على . وما هو طريق الخلاص من هذه المحنة ؟ فقال الأرنب تدير ذلك
هر أنه عندما تحمل حمل الملح وتأتى به إلى المدينة يكون على طريق
عبورك نهر ماء ، وأنت لابد أن تعبر من هناك ، فعندما تصل إلى
متصف النهر ابرك (اجلس) حتى يسقط نصف الملح ، ثم انهض وسر
في سهولة ويسر فإذا ما سرت على هذه القاعدة مرة أو مرتين ، فإنك لو
تنثر الملح على جرح الجمال فإنه يضع - فيما بعد - حمل الملح بقدر
الطاقة (الوسع) .

فاستقر خيال صوت النهر في سمع قلب الجمال من سماع هذه
الكلام ، ورغب في أن ينشد شعراً قبل أن يوصل مضرب الركبة إلى

(١) يقول القزويني معلقاً على هذا البيت « ولفظ هذا البيت ومعناه لا يخلو من سماجة وبشاعة » القزويني :
مرزيبان نامه ، طبعة ليدن حاشية ص ١٩٦ ، لكن د . مهدي دامغانى يخالفه ويقول في تعليق علي هذا
البيت « إنه صحيح وخال من الخلل ويجب أن نعرف أن فيه كثيراً من لحاظ المعنى (البلاغة) وليس السماجة
والبشاعة لأن الشاعر يمدح مملوحه بنقاد الرأي وتفوذ البصيرة وسطة العلم وسعة الاطلاع ، وأنه يرى وجوه
جميع الأشخاص والأشياء بعلم اليقين وعين اليقين ، ولا يواجه إبهاماً وتخميناً أو ظناً في كل هذه العلوم
والأفكار مطلقاً أو بأى وجه من الوجوه د . مهدي دامغانى مجلة يغما سال ٥ ص ١٠٩ .

النهر من فرط نشاطك تلك الحالة ، وأخذ في الرقص الذى لم يرقصه
أبداً عند سماع الحداء بسب تلك الكلمة التى كانت هادياً له على طريق

نجاته .
وَحَدِيثُهَا كَالغَيْثِ يَسْمَعُهُ راعى سنينَ تَباعَت جَدْباً
فِيصْبِحُ مُسْتَمِعاً لِلرُّتَةِ ويقولُ من طربٍ هيارياً

وفى اليوم التالى عندما أشرقت جلاجل الكواكب على أعطاف
ومناكب هذا الجمل القوى وضع الجمال الجهاز على الجمل ، وأخذه
إلى الملاحه ، ووضع عليه ما كان معتاداً عليه من الأحمال ، وكان
الجمل يسير بلحن فكره حتى وصل إلى وسط النهر .

واستحضر آلة التدبير التى كان قد صنعها ، وبرك ، يعنى ظل وقتاً
حتى يأتى الماء على وجه الأمر ومن ثم يتزع حمل الغم من القلب .

فبدأ الجمال فى الشتائم ثم ضرب عدة ضربات على جنب الجمل .
وبعد وقت طويل من التأخير نهض الجمل من المكان ، وكرر الجمل
هذه الحالة عدة مرات ، فنهض الجمال بالمكافأة التى هى من إيجاب
الطبيعة .

وفى اليوم التالى وضع الجمال عليه حمل صوف بدلاً من الملح ،
وساقه حتى وصل إلى النهر ، فبرك الجمل حسب القاعدة السالفة .
فصمت الجمال وتذرع بالصبر ، حتى تشرب الصوف الماء ؛ وأصبح

الحمل ثقيلاً ، وعندما أراد أن ينهض لم يستطع (وفي النهاية) نهض من المكان بعد جهد كبير وعناء بليغ ثم تلا : ونحن كما كنا ^(١) ، وحمل زيادة علاوة على الحمل وانطلق . وقد وضع الجمال مكان الحذاء المثير للنشاط والشدو الممزوج بالطرب هذا الشيء الغليظ الضخم في حمله ، وكان يقول :

لقد أثمرت الشجرة التي ربيتها ، وقد رأيت الآن الثمار في أطرافها
فلو كانت الثمار شوكاً قتلت بها نفسك ، ولو كانت حريراً لفقت
بها نفسك ^(٢)

أيها الطويل الأحمق ، أيها الجاهل سيء الحظ ،

حَفِظْتَ شَيْئاً وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ ^(٣)

أردت أن تعرض عن الحمل مثل النعامة ، وبركت في النهر بتلك
الفكرة حتى ظل الجرح غير ملتئم ولقد صار جسمك - بهذه الفكرة -

(١) كتب العلامة القزويني تعليقا على هذه الجملة : ما للقصور منها ؟ والواقع أن ذلك مشأ لكته جاء مختصراً فهو في الأصل « ونحن كما كنا والعناد زيادة » .

مرريان نامه ط روشن ج ٢ ص ٧١٧

(٢) هلان اليتان للفردوس الطوسي شاهنامه جا ص ١٢٩ جاب دوسكو .

(٣) هذا المصراع من قصيدة مشهورة لأبي نواس هو :

فقل لمن يلعب في العلم فلسفة حفظت شيئاً غابت عنك أشياء

أبو نواس الحسن بن هاني الديوان تحقيق محمود كامل مزيد ص ٦٧ القاهرة سنة ١٩٧٤ .

رفيعاً كخيط الحرير . ووضعت عليه صوفا ؛ لكن العود الذى تصنع أوتاره من الصوف والحرير لا يخرج نغماً ، أردت أن تلقى بعض حمل الملح ، وتضيع حقوق خبزى وملحى ، لكنك سىء الحظ حزينا دائماً لأنك لم تكن تعلم طعم القدر السيء الذى كنت تطبخ فيه ، ولم تعلم أن ذلك القدر يلزمه ، ألف حمل من هذا الملح .

ولقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم أن العدو - أيضاً لا يخلو من التفكير فى مكائدتنا .

أما الرأي الذى يقضى بطلب الصلح ، والدخول من باب التسامح والتساهل وإرسال التحف والطرف فهو خطأ ، فكل من يبدأ بالصلاح فربما أظهر عورة عجزه للعدو وجعله قوى القلب ، غالب اليد ، قوى رأى عليه نفسه .

ويبدو أن الصواب - والله أعلم - هو أن نرسل رسولاً بلا هدية أو تحفة فنبدى - للعدو - من أنفسنا العظمة والهيبة وضخامة الجيش ووحدرة القلب بين العبد والحر ، ومثلما فكر فى الحرب - معك - أثار دواعى الحمية فى بواطن الجيش ، يترع (الرسول) ضغينة وحفيظة العداوة من القلوب ، ويجمد دم العصبية فى أعصاب الأعداء ، ويطفأ نيران الحقد والبغض فى صدورهم ، ويفصم حبال الغضب ، ويشير فكرة طلب العافية وكراهية وبغض أمر الحرب فى طباعهم ، ويعلم الرسول جيداً مبانى أمر تلك الدولة ومسالك رسوم هؤلاء القوم ،

ويعيد تقدير أعداد الجيش ، ويتعرف تماماً على الموافقة والمنافقة بين عموم جنودهم في سبيل العبودية والثبوت في أمر مصالح الملك . ويخبرنا عن شجاعة وجبن قلوبهم ، وركاكة ومتانة رأيهم ، حتى يأتي تدبيرنا مثمراً وموثقاً وفق مصلحة الحال ، لأن صاحب الحرب لابد أن يكون محتاطاً ومستقيظاً في ثلاثة أوقات :

الأول : وقت الانتصار والظفر على الخصم حتى لا يحدث الحركة - عن طريق السهو أو العمد - التي تبطل فائدة السعى .

الثاني : وقت الصلح والمسالمة حتى يمسك زمام الأمور في اليد بأحسن الوجوه حتى يبقى للخصم مقام الخوف والطمع .

الثالث : وقت التعلل والتأمل وإتلاف الوقت ، حتى يصل بالطف الحيل إلى استئصال آفة الحرب والقتال بالكفاية من ذات البين .

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني^(١)

ثم اختاروا الذئب الذي كان من مجاورى حرم الصداقة الحميمة ومشاورى سر الطوية ، والذي كان يملك مقام الاعتماد في عداد المقرين ، ونصب لهذه السفارة .

(١) هذا البيت للمثنى ، وهو مطلع قصيدة يمدح بها سيف الدولة عند انصرافه من الروم سنة ٣٤٥ يقول فيها :

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي للحل الثاني
فإذا هما اجتمعا لنفس مرة بلغت من العلياء كل مكان
لمثنى ، الديوان ج٢ دس ٤٢٥ .

وأرسلوا معه هذه الرسالة ، وهى أن قل لملك الفيلة : أنه غير خاف أثنى ملك ملوك الوحوش في الدنيا بأسرها ، وإن المتفحصين فى أمر الحروب المجريين لها ، والمحاريين المحترفين يضربون المثل بقوة سواعدنا فى جميع أقطار وآفاق الدنيا ، ولكى يستمر لنا حكم هذا الإقليم وحمايته لا ينبغى أن يفكر أى شخص من الملوك قاهرى الجيوش أو من الأكاسرة المانحين للتاج فى انتزاع هذا الوطن من أيدينا ، وألا يشغل نفسه بتنزع أواخى^(١) تلك الدولة وقطع أواصر هذه المملكة ، ونحن بدورنا لم نلمس بذيل طمعنا ، أعتاب أى بيت من البيوت القديمة والكريمة ، التى يقوم أساسها على التأثل والتأصل ، وفبضنا يد التطاول والتصاول عن البعيد والقريب وصادقنا الأجنبى بالملاطفة والسماعفة ، ورفعنا الأصدقاء بروابط الألفة وضوابط حقوق الصحبة على مقام الأقارب ، ولا شك أن بركة هذه العدة المختارة والرسوم المحبوبة صيانة للنفس ، وتأصل فينا شكر الخالق الذى هو من موجبات مزيد النعمة ، ومن ثم ترتقى دولتنا كل يوم درجة أخرى فى الارتفاع ، ووصلت إلى أعلى مراقى المراد ، وظل عقد هذه الأحوال منظوماً ، وعصمت غرة هذا الإقبال من عين جرح الحوادث . واعلم أن رأى الملك المنير أكثر وضوحاً من ذلك مما لا يحتاج إلى تقرير ، واليوم

(١) الأخيه والأخيه بالمد والقصر : تخفف عسوة تربط إلى وتد مدقوق وتشد فيها الدابة وجمعها أواخى (تاج العروس) ويقول له عند الأمير أخيه ثابتة ، وشهدت له أخيه لا يحلها المهر الأرن وشد الله بينكما أواخى الإخاء وحل أولرى الرياء

(أساس البلاغة) .

نهضت بعزم لمزاحمتنا وهممت بمناهضتنا وحربنا وقصدت البيت الذي هو مقصد العفاة وملجأ الجناة ومهرب مشردى الأيام ومطلب الضالين المروعين « أليس منكم رجل رشيد »^(١) ألم يكن فى كل هذه الدولة رجل من جملة المشيرين المشفقين والناصحين الصادقين ، كان يعرف حقيقة الحال ، ويقف على جلاء أمور هذا الجانب حتى يخبركم أن أساس بيتنا وضع على العدل ، وأن الرعية مهتم بها ، وأن الجيش مهياً و كيف وصل هذا العقد إلى النظام وهذا العقد إلى الإبرام فى مدة طويلة ، وحتى يخبركم أن الجيش والرعايا وأفراد الحشم من العوام وخواص الخدم جميعهم أوفياء ، وحفاظ يطيعون المخدم وأبا عن جد لا يرون سوى طريق طاعتنا ، ولا يعرفون إلا عادة الانقياد لنا ، ومن ثم عندما يحدث ذلك الأمر ويأتى العدو إلى باب البيت فلن يختاروا سوى طريق بذل الروح ، ولن يملكوا سوى طاعة الأمر حتى آخر رمق يبقى من الروح ، ولن يضربوا الرقم القياسى ، بذلك المجهود (حفاظاً) على أنفسهم .

والخلاصة لو ترجع كواكب هذه الهمة عن نظر العداوة ، وتقرأ : والرجوع للحق أولى ، تلوى عنان فرس العزيمة عن طريق التماذي في هذا المقام ، وتطفأ النيران التى اشتعلت من فوران هوى الطبيعة بماء المصلحة ، فذاك أمر ممدوح وحكمة مجربة ومنهاج الشريعة ، قال تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها »^(٢) حتى يكون طريق المخالطة

(١) هود / ٧٨ .

(٢) الأنفال / ٦١ .

مفتوحا ، وبساط المباشطة ممهداً فيما بعد ، ويتأكد بناء أساس ذات البين على الصلاح ، ومع هذا كله فإن قرعة الاختيار بيد مرادك ، وقد أديت واجب النصيحة فى هذا الباب من وجه عقيدة هذا الدين وتركت الأمر لرأى المصيب .

لا ينبغي أن يظن الجميع أننى ضعيف بسبب حسن حديثى

لأننى لا أقول هذا إلا عن حب وبحث عن نهاية طيبة للأمر

فذهب الذئب ، وأدى الرسالة خير أداء مثلما سمعها ، فظهرت دلائل الغضب على جبين ملك الفيلة من مضمون هذا الكلام ، فاضطرب واحترق كبده من شعلة الحقد ، وتمزق زمام جواد طبيعته ، وفقد عنان تمالك نفسه من يده .

واختار من نفس المجلس واحداً من سفهاء السفراء الذين انعقدت الوقاحة على جبينه وبعدت البشاشة عن وجهه حيائه ، معروفا وموصوفاً بقبح الكلام وسوء الأخلاق وقلة الحياء وعدم العدالة ، وهو من زمرة الشداد الغلاظ الذين قيل فى حقهم : كلامهم شرر وأنفاسهم شواظ ، فدعاه وقال له : اذهب وأبلغ الأسد رسالة منى ، وقل له : أنت فى ميدان معركة الرجال الذين يعطون سقاة الأجل شراب الأجل فى كأس رأس الأبطال ، والذين يشوون كساباً من كبد الأسود على نار السيف ، فهل لديك خبر عن صدمة قدم الفيل ؟

ما هاج نشوى أنى مستطيبٌ صبا بل ناشقُ لنسيم العزِّ مرتاحٌ

أَخَاطِرُ الْهَوْلِ مَأْنُوساً بِغَمْرَتِهِ كَمَا تَمَازَجُ صَفْوُ الْمَاءِ وَالرَّاحُ
هَلْ شَارِبُ الْخَمْرِ إِلَّا كُلُّ ذِي خَبَلٍ خَمْرِي دَمُ الْقَرْنِ وَالْهَامَاتِ أَقْدَاحُ

فمهما كانت خمر الحماقة لا إفاقة منها ، كن ذكياً وانزع غشاة
الغباوة والأنانية والشقاء والعادة السيئة من أمام عين البصيرة ، واطفر
بتدارك الأمر الذى لم يقع قبل فوات الأوان ، ولا تلق بالجيش الذى
هو ييادق رقعه مطارتنا تحست أقدام الفيل واجعل قوله تعالى
« لا يحطمنكم سليمان وجنوده » ^(١) نصب خاطرك ، وأعلم أن
الذين هم على أمثال صورتنا لا يتغيرون عن نقش بيت الفطرة ، ولم
تخلق جثة أى حيوان فى قالب مثل قالب خلقتنا ، لكننا نستطيع
الجمع بين أسباب الرغبة والرغبة ، والتأليف بين أوانس الألفة مع
شوارد الوحشة فى سلك تأليف واحد أيضاً ، وجعل الجميع له
نصيب من فيض الرحمة وصب العذاب ، ونستطيع أن نجعل الجماعة
التي قد تشرد من مهابة منظرنا مستريحة بلطافة المخبر ، والجمع الذى
قد تمزقهم صلابتنا ، نجمعه بلين المقالة ورفق الاستمالة ، ونجعل
أبواب الخوف والطمع مفتوحة على الموافق والمنافق ، ونبعث أسباب
الخوف والرجاء للمعادى والموالى . وأساس أسرتكم وإن كان قديماً
فإنه لا يثبت مع عواصف حملتنا ، وظهر تلك الدولة وإن كان قوياً
وقوياً فإنه لا يطيق ضررنا .

(١) النمل / ١٨ .

إذا الهامُ حَارِبِينَ البِزَاةَ تَقَطَّعَتْ لها شَرَجُ الأَسْتَاهِ مِنْ شِدِّ الحَمَلِ

وعرضه تلك الممالك وإن كل لا يطويها ذراع وياعها الأوهام ،
فإنها تبدو ضيقة المجال فى يوم عرض اتباعنا ، ودعوى استظهاركم وإن
كانت من جميع الخلق الصامت منهم والناطق ، فإنهم يجب أن يكونوا
صموتاً كالحوت وقت جوابنا .

كان الصمت على رأس القرائض ، لأن الثعابين كانت تصدر فحيحها حوله
فلو لم ترد أن تضيق العمر فى إنقاذ الكتب وإظهار الكتاب ،
وتريد أن تكون عبداً مكاتباً لنا ، حتى بعد أن نرسم ختم تحريرنا على
رقبتك ، فضع ريقة الطاعة فى عنقك بسرعة ، حتى تسجل الممالك
الموروثة باكتساب خدماتنا ، وتكون محمياً فى ضمان أماننا من حوادث
الأيام ، ومتمياً إلى حسن عاطفتنا ، وتسند الظهر إلى جدار الدعة
والراحة . وإلا فإننا سوف نسير بهذا الجيش الجرار إلى تلك الحدود ،
فنخرج الغبار من أساس ذلك الملك بزلزلة حوافز هذه الأجسام القوية ،
ونهدم بيوت ذلك الملك بصوت معول السواعد حتى يصل نوح غراب
البن إلى أذن نسرين السماء فى مساحة وداع ذلك الملك .

هكذا وطأت بقدم عداوتك ، حتى تزلزل الفلك الدوار من مكانه
أحرب كل حدود ولايتك ، وأمحو أثريت النمرور والأسود
فوصل المبعوث إلى ملك الأسود ، وأبلغ رسالة الفيل فى ثوب

التهديد والوعيد كما كان قد سمعها ، وأثار أرقام الشر وضراغم الفتنة في أحشائه ، فحرك مكمّن سكّون الأسد ، فاستشاط بشدة وأحضر الثعلب ، وقال له من باب المشاورة : أيها الطبيب صاحب التجربة والحنكة التي علمت بها علة الأمور وعالجت كلاً منها على النهج القويم ، وسرت في مداواة العضلات وحل عقود المشكلات على قانون « عمل من طب لمن حب »^(١) مع جميع إخوان الصفا وأحباء الوفا ، كيف يكون جواب الفيل ؟ وما أفضل طريق يمكن الأخذ به في الموافقة والمرافقة والمهادنة والمداهنة ؟

فقال الثعلب : اعلم أن كلام ملك الفيلة الذي يسوقه على هذا النحو ، دليل واضح على ظلام الرأي والرؤية وسوء البصر والبصيرة . لأنه لم يحدث أن عاقلاً جعل مسند الاعتماد على حوله وقوته ، ولقد قالوا : ثلاثة أشياء لا يجب احتقارها وإن كانت حقيرة . المرض والدين والعدو ، فالمرض وإن بدا سهلاً في بدايته فإنه يصير مزماً إذا أهمل ، والدين وإن كان قليلاً فإن الإمكان يقصر عن أدائه إذا تراكم ، والعدو وإن كان صغيراً فإنه يتجاوز الحدود ولا يتصور مقاومته إذا ما استصغر واستحقر . فلا تغتم لأن الغيرة الإلهية سوف تهجم بكل تأكيد ، على فكرة بغى الفيل ، وتجعل قضية قصده معكوسة وراية مراده منكسة ،

(١) أورده الميلاى على صيغة أخرى وهى « صنعة من طب لمن حب » أى اصنع هذا الأمر لى صنعة من طب لمن حب ، أى صنعة حاذق لإنسان يحبه ، يضرب فى التوق فى الحاجة واحتمال التعب فيها الميلاى فى مجمع الأمثال جـ ٢ ص ٢٢٠

والبغى آخر مدة القوم

واعلم أن ضخامة الهيكل وفخامة الجثة عندما تزيد عن الحد تعجز وتتعب وقت الهروب والصعود .

أما الكلام عن كثرة الجيش وأعداد الحشر التى يبدى استنصاره بها وتوكله عليها ، فإن كل هذه الأعداد لن تبدو فى عداد الأعداد شيئاً إذا وصل مدد عون الله إلينا .

ومالك تُغْنَى بِالْأَسِنَّةِ وَالْقَنَا . . . وَجَدُّكَ طَعَانٌ بِغَيْرِ سَنَانٍ^(١)

فلا يجب أن تفكر فى كثرة عددهم لأن الشجعان المجريين قد قالوا : فكر فى ترابط الأعداء ولا تفكر فى كثرتهم ، فكن ثابت القدم ، قوى القلب ، واجعل نيتك وطويتك مطوية على العدل والرحمة ، وكن صاحب وجه واحد فى فرط المجاملة وحسن المعاملة مع خلق الله جميعاً ، واجعل قوانين الشرع ورسوم طاعة الحق زينة أعمالك ، حتى يرى سمو ولايتك للنصر والتأييد فى سرايا عالم الغيب ، وتتواصل أفواج الفتح والظفر لجيشك ، وتستزل فى شأنك « وأنزل جنوداً لم تروها »^(٢) . وعندما يصل الأمر إلى هذا الحد ينبغى التوجه للأمر بالمعزم الشاقب والرأى الصائب ، والتفكير فى دفعه بلطف التدبير ،

(١) البيت لأبى الطيب اللتى . من قصيدة له يذكر فيها خروج شيب العقيلي على الأستاذ كافر وقتله بدمشق سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة ، وقوله :

فمالك تنحار القسي وإنما عن السعد يرمى دونك القلان

للتى ، الديوان مج ٢ ص ٤٧٨ .

(٢) سورة التوبة / ٢٦ .

فكثير من الحقراء قد اجتهدوا فى أمور خطيرة مع خصوم كبيرة فانتصروا ونجحوا ، مثلما حدث لذلك الفأر سارق البيض مع ذلك الفقير سىء الخلق قال أسد : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية الفأر سارق البيض مع الفقير

قال الثعلب سمعت أن فقيراً معسراً ، يغلب على خلقه الجحود والفظاظة . كان له زوجة قد تزينت بالعفة والرزانة نهج الديانة ، وكان لهما زوج من الدجاج الذى يبيض فى المنزل ، وكان هنالك فأر قد اتخذ له مسكناً فى زاوية المنزل . وكان لصاً نقاباً نهاباً أفاكاً جريئاً ، قد مزق كثيراً من شباك الحيل ، وسرق نواة تذكر المتربصين طويلى الأمل . وكثيراً ما بعثه سفرة الرغيفين ، وأكل رزق اللؤماء ، فكلما كانت الدجاجتان تضعان بيضة كان يسرقها ويحملها إلى الجحر بالطريقة التى اعتاد عليها ، فظن الرجل أن المرأة ربما تخون بذلك التصرف ، فأطلق اليد بالعصا واللسان بالكلمات الفاحشة الوحشية ، ولم يفد معه ما كانت تبديه المرأة من براءة ساحتها .

حتى شاهدت الفأر ذات يوم وهو يجر البيضة ، فذهبت وأخبرت الزوج عن هذه الحال وعندما شاهد الفأر كان قد وصل إلى الجحر وجر البيضة بسرعة ، فندم الزوج كثيراً على ظلمه لزوجته بعد مشاهدة تلك الحالة ، ثم وضع - فى نفس الساعة - شراكاً على

طريق الفأر ، وتصادف أن نزل فأر آخر ، على هذا الفأر ضيفاً فتناولوا البيضة معاً ، وتدبروا أثناء الليل كيف يحصلان على بيضة أخرى ؟
ومع الفجر عندما كشف بياض الصبح عن نصف بيضة في الأفق ، ونشر الشعاع الذهبى على أطراف العالم ، لحن الفأران لحن الدجاج طمعاً في البيضة - والشخص السيئ الحظ هو ذلك الشخص الذي لم يضع طائر تفكيره بيضة حتى لو كانت ذهبية أو فضية ، ولم ينقش بياض تلك البيضة وصفارها نقشاً على بياض العين وسواد القلب . وعندما يظهر وجهه من خلف ستر الخداع ، يضع كم الاستنكاف على وجهه ويا بيضاء ابيضى ويا صفراء اصفرى ويا غبراء اغبرى .

والخلاصة أن الفأر الضيف بادر فى حرص شديد وقدم رجله ومد يده إلى البيضة حتى يحملها فوقعت الشراك على رأسه ، فأخذه الرجل الفقير ، وضربه على الأرض حتى أهلكه .

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى فأكثر مايجنى عليه اجتهاده

وصار الفأر السارق البيضة محطّم الفؤاد ومضطرب خاطر من أثر هذا الواقعة ، وحملته المحافظة على حق صحبة الضيف على معاينة الفقير على شره ، وفكر فى نفسه : لو أردت أن أنتقم مستقلاً بنفسى ، ووضعت قدمى على مزلة هذا الاقتحام فإننى لا أستطيع وأصير ملوماً معاتباً لدى العقلاء ، لكننى لى صداقة قديمة بالعقرب الفلانى ، ولن

يتأتى جبر هذا الكسر الذى حدث لقلبي ، والقصاص لهذا الجرح الذى استقر بخاطري إلا بمساعدة قدرته . وأستطيع أن أرمى بهذه الفكرة من قوس كفاية ذلك العقرب . لن تتأتى موازنة هذا النظر السليم إلا بميزان إمعانه ، وأشهد تعبئة ترياق هذا الآثم فى سبيل ولن تحلو مرارة هذه القصة إلا فى شربة لعابه التى تأتى من لدغته ، وسوف يوجد عجين هذا العمل إذا وجدت خميرة سعيه ، وسوف تأتى مداواة هذه العلة نافعة وناجعة بمعجون العقرب ، وإلا .

فأسلمنى للنائب بَعَادُهُ كما أسلمَ العظمَ المهیضَ جبائرُهُ

ثم عزف لحن رؤية العقرب ، وعندما وصل إليه تقدم إليه بأنواع الخدمة والاتضاع وإظهار الاشتياق والشوق ، وحكى له حكاية الضيف الذى هلك على يد الفقير ، وشرح له : كيف حصل له التأثير والتحسر بوفاة ضيفه وفقدان أو موت فوات السعادة التى كانت بينهما ؟ ثم قال : أيها الأخ . إننى عندما أنظر إلى جميع الأصدقاء المجريين - من أجل الأصدقاء المحتاجين - أراك أنت الشخص الذى يملك يد المعاونة والمساعدة ويمكن توقع الموافقة على تدارك هذه الوقائع من مخايل حسن شمایله ، فأنت والحمد لله مستعد لإقامة رسوم المكارم . وملأت جعبة حميتك بسهام جفاء وكرامية الأعداء ، فلو تعيد قاعدة رعاية الأصدقاء وتمزيق الأعداء التى هى عادتك ، وتضع قدم الجراءة بفكرة القصاص وتأخذ حق المرحوم المظلوم ، تجعل

شفاء هذه المصيبة موجوداً بأشافي^(١) فضلاتك ، وتبحث بحد نابك عن نسيان لفراق هذا الفقيد ، فربما شيدت أصل وأساس الحسنات الذين يصنعون منه تاريخ الأيام .

قال العقرب : مهما كان كل جسمك في الغضب مثل المريخ فقد أتيت إلى بيتك ، فاهداً لأنه لو مرآة عزيزك قد صدأت بآه الحزن ، واحترقت زاوية الكبد بحرقه نار الفرقه .

عندما يتصل الأمر بالسمعة والاعتبار فإنني أستقر علي النار مثل الكباب وعلى السيف مثل الصدا أتمنى أن أصنع حيلة لأطلب بها دم ذلك المسكين ، وأظهر آثار شرفه على جموع الأصدقاء ورفقة الأحباب بإدراك ثأره ، وأقدم ما يجب أن يقدم للأخوة والأقارب في هذا الباب ، حتى يظهر هنا مصداق ذلك المثل الذي قالوه وهو : الأقارب كالعقارب^(٢) . ثم اقترن الفأر والعقرب كلاهما - باتفاق مثل زحل والمريخ - في بيت خبث واحد ، وجلس العقرب في زاوية تجاوب جحر الفأر والتي لم تكن محل نظر الناس مطلقاً .

ووضعا ثلاثة دنائير من الذهب مع الفضة لإهلاك الفقير ، وأى

(١) الإشفى بالكسر ، المتعب والسراد التي تحرز به النعال .

(٢) هذا المثل له معنيان : الأول - وهو الظاهر - يعني أن الأقارب مثل حيوانات العقارب ويهمل للمعنى يكون لا مناسبة له مثلما قال العلامة القزويني ، والمعنى الثاني لعقارب ومفرده (عقربة) بمعنى خادمة عاقلة ويهمل فإن المثل يعني الأقارب كالخدم ولعل هذا للمعنى هو المقصود في هذا السياق .

انظر : القزويني : حواشي القزويني على مرزبان نامه ص ٢٠٧ .

روشن : حواشيه على مرزبان نامه ج ٢ ص ٧٢٦

رأس لا تليق فى قلنسوة من الفضة ؟ وأي عنق يتأبى على طوق الذهب ؟ الذهب الذى يفتح إزار العصمة من جيب روح الناس والفضة التي تضع سمت الجهالة على ناصية عقل الإنسان ، والحرص على هذه الحفنة من التراب الملون الذى يستطيع أن يعمى عين العلم ، والحرص على هاتين القطعتين من الحجر الملون يستطيع أن يكسر كأس العالم مثل الإبريق الصغير .

ولكن أذنك مملوءة بالفضة مثل الزئبق ، فأنى لك أن تسمع مثل هذا الحديث ؟

فخيال الذهب أعمى عين عبرتك ، فكيف تستطيع أن ترى جمال هذه الحقيقة ؟

والخلاصة أن الفأر ألقى عدداً من الدنانير ، ثم وضع ديناراً آخر بالقرب من الجحر ثم جعل واحداً آخر على حافة الجحر بحيث يجعل نصفه فى الخارج والنصف الآخر فى الداخل وعندما وقعت عين الفقير على الذهب الخالص ، ووجد هذا الفتوح فجأة ، فدهش والتقط تلك الدنانير بيد النهمة والنشوة ، وعندما وجد ذهباً خالصاً آخر ، أتى كلاهما فى محاذاة عين قلبه ، حتى جعل حجاباً أسوداً على عينه منع مشاهدة مكر الفأر وقصد العقرب ، فأطال يد الطمع وأدخلها فى الجحر فى تلك الظلمة ، فلدغها العقرب بنابه المسمم ، وأنزل الدم الذى كان قد هيج به يده فى قلب الفأر من وريد روحه .

وقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم أن هذا الفأر مع صغره ومهانتة

يأتى من مشرع مثل هذا الأمر العظيم إلى بابهِ . والأولى أننا بهذه المكنة والمكانة عندما نمسك حبال التوفيق ، ونستعصم بعروة التأييد السماوية حيثُ نستطيع أن نرد على هذا الخصم ، بل ونرسله إلى مكان مجهول بالجهد والاجتهاد .

أما الآن : فمقام الرسالة الأخرى التى سوف نرسلها له ، لعنا نذيقه من ذلك الذواق الشربة المرة التى أذقنا إياها . لأن مرهم اللطف لا يفيد الآن وإنما الذى يفيد هو وسم العنف . وآخر الدواء الكى ، ثم احضر الذئب إلى حضرة الأسد ، وأمره بإصدار هذه الرسالة إلى ملك الأفيال وافتحها بهذا التخويف المختلط بالصيحة : أيها الأخ ، بصرك الله بعيوب النفس ونصرك على جنودها .

- لا تفعل ذلك الذى لا يفعل أحد قط ،

فهأديك فى طريقك هذا شيطان فقط

- وأبعد عن القلب الحقد والغضب برجولة ، ولا تنظر إلى الدنيا بعين الشباب .

- فأين رأيت مخالبا الأسود ، وأنت لم تسمع صوت الثعالب

هذا المعنى واضح ، لأن علم الشطرنج الذى وضعه العلماء والفنانون الهنود هو منشأ ومنبت وجودكم وموجب اشتهاى الشطرنج الذى أذاعوا ذكره فى كل مكان من أقطار العالم الرحيب ، هو أن واضع هذا العمل كان عالماً خبيراً بأسرار الجبر والقدر ، عالماً بأمر تقدير الخالق وتدير أمر المخلوقين . ووضع ذلك ومظهراً فى وضعه أن صاحب ذلك العمل لابد أن يكون ماهر اليد ، ذكى القلب ، لأنه

لو يعزل رخ^(١) وفرس الخصم ، ولو أنه يأتى بيد السوء والجهل -
أثناء اللعب مع ذلك الحريف - باللعبة التى تغل يد الخصم وتوقعه
فى المضيق الذى لا يملك معها حيلة سوى « العجز والانسحاب » .

على أننى راضٍ بزن أحمر^٢ الهوى وأخلص^٣ منه لا على ولا ليا

وهكذا فإن الرجل مهما كان ذا رأى متين ورؤية ثاقبة وبصر
كامل ومهارة فى فنون العلم ، فإنه عندما يخوض أمراً مباشرة ، لا
يسلم من ذلك الذى يأتى على - سلاف تفكيره بشكل آخر من خلف
ستر الأيام ثم يدخله فى المشكلة التى يرضى بالسلامة منها فقط فضلاً
عن الغنيمة .

والدهر يعكس^٤ أمالى ويقنعنى من الغنيمة بعد الكد بالقفل

ثم إنك تلعب فى شطرنج هذا اليوس ، فلا ترفع النظر عن لعبة
الخصم ، لئلا يعقد فرزين^(٢) عقدة الاحتيال التى لاتستطيع حلها
بألف فيل . ولما لم يكن أي فيل من أجدادك قد خطا خطوة طمع فى
مملكتنا ، فلا تجعلهم فى نهاية الأمر يضربون بك المثل فى شماته
الاستهزاء « زاد فى الشطرنج بغله » ، تعبيراً عن بحثك عن الزيادة ،
وأعلم فى النهاية أن الملك أقر رأياً خاطئاً فى منزل الموت ، ومزق
رقعة الحياة .

وتندم حين لا تغنى الندامة

وأعلم أن صنعة الاستدلال التى كنت قد استعملتها فى أثناء
الرسائل وإنك أجزت لنفسك إهانتها ولم يكن ذلك علامة على كرم
الطبيعة وحسن الخليقة .

(١) الرخ قطعة من قطع الشطرنج « فرهنگ بزرگ فارسى » .

(٢) فرزين هو وزير الشطرنج « فرهنگ بزرگ فارسى » .

وأهل الدنيا يعلمون أننا لم نضع طوق خدمة أي شخص في عنقنا على الإطلاق ، ولم نتمنطق بمنطقة أي مخلوق أبداً ، ولم يضعوا خطام الأذى ولازماته على خرطومنا أو خيشومنا ، ولم يوصلوا ضيق الحلقة أو عقدة الخرام إلى حنايا حيزومنا ، ولم يكن ظهرنا سلم هواء في ملاعب الصبيان ، ولم يجدوا ساقنا أو ساعدنا مخلصاً ومسوراً كعادة النسوان ، إنما نحن نأكل وجبة طعامنا وشرابنا في مذبح فريستنا وليس من فضله مطابخ وهريسة الآخرين ، ونحن نأسر فحول الأبطال دائماً وليس أطفال شجرة الجوز ، ولعل الوقت الذي يركض السخط الإلهي من سهام عزميتنا الطائرة على رأس القوم ويجعل سره قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل ^(١) واضحاً في شأن طائفة ، ونقتلهم قهراً بمنجنيق قوله تعالى « ترميهم بحجارة من سجيل » .

وإلا فكيف يحكم حاكم العقل وكيف يأتي التأويل الصحيح في شريعة الإنصاف في الاقتداء بأصحاب البغي والضلال وقصد البيت الذي هو أتعبه الكرم وقبلة الهمم وحرم أمن الأمم ، ورفع ستر المجاملة ، والتوجه بالمجاهدة لهدمه وتحطيمه ؟

(١) الفيل : الآيتان ١ ، ٢ .

جواب رسالة الأسد ، وتجريد الفيلة للجيش ،

والانسحاب من الحرب

عندما اطلع ملك الأفيال على مضمون الرسالة ووقف على
مكنون ضمير الخصم ، امتلات أعضائه السبعة من عدواته وكراهيته ،
وتحركت المادة السوداء التي كانت قد تمكنت في دماغه ، وأراد أن
يريق دم الرسول ويغلي الصفراء التي كانت تجري في عروق عصبته ،
ثم جذب عنان تمرد الطبيعة ثم مسح بنص قوله تعالى : (ما على
الرسول إلا البلاغ)^(١) على كعبتي عرامة الطبع ، وعفا عنه وكتب
على ظهر الرسالة

ورب جواب عن كتاب بعثته وعوانه للناظرين قَتَام
تَضِيقُ بِهِ الْبِيدَاءُ مِنْ قَبْلِ نَشْرِهِ وَمَا فُضَّ بِالْبِيدَاءِ عَنْهُ خَتَام^(١)

عاد الرسول ، وفي أثره الجيش الذي لو جاءت كثرة عدده مداداً
لقلم ، فإن بياض النهار وسواد الليل لا يفيان لنسخه ، وكسروا
جميعاً إبريق رقة القلوب على الحجر ، وغرقوا في حديد الصلابة من
مفرق الرأس حتى إخمص القدم ، وانطلقوا في درع الصبر ، ولبسوا
مجن السلامة على ظهورهم ، وأوصلوا صوارم العزيمة ونبال الصريمة

(١) المائدة الآية ٩٩ .

(٢) البيتان للمتنبى من قصيدة مطلعها :

وسح له رسل الملوك غمام

أراع كذا كل الملوك همام

المتنبى : الديوان ج ٢ ص ٢٧٩ .

إلى النفوذ وأشربوا سنان الأسنان ماء وربطوا عنان اتقان العزم وعقدوا نقاب التعامى على عين نظر العاقبة ، وصبوا زئبق التصامم فى أذن النصيحة ، ونهض جيش على مثل هذا النسق بكمال الأهبة والرسوم والأبهة ، فى لباس الشوكة وسلاح الصولة ، ونهض كلاهما من المكان كالطودين الهائجين والبحرين المائجين ، وانطلق كلاهما صوب الآخر « أجرى من السيل تحت الليل » ، فوق اصطكاك صخرتين فى وقت ملاقاتهم فى بسيط هذه الساحة المسدسة فى محيط قبة الأطلس ، ووصل إلى مسامع الزمان أصوات سيوف غضبهم بسبب وقع مقارعة كلا الفريقين قال الثعلب: اعلم أيها الملك أن الأمر هو أنه ربما تقدم البعض بالشجاعة والرجولة ، والبعض بالعلم والحصافة ، والبعض بعظمة الوقع والهيبة ، وحمداً لله تعالى فأسباب السعادة كلها متكاملة لك ، وإمداد هذه الدولة متواصل ، وقد حان الوقت الذى لا يعطى الرجال فيه أمر نيابة مفرق الرأس إلى القدم ولا يلقون مهمة جواب الخصم من سنان السيف إلى لسان القلم ، ولا يلقون رمح الحرب إلى الآخرين حتى ولو كان (هذا الرمح) ثعباناً قابضاً للروح ؛ ولو كان لعبه شربة الموت فإنه أول شراب يوصلونه إلي مذاقهم .

عبالة عُنقِ الليث من أجل أنه إذا ما دهاه خطبٌ قام بنفسه

معركة الفيل مع الأسد وانتصار الأسد

ثم أمر الأسد أن يحفروا جداول متشابكة مع بعضها أسفل الجبل

الذي كان الأسود يحتمون به ، فحفروا عدة أميال فى الصحراء ، ثم أجروا فيها المياه ، حتى شرب المياه وصار مثل الطين المبلل ، ثم اختفوا جميعاً متحدّين خلف سد منيع ، وصاروا بذلك الحصن مثل محصن بالعفة فى ستر العافية من رجم الحوادث . ثم وضع الأسد قدمه فى الركاب ، وأخذ عنان اتقان الرأي فى يده وسأل الله تعالى قوته وحوله ولم يعجبه الحصن وكثرة الملاء حوله .

وكان الجميع يراقبون أحوال بعضهم البعض ، ويترقبون أحكام القضاء والقدر حتى يروا ماذا يخرج عليهم ستر الغيب ، وأي طائفة سوف يوضع سكة قبولها فى دار سكة القسمة ، ومن الذين سوف تزفع قرعة الإرادة عليهم نصيب النصر أو الخذلان ، ثم استقر رأي الشجعان الأبطال والمبارزين المقاتلين على رأي وهو أن جعلوا أوساط الحشم وآحاد جميع الجيش أمثال ابن آوى والثعلب والذئب وأمثالهم شئى المقدمة ، واشتبكوا فى مناورة ومراوغة ، وكانوا يركضون من كل جانب ، حتى تعب الأفيال من فرط الحركة والجري فى كل جهة ، وولدت حبة^(١) قوتهم ونشاطهم ، وانتهت صولة الأتواط ثم تقهقر جيش الأسد لاستدراج الفيلة ، وأظهروا أنفسهم للخصم ضعفاء الشكل كالمسفادى للهزيمة ، وانسحبوا فى صورة المتخاذل عن ساحة التقابل ، وتوجهوا نحو الهروب . على حين أن ملك الفيلة قد

(١) الحبة : الثوب الذى يضم فيه الإنسان رجليه مع بطنه ، والاحتباء بالثوب الاشتمال . (اساس البلاغة) .

استظهر - مثل فرعون - بقوته وعون ساعد الحظ ، واختار من قومه جمعا من القبيلة التى بنيت جثة كل واحد منهم على سبعة أركان من الأعضاء ، وجسم كل واحد على دعائم قوائمه الأربعة ثابت وساكن ، ومن ثم لا يمكن تحريكهم إلا بكسرى الذى ينهض بالتأييد الإلهى ، وجعل هذه المجموعة فى المقدمة ، ظن أن هذه المقدمة الكبرى تسير نحو نتائج الفتح والنصر ، وأوكل دفع الصدمة الأولى لصبر القلب ، ثم أقاموا الميمنة والميسرة بالتساوى ولم يعرف أن اليمن واليسر قد قطع عن أعقابهم ، والتحق بنواصى الخصم وأعقابه . ثم زين القلب والجناح فكان غافلاً عن أن ذلك القلب لا ينفع يوم سوق الفتح ، وأن ذلك الجناح سوف يصير بخفض المذلة بلا ردع تحت أقدام مقدمة جيش الأسد ، ثم اصطفوا صفاً صفاً واستووا قلباً قلباً جاهلين أنه بنهاية ليل الإشتباك يحل سحر العاقبة ، وأن كوكب السعادة سوف يطلع من قلب الأسد ، وتقدم فى النهاية بناء على ذلك الخيال وهو أن جيش الخصم قد انفرط عقده فى بداية الهزيمة ، وتمزق سلك نظامه ، فحمل بجملة الحشم فتساقط الجميع بريح تلك الحملة مثل ورق الخريف الذى يتساقط عن الفروع ، وتساقطوا فى تلك الجداول المحفورة فوق بعضهم ، وقد وضعوا التراب فى كأس التمنى ووقعوا فى تلك القبور رأساً على عقب ، حتى تعالت الصيحات منهم : الدم الهدم الهدم ، وكان المشاهدون يطالعون مصارع هؤلاء القوم وتهافتهم ومحصول « فذلك فضول » وكانوا يقولون : إن هذه هى حفر البغى

والطغيان التي حفرت بمعاول اكتسابكم « من حفر بئراً لأخيه وقع فيه » .

قالوا إذا جَمَلٌ حانتَ مِنِّيَّه أَطافَ بالبئرِ حتَّى يَهْلِكَ الجَمَلُ

ثم تجمع جيش الأسد من كل النواحي يعمقون الجروح النازفة ؛ حتى جعلوا لباس الوجود على الفيلة ممزقاً ومخرقاً ، فجعلوا أكبر قطعة في الفيل هي الأذن ، وتورطوا حتى رقابهم وتبدلت أحوالهم بسبب طباع متبعي البقر الحمقاء ، ثم أنبتت حديقة المعركة - بسبب مطرسهم الحوادث - العديد من زهور الأحداق التي كانت تُجرى على لسان المغنين وجواسيس الربيع النيروزي لحن الظفر والنصر ومضى كل هذا .

صار تاجه عين البقرة وأذن الفيل ،

وصارت الحديقة مثل محل بائع الجواهر

وعندما مسحوا الجميع بقدم القهر ، ووطئوا بأقدامهم الجيش الذي ترك الفلك والسماك طبيعة التحرك والسكون بسبب ركضات جنوده ونهضاتهم ، وأضعفهم ضعفاً لا تستطيع الأيام جبر كسوره بيد جباري السعادة والتوفيق وأكاسرة الأيام ، وجعلوهم جميعاً علف سيف الأظفار والأنياب وطعمة حواصل النسر والعقاب ولقمة مشافر الكلاب والذئاب . فسعد الملك في البلاط ورأى أن مشاريع المملكة نظيفة من شوائب نزاع المنازعين ، وقد خرج ذيل التوفيق من يد تشبث الطامعين ونثر تراب الخزي ، والخسار وشوك الخيبة والدمار - الذي دائماً ما يكون من نصيب المهزومين - في عين أملهم . فسجد شكراً للتأييد الرباني والتوفيق السماوي على أرض الخضوع ، وربط

أكناف عرصة المملكة بنسر راية العدل وطوى بساط الظلم والرسوم
المختلفة الأخرى ، وزين أطراف عروس الدولة بزينة الرحمة والرأفة
والإحسان إلي الرعايا والتابعين .

تبلجت الأيام من غرة الدهر وحلت بأهل البغي قاصمة الظهر
فيالك من فتح غدا زينة العلى وواسطة الدنيا وفائدة العمر
إذا ذكرت فاح الندى بذكرها كما فاح أذى الند من وهج الجمر

ثم اتضح من هناك للعالمين أن متابعة النفس والخروج بكل ما
يرضاه الطبع ، وأن الشراب سيئ المذاق المخلوط بسم الفشل وسوء
العاقبة يؤدي إلى الهلاك - قطعاً ولا بد - بوضعه على اليد .

إذا ما ذهبت وراء الشهوة والهوى ، فخذ الخبر منى بأنك مهزوم
انظر من أنت ؟ ومن أين جئت ؟ وأدرك ماذا تفعل ؟ وأين
ستذهب ؟

تم باب الفيل والأسد ، وبعد ذلك نذكر باب الجمل والأسد
الزاهد ونظهر فيه حقيقة ثمرة السعاية والوشاية وماذا تكون عاقبة الكبر
والغدر ولا سيما فى طريق البداية ؟ وما هو نصيب حسنى الأخلاق
والعارفين بحق لنعمة الله من الأيام ؟

ولربما عدل الزمان الجائر

ليرح الله تعالى شجرة توفيق السيد ملك العالم من شوك الخديعة
والوقيعه ، وليحرر سرو أماله من ورق نزول انقلاب الأحوال
بمحمد وآله الأخيار

الباب الثامن

في أمر الجمل والأسد الزاهد

فى أمر الجمال والأسد الزاهد

قال الأمير سمعت أن أسداً زاهداً ، مقتاتاً بالجلال ، مالكا لنفسه وهواه ، متورعاً ، متدرعاً بلباس التعزز والتقوى ، له باطن مستجمع لخصائص الحلم ومجانبة الأذى وظاهر متوشح لجلال الملك ، قد جمع بين نار الهيبة وماء الرحمة فى مكان واحد ومزج بين زعاف العنف وترياق اللطف له مخبر محبوب ، ومنظر مرغوب ، وصورة مقبولة وهى بمحمود الشمائل مشمولة . كان يقطن فى أجمة يختلط فيها الذئب مع الشاة كامتزاج السكر مع القصب ، ويشرب الظبي والفهد من عين واحدة مثل الشوك والورد ، وتأمين خرقة القصب فى رحمتى قصبائه (١) من أن يبلها ضوء القمر ، وتسلم أذيال السحاب من سلطان تصرع الشمس دون تعب أو عناء ، قد استقام سوق وجود حقيقة سياسته ، واشتغل الذئب ببيع الخبز كما اشتغلت الدودة بعمل القز ، وانشغلت الطياء بالعطارة كإنشغال الكلب بالعظم .

ولى البرية عدله فتمازجت أضادها من كثرة الإيناس

تَحْنُو عَلَى ابْنِ الْمَاءِ أُمُّ الصَّقْرِ بَلْ يَحْمِي أَخُو الْقَصْبَاءِ أُخْتُ كَنَاسِ (٢)
وفى جواره غابة لا يصل خيال الإنسان إلى أوصافها فالأرض مزدانة بأنواع الفواكه وألوان الرياحين مثل الحرير المشجر ، والهواء مثل الحلة الجميلة المطيرة (٣) قد تحققت راحة القلوب بألوانها وعطرها ، (١) القصباء : جماعة القصب ومنبتها ، يقال أرض مقصبة : كثيرة القصباء وهى القصب النابت (أساس البلاغة ج ٢) .

(٢) ابن الماء البط أو كل طائر مائي ، وأخو القصباء الأسد والكناس بيت الظبي ، عبد الوهاب القزويني ، مزيان نامه ص ٢١٧ الخاضية .

(٣) أى مثل الحلة المصنوعة من القماش المرسوم عليه طيور

وهكذا كان هذا المكان موضع تنزهه ، فكان يضرب خيمة إقامته فيه أغلب الأوقات .

وذات يوم كان جالساً كعادته ، فجاء إليه دب من تلك النواحي وأدى رسم الخدمة بين يديه ووقف فسأله الأسد : من أين أتيت ؟ وإلى أين تذهب ؟ وما هدفك ، وما هي وجهتك ؟ فقال الدب :
أبى المقام بدار الذل لي كرمٌ وهمة تصل التخييد والخبيا
وعزيمة لا تزال الدهر ضاربةً دون الأمير وفوق المشتري ظنباً (١)
أطال الله بقاء مولاي ، أنا - المبد - آت من الناحية الحربية ،
رقت سمعت بأيام سلطتك وصيت مكارمك ، ومعاليك فاهتطيت سيطرة
الشرق وقا أمان من يدي ، فها أنا قد تأسرعت إلى هنا ، والنجاة إلى
أعتابك ، حسب مكارم الأيام .

من أنا لولا مشقتي لك ؟

فإذا مد المالك ظلي بظانه على حالي ، ومنحنى طرفاً من أذيال إقباله
في يدي ، لزمت هذه الأنتاب كالنظير ، فعلى بشعاع شمس نظره أبدو
كالليرة في خدمته مثل سائر الغلمان وأجسل بفيه عذري ، ذخيرة بمحمود
الخدمات إن نالت قبولا .

إنني متشبث بأذيالك ما دمت حياً ، حتى يسقيني ساقى العمر كأس الأجل

(١) البيتان لبديع الزمان الهمذاني يمدح بها أبا علي بن سيمجور والقصيدة بتسامها مذكورة في تاريخ

اليميني القزويني ، مرزبان نامه ط القزويني حاشية ص ٢١٨

والتخييد سرعة السير يقال : تخود الغصن : تميل ، ونحو - انزعج في البحر . اهترت من النشاط :
وميرها تخويد أساس البلاغة .

~~والجيب : شئ من الثمن والسرعة ، القاموس المحيط .~~

فابتهج الملك بهذا الكلام وتهلل وجهه وأبدى السرور والفرح
من أسارى جبينه وقال مثنياً راضياً

رأيت ذبابة جالسة على عطف الأسد ، فقلت : يا لها من جريئة وقحة
فقلت : أيها الملك الأصيـب : أين أذهـب ، سلحق بالأسد ؟ أن يكون
طعامنا من على عطفه .
وكما يقال :

وللتمل من سؤر الأسود نصيبٌ

كن فارغ البال وأبعد عن خاطر ك الغربة والوحشة فإنى سوف
أهين لك أسباب العيش والرفاهية وأفتح لك فى هذه الحضرة أبواب
التمتع بالحياة والترقى فى مدارج الآمال والأمانى . وأكثر على هذا
الذمط من ملاحظته وارتقاب مواعيد الطافه ثم أطلع الدب على شعار
مذهبه رأسلوبه فى ترك أكل لحوم الحيزانات وكف يد الطمع عن
إراقة دمائها ، ثم وصاه بالآلا يتعرض بأى وجه من الوجوه لإيذاء أى
حيوان ، وآلا يبيع لنفسه الإفطار على غير الثمار ، فإن ترجيح طعام
على طعام يكون نتيجة حرص الجاهلين ، كما أن ابتغاء ألوان الـ
والرفاهية من شأن الكسالى

وليس محب الشر بأهون من الشر نفسه ، وهذا المثل أشهر من الشمس
فدعا الدب للملك دعاء يليق بالمقام وقال :

بقيت مدى الدنيا ومُلْكك راسخٌ ووردك مورودٌ وبابك عامرٌ
فاستظهر ووثق بوفاء الأيام واشتغل - عن رغبة صادقة - بالعبودية
والخدمات والمرضية ، وأقام سنن التزهـد ومراتب حسن الخدمة ، وكف
أنياب الحرص عن أكل اللحم ردحاً من الزمان ، وسد فم الشره عن شرب

الدماء ، واعتبر أن مثل «الناس على دين ملوكهم» قول متبع وأمر نافع .
وكان بهذه الوسائل والذرائع يظفر كل يوم بمقام جديد رفيع فى بساط قربته
حتى رسخ قدمه ، وصار فى زمرة المشتريين والمستشارين ، وأصبح من
أصحاب سره والملازمين لخدمته .

وذات يوم خرج الأسد من جنوده للترهة فرأى جملاً قد تأخر عن
القافلة وهو يسير هنالك حائراً هاماً ، وقد ضاق الذئب والنمر وسائر
الوحوش جميعاً ذرعاً لشدة الشهوة إلى اللحم ، حتى وصلوا إلى المخصصة
والهزال ودفعهم ذلك إلى أن يفتكوا بالجمال وينهشوا لحمه حتى ولو كان
ذلك غير مشروع فى مذهب الأسد ، ويبحثوا فى العقل عن رخصة
ليقتصدوا بها الجمل ، فلما شملوا عن ساعدتهم بهذه العزيمة ، صاح
الأسد فيهم وأمرهم أن يكفوا أيديهم عن الجمل وقال لهم : لا ينبغي أن
يناله اليوم ما لقيه الرجل القبيح الوجه بقاء كسرى .

فقالت الوحوش : إذا قص الملك هذه الحكاية علينا استمتع خدمه
بفوائدها .

وقد قلت هذ الحكاية حتى تأتى رؤيتى بالبركة على كل ما يأتى ،
وباليمين على كل من يتساءل بها . ثم ترك ~~رؤيتى بالبركة على كل ما يأتى~~ حتى
يرعى على هواه ، ويتجول ، وكان فى رياض الراحة تلك لا يتكلف بأى
حمل دون الرياضة ، وكان له صلة ألفة مع الأسد ، وكان يقسم قسماً
عظيماً بنعمته ، حتى علم قدم صدقه فى طلب مراضى الأسد حتى
تحققت له المساعى المشكورة والمقامات المبرورة مع حسن العبودية وطهارة
الذيل فى طريق الخدمة ، فصار ملحوظاً بحسن التفات الملك محظوظاً

بأنواع كراماته إلى الحد الذى زاد من حقد الدب على مقام تقدمه . لكنه (الدب) لم يكن يرى فى إظهاره مصلحة أو فائدة . بل إنه مد للجمل يد الأخوة فى الظاهر ، وكان يزيد معه فى الصحبة والاختلاط بتكلف وزيادة فى التملق ، وكان يظهر له العداوة فى ستر المداراة . وعندما كان يراه سميناً لحيماً قد ضاق جلده عن شحمه ولحمه ، كان هذا يحد أسنان طمع الدب ، ويقول من تحت لسانه : أخذت البعير أسلحتها^(١) . فما هو التدبير الذى يقضى على هذا الجمل ؟ وأى طريق يمكن أن تفضى إلى هلاكه سوى طريق إثارة الأسد عليه ، ثم يكون لحمه ودمه بعد إن قتله قربة عظيمة لجناب الأسد .

بداية المكيدة التى صنعها الدب مع الجمل

قال الدب للجمل ذات يوم : عندى سر يخصك ، ويتعلق ضرره ومنفعته بنفسك العزيزة ، ولا تخص ثمرة خيره وشره سوى ذاتك الشريفة ، لكنك شخص طيب القلب الأمر الذى يجعلك قد لا تحتفظ بوديعة الأسرار ، وفى تلك الحال التى تأتى على لسانك كلمة فيه ، يتعذر عليك حفظها . ولقد قالوا : لا تقل سرّاً لطيب القلب ، كثير الكلام ، شارب الخمر ، كثير الصحبة ، لأن هذه الطائفة من الناس لا تقدر على ذلك التحفظ والكتمان . وربما يظهر ترشح من وعاء خاطره فجأة ، ويلقى اللسان الذى هو سفير الضمير الكلمة التى لا يجب أن تقال فتسبب فى هلاك قوم . وكم إنسان أهلكه لسان وكم حرف أدى إلى حتف . قال الجمل : قل فإنك لا تحتاج إلى هذا

(١) ويرى رماحها ، وذلك أن تسمن فلا يجد صاحبها من قلبه أن ينحرها ، الميلتى : مجمع الأمثال ، ج ١ ص ٣٨ .

الاحتياط . وإن لم يكن لديك ثقة واعتماد ، فإنه يجب تأكيد ذلك ،
بعقود الإيمان المعظمة وختمها بختم موثيق العهود . ثم تعاهدا فيما
بينهما على ألا يطلع أى شخص صديقاً كان أم عدواً على ذلك
الكلام . ثم ذهبا إلى بيت الخلوة فأخليا المكان إلا من المحارم . وقال
اللب : لاشك أن الأسد يشيع له الفضل على جميع ملوك السباع
بفضل شعار الدين التحنف والقناعة والتعفف الذى هو متبعه ،
وبفضل أنه قد أمسك بعنان دواعى اللذات والشهوات ، وأنه وطأ
بالقدم على صهوات الرغبات النفسانية ، وقيد جموح الطبيعة بزواجر
الشرعية ، لكنهم قالوا : إن أخلاق الناس تتغير بتغير الأيام ، وتنتقل
بانتقال كل زمان ، ومكان له تأثير بالخير أو بالشر على نفوس بنى آدم
فتظهر خاصية جديدة ، وكأن لأحوال الناس فى إناء الزمان تلك
الصفة التى للماء فى الأنية الملونة مثلماً قالوا :

طالما كنت فى رعايتك كان الكلام فى تعويذة ، إذا صار أمرى
على اللسان صار كلامى قليلاً .

وهكذا يكون من لطافة الكلام ؛ لأنك إذا وضعت الماء فى أى شئ
فإن الماء يأخذ لونه .

وَمَنْ يَقْتَرِفْ خُلُقاً سِوَى خُلُقِ نَفْسِهِ يَدَعُهُ وَتُرْجِعُهُ إِلَيْهِ الرُّوَاجِعُ
وكذلك فإن العجلة والغرور من شيم الملوك ، وتلون الطبع من
ذاتيات أوصافهم ، ومن ثم فإنه يمكن ألا يبقى معك على هذا السلوك ،
ويجب توقع حصول ضرر ذلك - لى - بسبب مشاركتك ، ومن ثم
يجب أن تنصت فى كال حال إلى خطراتك ، وأن تحتذر من العثرات
والزلات ، وأن تكون مستيقظ القلب ذكياً لمساخطه ومراضيه ، لأنه ربما

فجأة ويسبب حقير يرجع عن قراره ، لأنهم قالوا : السلطان يصول صيال الأسد ويغضب غضب الصبي . فأخذ الجمل بسبب ما كان عليه من طيبة القلب وسلامته ، فى قلب عمله طبقاً لهذا الأمر ، والتفت إلى ذلك الكلام ، وجعله محل القبول وقال : من المعلوم أن كل ما تقوله ليس إلا من قبيل الرحمة والشفقة الإسلامية ، وأنا أعلم أن الناس كلما تمضى الأيام ، وتنقص من مدة العمر ، ونقبل العادات (صفة) التغير ، ربما يتحول مزاج الصورة والصفة كلاهما عن قرار الحال . فربما يعجز الأسد بسبب التشدد والتكلف فى هذه الرياضة من إمساك عن المرغوبات وفطام عن المألوفات التى طبع نفسه عليها ، ويسبب أن اقتصر على أكل النبات والفاكهة بدلاً من المأكولات والمطعومات اللطيفة والشهية ، ويصل فى النهاية بسبب قلة الغذاء إلى وهن قواه وضعف أعضائه ثم لا يطيق ذلك . حيثئذ يجتهد فى الاغتذاء بالغذاء الأصلى فيحتاج إلى اللحم ، ومن ثم فإنه لابد أن ينفر من بشاعة الفطور بالفواكه ، فيتحول إلى الأحماض^(١) ، وينهض على تلك الطبيعة ،

(١) الأحماض : الانتقال من شئ إلى آخر ، والانتقال من الجذ إلى الهزل وأصله من احمضت الإبل رذا ملت من رعى الخلة وهى الحلو من النبات ، فاشتبهت الحمض فتحولت إليه (لسان العرب) .

حكاية كسرى مع الرجل قبيح الوجه

قال الأسد : سمعت أن كسرى حركته نشوة الصيد فى وقت ما ، فخرج إلى الصحراء بسبب هذه الفكرة فوقعت عينه على رجل قبيح الوجه ، فلم يتفائل بدمامة صورته ومنكر لقائه ، فأمر حتى أبعده من أمام موكله ومضى ، ويرغم أن الرجل كان قبيح الصورة إلا أنه كان متزيئاً بجمال محاسن الخصال كلها فعاود التفكير فى حقيقة الأمر . ثم قال فى نفسه : لقد عاب كسرى على الخالق فى هذا المجال ، وهو لا يدرى أن ناسجى خيط الفطرة فى مصنع التكوين على التلوين لا يوجد لديهم إبرة واحدة تخطئ . وإننى سوف أعطيه طرف خيط الحقيقة حتى يتنبه إلى موضع هذا الخطأ ، ويعلم أن قرعة ذلك القال السيئ قد تحولت لاسمه هو ، ثم نسب ذلك لى . وعندما رجع كسرى من مكان الصيد ، أطلق شاهين الهمة فجذب إلى مخليه المهرجين^(١) من طائر وواقع فى الفلك من أعلى مكان فى التحليق . وأطلق الكلب^(٢) الأكبر بقلادة التقليد وجرة التسخير خلف الدب الأصغر^(٣) فجذب النمر الرمادى بزمام القهر ، وأحكم قيد الصقر على غزلان شوارد الأماني ، وعلق كل صيد لحم الأمل فى أهذاب الإدراك .

أعطى قرار السعادة بالقلم ، وأتى بسيف الصديق الحميم للدولة وفتح عقلة الحاجب عن وجه الخط ، وربط كل صيد للإقبال

(١) الترجمة الحرفية لـ «معلق زنان» المهرجون : وهم اللاعبون فى السرك على الحبال .

(٢ ، ٣) الكلب الأكبر ، والدب الأصغر نجمان .

ومصادفة وصل إلى المكان الذي كان قد وجد الرجل فيه ، فنادى الرجل عليه من بعيد قائلاً له : لى سؤال فى حجاب النصيحة . فلو جذب كسرى عنان العظمة لحظة ، ونزل عن ذروة الكبرياء قدماً ، ومنح لذلك سمع القبول فلن يخلو من فائدة ، فجذب كسرى عنان الحصان ، وقال له : تعال أيها الشيخ ماذا تريد ؟ قال : أيها الملك كيف كانت نزهة صيدك ؟ قال : كل شئ على مايرام وأحسن ، قال الرجل : هل خزانة مملكتك وأسباب بقائها مستقرة ؟ قال : نعم ، قال الرجل : هل سمعت خبراً غير سعيد من أى ناحية ؟ قال : لا لم أسمع ، قال الرجل : هل أصاب ضرر الحوادث أحداً من هذه الخيل أو الخدم التى فى ركاب خدمتك ؟ قال : لا ، قال : إذن فلماذا أمرت بإبعادى بذلك الإذلال والاستهانة ؟ قال : لأن رؤية أمثالك شؤم على الناس . قال الرجل : بهذا التفسير فإن رؤية كسرى قد كانت شؤماً على ، وابست رؤيتى هى التى كانت شؤماً على كسرى . فاستسلم كسرى لكمال عذبه وإنصافه ، وطلب منه الإعذار .

لكل مزاج عادة يستعملها

فقال الدب : الحمد لله ، إنك تعرف أحسن من الجميع ولا تحتاج إلى إرشاد أحد « إن العوان لا تعلم الخمرة »^(١) لكننى يحضرنى حكاية فى تبديل الحالات وأفعال يد التصرف التى هى من مسلمات الأيام من حال الحية النّساج ، فقال الجمل : كيف كانت تلك الحكاية ؟

(١) العون - كسحاب - من النساء التى كان لها زوج (القاموس المحيط)
والخمرة من الاختمار كالجلسة من الجلوس ، اسم للهيئة والحال ، أي أنها لا تحتاج إلى تعليم الاختمار ، يضرب للرجل للعجب ، المبدأتى ، مجمع الأمثال ، ٣٦/١

حكاية النسيج مع الحبة

قال الدب : يحكى أن رجلاً نساجاً . كان له زوجة حسناء الصورة
قبيحة السيرة وكانت عشقت إنساناً آخر « حاشا لمن يسمع » ، ومن ثم
فتحت طريق الخيانة ، وكلما تصادف غياب الزوج تيسر الاجتماع لهما .
وصارا مثل حبة البندق ذات الفلقتين فى كساء واحد ، ومضيا فى عشق ،
وتلوا هذا البيت :

أَنَا مِنْ أَهْوَى وَمِنْ أَهْوَى أَنَا نَحْنُ رُوحَانِ حَلَلْنَا بَدَنًا

ورفعنا صوتيهما بهذا الغناء تحت حجاب الاتحاد :

يا من جمعت الاثنين - أنا وأنت - واحداً وإلى تبتى على فرق بينى وبينك
وقد بهلنى ما أنا العشق منك واحداً مفرداً حتى لانى أخطئ وأخطئى أنت وأذاتك أنا
وفى النهاية اتب الرجل إلى امر الزوجة ، وذات يوم قال لها :
يا زوجتى يجب على أن أذهب إلى القرية الفلانية أسبوعاً لقضاء عدة
أشياء مهمة ، فلا تخرجى من البيت حتى العودة . واجعلى الباب
محكم الخلق ؛ ولا تسمحى لأجنبى بالدخول عليك ، قالت المرأة :
لا تغتم لأن البيت الذى فيه سيدة مثلى وميد مثلك يكون أحسن من
قصر بلقيس ، الذى لم يستطع أحد دخوله سوى الهدهد الذى دخل
من فرجة بابه .

فالتائر الذى يطير هنا يفقد جناحه والشيطان الذى يدخل هنا يفقد رأسه

فأى مجال لهذا الاشتراط والاحتياط ؟ ثم خرج النساج وعاد على الفور مرة أخرى وتسلسل إلى البيت ، ولم تعلم الزوجة بالخبر واختبأ تحت السرير ، نهضت المرأة وصنعت قدراً من الطعام اللطيف وخرجت ، حتى ترسل شخصاً من الجيران فى طلب ذلك الحبيب . فخرج الزوج من تحت السرير وأكل كل ما كانت صنعة من الطعام وترك القدر فارغاً وخرج . فعادت المرأة ورأت القدر فارغاً كراج آب فى كفيه طينة^(١) .

فظنت أن زوجها ربما غلى دم الحمية فى شريان رجولته ، وطبخ قدر تدبير إراقة دمها . وارتدت - فى الحال - الخمار الذى كانت قد نزعته عن وجه الحياء ، وخرجت ومصادفة - فى ذلك اليوم - كان قد أذيع فى أنحاء المدينة أن ملك المدينة قد رأى رؤيا ولم يجد معبراً لتعبيرها . فذهبت المرأة إلى بلاط الملك من شدة حقدّها على زوجها وأبلغت الملك أن زوجها معبر جيد حاذق وصاحب فراسة . لكنه يتكاسل من شدة بخله فى تعبيره الرؤيا ، ولا ينصاع للأمر إلا بضرب العصا واللعن .

ولا يعبر إلا بهذه الطريقة . فأرسل الملك شخصاً لإحضار زوجها .

وقال له : لقد رأيت الليلة الماضية رؤيا ، واليوم لا أستطيع قراءة شكلها من لوح حافظتى ، ولا أعلم على سبيل الحقيقة كيف رأيتها ؟ فقال

(١) هنا المثل يضرب للرجل الذى يبحث عن الماء فرجع وفى كفيه طينة . وفد علق القزوينى على هذا المثل قائلاً : وتفسير هذا المثل وتصحيحه غير ممكن ، القزوينى : مزيان نامه ، ص ٢٢٥ ، حاشية ١

النساج : إتنى رجل نساج جاهل وتعبير الرؤيا لم يكن مقاماً لكل رسول ، لأن مرد حديثى «وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين»^(١) ، فارفع يدك عنى ، فأمر الملك أن يضربوه ألف جلدة ، فطلب الرجل مهلة ثلاثة أيام خوفاً من العصا . فأعطوه المهلة فرجع وصار يدور فى كل جهة وزاوية ، ويمرغ وجهه فى التراب ويطلب من الله تعالى مخرجاً من هذه الواقعة . وفى ثالث الأيام كان يتجول فى خرابة فرفعت الحية رأسها من الجحر وتحدثت معه بإذن الله تعالى (قائلة) ما هو موجب الحزن والضجر أيها الرجل ؟ فحكى النساج لها الحال . فقالت الحية : لو أننى أخبرتك بما قد رأى الملك ، وماذا يكون نصيبى من ذلك الذى سوف يعطيه لك ؟ فقال النساج : كله لك . فقالت لا أعطنى نصفه فقط . فاتفق على هذا القرار . فقالت الحية : إن الملك قد رأى أن السماء قد أمطرت أسوداً وغموراً وذئباً . فسعد النساج وقبل متها ، وذهب إلى خدمة الملك ، وطلب الاختلاء به ، وقال : دامت سعادة الملك ، إن الملك سعيد الحظ رأى فى منامه : أن السماء أمطرت كل الذئب والأسود والنمور . قال الملك : بلى هكذا رأيت والآن قل ما هو تعبيرها ؟ فلحن النساج بكل توفيق أنه سوف يظهر لك خصوم أشداء محاربون يسغيرون على أطراف الملك ، يطفىء نار فتتهم ماء سيفك ، وينتهى الأمر بخير ، فأمر الملك فأعطوه ألف دينار ذهباً من الخزانة ، فأصبح النساج من بشاشة الذهب يكاد لا يسعه جلده ، وحمل الذهب إلى البيت سعيداً فرحاً مسروراً .

(١) سورة يوسف : ٤٤

ثم فكر في أنه لا يجب أن يعطى نصف هذا الذهب إلى الحية ،
ولا يرضى بأقل من هذا . وأنتى لو لم أعطها لا شك أنها سوف
تكون في كمين قصدى ، ولن أكون آمنا من ضررها . لكنى لو تيسر
(لى الأمر) ، فلن يكون هناك أفضل من قتلها . فحمل عصا وذهب إنى
جحر الحية ونادى عليها ، فخرجت الحية ، ورأت العصا فى يده ،
فعرزت لحن الهروب ، فجاء طرف العصا على ذنبها ، فجرحت ثم
دخلت الجحر متألة .

وربَّ شارقٍ شَرِقَ قَبْلَ رِيْقِهِ^(١)

وفى عام تالٍ رأى الملك مناماً آخر ونسبه . فأحضروا النساج . فطلب
مهلة حسب القاعدة ثم انطلق من هناك إلى باب جحر الحية . وأخرج
الحية من الجحر بلسان التلطف وطلب الأعذار لما سبق ، فقالت الحية :
برغم أنهم قالوا : مساعدة الخاطل من الباطل^(٢) ، لكننا سوف نختبره مرة
أخرى . ثم قبلت عذره وقالت والآن فالشرط هو أن تأتى إلنى بالمال كله .
فأقسم أن يفعل هذا ، فقالت : قل (للملك) إنك رأيت فى منامك أن
السماء كانت تمطر كل بنات آوى والثعالب ، فذهب النساج إلى خدمة

(١) وأصل المثل «ربما شارب الماء قبل ربه» ذكره الميدانى فى أمثال المولدين .

(٢) مساعدة الخاطل تعد من الباطل والخطايل الجاهل وأصله من الخطل وهو الاضطراب فى الكلام وغيره
وهذا من كلام الأفعى حكيم العرب . الميدانى : مجمع الأمثال ، ج٢ ص ٣٠٩

الملك وعبر الرؤية مثلما سمع من الحية ، وقال : سوف يأتى إليك الخصوم
المحتالة المكاراة واللصوص المنافقة المخادعة ، لكنهم فى النهاية سوف
يكونون أسرى أعمالهم ، وسوف يضع إقبالك وتوفيقك جزاء كل واحد
منهم فى ناحية ، فأمر الملك أن يعطوه ألف دينار آخر ، فأخذ النساج
الذهب ، وصار مثل الذهب أحمر الوجه قوى القلب ثم أسند ظهره إلى
جدار التمكن والراحة وقال : إن الحية ترضى منى ألا أقصد هلاكها .
فإساءة المحسن أن يمنعك جدواه وإحسان المسئ أن يكف عنك أذاه ،
فإعطاء المال لها يكون عين السفه والسرف . وظل الأمر هكذا حتى مضت
سنة واحدة ، ثم رأى الملك رؤيا أخرى ومحيت صورتها من صحيفة
سجيلته حتى إنه لم يبق منها حرف واحد .

فظل مضطرباً طوال الليلة من هذه الفكرة ، ومع ضوء الفجر
وعندما رفع زنجى الليل الرأس عن وسادة المشرق ، وأظهر الأسنان
البيضاء عن مياسم الآفاق ، أرسل فى طلب النساج ، وعندما استطلع
الحال والرؤيا والنسيان الذى ذهب ، قال : لقد أعدت قراءة كل
الرؤى التى نقشها فى عالم الغيب وأظهرت تعبيرها على وفق التقدير ،
كل ذلك لم يكن إلا بمدد إقبال الملك واقتباس نور الفراسة من خاطره ،
وكل ما يمكن أن أقوله يمكن أن يكون بهذا الاستمداد . لكن يبقى يوم

أو يومان في التوقف والتفكر ، وذهب من هناك إلى باب جحر الحية ،
ونادى عليها فخرجت فقالت :

يا من (يجعل) أملى مع عهده مثل الرياح
جئت مرة أخرى حتى تبحث عنى عن علاج أمر حاجتك
نعم بكل راحة وبكل استرخاء وهدوء

باختصار فإن كل التسامح الذى عملته معك ، وضرر تفاصحك الذى
أذيت به ، وانخدعت به ، ولم أجد سوى نقصان إيمانى فى تلك المعاملة ،
ولم أنظر بأى فائدة لأنه جاء فى حديث النبى ﷺ « لا يلدغ المؤمن من
جحر مرتين » وأنا اليوم من تلك الطائفة لأثنى جرحت مرتين على باب هذا
الجحر ؛ جرح عصاك وجرح لسانك ، وعلى هذا فقد جرحت جوارحى
الحسية والمعنوية ، والآن قد أتعرض للجرح الثالث معاذ الله .

صَادِقُ خَلِيلِكَ مَا بَدَا لَكَ نُصْحُهُ فَإِذَا بَدَا لَكَ غِشُّهُ فَتَبَدَّلِ

فلم يكن لى الرجل أى لسان للاعتذار ، ولا وجه للاستغفار . ومع
كل هذه الذلة وسداد الوجه لديه بسبب عدم حيائه قال :

تَبَسُّطْنَا عَلَى الْآثَامِ لِمَا رَأَيْنَا الْعَفْوَ مِنْ ثَمَرِ الذُّنُوبِ

عفوك أكثر من جريمتى فخذى بيد هذا المضطر هذه المرة

إتنى فعلت ذلك لأن سوء العهد يلى بى ، وأنت أفضل منى فتفعلين ما يلىق بك .

قالت الحية إن الشرط الآن لكى أقول لك ماذا رأى الملك ؟ وما هو تعبير رؤياه ؟ هو أن تحضر كل ما يعطيك الملك هذه المرة من جائزة ، وكل ما أخذته في المرات السابقة حتى نقسمه قسمة صحيحة ، وحتى لا تخون هذه المرة أيضاً . فأبدى الرجل الالتزام ، ثم عقدا على ذلك معاهدة جديدة فقالت الحية : اذهب وقل للملك : إنك رأيت فى النوم أن السماء قد أمطرت خرافاً وشياه وما شابه ذلك ، وتعبير ذلك أن جميع الخلائق قد رضوا فى هذا العهد عن عظمة الدولة ، وميامن العدل ، وحسن السياسة ، وكفوا عن الحرب والحقد والقتال ، وصار الجميع مطواعاً ومنقاداً لأمر الملك ، واستقر أمر الملك والولاية على الأمن والهدوء ، وزال الفتور والفتون ، ثم انطلق النساج إلى باب بلاط الملك وحكى كل ما كانت الحية قد لقتته إياه ، فأمر الملك بألف دينار أخرى له من الخزانة ، ووجد المرتبة العليا - التى لم تنسج بقدوم أى نساج - فى إنعام واحترام الملك .

وقال فى نفسه : يجب أن أؤثر الحية بكل المال هذه المرة ، وأريد تأكيد آثار العهد الطيب والعذر الذى قد مهدت له بالكلام عن طريق الفعل ، لأننى لابد أن أرجع فى مشكلات الأمور غير المحصورة إليها ، ثم حمل الثلاثة آلاف دينار وذهب إلى الحية ، ونادى عليها ، فخربت من الجحر فسلم كل منهما على الآخر . ثم وضع أمامها حقيبة الذهب ، وطلب منها الأعذار على ما مضى وقال :

رَضَاكَ شَبَابٌ لَا يَلِيهِ مَشِيبٌ وَسُخْطُكَ دَاءٌ لَيْسَ مِنْهُ طَبِيبٌ

هذا هو علامة الوفاء بالعهد ، والتفصى من عدة حقوقه .

حتى لا تظن أننى كنت بعيداً عن عهدك ، فرأسى هناك حيث إشارة أمرك

قالت الحية : اعلم أنه ليست هناك منة في ذلك الذي أحضرت ،
وليست هنالك مؤاخذه أو مطالبة على الذي لم تحضر ، لأن كل
ما حدث له لون الأيام ، فالأول : هو أنك أصببتني بالضرر ، كان
أهل الزمان جميعاً أشراراً حاقدين فاتنين ، كانت تظهر صورتهم في
حجاب النوب في ثوب السباع المقترسين .

وفي المرة الثانية التي خدعتني فيها ، ومضيت في جوال غدرك
وخداك كان أبناء الأيام جميعاً مكارين وسحرة ، وكان يبدو على
طبائعهم جميعاً التبصيص والمدالسة . فلا جرم أن أفعالهم وأخلاقهم -
جميعاً - تبدو في الرؤيا على صورة ابن آوى والشعلب من قبيل
المشاكلة . والآن عندما وفيت بما قلته وقبلته ، وأبعدت عن نفسك
التجنب والتجافى ، ورأيت وجوب التوفر على حقوق العهد ، فإن
أهل الزمان عموماً لهم نفس هذه الصفة ، فلا جرم أن تبدو صورة
موافقة ومطابقة أقوال وأعمال الآدمي في مرآة ذهن الملك الذي هو
أصفى أذهان الخلق على صورة الخروف والبقرة والحمل وما شابه ذلك .
لأن أجناس هذه الحيوانات أبعد ما تكون عن معرفة الفساد ، فهي
مجبولة على التسخر والانقياد . خذ الذهب لأننى لا أحتاج إليه .

وقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم أن الأسد أيضاً له هذه الصفة ،
وجائز عقلاً أن يتحول عنها ، وهذا غير خارج عن معرض عوارض
الحالات ولأن الوقوف على مغبة أحوال الأيام ونقضها وإيرامها غير
حاصل ، ووجود احتمال حدوث الشر الذي يصعب دفعه إذا ما وقع ،
هو قضية العقل . ولا بد من بحث علاج له قبل الوقوع ، واللجوء إلى

جدار الحزم والاحتياط ، ومن لم تقدمه شزته أخره عجزه . قال الجمل :
يبدو لى أن أرتحل عن هذا المكان الخطر ، وأطلب مكاناً هادئاً آخر ؛ يكون
بعيداً عن مساكن الناس فتقصر يد تصرف بنى آدم عنه ، فهذه الأيام هى
موعد هذا الخبر الذى أخبرنا به عليه الصلاة والسلام «يأتى على أمتى زمان
لا يسلم لذى دين دينه إلا إذا فر من جبل إلى جبل ومن شاهق إلى
شاهق» ومعلوم أن الموت أفضل من الحياة التعيسة ، فأى لذة يمكن أن
تجدها فى تلك العيشة الخالية من الأمن وراحة البال ، قال الدب : كل
مكان نذهب إليه لا مفر من العمل كعبيد لدى رئيس لأن بشرية ذلك
العرض لا تسمح له أن تقوم بنفسه ، وبخاصة أننا ظللنا مثل نقطتين فى
دائرة الآفات ، وأن كل سهم أكثر نفاذا وتأثيرا قد وضع فى الجعبة باسمى
وكل جبل أكثر إحكاماً قد قتل من أجل عنقك ، وبرغم أننا جئنا فى حماية
الأسد ، وعرفناه المعرفة الشاملة ، وسجلنا عدة مقدمات للخدمة الطيبة إلا
أننا الآن نعيش فى هذا الفكر بسببه . فأى عين للوفاء يمكن أن تكون لدى
من لا نعرفه أو نعلم عنه شيئاً . أما الرجل الذى يكون خائفاً من الخصم
القوى ويكون على حذر من تغير نيته وفكرة أذيته تدريجياً ، فلا يمكن
التسلى عن ذلك البلاء والهروب من مخالب ذلك الابتلاء إلا عن طريق
الوقوف على القصد الكلى وإزالة زحام وجوده من الوجود .

مثلاً فعلت الحية مع الحاوى (صائد الأفاعى) قال الجمل كيف كانت
تلك الحكاية ؟

حكاية الحية مع صائد الأفاعي (الحاوي)

قال الدب : سمعت أنه ذات وقت كان هناك ثعبان أرقم ملون بألوان وأشكال مختلفة وكان قد اختفى في سفح جبل ، ووضع عقدة ذنبه على رأسه حتى يخفى شمس الأنظار عن منظره الكريه ، وفتح عينه ، فرأى صائد الأفاعي وقد اقترب منه حتى إنه لم يكن يعلم مجالاً للهرب . ففكر في نفسه (قائلاً : إنني إن أهرب يدركني . ولو أذهب إلى الجحر يسد المنفذ . ولكن ربما يتركني لو أظهار بالموت) . طوي لصاحب القلب الحى الذى يقتل ثعبان النفس الأمانة بالسوء في الدنيا ، يعنى مثل أبى بكر الصديق الذى كان يبدى إماتة صفة البشرية في جوهره ، ومن ثم يعبر لسان النبوة عن ذلك فيقول : «من أراد أن ينظر إلى ميت يمشى على وجه الأرض فليتنظر إلى أبى بكر » بذلك يصبح حياً بماء حياة السعادة الأبدية .

أيها الصديق إذا أردت أن تعيش فمت قبل الموت ، فإدريس دخل الجنة قبلنا بعد هذا الموت^(١)

والخلاصة أن صائد الأفاعي تأمل في الثعبان جيداً فظنه ميتاً . وقال : وأسفاه لو كنت قد وجدت هذا الثعبان حياً ، لم يكن ليتمكن من صيده أى ملواح^(٢) بحيل ومخاريق الدنيا . ولكسبت به كسباً كبيراً . لكن (لابأس) فيمكن الاستدلال بهذا الشكل وهذه الهيئة ، لأن مشعوذ الأيام ربما أخذ «خرزة»^(٣) من الحقة الزمردية وأخفاها في

(١) هذا البيت لسنانى الغزنوى من قصيدة له ، قالها في مقام أهل التوحيد . أنظر ، سنائي الغزنوى الديوان بسعى واهتمام أستاذ مدرس رضوى ، جابى دوم ص ٥١

(٢) الملواح : البومة تشد رجلها ليصاد بها الباري (لسان العرب) .

(٣) تقول الأساطير إن هذه الخرزة موجودة في رأس الحية د . شتا (للمعجم الفارسي الكبير) .

قفاه . أخرج تلك «الخرزة» لأنه ذخيرة كبيرة . فقال الشعبان في نفسه ؛
لقد أيقنت أن الموت في القفا ، ولا يفيد الهروب . فإذا ما اتجه نحوى
بقصد استخراج الخرزة ، وأراد أن يجرجنى ، فالأولى ألا أقطف ثمرة
التسليم .

حتى أسوق عملى . فأنزل صائد الثعابين يده كى يأخذ الحية .
فلدغته وأردته قتيلاً فى مكانه .

وقد قلت هذه الحكاية لأن الرجل بعيد النظر لا ينبغي عليه أن
ينظر أمام الأمور ووراءها كثيراً حتى يفوته وقت تدارك أمره بل يجب
أن ينفذ ذلك الشيء الذى يراه وفق المصلحة بلا تهاون .

إذا صُلْتُ لم أترك مصالاً لفاتك وإن قلتُ لم أترك مقالاً لعالم
وإلا فخانتنى القوافى وعاقبنى عن ابن عبيد الله ضَعْفُ العزائم^(١)

قال الجمل : يبدو أن العلاج الناجح والتدبير النافع بالنسبة لى
فى علاج هذا الداء المعضل المشكل أن أسعد بما أتى به الحظ وما جاء
به القضاء مثلما فعل ذلك الرجل الفلاح مع الذئب والشعبان . فقال
الدب : كيف كانت تلك الحكاية ؟

(١) البيتان للمتنى . من قصيدة يمدح بها الأمير أبا محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج ومطلعها :

أنا لائمى إن كنت وقت اللواتم عملت بما بى بين تلك المعالم

المتنى : الديوان جـ ٢ ص ٣٧٠

حكاية الفلاح مع الذئب والثعبان

سمعت أن رجلاً كان يسير في الطريق وحده . ولم يكن له مقصد في طريقه سوى توفيق السيرة الطيبة والاعتقاد الصافي الذي اعتنقه . ولم يكن لديه إلا الدعاء والإخلاص كسلاح لدفع أذى القاصدين ، فظهر أمام عينيه ذئب فجأة . وتصادف وجود شجرة هناك فصعد عليها ونظر فرأى ثعباناً نائماً على فرع الشجرة . ففكر في نفسه قائلاً : إننى إذا ما صرخت من هنا استيقظت هذه الفتنة (الثعبان) من النوم وأدركنى ؛ وإذا ما نزلت فليس لدى قدرة على مقاومة الذئب . فبحمد الله شجرة الإيمان قوية ، (ومن ثم) أعلق يدي بغصن التوكل وأقطف فاكهة القناعة منها وأعيش .

حتى أنظر ما هي عاقبة الأمر في النهاية ؟

وأكثر أسباب النجاح مع اليأس

وعندما وكل هذه الفكرة على نفسه ، فجأة ظهر فلاح آت من الصحراء وكان في يده العصا التي تحطم رأس الثعابين السامة والذئاب الضخمة فهرب الذئب خوفاً منه . ثم نزل الرجل فسجد سجدة شكر ومضى في طريقه .

وقد قلت هذه الحكاية ، حتى تعلم أن التعامل بنعومة أو بخشونة مع عوارض الأيام . ووضع القلب على معطيات التقدير ، فإن ذلك يؤدي إلى المقصود بكل تأكيد ؛ وللتوافق بين الخادم والمخدوم في كل من الخير والشر والجلوس في ظل المساهلة ، والتزول بمنزل التحمل عاقبة حميدة ونخاتمة مفيدة .

إن الأناسَ كأشجارٍ نبتنَ لنا منها المرارُ وبعضُ المرِّ مأكولٌ

صاحب الحظ هو من يستطيع التعامل مع الصديق ، فكل من يتعامل مع الأمر يصل للمقصود

فالقمر قد أخذ النور بسبب أنه لم يهرب من الليل ، والزهر قد أخذ الرائحة بسبب أنه تعامل مع الشوك .

قال الدب : أحسنت القول . لكن العقلاء الذين أخذوا عيار عبرة الأمور ووزنوا حقائقها بميزان الخبرة قد قالوا : المتأنى فى علاج الداء بعد أن عرف وجه الدواء ، كالمتأنى فى إطفاء النار وقد أخذت بحواشى ثيابه . فكل من ظهر عليه داء يعرف دواءه ثم عاش بالعلة زمناً ، ولم يشغل بإصلاح البدن وتعديل المزاج يكون مثله مثل الشخص الذى شملت النيران الحارقة أعطاف ثوبه وأطرافه ، وهو يفكر بأناة فى كيفية دفع ذلك وكل من لا يسمع حديث بعيدى النظر ، يكون مستحقاً للذم لو ندم بعد ذلك «أطعم أخاك ثمرة فإنى أبى فجمرة» .

قال الجمل : إنه لا يمكن صيد بطة بشبكة الصعوبة ، ومن الوقاحة أن أقابل مخراز قيصة الأسد بكف اليد فقط .

وحتى لو أننى كنت قادراً على ذلك لاخترت إلقاء سلاح القدرة فى قدم العجز وعدم التعلق به ، ولم أر أن التعرض لذلك الشخص الذى لحم عظمى ودماء عروقى من مدد نعمته ومادة تربيته ، وبما أن ذات بين العبودية والسيادة قد أخذت هذه الصورة ؛ فالأفضل أن أذهب إلى الحرفة الأولى وأترك هذه اللقمة السائغة قبل أن تحدث هذه الحركة فيما بيننا ، ويلزم حينئذ التضحية بالروح .

وأقنع بالدقيق المجرد الذى أحصل عليه كأجر لعملى اليومى ،
وأجعل وجه الكفاف من أجر ما أحمله على قوائى الأربع ، وإن أطيب
ما يأكل الرجل من كسب يده ، ولقد قالوا : إن كل من يعيش بسهولة
يموت بسهولة ، وفى المثل المعاشرة ترك المعاصرة . ويا أخى : إننى عندما
كنت فى مكان الراحة مع إخوان الصحبة فى الطعام والنوم ، كنت أقطع
الشوك بالنهار وأحمله بالليل ، وكنت سعيداً بألحان قطع الشوك ، حيث
أكثر من سعادتى بغناء المغنين فى ذلك الوقت ، وكنت أضع جانبى على
سرير الأمن والراحة ، وكنت أمد قدى على قد ذلك الفراش ، فكنت
أطعم وأنا سعيد وأرعى فى مراضى الضرب واضطجع على مضاجع الراحة
والفراغ ، فليس هنالك فكرة شر لمواكل ، ولا خوف حيوان مفترس أكل .
كان الشوك حول ذيلى أفضل من زهرة القل وكان الحجر تحت جانبى أنعم من الحرير
واليوم الذى جذب جواذب همتى من مجالسة الأحاد إلى منافسة
الأكابر ، ونقلنى من محاوراة الأوغاد إلى محادثة الملوك ، وبحكم تلك
السعادة المنظورة والشرف المذكور بخطاب «أفلا ينظرون إلى الإبل»^(١)
رفعت النظر عن الأمور الخسيسة إلى أعاليها .

وعندما كنت قد وجدت السعادة المحسوية فى زمرة «وعلى كل ضامر
يأتين»^(٢) انتقلت من منزل السفالة على فكرة الترقى ، وأسرعت إلى كعبة
المعالى . (لكننى) ابتليت بداهية الدواهى ، ووقعت بخيط عشواء الحيرة
فى ظلام سراب بادية الأمالى .

(١) سورة الغاشية : ١٧

(٢) سورة الحج : ٢٧

إذا ذكر القلبُ المعذبُ في الهوى زماناً لنا أرخيتُ فيه عَناني
فكم زفراتٍ لى بغير تراقب وكم عبراتٍ لى بغير توانٍ
فلو أبصرتُ عيناك ما أنا بعدكم عليه من البلوى لقلتُ تواني

فلو غيرت - عياداً بالله - بالإخلاص مع الأسد ، ولو سلكت طريق
الاختلاف معه الذى هو بعيد عن مذهبي وممنوع ومحظور فى شرع حقوق
خادم المخدم ، فلو أخفيت ذلك ظاهراً فلا بد وأن يحرك سلسلة الطبيعة
لأن باطنى سيكون متشبعاً به . لأن الضمائر والنفوس خبيرة بالحسن
والسوء منها وبصيرة بمناقة ومصافاة بعضها البعض ، فلو أنه قرأ سرى من
جبهتى ذات يوم ، فمن أين لى بوقاحة المكابرة التى أتردد بها أمامه ؟

عَيْنَاكَ قَدْ حَكَّمْنَا مَبْدِيكَ كَيْفَ كُنْتَ وَكَيْفَ كَانَا

وَكَرْبُ عَيْنٍ قَدْ أَرْتَكُ مَبِيتَ صَاحِبِهَا عَيَانَا

كيف أخفى سرّاً يقرأه كل شخص يرانى من على صفحة خلودى مثلما يرى الماء .
إلا أن فأراً كان له بيت فى مجاورتهم ، وكان حاضراً . فاستمع إلى
مفاوضاتهما واسترقها كاملة ، وحفظها فى سمع القلب ، وختمها بخاتم
المكائنة ، ولم يبح بهذا السر لآى إنسان غير محرم . أمل الجمل فكان
يحلل (يمزق) كل يوم الروح الحيوانية بنار الهوس فى ذلك الخوف والتفكر ،
فصار من توهم ذلك الخلل مثل عود الأراك الرفيع ، وصار بسبب امتلائه
من هذه الغصة مثل وجه الهلال المتراجع ، حتى ظهر أثر الضعف على
بنية أعضائه وأطرافه .

وكان الأسد يبدى تعجبه من تغير حاله قائلاً : ماذا أصاب هذا
المسكين ؟ لعل مخالفة الماء وهواء الأسفار قد أثرت فيه فى الوقت الذى

كان يجول فيه أقطار العالم ، فصارت يده وقدمه نحيلة هكذا ، أو لعله المرض الذي جمع بخار النار ، وطوى كل الأعضاء على الركبة . أو بسبب آلام حمل الكتان الذي حمله من مصر « وتحمل أثقالكم »^(١) ، فأظن أن خروج المحاييس من مدينة سجن جهنم بشرط «حتى يلج الجمل»^(٢) قد اقترب موعده ، لأن سنامه أصبح من الممكن أن يدخل فى سم الخياط من غاية الضعف .

مَنْ كَانَ مَرعى عَزْمه وَهَمومَه رَوْضَ الْأمانى لَمْ يَزَلْ مَهْزولاً
وَذات يوم سأل الغراب الذى دَان من أخص جلسائه وأمناء خزائن
أسراره قائلاً :

ماذا أصاب الجمل ؟ فهو ليس مثلاً أكلاً للحم فقد يكون بعد عن هذا الخلق ، وتحمل رياضة أكل العشب ومن ثم فقد غذاءه الأصلي . وربما يكون قد هم بأمر بعيد المنال يكون الوصول إليه صعباً ، أو أنه يخاف من خصم لا يستطيع مقاومته ، إنى أريد أن تسأله وتعلم ماذا حدث له من حوادث الأحوال ، وتخبرنى عن كيفية أمره ، فذهب الغراب وبدأ مع الجمل مقدمات المحبة ومبائى الصحبة وفن أوامر الأسد ، وأجلس عدداً من طلائع (جنود) الفهم وجواسيس النظر على مدارك الحسن ومسالك العقل ، حتى يأخذ الخبر عن حقيقة حاله وينقلها إلى حضرة الملك . فلم يفد . ولم يظفر بدليل . وذات يوم كان الغراب يتتزه على شاطئ جدول ، وكان يطلب سر قلب الجمل من غاية العدم فى الماء . ومصادفة جاء العطش بالجمل إلى هناك فأخفى الغراب نفسه خلف حجر فنظر الجمل

(١) سورة النحل : ٧ .

(٢) سورة الأعراف : ٤٠ . وقد ورد بيت من الشعر الفارسى فى هذا المعنى ترجمته :
لو يجرى كل ما يحدث لى من الغم على جمل فلسوف يدخل الكفار جنة المأوى
انظر عبد الوهاب القزوينى ، حواشى مرزبان نامه ط ليدن ص ٢٣٧

لحظة في الماء . فرأى الأسماك التي كانت تعوم على وجه الماء . فتنفس نفساً ساخناً وقال : طوبى لكم لأنكم لا تخافون من الرؤساء ولا تفكرون في الجيران ، تمشون على وجه الماء بجسارة ولا يتلوث ذيل عرضكم بأى عارضة من عوارض التهمة وسوء الظنة ، أما أنا فمسكين وضيعت سفينة صدرى على بحر الغم اللامتناهى . ولا أدري أتصل إلى ساحل الخلاص بسلام أم تغرق في دوامة الهلال ؟

ليتني كنت قبلُ مادَّ قد بدَّالى فى مراعى الحشيشِ أرعى الحشيشاً
سمع الغراب هذا الكلام . وذهب إلى خدمة الأسد فأبلغه السر فنهض الأسد من مكانه وصار مغموماً . وقال لنفسه : لأن العصمة الكلية ليست حافظة لأحوال الناس ، وليست بوادٍ القول وصوادر الفعل فى قيد الاختيار حتى لا يتأتى من الناس أى حركة مذمومة يلامون بها ؛ يجوز أنه قد سمع خبراً عنى فصار قلقاً منه ، وعد ذلك من سوء نظرى إليه فأساء الظن بى «إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً»^(١) فلو سألته واستعملت منه ، أخشى أن يزداد خوفه وخشيته ، وإن لم أفعل يظل مكتئباً شريداً هكذا . وفى النهاية أتى إلى خاطره أمر أرجح من هاتين الفكرتين المتعارضتين ، وهو أنه أمر فجاء إلى خدمته عدة أشخاص من عظماء الخدمة وخاصة الخدم ، ومنح الجمل الترحيب والتبجيل الذى كان معتاداً عليه ، وأطلق اللسان بلا واسطة سفير أو مشير أو حاجب أو وزير وقال : برغم أننى أملك يد القدرة والرأى كله ، وأننى أستطيع أن أسقط الفيل السكران بساعد الصولة ، فإن الله تعالى خصنى بصفة العدل والكرم وخصلة الدين

(١) سورة يونس : ٣٦ .

والعلم ومنحني تلك الهدية - على خلاف أقراني - وهي أن قصرت يد التشبث عن دم الحيوانات ، وسحبت ذيلي عن مخالطة هذه المعصية ، وجعلت جوامع الهمة مقصورة عن المطامح الدنية والمشارع الوبية في تحرر وعفة نفس . واليوم أريد منكم لو أنكم ترون عيباً كبيراً أو صغيراً في طبعي ، يصدر عني سهواً أو عمداً ولا يكون مقبولاً عقلاً أو عرفاً ، شرعاً أو رسماً ، فلتعرضوه عليّ ، وقدموه لي هدية عظيمة ؛ لأن أفضل الموجودات وأطهر الكائنات جوهرأ قال «من غشنا فليس منا» يعني كل من وجد عيباً في ذاتنا المباركة ولم يخبرنا به ولم يظهره لنا يكون خارجاً عن عرش اختصاصنا وإذا ما جاء في خيال قاصر النظر أن : كيف يمكن نسبة عيب إلى جانب حضرة النبوة ؟ فإن خطاب الله له بقوله «إنا أنا بشر مثلكم»^(١) ناطق بمصداق هذا المعنى ، ومعلوم من هذا التلويح أن مقارنة ذات واجب الوجود بذوات جملة ممكنات الوجود (المخلوقات) نجدهم بداية من بساط الأرض حتى عنان السماء ، ومن ابن آدم حتى جوهر الملك مصابين بنقصان الحدوث ، والطريق الآخر الذي يتبع ذلك وهو نواقص الأوصاف مفتوح على جميع المخلوقات ، وقد وضع أساس العالم الأصغر والأكبر^(٢) ، وهكذا ولدت نتائج فائقة من هاتين المقدمتين ، والآن مسموح لكم : أنه إذا وجدتم أي شيء من عيوب وذنوب أقوالى وأفعالى يمكن وضع إصبع الإشارة عليها ألا تخفوه عني ، حتى أتوب من ذلك وأشتغل بتطهير أخلاقى وإن توقع إنسان ضرراً منى أو رأى أى شراً من

(١) الكهف : ١١٠

(٢) العالم الأكبر هو الذى يشمل على الصيف والشتاء والخريف والربيع ، أما العالم الأصغر فهو عالم الأدمى الذى له أربع طبائع : نجم كبرى ، مرصاد العباد بتصحیح دكتر أمين رباحى ص ٧٦

نار غضبي في مستقبل الحال ، يجب أن يوضحه ويقوله حتى أجعله آمناً ، وإذا صدرت من شخص رلة خفية [فليظهرها] حتى أسدل ذيل التجاوز عليها .

الستر دون الفاحشات ولا يلقاك دون الخير من ستر

فأدى الحاضرون الدعاء والثناء الذي كان لائقاً وقتئذ بلسان واحد وقالوا : معاذ الله ، حاشا أن يكون قد وصل حاشية خاطر أى واحداً من حواشى الدولة وخدم الحضرة أى غبار من الملك أو يكون قد علق شوك من حديقة لطفه بذيل أحوال أحد . لأننا جميعاً تربينا فى عصمة ديانيك وكنف عدم إيدائك ، فأى مكان لمثل هذا الحديث على وجه حاكم نافذ البصيرة مثلك ؟

فلتكن أيامك سعيدة ، لأن الأيام والأعمال تمر جميعها بسعادة فى دولتك

وعندما سمع الدب تفاصيل وجمل هذه الحكاية ، وكان يرى ناقته وجمله فيها ، ففكر فى نفسه قائلاً : إن الملك قد وجد علامات التشويش على صفحات حال الجمل فأمل بهذا التفحص والتفتيش ، فلو يتبه لاحتيالى واغتيالى ، فلسوف يعاقبنى عقوبة شديدة . فالرأى هو أن أجذب الجمل إلي وحل الواقعة وألقيه فى مخلب العذاب ، حتى أضع حمل هذا الذنب على عنق الجمل ، وأجعله جناية الجنايات فيصوب كل سهم للخطأ والصواب يأتى من قبضة الرضا والسخط ويستقر عليه ، ثم توجه بوجهه تجاه الأسد وقال : يبدو أن أحداً قد أساء الظن بصورة الأسد فأوقع عليه الوهم الباطل ، ولا يكون ذلك إلا من خبث داخلته وغائلة ضمير ذلك الشخص الذى يتخيل نقش عقيدته فى مرآة رأى الملك ، وإلا فأى سوء يمكن أن يتصور من ملك سيرته خير خالص ورافة محضة ورحمة صرفة ؟ وبرغم أننى سمعت عدة كلمات من هذا القليل لكتنى لم أرد أن أعلنه ، لأننى لم

أعلم بأنه سوف يتشر هكنا أو أن همة الملك العظيمة سوف تعظم هذا الأمر هكنا . والآن لأن خاطره الشريف يلتفت إلى كشف ذلك المقام ؛ فإتنى لن أخفيه بأى وجه . ثم أمر الملك فأخلوا المكان ، ودعا الدب إلى جهة استكشاف هذا الحال . فقال الدب : أيها الملك لقد قالوا إن العالم فى عين الجاهل أحقر من الجاهل فى عين العالم . فهنا الجمل لا معرفة له حتى يعرفك بها تلك المعرفة التى تجعل هيتك وحشمتك متساوية دائماً فى خاطره ، وتمنعه من الجرأة وتعينه على هذه الأفعال السيئة ، وإن أعلم الخلق فى إشارة إلى هذا المعنى يخبر عن نفسه فيقول : «أنا أعرفكم بالله وأخشاكم من الله» . يعنى لأن مقام القهر الإلهى معلوم لدى ، وأنه إلى أى مدى فإتنى أخشاكم من وقع آثاره ، لأنكم فى حجاب الجهالة من مطالعة ذلك ، ويقول - عز من قائل - فى نص التتريل «إنما يخشى الله من عباده العلماء»^(١) لكن الملك أمر برعاية زائلة عن الحد لهذا الجمل ، ومنحه مقاماً أعلى من قلم استحقاقه ، ولا شك أن لقمة الفيل لا تسعها حوصلة العصفور وأن الشرية ما لم تكن موافقة للمزاج تضر فطن (أى الجمل) أن باعث الملك على ذلك الذى فعله إنما هو ضرورة حال أو حاجة مأل ، أو أن الأسد ندم على الحظ الذى وجده الجمل فى هذه الدولة ، وأنه يحط للترلة ونزول المرتبة التى وجدها سوف يرضى الأسد . وغلبت هذه الفكرة عليه ، حتى إنه بسبب خلاقة طبعه وسخافة رأيه كان يبحث عن الفرصة الأخرى التى لولا أن التصريح بها يسعد عن أدب العبودية لأظهرتها .

ولو حيز الحِفاظُ بغيرِ لبٍ تَجَنَّبَ عُنُقَ صِيقَلَةِ الحُسَامِ^(٢)

(١) سورة فاطر : ٢٨ .

(٢) البيت لأبى الطيب المتنى من قصيدة يمدح بها المغيث بن على العجلي ومطلها :
فؤاد ما تسليه اللدام ولا عمر مثل ما تهب اللثام .

المتنى : الديوان ج٢ ص ٣٣٨

وعندما سمع الملك هذا الفصل ، أخرج الدب وأرسل فى طلب الغراب . فحضر وسأله : ماذا ترى فى نقل الدب لهذا ؟ فأجاب الغراب : إن رأى الملك الأزهر وضميره الأثور كاشف لوجه المختفين فى ستر الغيب . فلا يخفى عليه . لكنه من المعلوم لدى بشواهد العقل ، وأدلة الحس أنه لا يوجد أى شخص من أذلاء خواضع الخدمة يملك ما لدى الجمل من التواضع والأدب وسلامة النفس وسماحة الطبع ولا يملك أحد الاحتشام الذى لديه من هيبة الملك ، ولو كان يعلم نفسه مجرماً . لم تكن لديه جرأة القلب حتى يدور حول جناب حشمتك ، ويضع القدم على عتبة انبساط هذه الخدمة ، وكان لابد أن يستشعر ويتزعج ، ومن ثم كان يتجه إلى مأمن آخر «مستنفرة فرت من قسورة»^(١) خصوصاً وأنه لا يملك قيلاً على القدم ، وليس هنالك موكل على رأسه . والحقيقة أنى أعلم أن للملك نية وطوية على القرار الأصلى ، وأنه لم يجد طريقاً للتوحش والتنفّر على طبعه الكريم مطلقاً . وهكذا يبدو أن الدب هو الذى غرس هذه الشوكة ، وآثار غبار وحشته هذا . فيالأسف أن يكون مثل هذا الخادم الطاهر الخلق والجيلة ملوث التفكير متوحش الهجر بسبب وشاية صاحب غرض وسعاية سئ الطوية . فلو يدعو الملك ويمنحه شريف المشافهة ، ويبحث عنه باللفظ الأشرف ، لظهرت طبيعة واضحة من صدقه ولهجته مصدوقه الحال . فأحضر الملك الجمل إلى بيت الخلوة وقال له : أعلم أنه ثابت على لك حقوق حسن الخدمة ، وأنت دائماً كنت تقبل على طاعة أوامرى ، وكنت تمتنع عن النواهى ، وأنت لم تضع أبداً قدماً

(١) المذثر / ٥٠ ، ٥١ .

خارجاً عن محجة مرادى ؛ وحق المعرفة والكرامة ، وحقيقة إشفافى وعطفى على أحوال جميع الخدم معلومة لديك ، وخاصة أنك تختص بكل هذه المقامات المرضية والمساعي المشكورة ، فقل ما هو موجب هذا التغير والتكسر ؟ فإنك لو فعلت ذنباً وتفكر فى المساءلة ، فقدّر أنه مهما كان أعظم ، فإننى سامحتك فى جميع الصغائر والكبائر . ولا تخف إذ كانوا قد نقلوا عنى كلمة موحشة ومشوشة ، وأضافوا الخيالات ، وأجعل نقال النكال على يدى ، واجلس أنت مرفه الحال فارغ البال «فأنت منى» بين أذنى وعاتقى^(١) ففكر الجمل قائلاً : لو أن صورة الحال تظهر فإنه يلزم لذلك انتقاض العهد وانتكاث ذلك العقد الذى كنت قد أبرمته مع الدب ، ويقع وزر ذلك على عاتقى . ولو أعترف بذنب لم أرتكبه ، فإن الملك مهما سحب قلم الصفح ، وطوى أوراق صحيفة الجرم ، فإننى ربما وسمت وجه عفوه بحال عصيائى ، وربما سودت وجه حالى بسواد الخجل ، وصرت منحصرأ فى زمرة المجرمين ، لكن الأفضل أن أضع هذا الشين على وجه أمرى ، وأجعل الذنب على نفسى حتى لا يصاب الرفيق الذى ربما اعتمد على حسن السيرة وإحكام السريرة ووفاء عهد الموافقة وإبقاء حق المرافقة .

كذا المجدُ يحملُ أثقاله قوى العظام حمولَ الكلفِ
على كاهلِ الشُّكرِ من فضله يدُ كاهلِ الأرض منها أخفُ
ثم قال : أيها الملك : بسبب أننى أنظر فى بداية ونهاية الأمور ، وأتلفت على يسار ويمين الأحوال وأبحث غوامض الأمور ، فدائماً

(١) أنت منى بين أذنى وعاتقى أى بالمكان الأفضل الذى لا أستطيع رفع حقه . المبدئى ، مجمع الأمثال ج ١ ص ٩٤ .

ما أكون فكوراً مثالاً ويبدو على ظواهرى آثار تلك الفكرة . فلا شك - لهذا السبب - أنه كان عندى بعض سوء الظن فىك فلو أردت مؤاخذتى بهذا القدر ، فالحكم حكم الملك . فقال الملك : حسناً . الآن قل هل كان سوء الظن هذا من فعلنا أم من قول الآخرين . هنا سكت الجمل وطأطأ الرأس . فقال الغراب : أيها الأخ لا يفيد فى هذا المقام سوى قول الحقيقة ، وأن لم تقل أنت (الحقيقة) فسوف يجعلها الملك معلومة بتجسس الرأى وتفرض الخطر ، ولكن سوف يمحو اسمك من جريدة الصادقين ، إلا أنه فى هذه الحال كان قنفذ قاعداً فى ركن واضعاً رأسه فى جيب التغافل ، فسمع هذا الكلام ، وانطلق من هناك إلى اندب وأخبره عن مجارى الأمور وأحداث الحال . فحضر الدب إلى الأسد فى الحال . فرأى الجمل عطأطأ الرأس صامتاً متوقفاً . تفكر قائلاً : إن هذا الصمت دليل على من يريد إفشاء سرى . فالأفضل أن أسحب كرة مخالسة هذه الفرصة من الأمام ، ثم توجه إلى الجمل وسأله لماذا لم تضع خاتم السكوت على لسانك فى ذلك اليوم الذى جعلت فيه عرض الملك عرضة للمساوى والمخازى وكنت تفكر فى قصد روحه العزيزة ؟ فتعجب الأسد من تلك المكابرة ، وتذرع بالمصابرة على نار الغيظ حتى يرى ما هو جواب الجمل ، لأن مجال الشبهة العظيمة قد وقع «واختلط الخائر بالزيادة»^(١) .

فقال الجمل : أيها الظالم النجس ، وأيها الأثيم السفاك هل أنا قلت

(١) الخائر ما خثر من اللبن ، والزيادة : الزيد يضرب للقوم يقعون فى التخليط من أمرهم ، عن الأصمى ، الميدانى ، مجمع الأمثال ج ١ ص ٤٢٥ .

هذه الفكرة فى حق الملك لك وحدك أم لك مع شخص آخر ؟ فلو كنت قد قلتها لغيرك أيضاً . فينبغى على هذا الشخص أن يشهر فى وجهى مثلك ، ولو لم يسمع هذا الخبر سواك فلماذا لك تأت كخدم هذه الخدمة - بتلك الحال التى وقفت عليها الآن - وأخبرت الملك لذلك الذى علمته ؟ وتركت التنبيه على مثل هذا الغدر إهمالاً ، ولماذا لم تشغل بالحقيقة التى هى منشأ حسن المحافظة ؟ أما حكايتك معى فتشبه حكاية زوجة النجار ، فقال الملك كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية النجار مع زوجته

قال الجمل : سمعت أن نجاراً كان ماهراً حاذقاً فى الصنعة لدرجة أنه كان ينفخ الروح فى قالب الخشب ، تتحسن صورة الفكرة وصورة ما قطعه بلطته على يده . وكان له زوجة جميلة الوجه فاتنة الجسم حتى أن ناشدى غزل الخاطر كانوا ينشدون هذين البيتين فى ستر حسب الحال .

يا من قطع رأس فرجار الوهم خده بالنقش على اللوحة
فيجب أن يكون كل مصورى الصين (هكذا) حتى يقطفوا ورد وجنتك
والحق هو لو أن النقش هو زينة بيت الحسن والجمال ، فإنه كان يعرف نقش عقدة حيل النساء تماماً وكان يلتقط - من مكان العمل - الصور التى كان يتعب العقل من مطالعتها . والخلاصة أن كل ليلة وعندما كان يضع النجار رأسه فى نوم الغفلة ، ويقيد حارس بصره

بسلسلة الرموش بين الجفنين ، وكان ينام ذلك النوم الهادئ السعيد دون تقطع ، كانت تهتز سلسلة عشق المحبين الذين لهم علاقة حب مع المرأة . فكانت تخرج من الباب في هدوء ، ولا تعود إلى البيت حتى يخرج نائموا طلائع الصبح رأسهم من جيب الأفق .

فوصل الأمر إلى روح النجار ، ووصلت السكين إلى العظم . ففكر قائلاً : أفصح هذه الفاجرة بما تفعل ثم أطلقها ، لأن مفرش فائدة عرضي عندما تلوح بالملائمة بين الأقران والإخوان فسوف أصبح مضغة كل فم وضحكة كل مجلس . إذن أطلقها وأخرج الرأس المغطى في حكم الزوج من بيت الصيانة وخدر الديانة ، حتى أصبح بذلك مرتفع الهامة طلق اللسان «من لم تخنه نساؤه نكلم بملء فيه»^(١) وذات ليلة وضع رأسه في ملابس النوم متظاهراً بالنوم ، فنهضت المرأة حسب العادة الماضية وخرجت . فأغلق الزوج الباب جيداً حتى جاء الوقت الذي رجعت فيه الزوجة فوجدت الباب موصداً . فنادت على الزوج أن افتح الباب . فقال النجار : ارجعي من هنا ، وإلا ضربت رأسك بالفأس التي ضربت بها رجلى عدة مرات بسبيك . وكان هناك بثر عميق قريب من الباب . فقالت المرأة : إن لم تفتح ألق بنفسى في هذا البثر فيريقوا دمك غداً قصاصاً لى ، ثم أحضر حجراً كبيراً وألقت به في البثر ، ثم اختفت خلف الجدار فسمع النجار صوت الحجر فخرج حتى يرى ما هي الحال ؟ فأسرعت الزوجة من مكانها إلى البيت ، وأغلقت البيت وضجت بالصراخ والعيول . فاجتمع الجيران وسألوا : ما حدث ؟ فقالت أيها المسلمون : إن هذا الزوج فقير وأنا .

أعانى فاقته وفقره

(١) الميداني ، مجمع الأمثال للولدين باب الميم ج ٢ ص ٣٦٤ .

وقد أخذت ذيل الموافقة معه برغم كل هذا البيت الحرمان ،
وشكر مثل هذه النعمة - وهى أن جعلنى الله تعالى بجانبه - هو فعله
لهذا الأمر ؛ فيخرج من البيت كل ليلة ويعود كل صباح ، وأنا لا
أتحمل أكثر من هذا . وظل الزوج عاجزاً بسبب افترائها واجترائها إلى
هذا الحد حتى قرر أن يذهب إلى القاضى فيرفعا إليه هذه الحال .
فذهبا وجلسا فى الدوار فبدأت المرأة وحكت الصورة التى كانت من
نقش خديعتها واختلاف هوى طبيعتها . ثم وضع الزوج حقيقة حكاية
الأمر أمامهم ، فحكموا على المرأة بحكم التعزير الموافق للشرع .

وقد قلت هذه الحكاية ، حتى يعلم الملك أنه عندما تغلب الأنثى
الرجل وتصبح الرجولة مغلوبة ، يقل عمل الرجولة ، يبدو فى كل
وقت بصفة النساء ويتقدم بهذا الوجه .

لسان الطلق الفصيح والقلب الملىء بالكذب لا يقول الحق بجانب الرجل العالم
فجاء الغراب إلى الأسد وقال فى هدوء : إن علامات الحيلة
والخداع بادية فى معاملة الدب ، وتشهد دلائل مكائده على جرم أمره
وعدم جرم الجمل وقد قالوا : لا يجوز للملك أن يحتج فى أمر مع
عامّة الخلق ولا يجوز له أن يقول كلاماً من أجل المعارضة ، لأنه
عندما يكون ذليلاً فى أعينهم يتجرأون عليه ، ويصل الأمر إلى درجة
يصعب معها فرض الحق عليهم فكيف بتسوية الباطل . فأمر الملك
فسجنوا الاثنين وأتاب ثعلباً يدعى «جادو» لمراقبتهم والمحافظة عليهما .

تَمْنَيْتُ أَنْ تَحْيَا حَيَاةً شَهِيَّةً وَالْأَتَرَى طَوْلَ الزَّمَانِ بَدِيلاً
فَهِيَهَاتَ هَذَا الدَّهْرُ سِجْنٌ وَقَلَّمَا يَمُرُّ عَلَى الْمَسْجُونِ يَوْمٌ بِلاَ بِلَا

فذهب الفأر الذي كان خبيراً بأمر الجمل ، وكان قد سمع تحاورهما وسأل «جادو» إلام انتهى أمر الجمل والدب ؟ فقال : كلاهما محبوس حتى يظهر وجه النجاة المطلقة . فقال الفأر : أتوقع أن تقول لى ما ترى من الجوانب التى يغلب عليها رضا وسخط الملك ، حتى أعلم من منهما تكون عاقبته حسنة ، وإلى أى جهة فيها يجتجه الشؤم . فقال جادوا : إن ربح هذا الحديث تأتى من تجاوزيف الأمر ، فلو تطلعتنى على ذلك الذى تعرفه ، فإن هذا لا يبدو غريباً على أسلوب الأصدقاء والأحباب .

فقال الفأر : إنى أريد أن تشمل عاطفة الملك كليهما ، ويرمقهما نظر عنايته وينتهى الأمر بخاتمة الخير ، وقد سمعت أيضاً أنهم قالوا : لا تتحدث فى أمر الملك بخير أو بشر ، واختر لنفسك . فقال «جادو» : يجب أن يكون الكلام جيداً ويأتى موافقاً للعقل والشرع ، حتى يكون مقبولاً ويكون مثل العسل المصفى الذى تخرجه من أى طبق ، فلو كان من ذهب أو من طين فدرجة حلاوة العسل تتساوى لدى كل الأذواق ؛ والعلم بشبه قطرات المطر التى تظهر أثراً من آثار المنفعة على أى أرض تنزل عليها . والرجل الذكى صاحب الكفاية والدراية فى الطبع عندما يطلب صلاحاً فى أمر ملكه ، فإنه يتقدم إليه من الأمام حتى ولو خاطر بروحه ولا يتراجع عن الحصول عليه مثلاً

فعلت ايراجسته مع كسرى فقال الفار : كيف كانت هذه الحكاية .

حكاية ايراجسته مع كسرى

قال الثعلب : سمعت أن كسرى كان له زوجة أميرة ، تربت في خدر العصمة وانتقلت من بلاط الستر إلى سرير مملكته . أطلقت شعاعاً من حسن وجتها على الشمس ، وهدد عارضها القمر في بيت الموت . وكان كسرى قد قتل أخاها وأباها ، واقتلع سرور بستان الأمانى من على نهر الشباب ، وسقى غصن شجرة الملك التى على أرومة السعادة بالدم . وبالرغم من أن كسرى كان شديد التأوه من عشقها إلا أنه كان دائم التفكير فى القتال الذى كان قد فعله معهم ، وكان يظن أن حب الأخوة والأبوة سوف يحرضها يوماً ما على بعض الزوج ، وإن تذكر أعزائها لن يذهب أبداً من حنايا خاطرها ، عندما جاء كلاهما إلى بيت خلوة العشرة للمداعبة والملاعبة على سرير السعادة ، مد كسرى يد الشهوة بالانبساط وهو فى قمة النشوة والنشاط ، حتى يحتضن أفخاذ المحبوبة بالحبل المسكى ، يرتشف عدة قبلات من فم المحبوبة الصغير ويلتهم اللوز بجوار الشراب . فنظرت المعصومة . فرأت خادومات استار الخضرة ومستورى حرم الخدمة أعنى الخادومات قمریات المنظر وبنات زهرة النظر اللائى كن قد وقفن على يمن ويسار السرير ، واصطففن مثل بنات النعش ونجم الثريا حول مركز القطب فخرجلت كل الخجل من نظراتهن ، وفى نفس الوقت قفز إلى خاطرها ونصب عينيها : أن كسرى أنوشروان عندما صدقت جواذب رغبته بمشاهدة صاحبة الجمال من منظورات فراش العشرة . نظر فرأى فى ذلك البيت زهرية النرجس قد وضعت وسط

زهريات الرياحين . فسحب ستر الحياء على وجه مروءة الرجولة وقال :
إننى لأستحي أن أباضع فى بيت فيه النرجس لأنها تشبه العيون
الناظرة^(١) وقالت فى نفسها :

إنه برغم كل أعذار الرجولة قد استحيا من حضور النرجس الذى
ولدت أمه أعمى ؛ فإذا لم أبال بحضور أزهار الياسمين والأرغوان^(٢)
التي نبتت وهى ترى أفضل من النرجس فى مراقبة أحوالى ، وإن لم
أبالغ فى مغالاة بضاعة البضع فإن هؤلاء العذارى صاحبات الشعر
المسكى سوف يطلن لسان الطعن فى مثل السوسن . وبالرغم من أنهم
قالوا : جدع الحلال أنف الغيرة^(٣) إلا أننى لا أملك طاقة لهذا التحمل
أو وجهاً لهذا الخجل . ورفعت يدها - فى تلك الحالة - إلى وجه
كسرى فوق من طرف السرير . فتخيل أن موجب هذه الحركة
ومهيجهما هو حقد الأب والأخ الذى تمكن من داخلها ، وأنها دائماً
سوف تخرج الرأس من جيب الفضول بحيلة ما ، وهذا نفسه مثل
على أنه : لا يحب اقتناء السيئ فى البيت وخاصة الزوجة . ثم دعا
إيراجسته الذى كان وزير الملك ومستشاره . وبعد أن قال له سبب
غضبه على زوجته ، وأمره أن يحملها ويقتلها . فتصرف الوزير فى
ذلك الوقت الذى كان الملك فيه قمة غضبه على إلا أنه لم ير الالتزام
بحرفية الأمر . ثم حملها فى ستر الحرمة إلى بيته وظل متردداً بين
تأخير ذلك الأمر وتقديم إشارة الملك . أرسلت المعصومة رسالة إلى
الوزير على لسان خادم أن قل للملك : لو أننى مذنبه فإن هذه النطفة

(١) الفرس يطلقون «النرجس» كناية عن عين المحبوبة .

(٢) كناية عن الخادمت اللاتي سبق وأن ذكرها صراحة .

(٣) قال عليه السلام ليلة زوّت فاطمة إلى على عليه السلام ، وهذا حديث يروى عن الحجاج بن منال يرفعه الميلى ،

مجمع الأمثال ج ١ ص ٢٩٠

الطاهرة التى فى بطنى من صلب طهارتكم لا ذنب لها ، وهى حتى الآن ماء بسيط ، لم تتركب مع أجزاء التراب الأدمى المخلوط بالمعصية فليس من اللائق سحب رقم المؤاخذه عليه وإجراء قلم القضاء عليه . لأن هذا الطفل الذى يحضره بيت دولتكم من عالم الغيب بالدعاء . فإنك قد دعوته ، وكنت قد طلبت قدومه بأدعية الليل ، واستدعيته بأوراد وروده ، فاسمح له حتى يأتى ، ولو كنت تفكر أن لهذا الطفل الضيف أم طفيلية ، فليس من باب الكرم أن يمدوا يد المنع أمام طفيلي الضيف .

أيهاب الحبيب : لا تفعل الفعل الذى تندم وتنجعل لفعله

فذهب الوزير لخدمة كسرى وطلب الأمان لحامله حمل الأمانة حتى وقت وضع الحمل . فلم يقبل كسرى وأمره قائلاً : أذهب وأوصل هذه المهمة إلى القضاء وهذا المثال إلى الإمضاء^(١) . فعاد الوزير وعندما تأمل فى حقيقة الأمر ، لم يجد رخصة لهذا الفعل من مفتى العقل ، وكان يعرف أن كسرى سوف يظهر حب الولد ذات يوم فى داخله الذى هو مظلم بدخان نار الغضب الآن ؛ ويندم على قتل (الولد) الذى هو سبب ضياع عينه ، ويعلم أننى كنت واسطة ذلك الفعل . ورأى أن الثواب هو أن يدبر مكاناً خفياً عن نظر الخلق لا يراه سوى الشمس والقمر من فتحة جداره ، وأوكل حفظ ورعاية ذلك البيت الذى كان فيه مقامها إلى حارس ، ورتب كل ما كان لازماً من أسباب المعاش من كل يحتاج إليه وجهزه على وجه المصلحة . وعندما تمت التسعة أشهر ، وأظهر البدر ليلة التمام الوجه من خلف عقدة اليأس . ونزل المحبوب من فوق كتف مرضعات الفطرة إلى حجر قابلة الدولة ، وكانوا يربونه كذلك فى ذيل حواض الحظ حتى وصل إلى سن السابعة .

(١) كناية عن تنفيذ أمره بقتل الزوجة .

و ذات يوم كان كسرى يتتزه فى مكان الصيد . ظهر فى الصحراء شاة مع حمل وكبش ، وعندما أطلق الجواد مثل الريح العتية من مهب التبخر والنشاط وجعله يجرى بالقرب منهم واضطر الثلاثة إلى منحني جبل . وسحب سهماً وصوبه نحو الحمل . فجاءت أمه إلى الأمام حتى تصبح درع الآفة . وعندما صوب السهم على الأنثى ، جاء الكبش فى الأمام حتى يكون مانعاً للقضاء على الأنثى ، فوضع كسرى إصبع التعجب بين أسنانه من ذلك الموقف ورمى القوس من يده وتذكر صورة حال الزوجة وإهلاكها مع الولد الذى كان فى بطنها ؛ وقال لنفسه : فى الوقت الذى للحيوان الوحشى مثل هذه الرحمة والشفقة لدرجة أنه جعل نفسه فداء لولده ، ويكون للكبش كل هذه الرحمة والرافة على الأنثى لدرجة أنه يستقبل البلاء حتى لا يصيبها ؛ أرقت دم فلذة كبدى بيدى ، ولم أرحم الزوجة التى لم يكن لها مثل بين نساء العالم فى حسن الصورة وطهارة الصفة ، كيف أطلب استساغة لهذا الغصة ومرهماً بلرح هذه القصة ؟

إن الشخص الذى يلتفت بوجهه عن الصدق هو الذى يندم على فعله وعندما عاد كسرى من الصيد ، دعا الوزير إلى خدمته ، وحكى له قصة حيوانات الصيد واشتكى له الألم الذى أصاب قلبه من تذكر الزوجة والولد والتحسر الذى ناله على موتهم . فقال الوزير : ليس فى اليد سوى الصبر . ثم نهض وذهب إلى البيت ، وزين الأمير الصغير بالزينة اللائقة والحلية الفاتكة وفواخر الثياب اللائقة من المفرق حتى الأخمص . كما رتب لأمها كثيراً من مختلف أنواع الحرير

وحقائب الملابس الجميلة بالإضافة إلى الهدايا الأخرى من الملابس
المركوب وغير ذلك وأتى إلى خدمة كسرى ضاحكاً مستبشراً وعن
وجه الصباحة مسفراً .

أنظر إلى هذه الوردة النادرة التي تفتحت لنا ، غير أنها لا يمكن أن
تبدى اللون أو تخفى الرائحة

أيها الملك ، إن ذلك اليوم الذى أمرت فيه أن يكسروا ذلك
الصدف مع الدر ويدفنوا تلك الوردة مع البرعم فى التراب ، ويقطعوا
تلك العلاقة التى بين الأب والأم ، فكرت فى ندم الملك وجريمتى ،
وتوقفت فى تنفيذ ذلك الأمر حتى وقت الوضع ، وبعد تسعة أشهر
جاء الولد الذى يتفوق على كل إمراء العالم مثل الوزير الذى يقضى
على دور الطائيتين فى الشطرنج ويهدد الملك . والذى أتى بالفأل
الحسن وكوكب السعد وقد رصد المنجم - فى نفس الزمان - طالع
ولادته . فهذا هو تاريخ الميلاد وطالع المولود .

فيا أيها الملك : أننى لم أفضل إهلاك الأم التى أنجبت مثل هذا
الولد منقطع ، النظير وأعدت الاثنين كليهما بالسلامة ، وأحضرت
المسك مع النافجة والغصن مع الزهرة ، فدهش كسرى من سماع تلك
الحال وخر مغشياً عليه ، وغاب عن وعيه حتى إنه لم يدر ماذا كان
يسمع ، وعندما أفاق إلى وعيه قال :

أهلاً وسهلاً بالتي	جاءت على بعله
أهلاً بها وبوصلها	من بعد طول الهجرة
أدر المدام غنتي	أهلاً وسهلاً بالتي

ثم قبل المنة - التى كانت فى مقابل مثل هذه الخدمة - من الوزير وصنع كل ما كان ممكناً من تكريم جانب الحرمة وإعلاء جاهه ومنزلته ، وجعل رأيه مزيناً عروس الدولة وفاتحاً لعقدة مشاكل المحنة وذخيرة وقنية يوم الحاجة .

وقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم إنك إذا ما استطعت تنبيهه وإبعاده عن موقع أغاليط الخيال وتخاليط لوهم ، فإنه يرجى إحسان الملك من تلك الناحية (العين) ولن يكون هناك أى ندم على كل ما جعله فى إطار حسن المكافأة ، ومن ثم تستطيع أن تصل وبسرعة من خلال تلك الخدمة إلى الترفع بالمرتبة السنية والتمتع بالحياة الهنية .

قال الفأر : لقد أصبت ، ولا يتردد العقل فى قبول وتصديق ذلك الكلام مطلقاً ولكن من أنا فى الرفعة - وأنا آتى فى تلك المجموعة التى ينتظمها عقد الموالى والخدم ، وأعد من موالى الخدمة - حتى أصير مخصصاً بشرف المثل على هذه الأعتاب وبدالة أى آلة ويأرشاد أى أرشاد أطلب هذا المقام ؟ وباعتداد أى استعداد أجلس فى هذا المعرض ؟ «إنك لا تجنى من الشوك العنب»^(١) لقد سترت القدم أعواماً فى ركن الخمول هذا بذيل العزلة ، ونفصت الذيل من غبار مثل هذه الأطماع ، فاسترحت نهراً من طلب هدف ليس لى .

ونمت فى الليل سعيداً بعيداً عن حفظ الشئ الذى لا أملكه . وأنا لا أعلم اسمى بسبب معرفة الملوك ، ولا أرجح هذه المعرفة على إنكار نفسى فى مثل هذا الواقعة النكراء والداهية الدهياء ، ولا أتصدى للأمر الذى هو خارج عن مجال وسعى وزائد عن قدر إمكاني .

(١) أى لا تجد عند ذى المنبت السوء جميلاً والمثل من قول أكنم يقال أراد : إذا ظلمت فاحذر الانتصار فإن الظلم لا يكسبك إلا بمثل فعلك : مجمع الأمثال ج ١ ص ٨٦ .

ولم أطلب مداهُ ومن يُحاول مناطَ الشمسِ يعرضُ للسُّقاط

وقد قيل : صحبة الملك وجواره مثل الحوض الساخن ، يتمنى البعيد عنه أن يدخل فيه ، ويتمنى أن يخرج منه كل من جلس فيه ساعة وتأذى من لدغ حرارة مائة وعدم مناسبة هوائه . وكذلك الناظرون الذين يرون حضرة الملك ورونق الحاضرين من بعيد ، فيعلقون اليد فى الحبال والوسائط ويطلبون الأسباب والوسائل حتى ينضموا بأى حيلة وأى وسيلة إليهم .

والصواب الذى يأتى بالغرض ويؤدى المطلوب هو أن يبحثوا - بالطف الوجوه - عن الفاصل الذى يجعل بينهم وبين خدمة الملك سداً منيعاً . لكن لأننى أراك متعلق الخاطر متعمق الفكر فى هذا الأمر ؛ فسوف أبوح لك بهذا السر بشرط ألا تسند هذا الكلام إلى ، ولا تروه عنى . فتعهد الثعلب بتنفيذ هذا الشرط . فحكى الفأر - تفصيلاً - الحديث الذى به الدب إلى الجمل ، ووضع أمامه سعاية الدب فى الإفساد ومناقشة الجمل فى طلب الصلاح كما مضى . وأوضح له أنه مهما ألقى (الدب) من شوكة تسويل الحيلة والخيلة فى طريق سليم الطبع سلس القياد ، فلن يؤثر فيه قيد أنملة أو مثل رأس الشعرة برغم كل هذه الطيبة فى القلب ، ولن تتعكر موارد صفائه من خبث ذلك الشيطان المارد . ولن تنقطع مادة ألفته بصورة الباطل .

وعندما سمع الثعلب هذا الكلام مفصلاً مستوفياً من الفأر ؛ فرح وذهب إلى بلاط الملك سعيداً ودعا للملك قائلاً : لتدم حياة الملك إلى الأبد ، إن الأيام التى كنت محروماً فيها من خدمة هذه الدار ،

ومحجوباً عن جمال هذه الحضرة ، كنت أنفحص فيها أمر الدب والجمل ،
وأتصفح حالهما . وخرجت فى النهاية من مقام التحير والتوقف ،
وأطلعت بدقة على حقيقة المكابدة وحق المجاهدة لدى كل منهما .

فلو سمح لى الملك وأذن بالحديث أخبرته . فقال الأسد : طالما
أنك موجود والحمد لله ، فأنت من الرواة الثقات فى مسار الأخبار
ومضارها ، واستمعنا لقولك فقط راجع فى إفادة اليقين على تواتر
الجماعات ، ويغنيا عن البحث .

فحكى الثعلب للملك ما جرى من الأحداث ، من البداية حتى
النهاية ، فأماط نقاب الشبهة عن وجه الاجتهاد .

فعندما شاهد الملك جمال العيان فى مرآة الخبرة ، التفت الملك
إلى الغراب وقال : والآن : ما جزاء الدب ، وما جزاء أفعاله الذميمة ،
وماذا يجب أن يكون ؟ .

فقال الغراب : الرأى هو أن يدمر الملك بعقد اجتماع ملئ
بأصناف الخلق من عوام وخواص وصغار وكبار وحقراء وأشراف ، ثم
يجلس الملك على العرش ، ثم يأمر بأن يقول كل شخص جلس فى
بساط الحضرة كل ما عنده من جزاء مستحق للمذنبين ، ولا يكتف
كلمة الحق ؛ حتى يكون محققاً ومعذوراً فى كل ما يأمر به . وأنهوا
ذلك اليوم بهذا التدبير والتفكير .

وفى اليوم التالى الذى نزلت فيه زهرة الأنجم على ريح الصباح ،
وتألفت واجهة بيت الأسد فى مزرعة بنفسجية اللون ، وجلس الأسد
فى بلاط الحشمة نضير الوجه مثل البنفسج الطبرى وورق الزهرة
الطرى ، وأخذ فى تزيين درر العبارات بماس شقائق اللهجة ، وأخذ

فى التفتح بشقائق البهجة كالربيع ، وافتتح الحديث قائلاً : قال رسول الله ﷺ « لا تجتمع أمتى على الضلالة » ، ويحمد الله كلكم ورعون وزاهدون ، وكلكم فى ملة المتقين وعباد للحق . وقد أدبتم لى حق الاتباع على طاعة الله ورسوله لأننى من أولى الأمر^(١) وسلكتم طريق الأثر «الناس على دين ملوكهم» .

وطالما أنكم مجتمعون ، واتحدثم على كلمة الحق لأن الذى سلك مع أخ له طريق معاشرة واحد أوقاتاً طويلة ، وبذل له كل الوداد ، وضيق نطاق الاختلاط وعنق الصحبة حتى جعله لا يسع ثالثاً معهما فى أسرار المحبة والعداوة ، وزين الظاهر بحيلة الوفاق ، وملاً الباطن بحشوية النفاق .

وأراد أن يلقيه بتعبئة الاحتيال وتعمية الاستجهاال ، ويصبيه بالفخ الذى لا يستطيع دوران الفلك - بأى سحر - أن يحل عقدة إبرامه وإحكامه . حتى يأمر - على سبيل الإطلاق - يجب عليك أن تقصد روح الملك المشفق والمخدوم المنعم لإهلاكه . فإن لم تفعل ، سبقت داعيه قنصده ، فتبصر نفسك فى عقدة حبل القضاء المعقدة ، وذليل مخلب بلائه ، لأن تغير خاطره بشأنك لن يكون فى المقام الذى يتصور معه توقفه عن إهلاكك أبداً . ولأن العقل التوفيقى والبصيرة الغريزية هما زمام الانقياد لمن هو حسن الخصال سليم الخلال كريم الطينة ، فإنه يأخذ بيد خبيث الطوية سيئ الأخلاق ، إلى سبيل السداد وطريق الرشاد ؛ حتى يدير وجه القبول عن كلامه ، ويظهر الإعراض إلى أمره .

(١) إشاره إلى قوله تعالى «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم» النساء ٥٩

نعم إن دم اختراعه وحيلة خداعه سوف يصبح مضطرباً ، ويصير نادماً ، لأنه يخشى تمزق ستر وجهه ، وظهور سوء وجهى نفاقه ، وأن يعرف المخدوم خباثته عن طريق فراسة الذهن أو تجسس راغبى الخير المخلصين المشفقين . وتقديم ذلك المشؤوم المرجوم باللعنة - كالمهجوم على الظنة - بقدّم التجاسر ، ويواجه الخصم بالمكابرة «كالمهدر فى العنة»^(١) ، فيقلب عليه غدر فعالة وثورة مكره . ولا يأتى مطلقاً على خاطره قولهم «وكم حجة تأتى على مهجة» فأى نكال يستحق ؟ وأى جرح وعقاب يستوجب ؟

فقال حاضرو الحضرة فى صوت واحد : إن كل من يرسم بمثل هذا الغدر ، ويشار إليه بمثل هذه الصفة غير المحموده ، الأولى به أن يخرج من بين طوائف شعب الدولة حتى لا يؤثر ربح مكيدته ولون عقيدته على الآخرين ، وحتى لا يصاب الناس ببلاء أقواله السيئة ، وأفعاله القبيحة . وكل من يفكر فى تلف نفس الملك ، ويريد إلحاق الضرر بروحه ، ويكون عاقاً بمثل هذه الكيفية ، لا يليق بجنايته سوى السيف الذى يمزق أشلاءه ، ولا يمكن إزالة قذارة وجوده عن أعراض أحباب هذه الدولة وأصدقائها إلا بحد السيف . ولا عجب فى ذلك لأن أى واحد يلقي شرارة قدح - من جانبه - فى تلك النار ، فإن الناس سوف يسقطون عليه سهام الملامة كالطر من كل جانب ،

وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى ذَمِّهِ ذَمُّهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ
مَقَالَةُ السُّوءِ إِلَى أَهْلِهَا أَسْرَعُ مِنْ مَنْحَدِرِ سَائِلٍ

(١) المهدر : الجمل له هدير ، والعنة : مثل الحظيرة تجعل من الشجر للإبل ، وربما يحبس فيها الفحل عن الضراب . ويضرب هذا للثل للرجل لا يتخذ قوله ولا فعله .

الميلانى مجمع الأمثال ج ٣ ص ٢١

ثم قالوا : لا نعلم من الذى أوقع هذا الخذلان بهذا الشخصى
سيئ الطالع ، سيئ الجوهر ، فاسد الرأى ، قبيح الوجه ، أعمى
البصر ، فى هذا الطريق ؟ ومن الذى أصابه بهذا الخزى والخسار ؟

فقال الثعلب : برغم أن الدب هو المجرم ، واتضح البرهان على
جرائمه بالأدلة والحجج التى سمعناها من أهل الثقة المعتمدين . إلا أن
الفأر إلى هو شخص حسن المحضر ، مشهور بالصدق والأمانة ، وإن
لم يكن معدوداً من خواص الخدم ومحسوباً من جملتهم فهو معروف
بين أقران جنسه بمختلف المحامد والمآثر ، وها هو حاضر ، فليقل
يعرفه ولا يخف شيئاً .

فلم يكن هناك بد للفأر سوى قول الصدق وإظهار سر الأمر .
فقال إننى أشهد أن هذا الجمل الهيون الهين ، اللين ، مؤمن الأصل ،
سليم السريرة ليس له أى ذنب . أما ما ينقشه الدب على ذلك الشمع ،
كان يعتقد أنه سيصبح كتنقش الحجر على حاشية خاطر ناقة صالح ،
وقبلما يعرف الملك - بعين الخدس والفراسة - ذلك النقش على
صفحات حال الجمل ، كنت أعرفه ، لكننى كنت واثقاً أنه لن يظل
خفياً . فأطلقت عنان لسان الفضول بحكاية تلك الفصول ، وقلت :
ما لم يسأل الملك عن هذا الأمر ، فلن أصرح بها ، ولن أتصدى
لذلك الأمر .

كناطح ضحرة بقحاف^(١) رأس

(١) يقول العلامة القزوينى : لم أظفر به فى مجمع الأمثال ، ولم أجد فى كتب اللغة قحافاً فى جمع
قحف للمسموع فى جمعه أقحاف وقحوف .
القزوينى : حواشيه على مرزبان نامه ط ليدن ص ٢٥٨ .

وعندما سمع الدب هذه الشهادة ، خارت قواه ، وشلت حركته .
وقال للفأر : إننى لم أرك أبداً ، ولم أعرفك ، ولم أجلس معك فى
معاهد أو فى مشاهد . فكيف تدعى على شهادة زور ؟

قال الفأر : صدقت ، لكننى لدى بيت بجوار تلك الغرفة التى
كنت تخلو بالجمال فيها ، وسمعت كل ما دار بينكما من محاورات
ومفاوضات فى ذلك اليوم ، وكنت أنكر مكرأ كلام واحد معروف
مثلك ، هو من معارف المملكة وأركان الدولة ، تجيز التفكير والسعى
فى تهديد يتضمن سبب هلاك ذلك المخدم الذى له كل أياى سوابق
المكرمات عليك فى توفير حظوظ خدمتك ، وتوفير جنب حشمتك ،
والذى أوصلك من منزل الخساسة إلى هذه المنزلة . وتجعل هذا مع
الشخص الذى يعول عليك فى كل هذه الأمور ، لتقتلع حياته بمعول
الكذب والخداع ،

فلا زال أصحابي يُسيئون عِشْرَتِي وَيَجْفُونَنِي حَتَّى عَذَرَتِ الْأَعَادِيَا
فَوَاسَفَا حَتَّامُ أَرَعَى مُضْبِعاً وَأَمِنْ خَوَانٍ وَأَذْكَرُ نَاسِيَا

وعندما انتهى الفأر من أداء شهادته ، وخرج من عهدة واجبه .
أمر الملك أن تجتمع الوحوش والسباع ، ويمزقوا الدب بعذاب أشد من
كُلِّ عَذَابٍ ، وقتل آلم من كل قتل بعد قطع لسان اللعن ولسان الطعن
بالأسنان والأنياب . فاجتمعوا ومزقوا الدب ، وفصلوا أعضائه عن
جوارحه ، وأكلوا من كباب كبده وشربوا عليه من دمه ، الذى كان
عندهم ألد من أى شراب .

أما الجمل فقد زاد وجاهة ورفعة وجاهاً بين رؤساء الدولة
وهامات المملكة .

وتلك هي نهاية الجهلاء الغادرين الذين يبادرون بخيانة الملك ،
ويوزعون على الأصدقاء سم التفاسق فى قدح الصبحة حلو المذاق ،
وهذا هو جزاء العقلاء والأمناء الذين يحافظون على حق الإحسان
والبر بحسن المعاملة والعاقبة للمتقين .

انتهى باب الجمل والأسد الزاهد ، وسوف نذكر بعد هذا الباب ،
باب العقاب والحجلتين . ليؤمن الله تعالى مورد إنعام الملك لسيد
العالم من ورود الفار غير الشاكرين ، والجاحدين غير المعترفين بالحق .
وأعمى بصر الحقود الحسود عن ملاحظة جمال حصرتة فى مراقدة
الغفلة حتى صبح القيامة ، بمحمد وآله الطاهرين .

الباب التاسع

في أمر العقاب وآزاد چهره وإيرا

فى أمر العقاب وآزاد جهره وإيرا

قال الأمير سمعت أنه كان هناك جبل على حدود آذربيجان ، معروف بإرتفاعه ، ومشهور بأنواع النبات والحشائش ، وقد زحفت أجناس الوحوش والطيور من مختلف الأماكن إلى معاطف سفح هذا الجبل ، ونزعوا الملابس من يدي جريمة الحوادث ، وأقاموا بين تلك المراتع والمرايع فى لطف ونعيم . ورحلوا من مجاورة الإحتياج وفشل الفقر إلى ساحة منشأ الخصب والراحة . حيث فتح جالسوا الليل والسحر طيلة العقاقير باسم منابت أرضه ، وفتحت نفحات ريح الصبا والشمال بفضل رائحة هوائه الفاتحة نافجة الأراهير . وأخذ الخضر^(١) زلال أنهاره من ماء حياة ذوقه (أى هذا المكان) . وأصبح إدريس^(٢) راغباً فى ظلال أشجاره عن ظل طوبى ،

أرتك يد المزن آثارها وأخرجت الأرض أسرارها

هى الخلد تجمع ما تشتهى فزرها وطوبى لمن زارها

وكان هناك بين لزوج من طائر الكبك^(٣) فى ذلك الجبل ، اسم الزوج «آزاد جهره» والزوجة «إيرا» وكل عام فى فصل الربيع ، عندما يغلى دم الرياحين فى عروق الأرض وتصرخ أذن الأفاق من زمزمة

(١) الخضر هو العبد الصالح الذى صاحبه موسى عليه السلام ، والذى ورد ذكره فى القرآن الكريم .
(٢) إدريس عليه السلام ، هو أحد أنبياء الله عز وجل «وهو الذى يسميه العبرانيون خنوخ النى ابن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيب بن آدم ، وهو الذى سكن صعيد مصر» عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ٧٨ ط الثانية مكتبة دار التراث القاهرة د . ت .

(٣) الكبك : طائر فى حجم الحمامة ، رمادي اللون ، جناحه يشترك فيه اللونان الأحمر والأسود ، لحمه لذيذ ، يعيش فى سفح الجبال ، تضع أنثاه بيضها فى فصل الربيع . (فرهنگ عميد) .

الطيور خلف ستر العشاق ، نهض عقاب - كان متوطناً جبل قارن ،
وكان ملكاً على طيور تلك النواحي - للتترة والمشاهدة ، ثم يأتى في
كوكبة من جوارح الطيور وكواسر العقبان إلى ذلك الجبال ، فيصطاد
ولدى هذين الكبيكين ، فيقعا كل عام فى ركن أحزانهم من فراق
كبيدهما ، وتلسعهما دموع القلب والعين كالإبر . ويبدلان لباس الحرير
الملون بلباس الغراب الأسود ليكون لباس مآتم ، ويبكيان ليلاً نهاراً
ويكأ مؤلماً بدلاً من ضحك النشاط والطرب الذى كان مركزاً فى
غريزتيهما ويقولان :

لا بد لقلبي المجروح من مئات الآلاف من العيون ، حتى يبكى على
كل ابن بواحدة .

أنا طائر حزين القلب ، إذ وضعنى الفلك على سيخ الكباب
فرحمتنى النار وبكى على السيخ .

و ذات يوم جلس كلاهما لتدبير الأمر ، وقالوا : لقد مرت علينا
سنون العمر ، وتحطم ريش النشاط وجناحه ، فكل عام نضع بيضة ،
ونوصل الأفراخ إلى بلوغ الطير ، يخطفهم هذا العقاب من أمام أعيننا ،
ولا نستطيع دفع ذلك بأى وسيلة وعن قريب سنقطع نسلنا ، وسوف
يسود بيت أملنا بدخان القلب الأسود ، وسوف ينقطع ذكرنا بسبب
جرح مقلب هذا العقاب ، ومع أننا بقينا مصانين فى وقاية تحرز الحال
عن وقع صدمته ، وأضاء الله تعالى أعين قلوبنا بكحل اليقظة والفطنة
حتى نتنبه لمفاجأة قهره .

إلا أنه إذا أنزل القضاء بقيت عين الحزم مغلقة ، فيجعلنا أسيرى
مخلبه وكسرى قناة صولته ، فما فائدة هذه اليقظة إذن ؟

فقال آزاد جهره : الصواب هو أن نرحل من هذا المكان المخوف
ونختفى فى مكان آمن ، حتى نستطيع نحن وأولادنا أن نحيا فى راحة

من عوارض أمثال هذه الحادثات . لأن وضع مدخراتنا في حضان
الآخرين الذين ليسوا من شعب أصولنا وفروعنا أمر صعب ،

تؤديه مذموماً إلى غير حامد فيأكله عفواً وأنت دفينٌ
وكيف نعيش سعيدين بدون الأولاد الذين هم عمُدُ الحياة ، وثمار
شجرة الأمانى ، وكل شعرة من شعرهم هى شريان متصل بالروح ؟

وذاك لأن المرء يحيا بلا يدٍ ورجلٍ ولا تلقاه يحيا بلا كبد
قالت إيرا : هذا الكلام صحيح ، وكلانا مشترك فى صفة هذه
المحنة والنعمة ، وكلانا منغمس فى عين هذه الواقعة ، ومبتلى بالم
البلاء « ولم يعرف مرارة الشكل إلا من ذاقه » .

إننى لم أكن غافلة عن هذه الفكرة التى فكرت فيها ، والتى توافق
آراء العلماء وتأتى فى نسق واحد مع أفكار الحكماء وأرباب العلم .
حيث إن سهام أوهام العقلاء إنما تصدر عن قوس واحدة قاصدة هدفاً
واحداً . ولقد قالوا : إن العقل يشبه الحصن الحصين الصعب المنال المليء
بالمنافع ، كل من يبحث عن المنافع فيه ، يستطيع أن يصل إليها من
طريق واحد .

وضرب قدم المعاملة والمعاشرة فى مسلك المحبة والعداوة وسبل
الخوف والرجاء ومذاهب اللطف والعنف مع العقلاء له هذه الصفة نفسها ؛
لأن خيط رضاهم وسخطهم إنما هو من باب واحد . ومن ثم يمكن
الحصول عليه بسهولة بخلاف الجهلاء إذ إن دواعى طبع أفكارهم غير
منضبطة ، ولا يستطيع صاحب الكفاية الإمساك بعنان خواطرهم الفاسدة
وهو اجسهم المبعثرة .

إنى لآمن من عدو عاقل وآخافُ خِلاًّ يعتريه جنونُ
فالعقل فنٌ واحدٌ وطريقه أدري وأرصد والجنونُ فنونُ

غير أن شجرة المحبة المغروسة في أرض الوطن علامة الإيمان ،
واقلاعها أمر صعب بحكم أن بيتنا يقع بعيداً عن منازل الطيور الصائدة
وعن أماكن باحشى الفتنة الضواري ، وقد نجونا من مصادمات مهاجمتهم ،
واسترحنا من ملاطمات تعديهم . فالأولى هو البقاء هنا ؛ لأننى أخشى
إذا نحن انتقلنا من هذا الوطن ألا يناسبنا هواء الغربة ، ونبعد عن مسقط
رأسنا ، متوهمين المنفعة فإذا بنا نخسر رأس مال العافية ؛ لأن نفس
التقدير ليس فيه - ولا يسع - أكثر من هذا فى قالبنا ، ولا تأتى بتيجة
من مقدمات الأغراض سوى الحرمان .

لا يمكن أن نحصل على أربعة من عشرة بسبب غشك واحتيالك^(١)
وحيثما يوجد فى هذا المكان قوة كقوة شياطين الضلال تذهب وتدعو
خيال النفس إلى الرغبة المستحيلة فهذا علامة عدم النضج والفشل .

لماذا تطلب شيئاً لست فاقدة

ومثلما يبرأ مزاج العليل من عقايل^(٢) العلة ، وتصير حالته إلى
الأفضل ، ويصرف النظر بعيداً عن مشتبهات الطبع ، ويقدم حمية
الرجولة مع حمية آماله ، إذ أن الرجل الحر ينسب المروءة إلى نفسه

(١) هذا البيت لا يناسب السياق الذى أتى فيه .

(٢) العقايل : بقايا العلة والعداوة والعشق ، وقيل هو الذى يخرج على الشفتين غبّ الحمى ، الواحدة
منها عقولة والجمع عقايل . (لسان العرب) .

لينجو من ضيق هذا القبض والبسط حينما يخطو خطوة واسعة في مراده ويتلو الحرية في رفض الشهوات . أما محنة واقعة الأولاد التي تتجدد كل عام هي واحدة من وقائع الأيام التي لا بد أن تصيب البشر . لأننا جميعاً معرضون لضرر الآفات وموطئ مختلف صدماته ، فنفسنا هي منزل كوارثه ومحلها .

وعندما نتذكر الانفصال عن العلائق ، والانقطاع عن الشعائر والانتقال من المنشأ والمولد ، تصبح آلام فراق الأولاد سهلة علينا . لأن الدنيا حبلى بالحوادث وتلد كل لحظة حادثة . فلتخيل أن ولادة أولادنا وأكل العقاب لهم إحدى هذه الحوادث التي لا مفر منها . ومثل هذه الأم غير الرحيمة التي تكون لها مثل هذه العادة طيلة حياتها وهي « تطعم أولادها وتأكل مولودها » .

ومعلوم أن الولد - من الولادة حتى الوفاة - ليس سوى سبب لآلم الأب والأم ، فعندما يكون في مرحلة الطفولة لا يبقى طرفة عين دون مراقبة لأحواله ، ومحافضة على دقائق تعهده ؛ وعندما يصل إلى مرحلة البلوغ يصبح صرف الهمّة كلها لضبط مصالحه ، فيرجحون ترتيب أمور معاشه على كل المهمات ، وإذا حدثت له حادثة - والعياذ بالله - ولم يوجد لذلك الجرح مرهم ، ولا لهذا السم ترياق ، حيثئذ يمكن أن نعرف أن الولد هو أكبر شاغل من شواغل إيجاد السعادة ، وأشد قاطع من قاطعي طريق الآخرة ، ولشرح هذا المعنى يأتي قوله تعالى « إنما أموالكم وأولادكم فتنة »^(١) . فإذا منحت الأذن السمع الحقيقة من هذه

(١) التغابن : ١٥

الكلمات التى ينطق بها لسان الوحي ، سوف تعلم أن وجود الأولاد فى نظر الحكمة مثل بقية أنواع الزينة المزيفة الأخرى ، من مال ومتاع الدنيا التى هى أدوات الزينة التى كتبت على ظواهر حال الأدمى ، وليس لها أى وزن ، ومن ثم فليس هناك فرق بين الطفل الجاهل عابد الخيال الذى يلعب بدمية العروس التى صنعت من الخشب ، وبين من يسعد قلبه من المطلوبات الأخرى ببقاء الأولاد وتجميلهم ويصف الله تبارك وتعالى هذا الأمر بقوله «أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد» (١) .

وكما أن ذلك الطفل غير المميز - فى حالة شغفه بتلك اللعبة - ينشغل عن آداب النفس الأخرى ، فإن الرجل لا يستطيع تحصيل أى شئ من أسباب النجاة فى حالة الحياة أو فى الممات ، عندما تكون همته على أمر الولد وقلبه مشغول بأحواله ، ويبقى محروماً محجوباً عن مطالعة جمال الحقائق فى الأمور ، والوقوف على دقائق أسرار الباقى والفانى وقوله تعالى «المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً» (٢) إشارة مُقَرَّرة لما سبق ، وبرهان صريح وبيان ساطع على ذلك الذى يلزم كذخيرة عمل لطالبي السعادة الأبدية ، والذى يمكن تقديمه فى يوم القيامة «يوم لا ينفع مال ولا بنون» (٣) .

(١) الحديد / ٢٠

(٢) الكهف / ٤٦

(٤) الشعراء / ٨٨

شئ آخر ليس من أعلام الذهب والفضة أو الأولاد والبنات ، وهو
- يا فلان - عندما تتذكر عذاب الصداقات غير المجربة وعناءها ،
وتحمل جور الأجانب وظلمهم ، وأخلاقهم غير الحميدة ، والعيش دون
اختيار والحركة والسكون بلا قاعدة أو قانون هو من لوازم الغربة . حيثذ ،
نعرف أن كل ما نملكه هو السعادة التامة والأسباب المعيشية المنظمة .

ولو تنفذ هذا العزم وتصل إلى ذلك القصد الذى تقصده ، يمكن أن
تطل محنة من مكان الأمل الذى جعلته هدفاً لك ، وتملك عيون الراحة
جميعها النعمة التى ذهبت من اليد وانمحت بقدم الاستنكاف ، والتى
لا ترى عوضاً لها .

كم نارٍ عاديةٍ شُبِّتَ لغيرِ قرى على يفاعٍ وكم نورٍ بلا ثمرٍ
هَوْنٌ عليكِ أموراً أنتِ تنكرها فالدهرُ يأتى بألوانٍ من الغيرِ

قال آزاد جهره : كل ما قلته خلاصة الحكمة ، ورأس مال العلم ،
وحاصل تجربة الأيام ، ومؤكد بإشارة العقل وأحكام الشرع ؛ لكن
لا يمكن أن تغط النفس فى نوم الدهول ، أولاً تأمن طوارق الآفات ،
وخوارق عادات الأيام ، التى تأتى من خلف ستر القضاء بكل أنواع
الألعاب الخفية . لأن نارلة الدهر لا ترسل - مطلقاً - رسولاً قبل
مجيئها ؛ فتكونى عالمة بوقت نزولها ،

يا راقداً الليلِ مسروراً بأوله إن الحوادثَ قد يطرقنَ أسحاراً

ولو أن هذا العقاب - عياداً بالله - يأخذ واحداً منا ذات يوم ، فأى
لذة يجدها ذلك الذى يبقى بعد فوات الحبيب الأمين والمؤنس الرحيم ،

ما حَالُ مَنْ لَهُ واحدٌ يؤخذ منه ذلك الواحدُ

وعندما يقع فى حبس الوحدة ، هل يقابل أنس صحبة ألف سنة
مع الأحباب القدامى بساعة من وحشة الوحدة ، فتخيلى صورة هذه
الحال . والله در من قال :

إن الحمامة الحزينة وحيدة مثلى ، ما نامت وما نمتا من بكائها

هى تبكى وأنا أقول لها ، ليس حزيننا من يستطيع التكلم

لا قدر الله ، ولا كان ذلك اليوم الذى يجب علينا أن نكابد مثل
هذه الحرقه ، وتغنى فيه أغنية أنين الفراق ، ويجب أن يعلم أن كل من
يعطى ظهر الاستظهار إلى القدر ويترك الدعاء والطلب ، ويتكى على
وسادة الاعتماد ، ويلتفت بوجهه عن القدر ، يكون مثل الرجل المكارى
الذى يخفف حمل الحمار من ناحية ، ويثقلها من الناحية الأخرى بحجر
فوق الحمل ، فأنى له أن يستقيم حملة ، فالطلب والقدر مثل الميزان ،
نظيراً وعديلاً له فى العسر وفى اليسر ، بل هما أخوان وضعا أيديهما
معاً فى طريق المرافقة ، وعقدا العنان فى العنان ، لدرجة أن هذا بلا ذاك
لا يتقدم من بلاط العدم إلى ساحة الوجود ، والآخر بدون الأول
لا يتقل من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل .

إذن يجب علينا قبل أن يفلت الأمر عند حد التدارك ، ويصبح فى
مضيق الاضطرار ، أن نستعد ونتسلح للذهاب إلى مقام آخر ، حتى إذا
ما أتى وقت الولادة ووضع البيضة ، نستطيع أن ندبر مسكناً وبيتاً ،

ونرتب أسباب احتضانهما ،

دمت لنفسك قبل النوم مضطجعاً^(١)

قالت إيرا : كل ما تقوله مبنى على قواعد العقل ، ومقبول فى مقاعد السمع لكن لطالبى الدنيا وباحثى المراد العاجل قانوناً آخر وأصلاً متفرداً فى اقتناص الأهداف وتحصيل الأغراض .

فالبعض يجره ويوصله إلى المقصود بلا جهد ، والبعض لا يحصل لهم شئ دون كد وسعى ، وكم من أشخاص ظلوا بلا نصيب بسبب تسويف الكسل ، وكم من أناس وقعوا فى عثار العجلة فلم يخرجوا من بادية الأمل الظالم .

بالحرصِ قوتنى دهرى فوائده فكلما ازدتُ حرصاً زادَ تفويتاً

وجهدنا مع العقاب ، وتفكيرنا فى طريق دفعه ، صفقة يمنعها رائحة الدم . لأن طير قوته يطير من وجه النسبة إلى أوج الثريا . ومقام ضعفنا فى حضيض الثرى «وأين الثرى من الثريا» . وقد قيل إن كل من يقاوم خصماً قوى الحال ، على اليد فسوف تأتى نكبته على يده ، ولقد ضربوا مثل هذه الصورة بتلك النملة حقيرة البنية التى عندما يصبح لها جناح ، تثار داعية نهوضها من زواياها المظلمة فتخرج وتتخيل أنها تستطيع أن تطير بذلك الجناح الذى تملكه ، إلا أن الحيوان الذى

(١) ويرى (الجنك) أى استعداد للنواب قبل حلولها ، والتدبير : التلويح ، واللمعة واللمث : اللين ، ويرى أن عائشة بنت أبى بكر رضي الله عنه ذكرت عمر رضي الله عنه قالت : كان والله أحذياً نسيجاً وحده ، قد أعد للأمور أقرانها ، الميلائى : مجمع الأمثال ، جـ ص ٤٦٦ .

يصل إليها أولاً يجعلها طعاماً لنفسه «إن أراد الله إهلاك نملة أنبت لها جناحين» .

وكل ما هو مخفى فى طى مكان الغيب ، وسوف يظهر بمظهر المكونات ، لا يعرفه أحد اليوم ، وهذه الطاحونة التى تطحن العالم على رأسنا ، وعلى رأس هذا العقاب - الذى جرننا إلى هذا البلاء - تدور فى مدار واحد .

وكل من له نظر دقيق ، وينظر فى دوران هذه الطاحونة يعرف أنها سوف تسحقه مثلنا ، دون أن يدري . ويتهى دور هذا الجائر ، ويمكن أن يتهى أمره إلى مقطع الانتهاء ، ومن ثم يأتى خلاص حالنا منه .

مهلاً أبا الصقر فكم طائر خراً صريعاً بعد تخليق
زُوجت نَعْمى لم تكن كفؤها أذهبا الله بتطليق

قال آزاد چهره : هذه فكرة غير بعيدة عن تدبير الحكماء المجريين ، وكذلك ليست بعيدة عن أخلاق الزمان المعهودة . لكن من يكفل وفاء العمر بتحقيق المقاصد ، ومن يضمن غدر الأيام الكامن والمتوقع !!؟

قبل الزمان وفاء صديقى ، فأين لى بضامن للعمر الطويل ؟

والرأى هو أن نتوجه إلى مملكة العقاب ، ونقدم له كل ما يقتضيه الوقت فى طلب الأمان واستنجاح النفس من جناح رحمته ، لأنه وإن كان سفاكاً للدماء وصائداً للخلق ؛ فإن له صفة الملوك التى تميل إلى علو الهمة . والعطف على ضعفاء الخلق ، والعفو عن منطلق رأس

كمال القدرة . مع أنه لا يكون له مدد الاستظهار من أمثالنا ، ولا يزيده مكاننا منه افتخاراً ، فهناك الكثير من العبيد الذين يريدون تكثير سواد الحشم ، ونحن بمثابة نقطتين على تلك الحواشى . وربما نستطيع أن نجد الرزق فى خط دائرة العبودية ، وأن نجعل لنا علاقة فى أوساطهم .

قالت إيرا : يا فلان ، إننى أعجب لك ، فأحياناً تلقى بأسهم غيب الفكرة الصائبة كلها على صميم الغرض ، وأحياناً توزع الخاطر فى كل ناحية ،

تلونت حتى لست أدري أريح جنوب أنت أم ريح شمال
وكل الآلام والمحن التى أصابتنا بسبب ملاقاتنا ليوم واحد مع العقاب ، ومع ذلك تسحبني معك بسلاسل الجهد وحبائل الجدل إليه ،

شكوى الجريح إلى الغربان والرخم (١)

أنت قائدى وكيف يكون حاكماً من ليس له وزير

لكم حكايتك فى ارتكاب هذا الخطر تشبه حكاية السمكة مع صياد السمك . فقال آزاد چهره : كيف كانت تلك الحكاية ؟

(١) هذا الصراع من بيت للمتنى فى قصيدته التى يذكر فيها مسيره من مصر ويروى فاتكاً والتى مطلعها :

حنام نحن نساى النجم فى الظلم وما سراه علي خف ولا قدم

واليت هو : ولا تشك إلى خلق فتشتمه شكوى الجريح إلى الغربان والرخم

المتنى : الديوان ، ج ٢ ص ٤٠٨ ، ٤١٥

والرخم : جمع رخمه والهاء فيه للجنس . . . وهو طائر يشبه النسر فى الخلقة . ومن طبعه أنه لا يرضى من الجبال إلا بالموحش منها ، ولا من الأماكن إلا بأسحقها وأبعدها من أماكن أعدائه . والأتى منه تبيض بيضة واحدة راجع كمال الدين الدميرى : حياة الحيوان الكبرى ج ١ ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ ط حجارى القاهرة ١٣٦٧ هـ .

حكاية صياد السمك والسمكة

قالت إيرا : زعموا أن طائراً صغيراً أكلت السمك ، بلغ الشيخوخة ، وقلت قوة حركته ونشاطه ، وفترت لديه دواعى الصيد . وذات يوم لم يجد غذاءً وانزعج من الجوع ، ولم يجد بداً من الذهاب إلى جدول . وجلس هناك مترصداً يبغي الرزق حتى يصيد من أى جهة صيداً من سوائح الغيب فى شبكة مراده . وبينما هو جالس إذ مرت عليه سمكة فوجدته مريضاً متألماً . فتوقفت وتلطفت معه فى السؤال عن صورة حاله ، فقال «ومن عمره ننكسه فى الخلق»^(١) ، إن كل من تسحقه الأيام تحت أقدام الحواذق ، وتذبل وردة شبابه بسبب انقلاب خريف العمر ، وتبدو آثار هذه الشيخوخة ووهن الأعضاء وضعف القوى البشرية على جلده ، فلا بد أن تتزلزل أركان بنيته ، وتتغير أخلاط طبيعته ، ويخفض جرح منجنيق الحوادث المتعاقبة المجرى من هذا الحصار المرتفع نشاط الحواس كما قال ذلك الصوفى حى القلب .

أحمل على ظهري ثقل من الأيام ومن ثم يأتى كل فعل منى غير طيب !!
عزمت الروح على الرحيل فقلت لا قالت فماذا أفعل فى بيت يخسف ؟

واعلمى أن سفينة العمر عندما أرسى بالساحل ، وغابت شمس العمر على رأس جدار الفناء ، لم يبق للرجل - بأى وجه - سوى التبتل والطاعة والتوبة والإنابة ، وطلب قبول المتاب والرجوع بحسن المآب . ولا حيلة له سوى الإغتسال من جنابة الجهل والظلم ، وغسل سواد الإجرام والأوزار فى الوجه بدموع التوبة والاستغفار التى تأتى

(١) يس / ٦٨ .

ما أقبح التفريط في زمن الصبَا فكيف به والشيب في الرأس شاملٌ

والمقصود من هذا الكلام هو أنؤكد أن جواد هواى قد اقتلع أسنان الطمع ، وافترس جرح طير الأمانى شاهين الشوكة ، ومضى الوقت الذى كانت همتى فيه مقصورة على حطام الدنيا ، وصرفت أغلب أيام العمر فى جمعها وتحصيلها ،

فأين القلب الذى ينهض فى طرب العبادة ؟ وتعلو فيه يد التغلب على صيد المراد ؟

وقع الأمر مع الجرعة فى كأس العمر ، فأى سكير يسكر من هذه الجرعة ؟

وهذا الوقت هو وقت القيام على عذر التقاعد فى الأيام السالفة ، لقد جئت اليوم بغية التحلل من أسماك هذه النواحي التى طالما أغرت على عشائرها وأترابها غارات مفاجئة ، ووقع على عاتقى حمل مظالمهم ومغارمهم ، وبالرغم من ذلك يبعدون عن طريق الثار ، حتى وصلوا إلى درجة مثوية العفو ، وأبرأوا ذمتى من قيد المآثم ، ووصل الأمل فى التسامح إلى الوفاء وعندما سمعت السمكة هذا الفصل مرة واحدة ، جعلها قيد شرك الخديعة . وقالت : بماذا تأمرنى ؟ قال : أن تبلغى هذا الكلام الذى سمعته منى إلى الأسماك ، ولا تندمى على هذا السعى ، حتى إذا أجابوا ، أمنوا سطواتى وغارات تعرضاتى فى مساكنهم . ويحصل لك فائدة هذا الأمن والسكون من فتور الأيام وفتنتها ضمن هؤلاء «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى»^(١) .

فقلت السمكة : أعطنى يد الأمان وصافحنى أن تفى بهذا الحديث حتى يزيد اطمئنانى وإيمانى بصدق هذا القول ، ويكون جديراً

(١) النجم : ٣٩

بالاعتماد . لكن قبل المصافحة ، كيف أضافحك ؟ فقال : خذى هذا النبات واربطى فمى جيداً حتى تأمنى وتفرغى من هذا الأمر . فأخذت السمكة النبات وأقبلت حتى تربط فمه ، فأنزل صياد السمك منقاره والتقطها من الماء وأكلها ، «ورب شارق شرق قبل ريقه»^(١) .

وقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم أنه لا مصلحة لنا فى قربنا من العقاب أو مجاورته ،

أَنْفَاسُهُ كَذِبٌ وَحَشْوُ ضَمِيرِهِ دَغْلٌ وَقُرْبُهُ سِقَامُ الرُّوحِ

قال آزاد جهره : اعلمى أن الريح أحياناً تكسو حلة الربيع والأزهار وأحياناً أخرى تهب من فوق رأس خرقة الخريف البالية . والنار أحياناً تحرق من يقربها أو يجاورها ، وأحياناً ترشد الضالين وفاقدى السبيل ، والماء يذهب الظماً ، وأحياناً يحطم السفن مثل اللقمة فى حلق أمل المسافرين ، وكذلك التراب ينبت رأس سنان الشوك الحادة ، ويربى الورد الخضرة الجميلة .

واعلمى أن الرضا والسخط ، والقبض والبسط ، والقهر واللطف ، والحلم والغضب ، الخشونة والدمائة ، كلها من عوارض حال الإنسان ، وخميرة عجين أصل فطرته المركبة من هذه الأجزاء والأخلاق التى ذكرتها .

وجائز فى العقل أن العقاب مع كل خشونة أخلاقه وقبح وجهه ، عندما يرى ضعفنا وقدرته ويشاهد ذلنا وعزته ، يتقدم بخفض جناح الكرم ، ويسدل قوادم الرحمة وخوافيها علينا ، ويبدل سوء الأخلاق بحسن المعاملة ،

(١) ورد «ربما شارب للماء قبل ريقه» فى مجمع الأمثال ، وقد ذكره فى أمثال المولدين ، الميدانى : مجمع الأمثال جـ ٢ ص ٨٠ .

لكل كريم عادة يستعملها

قالت إيرا : أخشى مغبة ذلك ، لأن للعقاب دم التسرع وروح الصيد ، فعندما يراك لا يعطيك مهلة لطلب الأمان ، ويضيق عليك مجال الاستمهال إلى درجة أنك عندما تنظر تجد نفسك مقيداً ببئر الندامة ، وتجد أوصال السلاسة ممزقة على مخالفه كما وقع لابن عرس مع الغراب . قال آزاده جهره : كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية ابن عرس^(١) مع الغراب

قالت إيرا : زعموا أنه كان في الغابة التي كان قد وضع صباغ التمر رياحينها في إناء الملونين ، وفتح مطار الصبا زجاجات مسكه بين بائعي العطور مثل الياسمين بيت الغراب في رأس الشجرة التي تسمى نسبها الصمغية إلى أصول الطوبى وفروع السدر . وهكذا كان يرتفع الهامة ، على الهمة . لا يضع رأسه إلا في معارج الرفعة ، ولا يخفض رأسه - مثل كريمي النظرة - أمام أي إنسان ويعطى أصول الراحة من ظلها للمتعبين مثل العظماء .

يأتد جانبه بأنعم مقطف منه وساكنه بأكرم معطف
والورق بين محلق في جره طرباً ومنحط عابداً مرفرفاً

و ذات مرة مر ابن عرس في تلك النواحي ، فرقعت عينه على ذلك المقام فراقه منظره ، ودش من مشاهدته ، فضرب قلبه في ذلك المكان خيمة الإقامة ، ودق أوتار الرغبات في أرض ذلك

(١) حيوان من فصيلة الثدييات ، أكبر من القار المتزلي ، رمادي اللون أكل للثعابين ، يظهر في آسيا وأفريقية وخاصة بلاد الهند ، كان للمصريون القدماء يقلصونه ، يسمى عند الفرس رأس وآسو ويسميه العرب (ابن عرس). قره نك عميد .

الموضع ، وأسس بيتاً له فى جذع شجرة الغراب ، واستقر فؤاده على ذلك ، وقال لنفسه : وجدت مأوى فلا تركله بالقدم ، ووجدت هدية فلا ترفضها .

إن الذهب كثيراً فى السراب ، وإرسال عين التمنى فى كل جانب ليس من اختيار العقل ، فيجب أن أقيم فى روضة هذا النعيم «إذا أعشبت فانزل» (١) . وفى النهاية ، جلس وأخرج دواعى الطلب من قلبه . فانتفض قلب الغراب من مكانه بسبب جلوس ابن عرس ، وداخله الوجل من مزاحمته ، وقال فى نفسه : لا بد أن يكون لى الآن طريق لإزعاج هذا الخصم ، وارتجاع أبواب إقامته فى هذا الموطن الذى يمنحنى محصول الأمانى ومنحول العمر ، والحياة .

بِلَادُهَا نَيْطَتْ عَلَى تَمَائِمِي وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدِي تُرَابُهَا

ثم قال لنفسه : يجب التفكير ، فكل من يكون ضرورى له دفع العدو يجب عليه أن يخطو أولاً فى سبيل الانبساط ، والابتداء بالتردد والمخالطة ، وفتح طريق التألف والتعاطف حتى يعرف عيار أمره بمعيار الاختبار ومحك الاعتبار ، ويعرف مقدار ضعفه وقوته مع العدو والصديق ، ويعرف مدى غضبه وسخطه ورضاه وأثر ذلك فى أحوال الناس فيما يرجع إلى المصلحة والمفسدة .

ونزل بهذا التفكير من فوق الشجرة ، وذهب إلى ابن عرس ، وحيّاه بأدب وحياء ، وسلم عليه ، ففكر ابن عرس فى وصف الناس للغراب بسوء الجوهر وقذارة المحضر ولؤم الطبع ، ونحن دائماً ما يكره

(١) عشبت فانزل ، أى أصبت حاجتك فاقنع ، يقال : أعشب الرجل ، إذا وجد عشباً وأحصب إذا وجد حصباً ، الميدانى : مجمع الأمثال ج ٢ ص ٣٧٧

كل منا الآخر . أما سبيل العداوة والمناقضة فهو مقبل . سترنا كل الأغراض ولم يتهج كل منا لرؤية الآخر ، إذا لم يكن قط بينى وبينه علاقة حب وألفة .

ولا شك أنه جاء بسوء القصد ونية الكيد ، فلو أضعت الفرصة وغفلت عنها ، فربما نجح فى تدبيره ، ولا يفيد انتباهى فيما بعد «احفظ ما فى الوعاء بشدة الوكاء» . فالأولى هو أن أقيد يد قدرته وقدمها عن قصده ، وأنظر ماذا يفعل !! (١)

فنهض من المكان وأحكم المخالب فى جناحيه . فقال الغراب : أيها الشاب ، إننى رغبت مخلصاً فى مجالستك . وجئتك راغباً فى مشورتك الخيرة وخصالك الطيبة ، وقلت لن يكون فى هذا الاجتماع أى مكروه ، ولن يتمخض هذا الاقتران عن أى حضور .

وكنْتُ جليس قعقاع بن شور ولا يشفقى بقعقاع جليس (٢)

وبما أنه ليس هناك عداوة سابقة فيما بيننا ، وما زالت الصحبة موجودة حتى الآن ، وهى غير مكدره بشائبة ضرر لاحق ، فما مبرر هذا القصد والإيذاء ؟

قال ابن عرس : صدقت أيها الغراب ولكن ، لأن كل ما تفعله معلوم لدى ، فكيف ألقى بنفسى فى الخطأ ؟

ففكرة ضميم كل إنسان تكون سمير أحوال العدو والحبيب ، وخاطرى مطلع على شرك كما أطلع ذلك الماشى على سر قلبى الفارس ، فقال الغراب : كيف كانت تلك الحكاية ؟

(١) يضرب فى الحث على أخذ الأمر بالحزم ، للميدانى : مجمع الأمثال ج ١ ص ٣٦٧

(٢) يقال : هذا القعقاع بن عمرو ، والصحيح قعقاع بن عاشور وهو من جرى مجرى كعب بن مامة فى حسن للجاورة ، فضرب به المثل وقال فيه الشاعر هذا البيت ، للميدانى : مجمع الأمثال ج ٣ ص ٢٠٢ ، ٢٠٣

حكاية الماشى والفارس

قال ابن عرس : سمعت أنه فى وقت من الأوقات ، ربط تاجر كثيراً من الأقمشة ، ووضعها على ظهره حتى يذهب بها إلى قرية لبيعها ، فتصادف سيره مع فارس ، فتعب الرجل من تحمل الحمل ، وأثر فيه التعب ، فقال لذلك الراكب : لو أخذت هذا الحمل أمامك حتى استريح بعض الوقت، فلن يكون هذا بعيداً عن قضية الكرم والفترة .

قال الراكب : لا شك أن التخفيف عن ذوى الأحمال يكون لها ثقل فى ميزان الحسنات ، ويمكن أن يوصل إلى جنة الخلد «فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية»^(١) ، غير أن هذا الحصان لم يأكل راتب اليوم من الشحير ، ولم ير الرعاية حسب القاعدة ، ومن ثم ليست لديه تلك القوة ، فإذا وضعت عليه حملاً زائداً فسوف يتألم . وفى أثناء الكلام لاح أرنب فأطلت الفارس حصانه فى إثره ، وعندما مضى سيلين أو ثلاثة فكر فى نفسه قائلاً : إذا كنت أملك مثل هذا الجواد فلماذا أسرق أقمشة ذلك الرجل ، وأذهب من زاوية إلى حيث أريد ؟

والحق أن تاجر الأقمشة قد فكر فى نفس الشئ وفى الوقت ذاته قائلاً : إن هذا الراكب لو أخذ أقمشتى وجرى فكيف أصل إليه ؟ وعندما عاد الفارس إليه ثانية وقال له : هلا أعطيتنى الأقمشة حتى تستريح بعض الوقت !! فقال التاجر له : اذهب فقد فكرت فيما فكرت فيه ، ولست غافلاً عنه .

قال ابن عرس هذا الكلام ثم ذبح الغراب وأكله ،

(١) القارعة : ٦ .

وقد قلت هذه الحكاية ، حتى لا تفكر فى الأمن من جهة العقاب ،
ولا تأمن خطفة صواعقه ، ولا تظن أن الذهاب إلى ذلك المقام
والحصول على ذلك المطلب سهل الأخذ ، ولن يكون نصيب أى قدم
تزلف إلى عتبة قصر التمنى هذا سوى القصور ،

يَعْدُ مِنْ أَجْمِ الْأَفْلَاقِ مَوْطِنُهَا لَوْ أَنَّهُ كَانَتْ تَجْرِي مَجَارِيهَا

قال آزاد چهره : لقد أكدنا فى غير موضع ملوكية وعظمة المنشأ
وأصالة الأصل ، وعلو الهمة ، وكرم النجاد وتأثر النسب لهذا
العقاب ، وتكرر هذا التأكيد عدة مرات ، ومن ذلك أنه لا يأكل كل
من مد اليد إلى بيته أو أهله وأوكانه ، وأخذ ذيل إقباله ، والتجأ من
يد تعرف آفات المخالفات إلى جنبه وحضرته ، وحاشاه أن يضع
سمت هذه الدناءة على ناصية همته ، بل إنه يأمر بالتمكين والتكريم
لكل من قصده بشرط الخضوع والخشوع والتواضع والعبودية ،
والالتزام بكل ما يكون من واجبات وآداب الحضرة ومراسيم الخدمة .

واعلمى أن سرّاً عظيماً مختفياً فى خاصية الكلام الذى يظهر أثناء
وقت التأثير فى طباع الرجال ، مثلما للثعبان الملون من النفاق أثناء
الخروج من جحر الكمون والسكون من لين الماس ونعومته وحد السهم
وجدته ، كما لأن متن السيف والحد القاطع .

وإننى والحمد لله لدى آلة الاستعداد كاملة ، وأدوات هذه الأهلية
تامة عندى ، والرأى أن نذهب إلى خدمته ، وبعد أن ييسر طريق
الوصول وتقبيل اليد ، وتتحد هذه السعادة بحسن الإتفاق وأحكى له
فصلاً فى أمرنا على وجه يستقبله القيو ، وبعد ذلك تصبح العاطفة
والرأفة رديفاً لذلك .

فأوجز لكته لا يخلّ وأطنب لكته لا يمل (١)

والخلاصة أن إيرا عندما سمعت كلامه بسمع المصلحة ، وأطلقت عنان الاسترسال على يد اختياره ، وقالت بما أن كفه الذهاب قد رجحت ، ورأيت أن من الواجب تجنب سهام العزيمة ، فبسم الله « وإذا عزمت فتوكل على الله » . أما إذا تم ذلك الاختصاص ، وتزين وجه المراد بذوائب وصال تلك القربى ، حيث يجب التحلى بعدة خصال ، وتحمل عدة أحمال تكلفاً .

الأولى : وجوب تقديم أمر الملك على جملة المقاصد ،

الثانية : أن تتلقى أوامره بصورة التعظيم والتوقير .

الثالثة : أن تعمل على تحسين أمره وتزينه على الوجه الذى يزيد معه اتباع الأفعال المقبولة ، والإمتناع عن الأخلاق المردولة .

الرابعة : أن تجتهد فى صيانة عرضك عن وصمة الخيانة .

الخامسة : أن تعرف قصور خدمتك عن حقوق نعمته .

السادسة : إذا أخطأت خطأ لا يسلم منه أحد فقم بالاعتذار عنه بسرعة ، ولا تسمح له أن يصير من قاذورات المزيلة كى لا يستحيل دفعه وإزالته .

السابعة : احفظ وجهك أمامه بعيداً عن التقطيب ، وكلامك بعيداً عن مره .

الثامنة : إياك ومصادقة أعدائه بأى وجه من التأويل .

(١) ينبغى أن يكون الضمير مناسباً .

التاسعة : كلما رادك تقريباً في الصحبة ، فازداد في التواضع أمامه ، ولا تتقدم عليه .

العاشرة : إذا استعملك في مهمة فلا تطمع في أجر ، ولا تشوه وجه حسن الخدمة برذيلة الطمع .

وكانت السنن والقواعد الكسروية الفارسية تتلى - كل علم من أجل هذا ، وكان من أعظمها أن كل شخص مرتبته ويعرف قدر النعمة ومقام همة الملك ، ويتعظ بذلك . قال أراد جهره .

شرح سنن كسرى فارس

قالت إيرا : سمعت أن صاحب الإقبال من أكاسرة الفرس الذي كانت خصائص العدل والإحسان دليلاً واضحاً على وفور دينه وعقله ، وكان ملكاً بعيد النظر ، حسن العادات ، صحيح الفكر ، عادلاً غزير العلم .

وأمر ذات يوم فأقاموا احتفالاً ، وجمعوا الناس من أطراف المملكة وأوسطها من جيش الخواص والعوام ، العالم منهم والجاهل ، المذكور والختامل ، البعيد والقريب ، وصاروا جميعاً في صعيد واحد بالصحراء ، وجعلوا لكل واحد مقاماً معلوماً ، ومرتبة مقدرة وأجلسوا الجميع على اختلاف الطبقات صفّاً صفّاً ، وصنعوا كل ما كان مشتته الطبع ومنتهى الأمل من ألوان الأطعمة ، ورتبوا وركبوا عدة ألوان من الأطعمة جميلة المذاق ، والأشربة جميلة الطعم ، وقدموها في أطباق لطيفة ، وأوانٍ نظيفة ، حتى غارت منها أباريق اللجنة .

وفرشوا المكان بالفرش تلو الفرش ، ومدوا سماطاً تلو سماط ،
حتى زاد الحسد عند الأبسطة المفروشة والزرايبى المبعثرة فى صحن
وصفة رعاية الأضياف فى الفردوس على ذلك .

ووضعوا المائدة التى لم يسمع عن مثلها السامنون ، ولم ير مثلاً
ونظيرها الناظرون ، وجلس طائفة من أهل الديوان ومستولى الملك
والدولة من أجل عرض مظالم الخلق أمام المائدة ، حتى يعطوا جزاء
بمحل كل واحد وفق معايير الشرع وحدوده . وكانوا يخاطبون كل
واحد خطاباً يوافق العرف .

وجلس كسرى على عرض المملكة ، وأمر فخرج منادى الجمع ،
وقال : أيها الحاضرون افتحوا جميعاً عين البصيرة ، ولينظر كل واحد
منكم من أهل المائدة وحاضرى الديوان إلى المرتبة التى هى أسفل منه ،
وإلى الدرجة الأدنى ، ولا ينتظر إلى الأعلى .

لأن كل من يرى من فوق مرتبته سوف يرضى ويسعد على
على ما يملكه ، ويشكر الله على مقامه .

فنظر جميع الخلق من صدر جالس المحفل حتى نهاية الصف فى
حال بعضهم ، وطالع كل واحد - بعين الاعتبار - علو درجته ونزول
منزلته الآخرين ، حتى آخر الصف الذى كان موضع أهل المظالم ،
وكان من تلك الطوائف من نظر إليه فى معرض العتاب ومسجد
الخطاب ، وذلك الشخص الذى كان جديراً بالزجر والتعزير ، ومن
كان مصاباً بمثل ذلك النكال وتلك العقوبة ، والذي كان مصاباً بمثل
هذه العقوبة كان يرى حال الأشخاص الذين - عَوَذاً بالله - يصلبون
ويقتلون وتجري عليهم مختلف العقوبات .

قَسَمَتْ يَدَاهُ عَفْوَهِ وَعِقَابَهُ قِسْمَيْنِ ذَا وَيْلًا وَذَاكَ وَيْلًا

وهذه العادة كانت قائمة ومعهودة ، منذ عهد ملوك الفرس الأول ، وظلت هذه العادة مستمرة .

وقد قلت هذه الحكاية حتى تشكر الله في كل حال على المرتبة التي تكون فيها ، وأن ترضى عن المنعم والمتنعم بما ترى وأن ترعى حق العبودية ، والسلام .

قال آزاد چهره : أنت لكل قوم هاد وبكل ناد للحق مناد وحقيق على أن أقتدى بآثارك وأهتدى بأتوارك ، فكل ما أمرت به ، وأظهرت به ، كان من غزارة ونضارة الرأي ، وكان زبدة جوامع الكلم الفصيح وعمدة قواعد العقل والحصافة ، وأنا قابل للأمر وممنون لك ، ثم جعل الأمل الذي يأتي محلاً قابلاً للفكر ، حائزاً للقبول في مستقبل التمني ، ويصبح وصول المقصد مع حصول المقصود في عنان واحد ، واستقر رأيهما على التوجه إلى العقاب . فواصل السير بالسري ومستبدل السهر بالكري ، وأسلما بساط الهواء ويسيط الصحراء ، حتى وصلا إلى جبل قارن في جوار العقاب .

وصول آزاد چهره إلى المقصد

وطلب الطائر الذي كان يدعى

«يهه» وحكاية أحواله له

أجلس آزاد چهره إيرا في مكان معين ، وذهب لطلب «يهه» الذي وإن كان صغير الجسم ، لكنه كان يتمتع بمكانة العظماء في الدولة ، وكان متميزاً بين علماء الملك في معرفة دقائق الأمور ،

ومبرزاً في أنواع الفنون والعلوم ، حتى وجده وعندما وصل إليه بدا
من مرآة منظره جميع محاسن المخبر في المشاهدة ، فتبادلاً التحية
السلام اللذين كانا من وظائف تبرعات الإسلام ، ومثل الصديقين
اللذين لا يوجد بينهما سر ، وجدا طريقاً إلى خلوة بين السلوة ،
ومثل المتحدين في الصوت جلسا في ستر المحرمية ، وأزالا العقد عن
جبهة الأمانى ، وأظهرا السرور برؤية كل منهما للآخر ، وسأله يهه :
أين نشأت وما مسقط رأسك ؟ وما هدفك وما مقصدك ؟ ومن أين
شدت ركا العزيمة ، وما هو اتجاه النية والفكر ؟ قال آزاد چهرة :

ففى سَمَرى مدُّ كهجرك مُفَرِّطٌ وفى قَصَصى طولٌ كصغلك فاحشٌ (١)

أجلس معك وأبوح لك بالهموم ، وأستريح في حجرة وصالك

أعلم أن مولدى كان في أحد جبال أذربيجان ، الذى كان غاية
في الجمال والبهاء ، أكثر ضحكاً من مبسم أوائل الشباب ، وأنضمر
من موسم نعيم الحياة ،

الأرض آبنوس^(٢) من الشمس وانظّل ، جميلة كشفتى الطاووس
وصافية كعين الديك

كل عام يولد مع الطفل زهرة مهده ، والمطر هو لباس عهده

وعندما دارت الأيام علينا ، وأعادت العادة عند المرفقة ، نهضت
من أمام صدمات الحوادث ، وجلست خلف زاوية مغمورة سع شتى
أنواع اليأس والفشل وسحبت القدم في ذيل الصبر مع زوجتي التى

(١) هذا البيت مناسب للهجاء ، ومن ثم فهو مقحم هنا وغير مناسب لسياق المدح .

(٢) مأخوذة من الكلمة اليونانية ابانس EBenos ، وهى شجرة موجودة في الهند والحبشة ، ورقها
ورق الصنوبر وزهرها زهر الحناء ، خشبها متين جداً ، يقال لها في العربية آبنوس أيضاً . فرهنك عميد .

كانت معى ، وقنعت بزواية عن رواق الدنيا ، وجعلت حلقة القناعة فى أذنى ، فاسترحت بمؤانستها عن أوانس حور الصين ، واقتصرت بمجالستها عن مجالس ملوك وسلاطين الشام واليمن ، إذ كانت نغمات حديثها فى ستر العشق والمحبة أطيب عندى من أغاريد القديسين ، وكنت بهذا السماع أسعد من جميع إخوان الزمان . ومضيت بما كتبه قلم التقدير فى ديوان المشيئة وما أثبتته على أوراق رواتب القسمة وجعلت نصب عيني قولهم «ثلاثة تحمى العقل والنفس الزوجة الجميلة والأخ المؤانس والكفاف من الرزق » لأن هذه الثلاثة المشار إليها قد حصر فيها اختيارات عقلاء العالم ، وقد قصر عليها النظر دون جميع فواضل الحاجة ر وائدها ، وكنت أحصل بحضور زوجتى على كل هذه الثلاثة .

أما بحكم أنه كل عام كنت فى مصائد الطيور ، وكنت شريكاً لهم فى مصائبهم بمصيبتى . فكلما جاءنا ولد ، ووصلنا من مصباح المحبة قرة عين ، أظهرت ثمرة الفؤاد من حديقة العشق ، كانت المفاجأة ، وكانت ريح عاصفة من قواصف قيد الصيادين تأتى بغارة ليلية ، فتقطع آمالنا فى العين والقلب .

فانتهت طاقتى على يد تلك المحنة ، وعرفت أن صلاح الحال كامن فى أن نغير - بصواب رأى زوجتى - المنزل والعش ، وقلت : المرء من حيث يوجد لا من حيث يولد ، أما التحول عن معرض هذه الآفة التى لا يمكن التوقى أو التصون منها ، فلن يكون إلا بالذهاب إلى مكان يكون لنا فيه عين الخلاص . وكلما كنت أقرر هذا المعنى ، كان لا يتحول لرأيها عنان لموافقة هذا الصواب ، وكانت لا ترى إمضاء هذه الفكرة . وجرت بيننا معارضات ومشاورات كثيرة ، حتى

فرغنا من إطلاق كل أسهم النزاع - التى كانت فى طبيعة عصيان كل منا - فى تلك المفاصلة على بعضنا البعض .

وفى النهاية قرأت عليها على سبيل التسامح والتفادى : هذا آخر ما فى الجعبة ، قرأت على من رأس الإنصاف والرجوع عن الإصرار والتمادى : أعطيت القوس باريها^(١) ثم أسلمت زمام الانقياد من قبضة العناد إلى . ورأت من الواجب إرخاء عنان الاختيار وتسليمه لى فى الشدة والرخاء .

وفى الحال ضربنا خيمة الارتحال . ووصلنا هذه الساعة إلى جلال هذا الجناب الكريم ، وحمى المكرم ، بعد عدة أيام ، سلطنا وقطعنا بساط الصحارى والفيافي بقدم القوادم والخوافى ليلاً ونهاراً ، ونجونا من آلاف من شرك الخداع ، وتركنا مائة ألف حبة طمع حتى وصلنا إلى هنا ،

وَجَدْنَا مِنَ الدُّنْيَا كَرِيماً نَوْمَهُ لَدَفْعِ مُلَمٍّ أَوْ لَنِيْلٍ جَزِيلٍ

وإن لم تكن بيننا سوابق خدمة ، لكن تعارف أرواحنا له قدمه فى مهد الخلق ، فقد حدث هذا التعارف بمؤتلف جواهر الفطرة ولا نملك شيئاً آخر ونحن واثقون أن تلك الصداقة القديمة الأولية سوف توصلنا إلى خدمة ملك الطيور ، وإن كانت رفعة مكانه أعلى من مستوى طيران أهليتنا وأن «دونه بيض الأنوق»^(٢) ، لكنك سوف تقوم

(١) فى مجمع الأمثال «أعط القوس باريها» أى استعن على عملك بأهل المعرفة والخلق وينشد :

يا باري القوس برياً لست تحسنها لا تفسدنها وأعط القوس باريها

الميلاني : مجمع الأمثال ، ج ٣ ص ٣٤٥

(٢) الأنوق : الرخمة ، وهى تضع بيضها حيث لا يوصل إليه بعداً وخفاء . يضرب للشئ يتعذر وجوده ،

ويقال أيضاً دونه النجم ، ودونه العيوق ، للميلاني : مجمع الأمثال ، ج ١ ص ٤٦٤

بفائق العطف والرحمة وتجعل مقامنا مصاناً في جوار إقباله من جوائر
الطيور الصائدة والضواري المفترسة . قال يهه :

عهدى وعهدك على ذاك القرار الذي كان ، وتلك العين هي تلك
الحاملة للدمعة التي كانت

والحمد لله أن نظر الضمائر تساوى واتفق في الجانبين ، وأن
حاصل الاطلاع على سرائر كل منا ، كان سعيداً ، ثم إنك فتحت
باب السعادة ، وأحضرت فتوح الروح ، فليكن ذاك انتقال السعادة
وليكن هذا نزولاً مباركاً ، وبما أنك أظهرت التمسك بحبال اهتمامنا ،
فيجب أن تكون هادئ البال فارغ الخاطر من جميع الشواغل .

ولتأمل في أن تكون أرض هذا التحول هي منبت لآلئ الدولة
الجديدة ، ومسقط رأس سلالة السعادة .

لأن هذا الملك ، وإن كان مأواه في رهوس الجبال ، وإن كان قد
تربى في نعيم الظل ، وأنه لا يخلو من جسارة وغلظة ؛ إلا إنه بعيد
عن آفة الحيل وفساد الضمير التي تنمو بكثرة مخالطة البشر والتواصل
معهم . وكلما يرى لجوء ضعيف والتجاء محتاج لخدمته يصبح رحيماً ،
رهوماً ، كريماً ، عطوفاً ، ويسرع في تحويل عنان العناية ، وربما أكثر
من هذا . وسنة الله تعالى : أن الضعفاء يتربون في كنف رعاية
الأقوياء ، ويجلس الأصاغر في ظل الأكابر «بيض قطا يحمله أجدل»^(١) .

والآن يجب أن ننتهز الفرصة في هذه الساعة التي يمكن لك فيها
أن تذهب إلى خدمته ، لأن القرب من الملك في جميع الأحوال بعيد
عن قضية العقل ، لأن مزاجهم اللطيف لطيف يقبل التغير بسرعة .

(١) الأجدل : الصقر ، والحضن والحضانة : أن يحضن الطائر بيضه تحت جناحه ، ويضرب هذا المثل
للشريف يؤوى إليه الوضع ، المبدئي : مجمع الأمثال ج ١ ص ١٩٣

كما أن ماء سلسال اللطف الذي عجن به صلصال غريزته يترشح كل لحظة إلى نوع آخر . ويعلق به قليل من شوائب الكدرة ، فيتغير تغيراً فاحشاً بسبب مجاورة لهذه الشوائب وهنا يتضح قول النبي ﷺ «جاور ملكاً أو بحراً»^(١) لأن طبع بحر وجود الملك أكثر البحار تأثيراً بالغوائل . فسفينة صحبتهم تستطيع أن تجرى - وعليها أربعمائة أمل - وتصل بسلامة إلى الشاطئ .

أما عندما يثور ويتزعج ، فإن قدم الخادم لو انتقلت في هذه الحال إلى شرف الأفلاك ، فيجب أن يعلم أنه قد أشرف على الهلاك .

حظٌ جزيلٌ بين شِدْقِي ضَيْغَمٍ^(٢)

واعلم أن هناك علامات يستدل بها على قبض الملك وبسطه ، وسوف أذكرها لك حتى تعلم الخطرات وتراقب الحركات ، وتواظب على حفظ تلك الأوقات التي يجب الحذر منه فيها .

إنه كلما رجع من الصيد مظفراً بصيد المراد ، قد امتلأت حوصلة الحرص بالغذاء ، وقد أخفى بواعث الشره التي هي أصل السفه من الداخل ، لا حيلة من أن يفتح الأجنحة وقت السؤال مثل جبهة الكرماء ، ويغمض عين الهمة عن مطامح طير الاحتياج ، ويدعو جملة الطيور الملونة وحسن الصوت ، ويسعد مع كل نوع بسعادة مختلفة .

(١) يعني أن الغنى يوقد عندهما ، يضرب في التماس الخصب والسعة من عند أهلها ، الميلى ، مجمع الأمثال ج ١ ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

(٢) يضرب للأمر للرغوب فيه ، للمتبع على طلبه ، الميلى ، مجمع الأمثال ج ١ ص ٣٧٣ .

وكلما جلس صامتاً ساكناً ، رأسه بين رداءه ، أو يكون عنقه مرتفعاً ، وآثار عدم الاستقرار ظاهرة على شمائله ، فلا شك أن يلوى عنان عزيمة الصيد ، الطائر سنان المخلب والمنقار ، فهذا وقت ينبغي أن يخلي ميدان السماء من كل الطيور التي تطير عالياً لجولانه هو فحسب ، لأنه يوصل غياث مستسرات البغاث من مواقع الهيبة إلى أذن النسر الطائر والواقع ، فيستوى الجميع في البلاء .

هكذا قال لي أحد الأذكياء ، المعنى العقل والرأى والفكرة أن النمر يجن من الحقد ، حينما يرى الغزال على فراشه فيجب أن تقول في الحضرة - حيثذ - فصلاً لائقاً للحال موافقاً للوقت ، فيزيد ميل الملك بإصغائه إلى هذا الكلام .

فقال آزاد جهره : لا شك أن اللسان الذي هو سفير الضمير وترجمان الجنان ، لا ينبغي أن يقول الكلام إلا إذا كان مقبولاً لدى أسماع السامعين ، حتى يأخذ مكاناً في مقاعد قبول أسماعهم . ومن ثم يعلقون مرصعات ألفاظه ومعانيه كالعقد والقرط في عنق وأذن الانقياد ، والأولى أن تحافظ على عظمة ناموس العلم ، وأن تزين سوق الكلام بزينة الصمت ،

وإن لم تُصب في القول فاسكُتْ فإنما سَكُوتُكَ عن غير الصوابِ صوابٌ يجب أن تنظم الدر في سلك الكلام ، وإلا فالخرس أفضل من الكلام .

ولقد نصحك عقلك نصيحة محكمة فكن حسن الكلام أو أبكماً

وأنا واثق من توفيق الله عز وجل ، ومدد تربيتك ومعاونة عقلك ،
وأنه لن ينقص أى شئ من شرائط آداب الحضرة فى ربط الكلام ،
وعرض الحاجة والمحافظة على مراسم التعظيم أو التهوين ، والله
المسهل لذلك .

فانطلق يهه من هناك إلى خدمة العقاب ؛ ورجع على الفور ،
وأخذ معه آزاد جهره .

صفة الجبل الذى كان موطن العقاب وشرح مجلسه

عندما وصل إلى هناك ، وقعت عينه على الجبل الذى كان غاية
فى الارتفاع ، لدرجة أن العين كانت تستريح عشرات المرات فى
مصاعده حتى تصل إلى ذروته الشاهقة ، وأن حارس الوهم كان
يتصبب عرقاً من جبهته أثناء قطع مراقى علوه ، وأن سهم النظر كان
لا يتجاوز منتصفه ، وأن سلم السماء لا يصل إلى زاوية سقفه العالية .
حتى أن فلك البروج كان يربط زناً على وسطه فى منطقة الجوزاء من
حقده عليه ، ووقع للشمس مثلما وقع للقمر نار حسد فى البيدر عند
عنقود الثريا ، كان الوهم يتعشر أثناء ذهابه إليه ، وكان العقل يخاف
ويرتعد إن أشار إليه .

وخرقاء قد تاهت على من يرومها بمرقبها العالى وجانبها الصعب
يزر عليها الجوحيب غمامة ويلبسها عقداً بأنجمه الشهب
إذا ما سرى برقٌ بدت من خلاله كما لأحت العذراء من خلل الحجب
فمشى «يهه» فى الأمام التزاماً بقواعد الحجابة ، وكان «آزاد
جهره» يسير خلفه التزاماً بشروط المتابعة ، ويقول :

لكلِّ إمام أسوةٌ يُقتدى به وأنتَ لأهلِ المكرَماتِ إمامٌ

حتى عبروا معارج الجبل ومدارجه ، ووضعوا أوج الشمس في حضيض ظله ، وعندما وضع قدم المقصد على السطح الأعلى ، كان ملك الطيور جالساً - مثل سليمان - في حفل في مكان يشبه نزهة الخلد . وكان الشاهين^(١) وهو أمير سلاح الطيور الجوارح يلبس قلنسوة ذهبية ، ويرتدي لباساً مزركشاً ، وكان ناهضاً عند مقعد السلطان بجوار رأسه متفاخراً .

كان الطاووس^(٢) قد وضع مروحة من ريش الأجنحة الذهبية على الكتف ، وكان السقاء قد جاء في تلمسوة الأديم اللامعة ، وفتح عقدة سقاء الحوصلة ، ونثر الماء المعطر ، ساحة البلاط وكان الغراب قد أشعل نار خده ، ودهن وجهه بالبخان ، وكان الدراج يبحث عن السكين والكباب والطبق .

وكان البلبيل يعزف لحناً غريباً مثل الموسيقى جارك^(٣) . وصنع الصلصل^(٤) مع آلة العصفور لحناً ، وصنع صفيح الحان الألف حكاية لحن اللهو والطرب . ووصل صوت آذان الديك إلى آذان الذين

(١) جمع شواهين وشياهين ، وليس بعري ولكن تكلمت به العرب ، والشاهين ثلاثة أنواع : شاهين وقطامي وأبقى ، والشاهين في الحقيقة من جنس الصقر ، تكون حركته من العلو إلى السفلى شديدة ولذلك يتقضم على من غير تحويم .

عزيز العلي العزى : الطير في حياة الحيوان ص ١٢٩

(٢) طائر معروف وتصغيره طويس ، وفي طبعه الحفة وحب الزهر بنفسه والخيلاء والإعجاب بريشه ، لا سيما إلا إذا كانت أنثى ناظرة إليه ، تبيض أثناء بعد ثلاث سنوات ، عزيز العلي العزى : السابق ص ١٥٣

(٣) اسم دور موسيقى ، (للعجم الفارسي الكبير) .

(٤) الصلصل : الفاختة وهي واحدة الفواخت من ذوى الأطواق ، وهي طيور من فصيلة الحماميات . وهو أصغر من الحمام ، الديميري حياة الحيوان الكبرى ج ٢ ص ١٩٦ ، ١٩٨ .

يجلسون فى صدر صفوة الملكوت ، وليس البيغاء خفياً من الحجر
الفسقى فى قدمه ، وقد بدأ بعبارات أعذب من السكر فى حكاية
عجائب البحر الهندى . وكان الهدهد - الذى هو رسول الحضرة -
يلبس قلنسوة حريرية مزركشة ، ووضع مكتوباً بلسان الطيور على
رأسه . وكان العقعق^(١) يأتى بالأخبار من جميع أرجاء الدنيا -
كالسفير - بالملابس الأطلسية وكان الحاضرون قد أخذوا الفأل السعيد
بزواجر الطير ، وازدان المجلس بهذا السرور . فدخل «يهه» - حسب
القاعدة السابقة - وعرض حال مجئ آراد جهره إلى خدمة البلاط فى
أبهى رداء . وأظهر أن شخصاً مقبولاً ، وخادماً مخلوقاً للملوك
وقائلاً للخير ، وعالماً بالسنن والعادات ، ذا كفاءة عالية ، وفناناً وقد
جاء من مسافة بعيدة ، اقتلع جذر المؤالفة من قلبه لذلك المسكن الذى
كان يملكه ، وترك الوطن والمولد ، واستظل من حرارة هواجر أحداث
الزمان بجناح هذه الدولة ، ولجأ إلى كنف هذا الجناح الرفيع ، فلو
أذن الملك دخل ، وأصبح مخصصاً بشرف تقبيل اليد . فثار لدى
الملك داعية صدق الرغبة ، وأمر بأن يدخل .

(١) كعلب ، ويسمى كندشاً بالشين المعجمة ، وصوته العقعقة ، وهو طائر على قدر الحمامة ، وهو
على شكل الغراب ، وجناحه أكبر من جناح الحمامة ، وهو ذو لونين أبيض وأسود ، طويل اللنب ،
وفى طبعه شدة الاختطاف لما يراه من الحلى ، الدميرى : ج ٢ ص ١٤٨ ، ١٤٩

اتصال آزاد چهره بخدمة الملك

والأحاديث التي دارت بينهما

دخل آزاد چهره مرتدياً الملابس الهندية والنيسابورية المرقعة مثل الصوفى ، ويدا فى الأنظار متحلياً بتأديب الذات وتهذيب الصفات مثل العقل المخلص والروح المشخصة ، ووصل إلى تقبيل اليد ، وتأثر من شدة وقار الحضرة ، وتعثر فى أذيال الدهشة ، وذهب إلى المكان الذى خصص له ، ووقف فيه وقال :

وفوق السرير ابنُ الملوك إذا بدا يخرُّ له من فرط هَيْبته الناسُ
وذاك مقامٌ لا ثوفيه حقُّه إذا لم ينب فيه عن القَدَمِ الرأسُ

فأطلق «يهه» اللسان كعادة المساعدين ، وقال من أجل تشجيع آزاد چهره وتوسيع مجال التبسط : كل ما تلبسه جميل مثل جناح الطاووس ، وكل ما تقوله حسن مثل لحن العندليب .

وكل ما تظهره وتأمر به - وبحمد الله - وهو قدوة للعقل ، وقبله عقلاء العالم ، فلا تبخل بالنصائح والوصايا على سمع الملك ، التى يكون لها دور فى تعديل الأمور وتقويم الأحوال ، بل تكون دستوراً له ، وقل دون أن تتحاشى كل ما يجول بخاطرک من أجل كشف البلوى وبث الشكوى ، وشرح المظالم وعرض الحاجات ، لأن مجال الأمل واسع ، وسجال الكرم فائضة .

يامن بسبب إنصافه يستقر مقراض الكبك على ذيل وجناح العقاب
فالعقل لا يتحير لو صارت حبة التين على شراك لخلق الغراب بفضل عدلك.

لقد وضع لي - أنا العبد - النعل في نار فراق هذه الحضرة^(١) بسبب الاشتياق ، كما تمثل خيال خدمة الملك أمام عين القلب . جعله الله مفر لاجئ الحوادث وملجأ متعبي المكاره . بل إن القلب ظل أما لحن قافلة صورته أعواماً حتى وصل إلى هنا .

واليوم قطعت الصورة - أيضاً - جبلاً كثيرة ، مرحلة بعد مرحلة ، وبعد طي المسالك وقطع المهالك ، ووجدت معنى المشاركة والعبودية كلاهما معاً ، وقد أوصلنا إليه سبحانه وتعالى من مسفٍّ صحبة من لهم صفة البوم وشتوم المشاهدة إلى مطار همة هذا « الهمما » مبارك الظل .

والأمل منفسح حتى أعمل شفاء كل العلل ، وأسد كل الخلال بهذه السدة المنيفة والساحة الشريفة وأرى كرم الاستراحة في حوزة احتماء هذا الحرم من شر المكاييد وآفة المصايد ، وأجلس هادئاً لأنهم قالوا : إن الرعية تشبه الأطفال الصغار ، والملك العادل يشبه الأم الرحيم التي لا تعرف لهم حافظاً ولا رقيباً من ماء الأيام ونارها سوى نفسها .

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم أسودٌ لها في غيل خفّان أشبلٌ
هم يحفظون الجار حتى كأنما لجارهم فوق السماكين منزل

قال الملك له : فلتهدأ ولتسترح ، وبعد الفراغ من وضع عقاب العقوبة على متكأ الاستراحة ، وملتجأ هذه الساحة ، يجب عليك إن تنقل الأثاث والأمتعة والكنوز والمدخرات من محمولات الأثقال ومنقولات الأحمال ، من ذلك البيت إلى المكان الذي تختاره ، فقال أراد جهره :

(١) كناية عن علم الاستقرار والاضطراب .

حيثما سرتُ لا أخلف رَحلاً من رآنى قد رآنى ورَحلى

ليس معلوماً لدى الراى العالى ضعف حالى ، إذا كان بيتى دائماً على معبر سيل الحدثان ، وفى معرض طوفان الظلم . وعندما لجأت إلى جبل الكرم «جودى»^(١) ، واحتميت بحصن العصمة ، وجئت من مضيق ذلك العسر والفشل إلى فضاء هذا اليسر والنجاح . فقدما سرقوا أثاث البيت وأمتعته فى ظلمة البيت ، ولقد قرأت فى يد نهبهم ونهيهم ومصادراتهم «ليس فى البيت سوى البيت» .

نعم ، والزوجة هى التى أم الأطفال ، قد لفت الكبد بحرقه فراقهم ، ووجدت عدة أعين ومصاييح أمام عين الميت والمقتول ، كنت قد جئت بها معى ، وهى جالسة فى البيت ، حتى تصدر إشارة الملك بدعوة أو رفض ، رعاية أو إهمال ، وطالع التحويل الذى فعلناه يبدى تأثيماً عظيماً من مطلع شمس الجلال .

قال الملك : طالما أنت هنا ، فكن سعيداً ، وأجلس الزوجة التى هى أجمل من أى جوهر - فى أى مكان تريده فى حريم الأمن والاستقامة وستارة العافية والعفة من أجل معصم العيش وساعده . لأن دور الجور والظلم قد وصل إلى النهاية ، وأفل مصباح المحنة ، وظهر لأيام الحزن نتيجة طيبة .

وإن البلايا إن توالى تولى

خدم آزاد چهره ، وصلى ، ودعا بالدعاء الذى كان من عادة هذه الوقت ، ورجع ، وجاء أمام إيرا ، وحكى لها حكاية الحال كلها ،

(١) إشارة إلى الجبل الذى استوت عليه سفينة نوح - عليه السلام - المذكور فى قوله تعالى : (واستوت على الجودى) هود : ٤٤

بكل ما حدث ، وشرح لها بأى تبجيل واحترام استُقبل به عندما وصل إلى بلاط الملك وأى جذر اهتر لوروده !! وكيف اغتتم مقدمه !! وأى أبواب وفصول قد تقررت عن وصوله ونزوله . فتذكرت إيرا الحياة السابقة بسبب استماع ذلك الكلام ، واستبشار تلك الحال ، والاستظهار الذى تم بسبب تلك الدالة التى حصلت ، واهتمت بما يجعل روجها مستمراً فى خدمة أعتاب الملك الميمونة ، مأموناً من الحوادث . ومن ثم قرر آزاد چهره وإيرا أن يبنيا مسكناً ومأوى فى معاطف كنف عاطفة الملك ودولته ، ثم وضعوا القلب فى ذلك المأمن على وطن .

رجوع آزاد چهره إلى خدمة الملك

وإيراد النصائح

عاد آزاد چهره فى اليوم التالى إلى الخدمة ، صبيح الوثجه نجيح السعى ، وضئ المنظر ، مقضى الوطر ، وقد مد بساط الشاء ، وأوصل الدعاء إلى سماء الإجابة ، وقال :

لتكن أيامك كلها سعيدة لأن الأيام والأمور كلها طيبة فى ظل
حكمتك

الان صار لى الزمانُ مساعداً ووصلتُ فيك حباتلَ الآمالى
فبلغت غاياتِ الأمانى دُونكم وأرحتُ من حطٍّ ومن ترحالِ
ثم استعطفه الملك استعطافاً نضراً ، ورحب به ترحيباً جديداً ، وأخلى المكان من الأغيار ، وقال له : بالرغم من كون «يهه» نديماً قديماً ومنادماً ملازماً ، ومناجياً منجياً ، وكافياً لكل الخيرات ، وإننى

لا يزيدنى سعادة إلا بآثار مقاماته الحميدة دون بقية خلصاء الدولة ،
ولا أرغب إلا فى محاضراته من دون جملة جلساء الحضرة ؛ لكن
لأن نسبة المحبة التى بيننا قد زادت وتوطدت إلى هذه الدرجة ،
وحصل لنا الوقوف على جيلة حالك وأهلية كمالك ، ونهض التوقف ،
وسمعنا عن بحثك عن الصلاح ، وجمعك للصواب فى كل باب ،
جاء العيانُ فألوى بالأسانيد

أريد أن تنصحنى - الآن - بعدة كلمات من ضوابط أمور
المصلحة فيما يتعلق بمناظم الدين والدنيا ومعاصم الآخرة والأولى ،
حتى أعمل بها وأنتهى إليها.

وصية آزاد چهره وختم الكتاب

قال آزاد چهره : لله - سبحانه وتعالى أمران وضعا لعمارة الحياتين :
الدنيا والآخرة ، أما الأول : فهو العقل . وأما الثانى : فهو الشرع .
فإن أردت عمارة الدارين ، فيجب أن تكون مطواعاً لهما . فالعقل
الذى يحكم هذه الدنيا يجتهد فى ترتيب معاش هذا العالم ، ويأمر
بالاجتهاد فى الأخذ بالأسباب كما قال البستانى لكسرى . قال الملك
كيف كانت تلك الحكاية ؟

حكاية كسرى مع البستانى

قال آزاد چهره : سمعت أن كسرى خرج ذات يوم لمشاهدة الصحراء ،
فرأى بستاناً عجوزاً ، وبالرغم من شيخوخته وأن مدينة وجوده مفتوحة
للخراب ، وقد اقترب مجئ ملائكة الخير له ، وخرج من العمل
اثنان وثلاثون طاحونة كلهم بجوار بعض ، لكن فرع أمله كان يزهر من
جديد فى خريف العمر وأثناء سقوط ورق العيش ، وكان ينبت على

شاطئ عين حياته خط أخضر بعد ذهاب ماء الطراوة . وكان يغرس شجر التين في أخريات مراتب شيخوخته . فقال له كسرى : أيها الشيخ : إن الجنون ينهض عادة من الشباب والصبا ، أما أنت فقد جعلته في زمن المشيب ، فالوقت هو زمن اقتلاعك لأصل وجذر العلائق من هذا المنبت الخبيث (الدنيا) وغرسك للشجر في مكان السعادة (الجنة) فأى مكان لهذا الهواء الفاسد والهوس الباطل؟ الشجرة التى تغرسها ، متى تستطيع أن تأكل من ثمرها ؟ فقال العجوز : غرس الآخرون فأكلنا ، ونحن نغرس ليأكل الآخرون . زرعوأ وأكلنا ، وزرعنا ليأكلوا ، وعندما نتأمل فالكل مزارع للآخر . فتحير كسرى من وفور علمه وحضور جوابه حيرة شديدة ، وقال : أيها العجوز : لو أبقوك مدة فى حديقة دنيا الكون والفساد حتى تأتبنى من هذه الشجرة بثمرة على سبيل الهدية ، سوف أمنحك خراج هذه الحديقة .

والخلاصة أن الأمل قد أوفى ، فأثمرت الشجرة ، وذهب بهدية للملك منها ، فوصل الوعد إلى الإنجاز .

وقد قلت هذه الحكاية حتى تعلم أن أمر عمارة هذه المزرعة مفوض إليك ، فلا تسمح للرعية ألا يعمروها ولا أن يعمروها الخزينة بغير الربح الذى يأتى من الزراعة .

فإذا مضى الملك على هذه السنة والسيرة ، ويكون انتهاج سبيله على هذه الوتيرة ، فلا يجوز للأتباع اتباع غير مراسمه ، بعد ذلك تعيش الرعية آمنة ، والملك معموراً ، والخزانة غنية ومن ثم لا يلزم الملك خراج من المظلومين ، ولا يصبح ملوماً مذموماً فى أفواه الخلق «بيد خاطية وأخرى عاطية» .

أما الشرع الذى أسلموا له الدار الآخرة ، فلا يهتم بأمور هذه المزرعة وخرابها وعمارتها إلا قليلاً . ولو أعطوه الدنيا بما فيها أو أخذوها منه . فلن ينظر بطرف عين الهمّة إلى ذلك . فلا يضع شيئاً يذهب به الآخرون ، ولا يضع ذخيرة يأكلها الآخرون ، والنبي ﷺ يقول «الويل كل الويل لمن ترك عياله بخير وقدم على رب بشر» .

وما يكون أمام تفكيره وغاية طلبه سوى اللذة الباقية بمطالعة عالم القدس ، والبهجة الدائمة بالقرب من جوار الجبروت .

أيها الملك : إن هذا المكان الذى تجلس فيه يجب أن تسمع دائماً وتنتبه جيداً : فإنك وإن كنت على قلعة متمكنة فضاؤها متقابل مع قلة الفلك ، فلن يمنع قارورة الدعوة التى يدعونها فى السحر ، «واتقوا من مجانيق الضعفاء» انذى يحذرون وينذرون به ساكنى الأعالي .

فعندما يحرك النشاط ملك السلطنة ، فيتناول سلاح الصيد ، ويتوجه بطالع السعادة والطائر الميمون إلى مكان الصيد ، فيجب ألا ينسى رؤساء موكب العزيمة وصية «ادخلوا مساكنكم حتى تصبح الأطفال الصغيرة للطيور التى لم ترب فى بيضة ملكك إلى الآن ، ولم يطيروا تحت أجنحة حمايتك ، ضحية القهر تحت مواطئ الجيش ومحاشر الحشر» .

وبالرغم من أنهم احتقروا ذلك العصفور المسكين ، مادة الشهوة ومدد قوة التناسل ، فإنه لا يسمح بإسالة دمائهم من أجل قضاء شهوة واحدة ، ولا يسمع تشنيع ونفير لسان العصافير فى ديوان العرض فقد جاء فى الخبر الصحيح «من قتل عصفوراً عبثاً جاء يوم القيامة وله

صراخ عند العرض يقول يا رب سل هذا لم قتلنى من غير منفعة .
واعلم أن غيرة الإله نفسه على عكس ما هو مشهور على الألسن
بأنه يجعل كثرة التوالد من نصيب الضعفاء ويعاقب الأقوياء بخنجر
عقوبة العقم .

بُغَاثُ الطير أَكْثَرُهَا فَرَاخًا وَأُمُّ الصَّقْرِ مَقْلَاةٌ نَلُورُ (١)

فيجب على الملك ألا يغفل عن حيازة خمس خصال ، حتى إذا
أخفق فى إصابة عشرة أهداف ، فإنه سوف يكون من الملوك الأول
أيضاً :

الأولى : أن يجود ويمسك بطريقة لا تخل بميزان العدالة .

الثانية : أن يحفظ للرضا والغضب وقته ومقامه ، وأن يصون
عرضه من وضع الشئ فى غير موضعه .

الثالثة : ألا يرجح مصلحته الخاصة على الصالح العام .

الرابعة : ألا يجعل يد الجيش مستعلية على الرعية .

الخامسة : أن يكون طالباً للعلم أكثر من طلبه لآى شئ آخر
وأن يكون أعلم من أى شخص .

لأن له من كل علم خيراً ، يبقى الملك بعظمته
ويصبح تاج كسرى عالياً ، عندما يكون العالم أمامه فقط للذكرى
كل ما أخذته الأيلىم ، يبقى الكلام فى العالم فقط للذكرى
عندما يصبح الحديث متصلاً ، فإنه يجدد قصة الماضى القديم
ليجعلك الله عالماً منيراً ذكياً ، حتى يكون العلم لروحك درعاً

(١) البيت للعباس بن مرداس فى قصيدة له مطلعها :

ترى الرجل النحيف فتدريه وفى أثوابه أسد مزير

أحمد أمين ، عبد السلام هارون : شرح ديوان الحماسة ، مجلد ٢ الخامسة رقم ٤١٩ ص ١١٥٣

فعندما أنهى الكلام إلى هذا الحد ، أمر الرعية أن يأخذوا
آزاد چهره ، حتى يصير زمام التصرف والتدبير فى تدبير الديوان والبلاد
فى يد كفايته ، واعترف كافة كفاة رعاة الملك والدولة به كوزير للملك :

فيا حسنَ الزمانِ فقدَ تَجَلَّى بهذا اليُمنِ والإقبالِ صَئْرُهُ
فقلْ فى النَّصْلِ وأَفَقِهِ نِصَابٌ وقلْ فى الجَوِّ أَشْرَقَ مِنْهُ بَثْرُهُ

فليجعل الله - تعالى - ظل ملوك العالم ملك بنى آدم الأتاك
الأعظم ، مظفر الدنيا والدين ازبك بن محمد بن ايلدكز متمتعاً
بالتفكير الحسن فى أمر الدين والدولة ، لأن سر ضميره تلا : «رب
اشرح لى صدرى»^(١) ودعا دعاء «واجعل لى وزيراً من أهلى . هارون
أخى»^(٢) حتى استجيب بجلوس سيد العالم ، ربيب الدنيا والدين ،
معين الإسلام والمسلمين أبو القاسم هارون بن على فى صدر وزارته .
وجاء عقد الإخوة الذى عقد فى الأزل - مع تفويض هذه الوزارة -
من مشيمة قدرة التوأمين . اللهم اشدد به أزره وحط عنه وزره
بالنبي محمد وآله وصحبه .

(١) طه : ٢٥

(٢) طه : ٢٩ ، ٣٠

خاتمة الكتاب

خاتمة الكتاب

يجب أن يعلم المحققون الصادقون غير المتأملين للعيب الباحثين عنه - وتأمل العيب عيب - أن أكثر هذه الكتب التي ألفها العجم ، وبخاصة «كليلة ودمنة» موضوعة على سياق واحد ، وسبق الكلام فيها على نسق واحد وإن كانت لمبدعه فضل التقدم بل تقدم الفضل ، إلا أنه يشبه الحديقة التي لا تجد فيها سوى ثمرة واحدة وإن كانت للأذواق معسولة وللطباع مقبولة ، ويشبه البستان الذي - وإن كان يجعل المشام معطرة والأنوف معبرة - لا تستطيع أن تشم فيه سوى رائحة ريحان واحد ، وعمل هذا العبد مشتمل على عدة أنماط من أساليب الكلام المزين والعبارات المزخرفة ، فهو يشبه الجنة المليئة بالألوان المختلفة من أراهير المعنى ، وأشكال رياحين الألفاظ ، وأجناس فواكه النكات ، وأنواع ثمار الإشارات ، فيكون لكل حس حظ من هذه الأنواع ، ولكل ذوق نصيب من هذه الأحاد « فيها ما تشتهي النفس وتلد الأعين » (١) .

ويأتى هذا الكتاب متفرداً بين الكتب للخصائص الآتى ذكرها :
أولاً : لا يوجد به شوارد الألفاظ وأصناف الكلمات العربية غير المستعملة والتي يمجها السمع وتأبأها النفس .

ثانياً : أنه خال تماماً من الأمثال والشواهد العربية والفارسية التي أوردها الآخرون في كتبهم . وهكذا كان محترزاً من استعمال ممضوغهم من الكلام ومصوصهم منه . إلا على سبيل النادرة ، ومن ثم لم يشم الورد المشموم الذي لمست يد الآخرين .

(١) الزخرف : ١٧ .

ثالثاً : إننى تناولت الموضوع الواحد المعين فى مواضع كثيرة ، وبأوصاف مختلفة على طريقة التزيين التى لا تكرر الكلمات السابقة إلا ما شاء الله ، وكثيراً ما يوجد فيها خصائص جزئية أخرى تصبح معلومة عند بعيدى النظر دقيقى الرؤية وقت مطالعة دقائقها . أما إذا فكّر أحد القراء فى إمضاء فكرة على مقام أو مقامين وترك الباقي ، بحيث لم يصل بمطالعة وافية من الصدر إلى العجز ، فسوف تفوت منه كثير من نواذر النكات وصوادر التنف التى صدرت عن كريم خدر الخاطر وعطر العبارة .

حَفَظْتَ شَيْئاً وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ

ولقد جئنا إلى الهدف الدقيق الباعث على تحرير هذا الفصل ، والذي يطرز كُمّ مفاخر الكتاب منه ، ويأتى ترتيب هذا الوصل الذى يُزَخَرَفُ أواخر الكتاب به ، وهو أن نزيل سبب التأخر فى كتابة هذا الكتاب ونحل عقدة التعسر التى حدثت لهذا الأمر وأن نوصل هذا العذر من لسان إملاء الحال إلى الوضوح .

وذلك هو أن الملك سيد العالم ربيب الدنيا والدين ، معين الإسلام والمسلمين عز نصره ووَقِي من غير العصر عصره ، الذى كان التوفيق رفيقاً لطريق مساعيه دائماً ، والذي يملك فى نفسه رسالة مفتوحة من قوله تعالى «ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون»^(١) قد علم أن ليس هناك شئ يخلف أثمن وأعظم من التقرب إلى الله الذى نقشت محامده على صحائف الذكر ، وذهبت المكارم إلا من

(١) الحشر : ٩ .

الدفاتر ، وعرف دون شك - أن الجاهلين المسوفين والكسالى المتوقفين
لن يرفعهم تأجيل الآمال مع تعجيل حوادث الأحوال .

أخذ الزمن متاعهم منهم بسرعة، حتى لا ينالوا منه أى شئ

والخلاصة أنه عزم بنية خالصة ، وطوية صادقة على أن يثبت
أعظم بر وأفضل حسنة فى صحف محاسن الأعمال ، وأن يسجل
حجب الآخرة فيها ، وفى النهاية جاءت جميع أفكاره المباركة مقصورة
على جامع تبريز لينشأ فيه داراً للكتب ، كوعاء ملئ لطفاً وظرفاً
وهكذا ارتبطت الروح بالروحانية وتزينت بحسن المباني ، لدرجة أنك
لو قلت إن ساكنى رواق البيت المعمور يستحسنون تلك العمارة ، لا يلزمك
الاستغفار من هذا القول . فما يلقاها إلا ذو مقام كريم ، ولا يلقاها
إلا ذو حظ عظيم وبالرغم من أن بعض السلف - فى العهود المتقدمة
- قد تبرعوا وجعلوا مخازن كتب فى هذا الموضع إلا أن روابط هذا
النظم قد ضعفت ، وصارت شرائط ذلك الشمل غير مرعية ،
فوصلت يد تطاول الزمن إلى تفريقه وتبديله بسرعة .

وكذاك عاد إلى الشتات جموعها

وهكذا لم يبق من موات ذاك الخير سوى الرميم والرفات ، ولم
يصلح رائقو هذا البساط الأغبر وهذه السجادة الخضراء ممزقة الأجزاء
إلا بنسج العنكبوت . وبحمد الله ومنه صارت كل نسخة من هذه
النسخ - جعلها الله من الباقيات فى صالحات أعماله - فى الحقيقة
حلية فى ناصية ذلك العاقل ، وبياض غرة تلك المنسوخات الباطلة .

وَصَفَّتْكَ فِي قَوَافِ سَائِرَاتٍ وَقَدْ بَقِيَتْ وَإِنْ بَقِيَتْ صِفَاتُ
أَفَاعِيلُ الْوَرَى مِنْ قَبْلِ دُهُمٍ وَفَعَلَّكَ فِي فَعَالِهِمْ شَيَاتٌ (١)

والحق أنهم قد جمعوا في حظيرة الأتس هذه ، لا بل حديقة
القدس جميع غرر المصنفات وأوضحها ، وحشروا فيها أرواح
التأليفات ، ونظموا فيها شعب كل العلوم وأفنان جملة الفنون التي
يحتاج إلى الإفادة منها خواص الناس وعامتهم .

ففي العربية وأقسامها تشتمل على المركبات والمفردات والنحو
والتصريف ، وهذه الأقسام تشبه السوط الذي لا يمكن ترويض الحصان
العربي إلا إنه ، كما تشتمل على أنواع البراعة والبلاغة نظماً ونثراً
التي استمدوا منها الأساليب المختلفة لقالب أي صياغة ووقع تعلق
ذوق كل واحد وطبعه على أسلوب خاص .

كما اشتملت على المذهب الذي عليه مدار مصلحة العالمين
وانتماء حكام الشريعة إلى أحكام فروعه وأصوله ، والذي يقع سيقاً
فاصلاً بين الفضوليين والصادقين وقت الفصل بين الحق والباطل .

كما تشتمل على علم الكلام الذي من مهماته إثبات وجود
الصانع وقدم ذاته مع كونه فاعلاً مختاراً بخلاف ما يقول الظالمون
تعالى عنه علواً كبيراً ، وبيان حدوث العالم على سبيل الإيجاد برياً
عن الصورة والهيولى .

(١) البيتان لأبي الطيب المتنبي من قصيدة يمدح فيها بلر بن عمار بن إسماعيل الأسدي يقول في مطلعها

فلتلك الخيل وهي مسومات ويض الهند وهي مجردات

المتنبي : الديوان ج ١ ص ١٥٣

ومنها أيضاً تقرير بعثة الأنبياء بواسطة جبريل وإرسال الله - سبحانه وتعالى - له بالوحي والتزليل ، وإقامة البراهين والحجج على حشر الأجساد وأحوال المعاد . تلك الحجج والبراهين التي يبحث عن معرفتها العقول والنفوس بقدر النور الذي فاض على أساس خلقتهم في بيت الفطرة .

وفيها أيضاً من علم التفاسير والأحداث المنقولة عن نقلة الشريعة والحكمة وحملة العرش عن العظمة ، وسالكى بادية طلب الحق الذين لا يملكون سوى مصابيح الهداية التي يحملونها من هاتين المشكاتين في ظلمات وأوهام الذريق خيالاته التي يصعب الخروج منها بدون هذه المصابيح ولا يمكن الخلاص من مفاوز الشبهة دون الاستضاءة بنورها .

وفيها أيضاً من علم الطب الذي نطق لسان النبوة بفضله حيث قال عليه الصلاة والسلام : «العلم علما علم الأبدان وعلم الأديان» وليس لمدبري أمر الإنسان من قانون إلا قانون هذا العلم ، ولا يستقيم أى تصرف للعقل في ولايات الأعضاء السبعة وكذلك الجوارح إلا باستقامة المزاج على حد الاعتدال ، ولا تيسر استقامته إلا بإقامة هذه الصناعة .

وفيها أيضاً من علم النجوى الذي تعود منفعته على الخلق كافة ، فيحتاجون إليه في معرفة مواضع النجوم وتأثيرات نظر عداوتهم : لأنهم ربطوا نقش الشئ هذا المصنع الكوني بالفساد في العالم العلوى (أى عالم النجوم) فكل شئ يحدث هنا بفعل القدرة والسنة الكونية يتولد من الأجرام الفلكية ، فمثلما يعالج الطبيب الأشخاص في وقت الصحة والعلّة ، فالنجم يعالج الأحوال في وقت السعادة والنحوسة .

كما جعلوا فيها كثيراً من أنواع الرسائل ، ودواوين الأشعار ،
وتاريخ الدين والدول ، ومجاري أحوال الملك والملل ، والسفن
المشحونة بالفوائد والفرائد بفضل رجال الزمان الذين كان بحر همتهم
قد خرج من سواحل الآفاق لطلبها من أقطار وزوايا الشام والعراق .

ومن ثم نضدوا فيها ما يقرب من ألفى مجلد ، فأصبح ذكره
الكريم (أى الملك) مخلداً بهذه المجلدات ، لكنه أخذ فى ذمة همته
طلب الباقي .

وفى الوقت نفسه وضعوا عدة مصاحف معتبرة عقود الدر المشور ،
كتب كل واحد منهم بخط أجمل من جعد وطرة الحور اللائى يسجد
أعشار وأخماس الكواكب فى حواشى الأفلاك السبعة تبركاً بمشاهدة
جمالهن ، وكذلك أجمل من التاج المرصع الذى يوضع على مفرق
العروس ، ووضعوا تلك العلائق والنفائس فى حلية وزينة .

وعندما حدث هذا على أحسن نظام وأيمن حال ، ووصلت
شجرة العمل الطيبة فى هذه البقعة المباركة إلى مقام إدراك الثمار
خصص (أى الملك) عشرة نساخ لمهمة النسخ ، ومنحهم أسباب الراحة
والتفرغ حتى يلازموا هذا الموضع الشريف على مرور الأيام ، ويأخذوا
النسخ التى تكون محل نظرهم وعملهم من كل صوب ، ومن ثم
يوصلون مآثره ومكارمه إلى سمع الأكابر والأصاغر .

وكن حديثاً حسناً ذكره **فإنما الدهر أحاديث**

وفى هذا الحال تماماً جاء «مرريان نامه» أيضاً من طى السكتمان إلى
مظهر الوجود . ومن المعلوم أن الإعداد الزائد كان سبباً فى تأخيرها
وتعويقها حتى اقترنت خاتمته (أى خاتمة الإعداد) بفاتحة التوفيق الذى
تحقق بفضل الملك سيد العالم ، وصارا (أى خاتمة الإعداد وبداية

التوفيق) بعنان واحد .

وهذه بضاعة مزجاة في جامع تبريز قد أضيفت إلى ذخائر السعادة ،
فيغيث المستغيثين بـ «أوف لنا الكيل»^(١) من عام القحط كرمأ بصاع
الاصطناع ، ويكمل نصاب كل صاحب نصيب ، فيكون هذا صلة
القلب وابن الروح التي تخرج من سجن بين أحزان الخاطر مثلما كان مع
يوسف ، قيد عوائق الأيام ، ولذلك فالمشتاقون لوجهه والمنتظرون لجبل
عطائه جالسون وألف يد وألف قلم حاد ليقطعوا اليد والبرتقال معاً من
الانبهار بمشاهدة وجهه وعذاره ، ويكتبون قصة جماله وأحواله الماضية
فلو أصبحت ناصية إقباله موسومة بوسم القبول في حضرة الملك العالم
عزيز ذلك الوقت - أعظم الله - شأنه ، وصار ممكناً من تمكين «إنك
اليوم لدينا مكين»^(٢) فسوف ، يرعى شكر ذلك القبول والرفعة بسنة
«ورفع أبويه على العرش»^(٣) أعنى أن الملك سيد العالم لو يلحظ بعين
الرضا لطيفة واحدة في جميع هذه الأوراق ويحلها محل الرضا ، ويعفو
عن باقى العثرات فيها ، فإن الجواد قد يعثر ، (لأعطى كثيراً) لأن كرام
السلف الذين تركوا اسم الكرم على الملك أعطوا عشر خزائن مقابل
لطيفة واحدة من لطائف هذا العبد .

فأين محمود^(٤) رماننا ، إذ هناك في كل زاوية مائة عنصري^(٥)

« تم الكتاب بحمد الله »

(١) يوسف : ٨٨

(٢) يوسف : ٥٤

(٣) يوسف : ١٠٠

(٤) يقصد السلطان محمود الغزنوي الذي اشتهر بحبه الشعراء ومنحهم العطاء الواسع .

(٥) يقصد العنصري أحد شعراء السلطان محمود الغزنوي .

المشروع القومي للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادمو بانتيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقي جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كارييتكوفا	ت : أحمد الحضري
٥ - ثريا في غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولمان	ت : يوسف الأنطكي
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودي	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي
١١ - مختارات	فيسوفا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونستون وإيرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميت	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسي والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إنيوارد لويس سميت	ت : أشرف رفيق عفيقي
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عثمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوي
١٨ - الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يعنى طريف الخولي / بدوي عبد الفتاح
٢١ - خوذة وألف خوذة	صمد بهرنجي	ت : ماجدة المناني
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد علي الناصري
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سميد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارنر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثوى	مولانا جلال الدين الرومي	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشري الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة في التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادمو بانتيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامي	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الطوجي / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣ - التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية	أ. ج. هويكنز	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حمدة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٢٦ - نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٢٧ - واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٢٨ - نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٢٩ - الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ - قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ - ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ملج
٤٢ - عالم ماك	بنجامين بارير	ت : أحمد محمود
٤٣ - اللهب المزدوج	أوكتايفو پاث	ت : المهدي أخريف
٤٤ - بعد عدة أصياف	آلدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ - التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ - عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ - تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ - الإسلام فى البلقان	ه . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد يرادة وعثمانى الميلاوي ويوسف الأنطكى
٥١ - مسار الرواية الإسبانية أمريكية	داريو بيانوييا وخ . م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ - العلاج النفسى التدعىمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفي فطيم وعادل دمرداش
٥٣ - الدراما والتعليم	أ . ف . النجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ - المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحي
٥٥ - ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ - مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ - المحبرة	كارلوس مونيث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ - التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ - موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
٦٢ - لغة النص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ - تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ - فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ - مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالتين راسيوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ - العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج روبريجت	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

- ٧٢ - السياسى العجوز
٧٣ - نقد استجابة القارئ
٧٤ - صلاح الدين والمماليك فى مصر
٧٥ - فن التراجم والسير الذاتية
٧٦ - چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى
٧٧ - تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٢
٧٨ - العولة . النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية
٧٩ - شعرية التأليف
٨٠ - بوشكين عند «نافورة الدموع»
٨١ - الجماعات المتخيلة
٨٢ - مسرح ميجيل
٨٣ - مختارات
٨٤ - موسوعة الأدب والنقد
٨٥ - منصور الحلاج (مسرحية)
٨٦ - طول الليل
٨٧ - نون والقلم
٨٨ - الابتلاء بالتقرب
٨٩ - الطريق الثالث
٩٠ - وسم السيف (قصص)
٩١ - للسرحد والتجريب بين النظرية والتطبيق
٩٢ - أساليب ومضامين المسرح
الإسبانيأمرىكى المعاصر
٩٣ - محدثات العولة
٩٤ - الحب الأول والصحية
٩٥ - مختارات من المسرح الإسبانى
٩٦ - ثلاث زنبقات ووردة
٩٧ - هوية فرنسا (مج ١)
٩٨ - الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى
٩٩ - تاريخ السينما العالمية
١٠٠ - مساعاة العولة
١٠١ - النص الروائى (تقنيات ومناهج)
١٠٢ - السياسة والتسامح
١٠٣ - قبر ابن عربى يليه آباء
١٠٤ - أوربا ماهوجنى
١٠٥ - مدخل إلى النص الجامع
١٠٦ - الأدب الأندلسى
١٠٧ - سررة الدائى لى الشعر الأمريكى للناصر
- ت . س . إليوت
چين . ب . توميكنز
ل . ا . سيمينوفا
أندريه موروا
مجموعة من الكتاب
رينيه ويليك
رونالد روبرتسون
يوريس أوسبىنسكى
ألكسندر بوشكين
بندكت أندرسن
ميجيل دى أونامونو
غوتفريد بن
مجموعة من الكتاب
صلاح زكى أقطاى
جمال مير صادقى
جلال آل أحمد
جلال آل أحمد
أنتونى جينز
نخبة من كتاب أمريكا اللاتينية
بارير الاسوستكا
كارلوس ميجل
مايك فينرستون وسكوت لاش
صمويل بيكيت
أنطونيو بوهرى بايخو
قصص مختارة
فرنان برودل
نماذج ومقالات
ديفيد روينسون
بول هيرست وجراهام تومبسون
بيرنار فاليط
عبد الكريم الخطيبى
عبد الوهاب المؤيد
برتوات بريشت
جيرارچينيت
د. ماريا خيسوس روبييرامتى
نخبة
- ت : فزاد مجلى
ت : حسن ناظم وعلى حاكم
ت : حسن بيومى
ت : أحمد درويش
ت : عبد المقصود عبد الكريم
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : أحمد محمود ونورا أمين
ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
ت : مكارم الغمرى
ت : محمد طارق الشرقاوى
ت : محمود السيد على
ت : خالد المعالى
ت : عبد الحميد شبيحة
ت : عبد الرازق بركات
ت : أحمد فتحى يوسف شتا
ت : ماجدة العنانى
ت : إبراهيم الدسوقى شتا
ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
ت : محمد إبراهيم مبروك
ت : محمد هناء عبد الفتاح
ت : نادية جمال الدين
ت : عبد الوهاب علوب
ت : فوزية العشماوى
ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
ت : إدوار الخراط
ت : بشير السباعى
ت : أشرف الصباغ
ت : إبراهيم قنديل
ت : إبراهيم فتحى
ت : رشيد بنحدو
ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
ت : محمد بنيس
ت : عبد الغفار مكاوى
ت : عبد العزيز شبيب
ت : أشرف على دعور
ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ - حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ - النساء في العالم النامي	حسنه بيجوم	ت : منى قطان
١١١ - المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ - الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ - راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ - مسرحيات حماد كوني وسكان المستنق	ول شويثكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمىة رمضان
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ - المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلي أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ - النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : ليس النقاش
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنيل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلي أبو لغد	ت : نخبه من المترجمين
١٢١ - الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيتل الكسندر وفنادولينا	ت : أنور محمد إبراهيم
١٢٤ - الفجر الكاذب	جون جراى	ت : أحمد فؤاد بليغ
١٢٥ - التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديفى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ - فعل القراءة	فولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ - إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ - الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ - الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولوريس أسيس جاروت	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندرفرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ - ثقافة العولة	مايك فينرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ - الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ - تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ - من نقد س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ - فلاحو الباشا	كينيث كوني	ت : سحر توفيق
١٣٧ - منكرات ضابط في الصلة الفرنسية	جوزيف ماري مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ - عالم التلفزيون بين الجمال والعنف	إيثيلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ - باريس فيال	ريشارد فاچتر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ - حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ - قضايا التطهير في البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدوني	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ - موت أرتيميو كروث	كارلوس فويتش	ت : أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء	ميجيل دي ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبي
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة	تاتكريد دورست	ت : عبد الفقار مكارى
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكي أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منولى
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ - التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليقمان	ت : منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ - غرام القراعة	فيولين فاتويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال والآن وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ - خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ - الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ - آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ - من المسرح الإسباني	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ - تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسويى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت : مجموعة من المترجمين
١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور)	جان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ - حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ - العلاقات بين المثنيين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعيا هو ليفمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ - فى عالم طاغور	رابندراناث طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ - دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ - إبداعات أنبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ - الطريق	ميغيل دايبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ - وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ - حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ - معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ - التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ - أنطون تشيخوف	هنرى قروايا	ت : حصه إبراهيم منيف
١٧٨ - مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ - حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ - قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ - النقد الأدبى الأمريكى	فنتست . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ - العنف والنوبة	و . ب . بيتس	ت . ياسين طه حافظ
١٨٣ - جان كوكو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	ت : فتحي العشري
١٨٤ - القاهرة .. حالة لا تنام	هانز إيندورفر	ت : نسوقي سعيد
١٨٥ - أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ - الأرضة	بُنْدُجْ علوى	ت : علاء منصور
١٨٨ - موت الأدب	اللين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ - العمى والبصيرة	بول دى مان	ت : سعيد القاننى
١٩٠ - محاورات كوفوشبيوس	كونفوشبيوس	ت : محسن سيد فرجاني
١٩١ - الكلام وأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازي السيد
١٩٢ - سياحتنامه إبراهيم بيك	زين العابدين الراغى	ت : محمود سلامة علوى
١٩٣ - عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ - مذكرات من القذ الأجلو - أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ - شتاء ٨٤	إسماعيل نصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ - المهلة الأخيرة	فالتين راسبيوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ - الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ - الاتصال الجماهيرى	إدوين إمري وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لاندواى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد الطيف حماد
٢٠٠ - ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ - تاريخ النقد الأدبى الحديث ج٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ - الشعر والشاعرية	الطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم	زلمان شازار	ت : أحمد محمود هويدي
٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات	لويجى اوتو كافاللى - سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ - الهيدوية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ - ليل إفرىقى	رامون خوتاسنديز	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ - العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ - السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ - مثنويات حكيم سنائى	سنائى الفرنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ - فريتيان بوسومير	جوناثان كلر	ت : مصود حمدي عبد الفتى
٢١٢ - قصص الأمير مرزيان	مرزيان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

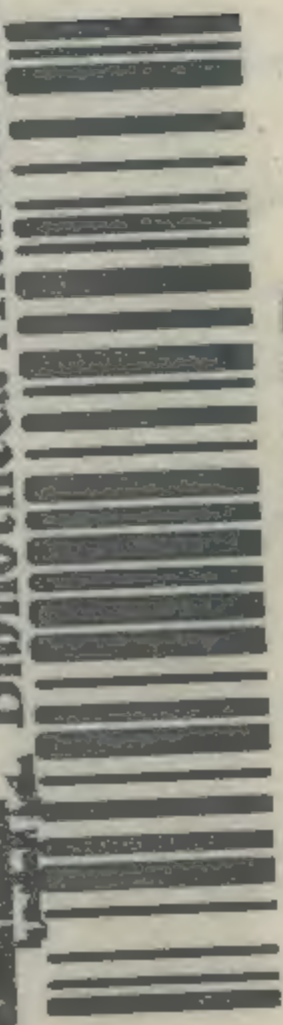
رقم الإيداع ١١٠٤٣ / ٢٠٠٠



مرزبان نامه

يشتمل هذا الكتاب على لطائف الحكمة وفوائد
الفتنة ، كى يتخذها الناس عامة دستوراً لمعاش دنياهم
ومعاد آخرهم ، ويرجع إليه الملوك ليستأنسوا به ،
ويستفيدوا من مطالعته ، ويستكملوا منه سياسة السلطنة
ويستخلصوا من زواجر وعظه ونصحه أخلاق المسايمة
وحكمة المعاملة وذكرى سيرة الأيام وانقلاب الدهور
والأعوام ، فألفه الأمير على السنة الوحوش والطيور
والإنس والجن والشیاطین ، وجاء الملطى فأنس من هذا
الكتاب عُرْباً من حلية العبارة وجواهر الألفاظ الحجازية
الزواهر ودُرر غرر الأمثال والأشعار العربية ، فكسا
مناكب عبارته بجلابيب مواهب خاطره ، لتزداد فى
مطالعته رغبة مستفیدی الأدب ومقتبسی ألفاظ العرب
من متعلمی صنعة الإنشاء والبلاغة والفصاحة ، وقد نهج
الوراوينی نفس المنهج ؛ فنقل الكتاب بدون تغییر اسمه ،
وتصرف فى عبارته وزينها بالأشعار والأمثال العربية
والفارسية حتى أصبح فى صورته الحاضرة من
سلامة العبارة وسهولة اللفظ وسلاسة البیان ، وب
به من تشبيهات واستعارات نموذجاً عالياً لا
الفارسی فى عصره قبل أن يدانيه فى ذلك كتاب

Bibliotheca Alexandrina



0447532

تصميم الغلاف : يوسف شاكر